المقتطف من عيون التفاسير

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حققه وخرج أحاديثه

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

المجلد الثاني

دار القلم

دمشق

الدار الشامية

بيروت

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



مدنية وهي مائة وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ﴾ العقود جمع عقد، وأصل العقد الربط محكماً، ثم أُطلق على العهد الموثق، واختلفوا في المراد بهذه العقود، فروي عن ابن عباس أن العقود هي ما أخذه الله تعالى على عباده من الإيمان به، وطاعته في الأمر، والنهي. وروي عن زيد بن أسلم العقودُ بين الناس كعقد النكاح، والبيع، ونحوهما، والأظهر أنه يعمُّ جميع ما ألزمه الله تعالى عباده، وما يعقدون فيما بينهم، مما يجب الوفاء به، أو يحسن ديناً، وبه قال الراغب لأنه أوفق بعموم اللفظ ﴿أُحِلَّتْ لَكُم

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الأزواج الثمانية الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وألحق بها الظباء وبقر الوحش مما يماثل الأنعام في الاجترار، وعدم الأنياب، والبهيمةُ: ما لا عقل له مطلقاً، سميت بهيمة لما في صوتها من الإبهام، وفي الآية رد على المجوس، فإنهم حرموا ذبح الحيوانات وأكلها، وقالوا: لأن ذبحها إيلامٌ وهو قبيح، ولا يرضى به الإله الرحيم الحكيم!! وهذا منهم سفه وجهل، فإن الله خلقها لمنافع البشر، وفي ذبحها بالطريق الشرعي راحة لها، كما قال ﷺ: «ولْيُحِدَّ أحدُكم شفرته ولْيرحْ ذبيحته»[1] ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من المحرمات، وهي الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وغيرها من المحرمات التي نهى الله عنها ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي غير مستحلين للصيد وأنتم محرمون، والحُرُم: جمع حرام وهو المحرم، ومحصَّل المعنى: أحلت لكم هذه الأشياء، غير مستحلين الاصطياد، أو أكل الصيد، في الإحرام بالحج أو العمرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إحلال الشعائر أن يتهاون بحرمتها، وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها، وتهويل الخطب في إحلالها ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي لا تحلوه بالقتال فيه، والمراد به: الأشهر الحُرُم والإفراد لإرادة الجنس ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ بأن يتعرض له بالغصب، أو بالمنع عن بلوغ محله، والهديُ، ما يُهدى إلى الكعبة من الأنعام، خصه بالذكر مع أنه داخل في الشعائر، تعظيماً له ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وهي: ما يقلَّد به الهدي، من نعلٍ، أو لحاءِ شجر، ليعلم به أنه هدي، وعطفها على الهدي مع دخولها فيه، لمزيد التوصية بها، وهي سنة إبراهيم عليه السلام، وأقرّها الإسلام قالت عائشة رضي الله عنها: «أهدى رسول الله ﷺ مرة إلى

---

(1) طرف من حديث شريف أخرجه مسلم رقم ١٩٥٥ والترمذي رقم ١٤٠٩، ولفظه الكامل «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح، ولْيُحِدَّ أحدكم شفرته، ولْيُرِح ذبيحتَه».

البيت غنماً فقلّدها»[1] ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي لا تُحلوا قوماً قاصدين زيارته، بأن تصدوهم عن ذلك بأي وجه كان، بقتال، أو بأذى ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي قاصدين زيارته، حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله، ويرضى عنهم، وتنكيرُ الفضل والرضوان للتفخيم والمراد بهم المسلمون خاصة ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ أي فلا جناح عليكم بالاصطياد، لزوال المانع، فالأمر للإباحة بعد الحَظْر ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنكم، أو لا يُكسبنّكم، وجَرَم من باب ضَرَب، اكتسب ذنباً، ويستعمل غالباً في كسب ما لا خير فيه ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي شدّة بغضكم لهم، والشنآن: هو شدّة البغض والعداوة ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ أي لأن صدوكم عام الحديبية ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عن زيارته، وطوافه للعمرة ﴿أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أي عليهم وإنما حذف تعويلاً على ظهوره وإيماء إلى أن المقصد الأصلي منع صدور الاعتداء من المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ عطف على ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ كأنه قيل: لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام، لأجل أن صُدِدتم عنه، وتعاونوا على العفو والإغضاء، واختار غير واحد أن المراد بالبر متابعة الأمر مطلقاً، وبالتقوى اجتناب الهوى، لتصير الآية من جوامع الكلم، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ليعُمَّ النهيُ كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء، وعن ابن عباس وأبي العالية أنهما فسرا الإثم بترك ما أمر الله تعالى به، وارتكاب ما نهاهم عنه، والعدوان بمجاوزة ما حدَّه سبحانه لعباده في دينهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع الأمور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهي، ثم علّل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقِّ الله، فيعاقبكم إن لم تتقوه.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/٤٧٣ ومسلم رقم ١٣٢١ في الحج، وهذه رواية مسلم، وانظر جامع الأصول ٣/٣٤١.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ شروع في بيان المحرمات التي أشير بقوله: ﴿إلا ما يُتلى عليكم﴾ ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي ماتت بالخنق مطلقاً، إما في وثاقها، أو بإدخال رأسها في موضع لا تقدر على التخلص منه، أو بغير ذلك، وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة وإذا ماتت أكلوها ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي قُتلت بالضرب كان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علو، أو في بئر فتموت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ أي التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي وما أكل منه السبع فمات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلاَّ ما أدركتم ذكاته، وفيه بقية حياة، وذكيتموه، والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها، سوى ما لا يقبل الذكاة من الميتة، والدم، والخنزير، وهذا قول ابن عباس والحسن، وقال الكلبي: مما أكل السبع خاصَّة، وقيل: هو استثناء من التحريم لا من المحرمات، فالمعنى: حُرِّم عليكم سائر ما ذُكر، لكن ما ذكيتم مما أحله الله تعالى بالتذكية فإنه حلال لكم، وروي ذلك عن مالك وجماعة من أهل المدينة، والتذكيةُ: قطعُ الحلقوم، والمريء بمحدَّد ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ جمع نصاب وهي أحجار

كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعدُّون ذلك قربة، وقيل: هي الأصنام وعلى بمعنى اللام أي وما ذُبح للأصنام، أو ما ذبح مسمًّى على الأصنام ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ﴾ روي عن مجاهد أنه فسَّر الأزلام بسهام العرب التي يتقامرون بها، أي وحُرم عليكم الاستقسام بالأقداح، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً، ضربوا ثلاثة أقداح مكتوبٌ على أحدهما أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وأبقوا الثالث غُفْلا، فإن خرج الآمر مضوا إلى حاجتهم، وإن خرج الناهي اجتنبوا، وإن خرج الغُفْل أعادوها ثانياً، وإذا كان لأحدهم أمر عظيم، جاء إلى «هُبَل» واستشفع منها، وأعطى مائة درهم لصاحب القداح حتى يحلها له ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ﴿فِسْقٌۗ﴾ تمرد وخروج عن الحدود، وضلال باعتقاد أنه طريق إلى العلم بالغيب، وعن ابن عباس أن ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى تناول جميع ما تقدَّم من المحرمات ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي الزمان الحاضر. وقيل يوم نزول الآية، وقد نزلت بعد عصر الجمعة، يوم عرفة، في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفات على العضباء، كما رواه الشيخان ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ اليأس انقطاع الرجاء، والمراد انقطاع رجائهم من إبطال دينكم، أو من أن يغلبوكم عليه، حيث أظهره الله على الدين كله، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم ﴿وَٱخْشَوْنِۚ﴾ أن أحلَّ بكم عقابي، إن خالفتم أمري، وارتكبتم معصيتي ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالتوقيف على أصول الشرائع، وقوانين الاجتهاد، وعن ابن عباس المعنى: أكملت لكم حدودي وفرائضي، وحلالي وحرامي، وهو الأظهر حيث لم ينزل بعد ذلك من الفرائض تحليل ولا تحريم، وأنه ﷺ لم يلبث بعدها سوى إحدى وثمانين يوماً، ومضى إلى الرفيق الأعلى ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وإتمام النعمة بفتح مكة، وهدم منار الجاهلية، وقيل: بإتمام الهداية والتوفيق ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ أي اخترته لكم من بين الأديان، وهو الدين المقبول عند الله لا غيره قال الله تعالى: ﴿ومن يَبْتَغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ متصل بذكر

المحرمات، وما بينهما اعتراضٌ، أي فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي مجاعة يخاف الموت أو مباديه، يُقال: خَمُصَ الشخص مثل قَرُبَ فهو خَميصٌ: إذا جاع ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل إليه، بأن يأكلها تلذذاً، أو مجاوزاً حدَّ الرخصة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه بأكله، لأنه عن ضرورة، والضروراتُ تُبيح المحظورات.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألك المؤمنون ما أُحِلَّ من المطاعم والمآكل، ومن الصيد والذبائح ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي ما لم تستخبثه الطباع السليمة، وما لم يدل نص أو قياس على حرمته، قال الله تعالى: ﴿ويحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي صيد ما علمتموه، والجوارح جمع جارحة، والهاء فيها للمبالغة، وفسرت بالكواسب من سباع البهائم والطير، سميت جوارح لأنها تجرح الصيد غالباً، كالكلب، والفهد، والبازي، والشاهين، ويشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ من التكليب وهو تعليم الجوارح، مشتق من الكَلب لأن التأديب يكون أكثر فيه، والمُكَلِّبُ: مؤدِّب الجوارح ومغريها ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام، أو مما علمكم أن تعلموه، من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وينزجر بزجره، ويمسك عليه الصيد، ولا يأكل منه ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم يأكل منه، أي فكلوا بعض ما أمسكنه لأجلكم، وقد قال النبي ﷺ لعديّ بن حاتم: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم، وذكرتَ اسمَ الله عليه، فكل»[1] ففي الحديث أن إرسال الصائد، وكون الكلب معلَّماً، وذكر اسم الله تعالى عليه وقت

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/ ٢٤٤ ولفظه عن عديّ بن حاتم قال: سألت الرسول ﷺ فقلت: إنَّا قومٌ نتَصيّد بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم وسمّيتَ، فأمسكَ وقَتَل فكُلْ، وإن أكل فلا تأكل..» الحديث، ورواه مسلم في الصيد رقم ١٩٢٩.

الإرسال شرط لقوله ﷺ: «فإن أكل منه فلا تأكل» وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء، وقال أبو حنيفة: إذا أكل الكلب من الصيد وهو غير معلَّم لا يؤكل صيده، وإذا أكل الصقر فكل، لأن الكلب تستطيع أن تضربه، والصقر لا تستطيع أن تضربه، وقال مالك: يؤكل وإن أكل الكلب منه، لحديث: «إذا أرسلتَ كلبك، وذكرتَ اسم الله عليه، فكل وإن أكل منه»[1] ﴿وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي سمُّوا عليه عند إرساله، والأمر للوجوب عند أبي حنيفة، وعند الشافعي للندب ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في محرَّماته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ فيحاسبكم بما جلَّ ودق.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني الآن ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ كُرِّر تأكيداً للمِنّة، وتوطئةً لما بعده ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعمُّ اليهود والنصارى، ولا يلحق بهم المجوس، لقوله ﷺ: «سنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم»[2] وهو وإن كان مرسلاً إلا أن إجماع أكثر المسلمين يؤكّده، واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودي والنصراني، إذا ذكر عليها، غير اسم الله، فقال ابن عمر: لا تحل، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل، وقال الحسن: إذا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصيد رقم ٢٨٥٠ وعلى هذه الرواية يجوز الأكل من الصيد وإن أكل منه الكلب وهو مذهب مالك رحمه الله.
(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

ذبح اليهودي والنصراني، فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا حرج عليكم أن تطعموهم، وتبيعوا منهم فإن قيل: ما الحكمة في هذه الجملة وهم كفار؟ أجيب بأن المعنى انظروا إلى ما أحل لكم في شريعتكم، فإن أطعموكم فكلوه، ولا تنظروا إلى ما كان محرماً عليهم، فإن لحوم الإبل ونحوها كانت محرمة عليهم، فالآية بيان لنا لا لهم، فحاصل المعنى: طعامهم حل لكم إذا كان من الطعام الذي أحللته لكم ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي الحرائر العفائف، وتخصيصهن بعثٌ على ما هو أولى، لا لنفي ما عداهن، فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق، وكذا نكاح غير العفائف منهن ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ذهب أكثر الفقهاء إلى أنه يحل التزوج بالذمية من اليهود والنصارى، وتمسكوا فيه بهذه الآية، وكان ابن عمر لا يرى ذلك، ويحتج بقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ﴾ ويؤيد هذا القول الآية الدالة على وجوب المباعدة عن الكفار، كقوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانةً من دونكم﴾ قال كثير من الفقهاء: إنما يحل نكاح الكتابية التي دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿من قبلكم﴾ .

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفَّاء بالنكاح ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي غير مجاهرين بالزنا، وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه سئل عن المسافحة، قال: هي التي إذا ألمح الرجل إليها بعينه اتَّبعتْه ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي ولا مسرين به، والخدنُ: الصديق، يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي ومن ينكر شرائع الإسلام التي من جملتها ما بُيِّن ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة، ويمتنع عن قبولها ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الصالح الذي عمله قبل ذلك ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ شروع في بيان الشرائع التي تتعلق بدينهم، بعد بيان ما يتعلق بدنياهم ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إليها كما في قوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إليها، وإن لم يكن محدثاً، لما أن الأمر للوجوب، والإجماع على خلافه، لما روي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صلَّى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، ومسح على خفَّيْه فقال عمر: «لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال ﷺ: عمداً صنعتُه يا عمر»[1] يعني بياناً للجواز، فظهر أن الآية مقيدة، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين، بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث في التيمم، الذي هو بدل، وما نقل عن النبي ﷺ والخلفاء أنهم كانوا يتوضَّؤُنَ لكل صلاة، فلا يدلُّ على أكثر من الندب ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي أسيلوا عليها الماء، وحدُّ الإسالة أن يتقاطر الماء ولو قطرة، ولا حاجة إلى الدلك، خلافاً لمالك ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين، ولذلك

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٧٧، باب جواز الصلوات كلّها بوضوء واحد.

قيل: إلى بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ وقال الشافعي: لا أعلم خلافاً في أن المرافق يجب غسلها ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ المراد إلصاقُ المسح بالرأس، فكأنه قيل ألصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب كما يقتضيه ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم، فإنه كقوله تعالى: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة أخذ ببيان رسول الله ﷺ حيث مسح ناصيته، وقدرها ربع الرأس، ومالك مسح الكل أخذاً بالاحتياط، والإمام أحمد في أظهر الرواية عنه، إلى أنه يجب استيعاب الرأس بالمسح ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ منصوبٌ عطفاً على ﴿وجوهكم﴾ ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة، والتحديد إذِ المسحُ لم يحدَّد وذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة إلى أن فرض الرجلين هو الغسل، وشذت الشيعة فقالوا: إن الواجب في الرجلين المسحُ وما يزعمه الشيعة من نسبة المسح إلى ابن عباس كذبٌ عليه(١) ﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ ﴾ اغسلوا أبدانكم، والمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم جنباً فطهِّروا أبدانكم كاملاً، والدليل على إرادة الغسل قوله تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ والمضمضة والاستنشاق هنا فرض، لأنه سبحانه أضاف التطهير لجملة البدن، فيدخل كل ما يمكن الإيصال إليه ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾

---

(١) روى البخاري ومسلم عن حمران مولى عثمان بن عفان أن عثمان رضي الله عنه دعا بإناءٍ، فأفرغ على كفّيه ثلاث مرات فغسلها، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات، ثم قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا». وعن خالد أن النبي ﷺ: «رأى رجلاً يصلّي، وفي قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره النبي ﷺ أن يعيد الوضوء والصلاة» أخرجه أبو داود، فدلت هذه الأحاديث على وجوب غسل الرجلين، بأمره ﷺ وفعله، فتنبَّه والله يرعاك.

أي اقصدوا التراب الطاهر، إذا لم تجدوا الماء، فامسحوا بذلك التراب وجوهكم وأيديكم، للحدث الأصغر والأكبر، نيابةً عن الوضوء والغسل ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بما فرض عليكم من الوضوء، والغسل، والتيمم ﴿ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ من ضيق في الامتثال ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ ﴾ بذلك ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾أي ليطهركم من الذنوب، فإن الوضوء تكفير للذنوب والخطايا، لما روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرجت كل خطيئة مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»[1] فالطهارة معنوية بمعنى تكفير الذنوب لا بمعنى إزالة النجاسة لأن الحدث ليس نجاسة بلا خلاف ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي ليتم بشرعية ما هو مطهرة لأبدانكم، نعمته عليكم في الدين، أوليتمَّ برُخَصِه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته بطاعتكم فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكّركم المنعم وترغّبكم في شكره ﴿ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين، حين بايعهم النبي ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وإضافة الميثاق إليه تعالى مع صدوره عنه ﷺ لكون المرجع إليه تعالى، كما نطق به قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[2] ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفياتها فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٣٤ ولفظه: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئةٍ نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئةٍ بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» فدلَّ الحديث على وجوب غسل الرجلين.

(٢) سورة الفتح، آية: ١٠.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ ﴾أي لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين، على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم، بارتكاب ما لا يحلُّ كمُثْلةٍ، وقذف، وقتل نساء وصبية، ونقض عهد، تشفياً مما في قلوبكم ﴿ ٱعۡدِلُواْ ﴾ أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم ﴿ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، وإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ أمر سبحانه بالتقوى اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً على أنها ملاك الأمر كله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فيجازيكم به، روي أنه لما فتحت مكة كلف الله المسلمين بهذه الآية، أن لا يكافئوا كفار مكة بما سلف منهم، ولذلك عفا الرسول ﷺ عنهم، وسمُّوا الطُّلقاء.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من الواجبات والمندوبات التي من جملتها العدالة والتقوى ﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ ﴾ لخطيئاتهم ﴿ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ أي ثواب عظيم لأعمالهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ القرآنية التي من جملتها ما تليت من النصوص الناطقة بالعدل والتقوى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي ملابسو النار المؤبدة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تذكير لنعمة الإنجاء من الأشرار، الذين أرادوا الفتك بالمؤمنين وتذكير لهم نعمة إيصال الخير، وهو نعمة الإسلام وما يتبعها من الميثاق ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ﴾ أي قصد قوم ﴿ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك، يقال: بَسط إليه يده، إذا بطش به، وبسط إليه لسانه، إذا شتمه ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ ﴾ أي منع أيديهم أن تمد إليكم عقيب همهم بذلك والآية إشارة إلى ما أخرجه مسلم من حديث جابر: «أن المشركين رأوا أن رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان، قاموا إلى صلاة الظهر معاً، فلما صلّوا ندموا ألاَّ كانوا أكبُّوا عليهم، وهمُّوا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة العصر، فرد الله تعالى كيدهم، بأن أنزل صلاة الخوف»[1] وقيل: إشارة إلى ما رواه جابر أن النبي ﷺ نـزل منزلاً، فتفرق الناس في العِضَاه - أي الشجر - يستظلون تحتها، فعلّق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسلَّه، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟ قال: الله

(١) أخرجه مسلم في باب صلاة الخوف ١/ ٥٧٤.

تعالى فسقط السيف من يده...»[1] الحديث، ولا يخفى أن سبب النزول يجوز تعدده ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوه في حقوق نعمته، ولا تُخِلُّوا بشكرها ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى يكفيهم في إيصال كل خير، ودفع كل شر.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كلام مستأنف، مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بني إسرائيل من الخيانة، ونقض الميثاق، وما أدى إليه من التبعات، مسوقٌ لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله، ومراعاة حق الميثاق، الذي واثقهم به، وتحذيرهم من نقضه ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ النقيب مشتق من النقب، وهو التفتيش ومنه قوله تعالى: ﴿فنقبوا في البلاد﴾ فسمِّي بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم، ومعناه العريفُ، وهو شاهد القوم وضمينهم، روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من أمر فرعون، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا، وكان يسكنها الجبابرة وأمر جل شأنه موسى أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم، بالوفاء فيما أُمروا به، فأخذ عليهم الميثاق، واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان، بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدِّثوا قومهم فرأوا أجراماً عظاماً وبأساً شديداً فهابوا فرجعوا وحدثوا قومهم وعند ذلك قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون﴾[2] ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة والنصرة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ أي بجميعهم، وتأخير الإيمان عن الصلاة والزكاة، لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما، مع ارتكابهم تكذيب بعض الرسل، ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، قال الراغب:

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٢٨/٧ ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٤١. وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٣٧٨/١١.
(٢) سورة المائدة، آية: ٢٤.

التعزيرُ: النصرة مع التعظيم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو ما كان عن طيب نفس، من مالٍ حلال ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي إذا فعلتم ما أمرتكم به، لأمحونَّ عنكم سيئاتكم ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عطف على ما قبله، داخلٌ معه في حكمه ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ أي برسلي، أو بشيءٍ ممَّا ذُكر من الأمور ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي بعد الشرط المؤكد، المعلَّق بالوعد العظيم، وليس المراد بالكفر إحداثه بعد الإيمان، بل ما يعمُّ الاستمرار عليه، كأنه قيل: فمن اتصف بالكفر بعد ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق الواضح، ضلالاً بيناً لا عذر معه أصلاً.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشيء آخر ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، عقوبة لهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ بحيث لا تتأثر من الآيات والنُّذُرِ، ومعنى جعل قلوبهم قاسية، أن نقض الميثاق كان مبعداً لهم عن رحمة الله، ومقسِّياً لقلوبهم، حتى لم تؤثر فيها حجة وموعظة، وليس كما يزعمه الجبرية، من أنه شيء عاقبهم الله به، ولم يكن متسبباً عن أعمالهم الاختيارية، وإنما هو ناشيء عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت

الاختيارية، وإنما هو ناشيء عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت سيفك، إذا تَرَكَ تعاهده حتى صَدِيء، وجعلتَ أظافرك سلاحَك، إذا لم يقصَّها ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئنافٌ لبيان سبب قساوة قلوبهم، وهو الاجتراء على تغيير كلام الله تعالى، والافتراء عليه، والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الصورة، وللدلالة على التجدد والاستمرار ﴿وَنَسُواْ حَظًّا﴾ أي تركوا نصيباً وافراً، واستعمال النسيان بهذا المعنى كثير ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ من التوراة، فقد حرَّفوها فسقطت أشياء منها عن حفظهم، وأضاعوا كتابهم عندما أحرق البابليُّون بلادهم ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي خيانة منهم، والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم، وعادة أسلافهم، لا تزال ترى ذلك منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ الذين آمنوا، منهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ أي إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزيةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر، وحثٌّ على الامتثال به، وتنبيهٌ على أنَّ العفو على الإطلاق من باب الإحسان.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ شروع في بيان قبائح النصارى إثر بيان قبائح اليهود أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم، كما أخذنا ممن قبلهمْ من الإيمان بالله والرسل، وإنما نَسَب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم، دون أن يقال: ومن النصارى إيذاناً بأنهم في قولهم: «نحن أنصار الله» بمعزل من الصدق، إنما هو تقوُّلٌ محضٌ منهم، وليسوا من نصرة الله في شيء، فإن ادعاءهم لنصرته تعالى، يستدعي ثباتهم على طاعته سبحانه ومراعاة ميثاقه ﴿فَنَسُواْ﴾ إثر أخذ الميثاق ﴿حَظًّا﴾ نصيباً وافراً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ من الإيمان بالله، والإيمان بالنبي ﷺ فنبذوه وراء ظهورهم، واتبعوا أهواءهم وتفرقوا ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ أي ألزمنا وألصقنا، والغِراء الذي يلصق به الشيء، أي فألقينا ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يتعادون إلى يوم القيامة، حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة، المؤدية إلى التفرق، فضمير بينهم لهم خاصة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وعيد شديد بالعقاب، كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت، أي يجازيهم بما عملوه.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ التفات إلى خطاب الفريقين إثر بيان أحوالهما، ودعوةٌ لهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ والقرآن الكريم، وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للمبالغة في التشنيع، فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الإضافة للتشريف، والإيذان بوجوب اتباعه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال من رسولنا، أي قد جاءكم رسولنا حال كونه مبيناً لكم على التدريج، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة والإنجيل، كبعثة الرسول ﷺ وآية الرجم، ونحوهما، مع استمرارهم على الكتم والإخفاء، أي يبين لكم كثيراً من الذي تخفونه على الاستمرار، من الكتاب الذي أنتم المتمسكون به ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يخبر به إذ لم تدع إليه داعية دينية صيانة لكم مما فيه

افتضاحكم ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ عظيم، وهو نور لأنوار النبي المختار ﷺ وإلى هذا ذهب قتادة، واختاره الزجاج، وقال الجبائي: عني بالنور القرآن، لكشفه طرق الهدى واليقين، واقتصر على ذلك الزمخشري فالعطف في قوله تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ لتنزيل المغايرة بالعنوان، منزلة المغايرة بالذات، والمبينُ من بَانَ اللازم بمعنى ظهر، فمعناه الظاهر الإعجاز.

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أي بما ذُكر ﴿ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ أي من كان يريد رضاء الله ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أي طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله تعالى وهي شريعته ﴿ وَيُخْرِجُهُم ﴾ الجمع باعتبار المعنى ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ إلى الإيمان والإسلام ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو أقرب الطرق المؤدي إلى الله سبحانه.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي لا غيره، وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحلُّ في بدن إنسان أو في روحه، وأنه قد حل في بدن عيسى، ولا يزالون يقولون بألوهية المسيح، وبالتثليث ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان قولهم ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ استفهام للإنكار، أي إن كان الأمر كما تزعمون، فمن يمنع عن قوة الله شيئاً ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾؟ ومن حق من يكون إلٰهاً أن لا يتعلق به قدرة غيره، فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها، فلما كان عجزه بيّناً، ظهر كونه بمعزل مما تقولون في حقه!! ومن الغريب أنهم قالوا إن شر نوع الإهلاك، وهو الصلب، نزل بالمسيح، ومع ذلك يعتقدون بألوهيته، والمراد بالإهلاك الإماتة مطلقاً، وإظهار المسيح في مقام الإضمار لبيان أن الكل تحت قهره وملكوته، وأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات، في كونه عرضة للهلاك ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي له تعالى وحده، ملكُ

جميع الموجودات، والتصرف المطلق فيها، إيجاداً وإعداماً لا لأحد سواه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة مسوقة لبيان بعض أحكام الألوهية، على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة في أمر المسيح، لولادته من غير أب، وخلق الطير، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه، أي يخلق ما يشاء فتارة من غير أصل، كخلق السماوات والأرض، ومن غير جنسه كخلق آدم، أو من أنثى وحدها، كخلق عيسى، وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر، كخلق الطير على يد عيسى معجزةً له، فيجب أن ينسب كله إلى الله تعالى، لا إلى من أجري ذلك على يده ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، روي عن ابن عباس أنه قال إن النبي ﷺ دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام، وخوّفهم بعقاب الله تعالى، فقالوا: كيف تخوّفنا به، ونحن أبناء الله وأحباؤه؟ وقالت النصارى مثل ذلك قبلهم، فأنزل الله هذه الآية ردّاً على الفريقين ﴿وقالتِ اليهودُ والنَّصارى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤُه﴾ وفيها تكذيبٌ لهم جميعاً، ومقصود الفريقين، أن لهم فضلاً عند الله تعالى، على سائر الخلق، فردَّ الله تعالى عليهم ذلك، وقال لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي فإن صح ما زعمتم، فلم يعذبكم بذنوبكم؟ فإن من كان

بهذا المنصب، لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة وقلتم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ مدة عبادتكم العجل، هل رأيتم والداً يعذِّب ولده؟ وهل تطيب نفس محبٍّ أن يعذّب حبيبه في النار؟ وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ﴾ عطف على مقدر أي ليس الأمر كذلك بل أنتم بشر ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي بشر كائن من جنس خلق الله تعالى، من غير مزية لكم عليهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين، وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذبه منهم، وهم الذين كفروا بالله وبرسله مثلكم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، لا ينتمي إليه سبحانه شيء منها، إلاّ بالعبودية تحت ملكوته، يتصرف فيهم كيف يشاء، فأنى لهم ادعاء ما زعموا؟! ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ في الآخرة خاصة لا إلى غيره، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ﴾ تكرير للخطاب بطريق الالتفات، واللطف في الدعوة ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الشرائع والأحكام، الدينية، وإنما حذف اعتماداً على الظهور، إذ من المعلوم أن ما بيّنه الرسول هو الشرائع والأحكام، والجملة في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع زمان الوحي، والفترةُ ما بين الرسولين وهي انقطاع بعثهم، واختلف في مدتها بين نبينا ﷺ وعيسى عليه السلام، فقال قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الكلبي: خمسمائة وأربعون ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي لئلا تقولوا معتذرين من تفريطكم، في أحكام الدين يوم القيامة ﴿مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وقد انطمست آثار الشريعة السابقة، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ تفصح عن محذوف، والتقديرُ: لا تعتذروا فقد جاءكم وتنوين «بشير» و«نذير» للتفخيم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على إرسال الرسل تترى، وعلى الإرسال بعد الفترة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ
فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟
خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟
مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ
يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ
غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن
نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا
قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية نقضهم للميثاق، ليُعلم أن مكابرة الحق، ومعاندة الرسول، خُلُقٌ مستمر من أخلاقهم، أي اذكر أيها الرسول للناس حين قال موسى لقومه، بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون، ناصحاً لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ ﴾ أي من أقربائكم، من أولاد يعقوب، والمراد بهم موسى، وهـٰرون، ويوسف، وغيرهم ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ بعد أن كانوا عبيداً للقبط، فهي نعمة جليلة، نعمة الحرية والاستقلال، حتى صاروا كلهم كأنهم ملوك في السعة والترف ﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، ونحوها والمراد بالعالمين عَالَمُو زمانهم.

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ كرر النداء، اهتماماً بشأن الأمر،

ومبالغة في حثهم على الامتثال، والأرض المقدسة هي كما روي عن ابن عباس وابن زيد: «بيت المقدس» وقال الزجاج: دمشق وفلسطين ومعنى المقدسة: المطهرة أو المباركة، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء، ومساكن المؤمنين ﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي أنها تكون مسكناً لكم، إن آمنتم وأطعتم، لقوله تعالى بعدما عصوه ﴿قال فإنها محرمة عليهم﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴾ الأدبار: جمع دُبُر أي: لا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، فترجعوا خاسرين، وهذا يدل على اشتراط الكَتْب ﴿التي كتب الله لكم﴾ بالمجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة.

﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ متغلّبين، لا تتأتّى مقاومتُهم، والجبَّارُ: فعَّال، هو الذي يجبر الناس على ما يريد، والجبار من أسماء الله الحسنى، فيه معنى العظمة والقدرة، مدحٌ للخالق، وذمٌّ للمخلوق، وما روي في بعض التفاسير من وصف هؤلاء الجبارين فأكثره من الخرافات الإسرائيلية، بثها اليهود منها ما حكي عن بعضهم أنه قال: استظلَّ سبعون رجلاً من قوم موسى في قحف[1] رجل من العمالقة، وحكي عن ابن أسلم قال: بلغني أنه رؤيت ضبع وأولادها، رابضة في فِجَاج عين رجل منهم، وأخبار عوج بن عُنُق، وغير ذلك، ولمَّا قرب موسى حدود الأرض المقدسة، وأمرهم بدخولها أبوا واعتذروا بضعفهم، وقوة أهل تلك البلاد، وقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ من غير جهد من قبلنا، فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها ﴿ فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ بسبب من الأسباب، التي لا تعلق لنا بها ﴿ فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ حينئذ تلك البلاد، وكأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوة الخوارق، كما كان كل ما يحتاجون إليه، وجهلوا السنة الإلٰهية.

---

(١) القِحْفُ: ما انفلق من جمجمة الإنسان، أي جلس سبعون في طرف من جمجمة أحدهم، وكلُّ هذه خرافات وأساطير، وإنما وصفوا بالجبروت لقوتهم وشدَّتهم وبسطة أجسامهم.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ﴾ روي عن ابن عباس أنهما: يوشع بن نون، وكالب ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله، ويتقونه في مخالفة أمره، وفيه تعريض بأن بعضهم لا يخافونه تعالى، بل يخافون العدوَّ ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان، والتثبيت، وربط الجأش، أي قالا مخاطبين لهم ومشجعين ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي باب بلدهم، أي باغتوهم، وضاغطوهم في المضيق، وامنعوهم من الاستعداد، لئلا يجدوا في الحرب مجالاً ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ أي باب بلدهم وهم فيه ﴿فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ من غير حاجة إلى القتال، فإنا قد رأيناهم، قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسامهم عظيمة، فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق، فإنهم لا يقدرون على الكرِّ والفر. وقيل: إنما علما ذلك، من سننه تعالى في نصرة رسله ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى خاصة ﴿ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ به تعالى ومصدقين لوعده، فإن ذلك يوجب التوكل.

﴿قَالُواْ ﴾ غير مبالين بهما مخاطبين لموسى عليه السلام إظهاراً لإصرارهم على القول الأول، وتصريحاً بمخالفتهم له ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ﴾ أرض الجبابرة وهم في بلدهم ﴿أَبَدًا﴾ دهراً طويلاً ﴿ مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ أي في تلك الأرض ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ أي فقاتلاهم، وإنما قالوا ذلك استهزاءً برسولهم، وعدم مبالاة بأمره. ﴿ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ وأرادوا بذلك عدم التقدم، ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرجلين، كأنهم لم يعبأُوا بقتالهم.

﴿ قَالَ﴾ موسى لمّا رأى منهم ما رأى، على طريقة البثِّ والحزن ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ أي لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه، فليس قوله عليه السلام ردّاً لما أمر الله تعالى به، بل الشكوى إلى الله تعالى، مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا﴾ يريد نفسه وأخاه ﴿ وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين

عن طاعتك، المصرِّين على عصيانك، بأن تحكم لنا ما نستحقه، وعليهم ما يستحقونه كما هو المروي عن ابن عباس والضحاك.

﴿قَالَ﴾ الله عزَّ وجل ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يدخلونها ولا يملكونها، لأن دخولها مشروط بالإيمان والطاعة، وحيث نكثوا على أدبارهم حرموا، وانقلبوا خاسرين ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فالمراد بتحريمها عليهم، أنه لا يدخلها أحدٌ منهم في هذه المدة، ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسيرون فيها متحيرين، يقال: تَاهَ يتيه تيهاً وتيهاناً ذهب متحيراً، وكان ذلك من خوارق العادات، إذ التحير في مثل تلك المسافة هذه المدة الطويلة، مما تحيله العادة، وأكثر المفسرين على أن موسى وهارون كانا معهم في التيه، لكنْ لم ينلهما من المشقة ما نالهم، وكان ذلك لهما روحاً وسلامة كالنار لإبراهيم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فلا تحزن عليهم، لأنهم أحقاء بذلك لفسقهم، وهذه القصة مفصلة في التوراة، وهي ناعيةٌ عليهم عصيانهم وطغيانهم.

﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ ضمير عليهم يعود على بني إسرائيل كما هو الظاهر وقيل: هم هذه الأمة أي اتل يا رسول الله على قومك ﴿نَبَأَ

﴿ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ هابيل عليه الرحمة، وقابيل عليه ما يستحقه، وكانا بإجماع المفسرين ابني آدم عليه السلام لصلبه، وكان من قصتهما ما أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود أنه كان لا يولد لآدم إلاّ ولد وجارية، وكان يزوج غلام هذا البطن جارية بطن الآخر، وقد جعل افتراق البطون، بمنزلة افتراق النسب للضرورة، ولد له ابنان: هابيل وقابيل، وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه، فأمره أبوه فأبى، وكانت توأمةُ قابيل أجمل، فحسده عليها أخوه وسخط، وأراد أن يحظى هو بها، فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً، فمن أيكما قُبِلَ تزوَّجها ففعلا، فنزلت نارٌ على قربان هابيل فأكلته، ولم تتعرض لقربان قابيل، فازداد قابيل حسداً وسخطاً، وفعل ما قصَّه علينا القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي تلاوة ملتبسةً بالصدق والصحة ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ إذ قرَّب كلٌّ واحد منهما قربانه ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ قربانه وهو قابيل، لأنه سخط حكم الله ﴿قَالَ﴾ أي قابيل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال هابيل: ولِمَ تقتلني؟ قال قابيل: لأن الله قبل قربانك، وتريد أن تنكح أختي ﴿قَالَ﴾ هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾ أي القربان ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في ذلك بإخلاص النية فيه لله تعالى، ومراده من هذا الجواب أن يقول: إنك إنما أُتيت من قِبَل نفسك، لا من قبلي، فلمَ تقتلني؟ ولم يصرح ذلك حذراً من تهييج غضبه، وحملاً له على التقوى، والإقلاع عما نواه، ثم صرح بتقواه على وجه يستدعي سكون غيظه، لو كان له عقل حيث قال:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي والله لئن باشرت قتلي حسبما أوعدتني به، وتحقَّق ذلك منك، ما أنا فاعل مثله لك في وقت من الأوقات، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل كان هابيل أقوى منه، ولكن تحرَّج عن قتله له، خوفاً من الله تعالى، وعن ابن عباس أن المعنى: لئن بسطتَ إليَّ يدك على سبيل الظلم والابتداء، ما أنا بباسط إليك يدي على وجه الظلم والابتداء، وفي قوله

تعالى: ﴿إني أخاف﴾ الخ. تعليل للامتناع، وإرشاد قابل إلى خشية الله، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى:

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ تعليل ثانٍ للامتناع عن المعارضة والمعنى: إني أريد بامتناعي عن التعرض لك، أن ترجع بإثم قتلي وبإثمك الذي لأجله لم يتقبل قربانك ﴿ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ ﴾ أي تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار، لأنك حينئذٍ تكون ظالماً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا من كلام هابيل على ما هو الظاهر أي ودخول النار جزاء كل ظالمٍ فاجر، عاصٍ لأوامر الله، وهو عقاب من لم يرض بحكم الله تعالى.

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ أي سهّلتْ وزيّنتْ له نفسه الشريرة قتل أخيه الشقيق، فقتله فخسر وشقي، والتصريحُ بأخوّته، لكمال تقبيح ما سوّلته نفسه ﴿ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ خسر الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد أسخط والديه، وبقي بلا أخ، وأما آخرته فأسخط ربه وصار مستحقاً للعقاب، أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلاَّ كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل»[1] وروي أنه لمَّا قتله تركه بالعراء، لا يدري ما يصنع به، حتى رأى طيراً يقتل طيراً، ثم يحفر حفرةً ويضعه فيها، ففعل بأخيه مثل ذلك.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء فدفن شيئاً، فتعلَّم منه والمتبادر أن الغراب أطال البحث، لأن المضارع يفيد الاستمرار، فلما رأى قابيل فعل الغراب زالت حيرته ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾ كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم، والمعنى: يا ويلتي احضُري فهذا أوانك، والويل الهَلكةُ تستعمل

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ١٢/١٦٩ ومسلم في القسامة رقم ١٦٧٧ وفي رواية البخاري: «ليس من نفس تقتل ظلماً. .» الحديث.

عند وقوع الداهية ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي عن أن أكون ﴿مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ تعجب من عدم اهتدائه، إلى ما اهتدى إليه الغراب ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله، لما كابد فيه من التحيُّر في أمره وحمله، وعدم الظفر بما فعله من أجله، والعبْرة في الآية، أن الحسد كان منار أول جناية في البشر، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم، وينغّص عليهم عيشهم.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ ذلك إشارة إلى عظم شأن القتل، وإفراط قبحه ﴿كَتَبْنَا﴾ أي قضينا ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خصهم بالذكر لما أن الحسد كان منشأ لذلك الفساد، وهو غالب عليهم، ولأن التوراة أول كتاب نزل فيه تعظيم القتل، ومع ذلك كانوا أشد طغياناً فيه، حتى قتلوا الأنبياء عليهم السلام ﴿أَنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فساد فيها يوجب هدر الدم، كالشرك، والارتداد، وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ومناط التشبيه: اشتراطُ الفعلين في

هتك حرمة الدماء، وتجرُّوء الناس على القتل، واستجلاب غضب الله وعذابه ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي تسبَّب لبقاء نفس واحدة، إما بنهي قاتلها عن قتلها، أو استنقاذها من سائر أسباب الهَلكة بوجه من الوجوه، كالحرق، والغرق، والهدم ونحوها ﴿ فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وجه التشبيه ظاهر، والمقصود تهويل أمر القتل، وتفخيم شأن الإحياء، بتصوير كل منهما بصورة لائقة به، في إيجاب الرهبة والرغبة، فالآية الكريمة تعلمنا ما يجب من وحدة البشر، ومن وظيفة كل منها على حياة الجميع ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ إنما لم يقل ولقد أرسلنا، للتصريح بوصول الرسالة إليهم، أي وبالله لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة، بتقرير ما كتبنا عليهم، تأكيداً بوجوب مراعاتها ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد ما ذُكر من التوضيح، وتأكيد الأمر ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وذكر الأرض للإيذان بأن إسرافهم انتشر شره في الأرض حتى عمَّ وطمَّ.

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جعل محاربتهم محاربتهما تعظيماً لشأن المسلمين، والمراد به ههنا قطع الطريق، والمكابرة باللصوصية ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ أي يسعون مفسدين، نزلت في قُطَّاع الطريق وهذا قول أكثر الفقهاء، والفساد ضد الصلاح، فإزالة الأمن عن الأنفس، والأموال، ومعارضة تنفيذ الشريعة ونحوها، كلٌّ ذلك إفسادٌ في الأرض، ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب، شُرعت لكل مرتبة عقوبةٌ معينة فقال سبحانه ﴿ أَن يُقَتَّلُوٓاْ ﴾ أي حداً إن أفردوا القتل، ولو عفا الأولياء لا يلتفت إليه، لأنه حق الشرع ﴿ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ ﴾ مع القتل إذا جمعوا بين القتل والأخذ للمال، والصلبُ قبل القتل، بأن يصلبوا أحياء، والأولى أن يكون على الطريق في ممر الناس، ليكون ذلك زجراً للغير ﴿ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، إن اقتصروا على أخذ المال، وفي ظاهر الرواية أن الإمام مخيَّر إن شاء اكتفى بالصلب، وإن شاء قطع أيديهم

وأرجلهم من خلاف ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة، والسعي للفساد، والمراد من النفي عندنا هو الحبس، فإنه نفي عن وجه الأرض، وعند الشافعي من بلدٍ إلى بلد آخر، والعرب تستعمل النفي للسجن، قال بعض المسجونين:

خَرَجْنَا من الدُّنْيَا ونحنُ من أهْلِهَا فلَسْنَا من الأَمْواتِ فيها ولا الأَحْيَا
إذا جَاءَنَا السَجَّانُ يوماً لِحَاجَةٍ عَجِبْنا وقلنَا جَاء هَذَا من الدُّنْيَا

قال مكحول: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حبس من هذه الأمة، وقال أحبِسُه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلد آخر فيؤذيهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما فُصِّل من الأحكام ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم، واقتصر في الدنيا على الخزي، مع أن لهم عذاباً أيضاً، وفي الآخرة على العذاب مع أن لهم فيها خزياً أيضاً، لأن الخزي في الدنيا أعظم من عذابها، والعذاب في الآخرة أشد من خزيها، والآية أقوى دليل لمن يقول: إن الحدود لا تسقط العقوبة، والقائلون بالإسقاط يستدلون بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من ارتكب شيئاً فعوقب به كان كفارةً له»[1]، فإنه يقتضي سقوط الإثم عنه، وأن لا يعاقب في الآخرة، وهو مشكل مع هذه الآية، وأجاب النووي بأن الحدَّ يكفر به عنه حق الله تعالى، وأما حقوق العباد فلا، وههنا حقان، حقُّ الله، وحق العبد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٦٣٨ ولفظُه: عن عُبادة بن الصامت قال: «كنا عند النبي ﷺ فقال: أتبايعوني على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا؟ وقرأ الآية: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات﴾ فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له..» الحديث.

وأما ما هو من حقوق الأولياء من القصاص ونحوه، فإليهم ذلك، إن شاؤوا عفوْا وإن أحبوا استوفوا، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب والآية في قطاع المسلمين، لأن توبة المشرك، تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ لما ذكر الله تعالى عظم القتل والفساد، أمر المؤمنين بأن يتقوه في كل ما يأتون وما يذرون، ومن جملتها القتل والفساد ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ أي اطلبوا لأنفسكم ثوابه والزلفى منه ﴿ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أي ما تتوسلون به من فعل الطاعات، وترك المعاصيّ والوسيلةُ ما يُتوسل ويتقرب به إلى الغير، توسَّل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل، وفي القرآن الكريم اسمٌ لكل ما يُتوصل به إلى مرضاة الله تعالى، من علمٍ، وعمل، وفي الحديث: «اللهمَّ آت محمداً الوسيلة» هي منزلة في الجنة، بيَّن تعالى بهذه الآية للمؤمنين، بأن مجامع التكليف محصورة في نوعين: أحدهما ترك المنهيات وإليه أشار بقوله: ﴿اتقوا الله﴾ وثانيهما فعل المأمورات وإليه أشار بقوله: ﴿وَابتغُوا إلَيهِ الوسِيلَةَ﴾ وهي القربة لا غير،

وحيث كان في كل منهما كلفة ومشقة، عقَّب الأمر بهما بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه البارزة والباطنة بما أمكنكم في طاعته تعالى، وبكف أنفسهم عن الأهواء الفاسدة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بنيل النعيم المؤبد، والخلاص من كل نكد، وتقديمُ الوسيلة قبل طلب الحاجة، أقرب إلى الإجابة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالأوامر السابقة ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم﴾ أي كل واحد منهم ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعٗا﴾ توكيد للموصول ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وفائدة «معه» التصريح بفرض كونهما لهم بطريق المعية، لا بطريق التعاقب ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بالافتداء أي لو أن لهم كل ذلك، لدفع العذاب الواقع يومئذ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾ ذلك ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تصريح بالمقصود منه، وبيان لهوله ولشدته.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الإرادة بمعنى التمني أي يتمنون ذلك ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ فإيثار الجملة الاسمية لبيان سوء حالهم، باستمرار عدم خروجهم منها ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ أي دائم، تصريح بعدم تناهي مدته، بعد بيان شدته، وهذه الآية كما ترى في حق الكفار، فلا تنافي القول بالشفاعة لعصاة المؤمنين في الخروج، كما لا يخفى على من له أدنى إيمان، روي عن جابر رضي الله عنه قال: «يخرج قومٌ من النار بالشفاعة»[1] قيل لجابر: يقول الله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ قال اتلُ أول الآية ﴿إن الذين كفروا﴾ فهي في الكفار لا في المؤمنين.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ شروع في بيان حكم السرقة الصغرى، بعد بيان أحكام السرقة الكبرى بقطع الطريق، والسَّرقةُ: أخذُ مال الغير خُفية، وصرَّح بالسارقة مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في

(١) طرف من حديث طويل رواه الشيخان في باب الشفاعة للمؤمنين.

الأحكام الواردة، لمزيد الاعتناء بالبيان، والمبالغة في الزجر ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ أي أيمانهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود «فاقطعوا أيمانهم»، واليد اسم لتمام الجارحة، والجمهورُ على أن المقطع هو الرسغ، فقد أخرج البغوي أنه ﷺ أتي بسارقٍ، فأمر بقطع يمينه منه، والمخاطب بقوله سبحانه: ﴿فاقطعوا﴾ ولاة الأمور كالسلطان، ومن أذن له في إقامة الحدود، وإنما توجب القطع إذا كان الأخذ من حِرْزٍ، والمأخوذُ يساوي عشرة دراهيم فما فوقها، وقُطعت اليدُ لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنا تفادياً عن قطع النسل، روى الشيخان عن عائشة قالت: قال ﷺ: «إنما هلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإذا سرق فيهم الشريفُ تركوه، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها»(1) ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي بسبب كسبهما من السرقة ﴿نَكَٰلٗا﴾ أي عقوبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ تعالى عبرة لغيرهما ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾(2) غالب على أمره، يمضيه كيف يشاء، من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿حَكِيمٞ﴾ في شرائعه وفرائضه، لا يحكم إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿فَمَن تَابَ﴾ أي من السُرَّاق إلى الله تعالى ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ الذي هو سرقته، والتصريح به لبيان عظم نعمته تعالى، بتذكير عظم جنايته ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أمره بأن يرد مال السرقة، ويعزم على ترك المعاودة، ويستغفر ويتوب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة، وأما

---

1) الحديث رواه البخاري في الحدود ١٢/ ٧٦ ومسلم رقم ١٦٨٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٣/ ٥٦١.

2) حكاية لطيفة قال الأصمعي: كنت أقرأ القرآن، وبجانبي أعرابي جاء من البادية يسمع ما أقرأ، فقرأت هذه الآية: ﴿والسارق والسارقة...﴾ فقلتُ: ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً، فقال الأعرابي: كلامُ من هذا؟ فقلت: كلام الله عزَّ وجلَّ، قال: ليس هذا كلام الله، أعدْ ما قرأت، فأعدتها فتنبهت فقلت في ختامها: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: الآن أصبتَ، هذا كلام الله، فقلت له: كيف عرفت؟ فقال الأعرابي: عزَّ، فحكَمَ، فقطع، ولو غفر ورحم ما قَطع!!.

القطع فلا تسقطه التوبة، لأن فيه حق المسروق منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ فيهما، وفيه إشارة إلى أن قبول التوبة فضلٌ من الله تعالى.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد صالح للخطاب، والمراد به الاستشهاد على قدرته تعالى على التصرف الكلي من التعذيب والمغفرة حسبما تقتضيه مشيئته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ قدم التعذيب لأن التعذيب للمصرِّ على السرقة، والمغفرة للتائب منها، فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ خوطب ﷺ بعنوان الرسالة للتشريف[1]، والإشعار بما يوجب عدم الحزن ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ

---

(١) وفي هذا التشريف، تعليمٌ من الله وتأديب لعباده المؤمنين، أن يعظّموا رسول الله ﷺ عند=

﴿فِي ٱلْكُفْرِ﴾ إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر، لا يبرحونه، أي لا تحزن ولا تبال تهافتهم في الكفر بسرعة، والغرض منه مجرد التسلية على أبلغ وجه ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بيان للمسارعين في الكفر، والباء متعلقة بقالوا ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي هم سماعون، والضمير للفريقين أي مبالغون في سماع الكذب، وفي قبول ما يفتريه أحبارهم ورؤساؤهم من الكذب على الله سبحانه، وتحريف كتابه، فإن كونهم سماعين للكذب، مما يقتضي عدم المبالاة بهم، فهم عيون وجواسيس بين المسلمين، كالذين يفترون الكذب على الإسلام في هذا الزمان، ومعنى ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يسمعون منك ليكذبوا عليك، وليحرّفوا ما سمعوا منك، بالزيادة والنقصان والتبديل ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي سماعون كلامه ﷺ ليكذبوا عليه، لأجل قوم آخرين، والمراد أنهم عيون عليه ﷺ لأولئك القوم ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي لم يقصدوك بالإتيان، بل قصدوا السماع للكذب فيه ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ وصفوا باستمرارهم على التحريف، بياناً لإفراطهم في العتو، والافتراء على الله تعالى، أي يميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقولون لأتباعهم السماعين لهم ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ من جهة الرسول ﷺ ﴿هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ واعملوا بموجبه فإنه الحق ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أوتيم غيره ﴿فَٱحْذَرُواْ﴾ قبوله، روي عن ابن عمر أنه قال: «إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ،

= مخاطبته والتحدث معه، فيخاطبونه بلفظ فيه إجلالٌ وتوقير، كقولهم: يا رسول الله، يا نبيّ الله، وألاّ ينادوه باسمه العلم يا محمد، كما كان بعض الأعراب الجفاة يقفون عند باب منزله فيقولون: يا محمد اخرجْ إلينا، فنزل القرآن الكريم ناعياً عليهم هذا الصنيع: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وجاء النهي لجميع الناس بالتحذير من ذلك: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ وحقاً إنه لتوجيه كريم لتعليمهم الأدب مع الرسول ﷺ.

فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأنهما؟ فقالوا نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنَّ فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما النبي ﷺ فرجما»[1] ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ أي ضلالته أو فضيحته ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من رجس الكفر والضلالة، لانهماكهم فيها، وإصرارهم عليها بسبب اختيارهم، وقبح صنيعهم ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم، بظهور نفاقهم، وازدياد غمهم بمزيد انتشار الإسلام، وقوة شوكته، وأما خزي اليهود فالذلة والجزية وظهور كذبهم ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ مع الخزي الدنيوي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادر قدره، وهو الخلود في النار في الجملتين للمنافقين واليهود جميعاً، وتكريره لزيادة التقرير.

﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ذكَره تأكيداً لما قبله وتمهيداً لما بعده ﴿أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ السحتُ: بسكون الحاء وضمها الحرام، نزلت في حكام اليهود، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل لحم نبت من السُّحت، فالنَّارُ أولى به»[2] وأخرج عبد ابن حميد عن علي كرَّم الله وجهه، أنه سُئل عن السحت، فقال الرشاء ـ أي

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان، البخاري ١٢/١٤٨ في المحاربين، وفي تفسير سورة آل عمران ٨/ ٢٢٤ ومسلم في الحدود رقم ١٦٩ والترمذي رقم ١٤٣٦ في الحدود أيضاً.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٢١ ورواه الترمذي رقم ٦١٤ بلفظ «يا كعب بن عُجرة، إنه لا يربو لحم نَبَتَ من سُحتٍ إلا كانت النار أولى به».

الرشوة ـ فقيل له في الحكم؟ قال: «ذاك الكفر»[1] ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ أي فإن جاؤوك متحاكمين إليك، فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وهذا تخيير له ﷺ فقيل: هذا في أمر خاص، هو ما ذكر من الزنا، وقيل هو عام في جميع الحكومات، ثم اختلفوا فمن قائل إنه ثابت، وهو قول عطاء وقتادة، وقائل إنه منسوخ، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة، وأهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع، وسائر العقود، إلاَّ في بيع الخمر والخنزير، فإنهم يقرون عليه، ويمنعون من الزنا فإنهم نهوا عنه، ولا يرجمون، وتمام التفصيل في الفروع ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تقديم حال الإعراض للمسارعة إلى بيان أنه لا ضرر فيه، حيث كان مظنة الضرر، لما أنهم إذا أعرض عنهم شقَّ ذلك عليهم، فتشتدُّ عداوتهم، فأمَّن الله تعالى رسوله بقوله: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ﴾ بسبب ذلك ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر، فإن الله يحفظك من ضررهم ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل الذي أُمرت به، وهو ما تضمنه القرآن، واشتملت عليه شريعة الإسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين فيحفظهم من كل مكروه، ويعظم شأنهم، وفي الحديث الشريف: «إن المقسطين ـ أي العادلين ـ عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم ـ أي فيما تقلدوا من خلافة، وإمارة أو قضاء ـ وأهليهم وما وَلُوا»[2] بالتخفيف من الولاية على يتيم، أو صدقة أو وقف، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، والبيهقي في سننه، وابن المنذر، وأخرج البخاري في كتاب الإجارة في ترجمة باب ٨/٤٥٣ قال ابن سيرين: كان يُقال للسحت: الرشوة في الحكم.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة رقم ١٨٢٧ باب فضيلة الإمام العادل، والنسائي في آداب القضاة ٨/٢٢١ وأحمد في المسند ٢/١٦٠.

﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ﴾ تعجيب من تحكيمهم من لا يؤمنون به، والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق، وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم، وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم، والآية تقريع لليهود، بإظهار جهلهم وذلتهم ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ ﴾ عطف على يحكمونك، داخل في حكم التعجيب ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ ﴾ من بعدما حكموك، أي ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ بك وبكتابهم.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة، ﴿ فِيهَا هُدٗى ﴾ يهدي إلى الحق ﴿ وَنُورٞۚ ﴾ يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، من لدن موسى إلى عيسى عليه السلام، ﴿ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ ﴾ انقادوا لحكم الله تعالى، أجريت على النبيين على سبيل المدح، وفيه رفع لشأن المسلمين، وتعريض باليهود، وأنهم بمعزلٍ من الانقياد والإسلام والاقتداء بدين الأنبياء ﴿ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾

وهو متعلق بيحكم ويدل على أن النبيّين أنبياؤهم ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي العُبَّاد والعلماء قاله قتادة، وقال مجاهد: الربانيون العلماء والفقهاء وهم فوق الأحبار أي هم أيضاً يحكمون بها ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي بالذي استحفظوه من جهة النبيين، وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل، وضمير الجمع عائد إلى الربانيين والأحبار أي ويحكم الربانيون والأحبار أيضاً بالتوراة، بسبب ما حفظوه من كتاب الله، حسبما وصَّاهم به أنبياؤهم ﴿ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي رقباء يبيّنون ما يخفى منه للناس ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة كما روي عن ابن عباس، أي إذا كان الشأن كما ذكر يا أيها الأحبار، فلا تخشوا الناس كائناً من كان، واقتدوا في مراعاة أحكام التوراة وحفظها بمن قبلكم من النبيين، والربانيين، ولا تحرّفوا خشيةً من أحد ﴿وَٱخْشَوْنِ ﴾ في الإخلال بحقوق مراعاتها ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي التي فيها بأن تتركوا العمل بها، وتأخذوا لأنفسكم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كائناً من كان، دون المخاطبين خاصة، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أولياً، ومن لم يحكم بذلك مستهيناً به، منكراً له، كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لاستهانتهم به، وفي الآية أشد تحذير، حيث علَّق الحكم بالكفر، بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه؟!.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا على اليهود ﴿فِيهَآ﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ أي تُقاد بها إذا قتلها بغير حق ﴿ وَٱلْعَيْنَ ﴾ تفقأ ﴿ بِٱلْعَيْنِ﴾ إذا فقئت بغير حق ﴿ وَٱلْأَنفَ﴾ يُجدع ﴿ بِٱلْأَنفِ﴾ المقطوع بغير حق ﴿ وَٱلْأُذُنَ ﴾ تُقطع ﴿بِٱلْأُذُنِ﴾ المقطوعة ظلماً ﴿ وَٱلسِّنَّ﴾ تقلع ﴿ بِٱلسِّنِّ﴾ المقلوعة بغير حق ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص إذا

كانت بحيث تعرف المساواة مثل الشفتين والذَّكرِ، والأنثيين، والقدمين، واليدين وغيرها، وما لا يمكن فيه القصاص من كسر في عظم أو جراحة يخاف منه التلف ففيه حكومة عدل ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص، أي فمن عفا عنه، والتعبير عنه بالتصدُّق، للمبالغة في الترغيب فيه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يكفّر الله به ذنوبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ كائناً من كان ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من شرائع الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتعدون لحدود الله تعالى، قال الضحاك: لم يجعل في التوراة دية في النفس، ولا في الجِرَاحِ، وإنما كان العفو أو القصاص، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ شروع في بيان أحكام الإنجيل، أي أتبعناهم على آثارهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا عيسى عقيبهم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي مصدّقاً لما تقدَّمه من التوراة، فإن ذلك من لازم الرسول ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي معترفاً بأحكامها وأنها من عند الله، والتكريرُ لزيادة التقرير ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تخصيصُ المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بهذه الأحكام.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أمر مبتدأ لهم بأن يعملوا بما فيه، من الأمور والأحكام التي لم تنسخ، التي من جملتها دلائل رسالته ﷺ، وأما أحكامه المنسوخة، فليس الحكم بها حكماً بما أنزل الله تعالى، كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ منكراً له، ومستهيناً به ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

المتمردون، والخارجون عن الإيمان[1]، والآية تدل على أن الإنجيل مشتملٌ على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبساً بالحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي مصدِّقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ رقيباً على سائر الكتب، يحفظها عن التغيير ويشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها، ومن الغرائب أن البعض من دعاة النصارى، فهِمَ من هيمنة القرآن، الشهادة بحفظ الإنجيل من التحريف، واللفظ لا يدل على هذا، على أن النص شاهد على التحريف ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ أي إذا كان شأن القرآن كما ذُكر، فاحكم بين أهل الكتابين ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك فإنه مشتمل على جميع

(١) وصف تعالى من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف ثلاثة: «الكفر، والظلم، والفسق» وهذا غاية في التنبيه على عظم الجريمة، وخطورة الأمر، أن يوصف المعرض عن تحكيم شريعة الله، بأنه كافر، ظالم، فاسق، فيا خيبة حكام العرب والمسلمين!؟.

الأحكام الشرعية الباقية في الكتب الإلهية ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ الزائغة كما حرَّفوا من أمر الرجم ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهون، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ لكن المراد به غيره، لأن الاتباع غير متصور فيه ﷺ ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ كلام مستأنف، لحمل أهل الكتاب على الانقياد لحكم القرآن الكريم، والمعنى: لكل أمة منكم، وضعنا شرعة ومنهاجاً خاصَّيْن بتلك الأمة، فالأمة التي من مبعث موسى إلى مبعث عيسى شرعتهم بالتوراة، ومن مبعث عيسى إلى مبعث النبي ﷺ شرعتهم الإنجيل، أما أنتم أيها الموجودون في هذا العصر، فشرعتكم القرآن الكريم، فآمنوا به، والشرعةُ: الشريعة يعني الطريقة، شبّه بها الدينُ، لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية ﴿ومنهاجا﴾ أي طريقاً واضحاً في الدين، من نهج الأمر إذا وضح.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ جماعة متفقة على دين واحد، في جميع الأعصار، ومفعول المشيئة محذوف أي لو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم، بأن خلقكم على استعداد واحد، وملة واحدة، من غير اختلاف بينكم، في وقت من الأوقات، في شيء من الأحكام الدينية ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها هل تعملون بها أم لا؟ وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة في ذلك من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين، من العقائد الحقة، والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم وابتدروها انتهازاً للفرصة، وحيازة لفضل السبق، فالسابقون السابقون أولئك المقربون ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ فيه وعدٌ ووعيدٌ للمبادرين والمقصِّرين، أي سترجعون إلى الله تعالى وتحشرون إلى دار الجزاء ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، بما لا يبقى لكم معه شك فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا.

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ عطف على الكتاب كأنه قيل: وأنزلنا إليك الكتاب وقلنا احكم أي الأمر بالحكم لأن المنزل الأمر بالحكم لا الحكم ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ رُوي عن ابنِ عباس رضي الله عنه أن أحبار يهود، قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد: قد عرفتَ أنَّا أحبار يهود، وأنَّا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك!! فأبى ذلك رسول الله ﷺ فنزلت، الآية: ﴿واحذرهم أن يفتنوك﴾[1] ثم قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى، وأرادوا غيره، ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بذنب إجرامهم، وإعراضهم، وإنما عبّر عنه بذلك، إيذاناً بأن لهم ذنوباً كثيرة، وهذا من جملتها ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ متمردون في الكفر، معتدون فيه، وفيه تسلية للنبي ﷺ والمراد من الناس العموم، وقيل اليهود خاصة.

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم، وتوبيخ لهم أي أيتولون عن حكمك، فيبغون حكم الجاهلية؟ والمراد به متابعة الهوى والمداهنة في الأحكام، وتقديم المفعول للتخصيص، المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه ﷺ منكر وعجيب، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾ إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى، أو مساوٍ له ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ عند قوم يتدبرون الأمور، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنه لا أحسن حكماً من حكم الله سبحانه، ومن الجهالة أن نرى ونسمع من بعض المسلمين في هذا العصر، من يقول لا ننكر الدين، ولكنا لا نريد الشريعة، وهؤلاء هم أشد فساداً في دينهم وأخلاقهم، من أولئك الذين نزلت الآية فيهم، فإنهم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٧٠.

يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره، لا يعرفون شرائع الله ومحسناته، فهم ينتقدون كثيراً منها، لعدم موافقتها لأهوائهم، وهم في ضلالٍ مبين!!.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خطاب يعم كافة المؤمنين، ووصفهم بعنوان الإيمان لحملهم على الانزجار عما نُهوا عنه ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي بعض كل فريق منهم أولياء بعض، متفقون على كلمة واحدة، وهي إجماع الكل على مضارتكم، بحيث يبغونكم الغوائل، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة[1]؟ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أي من جملتهم، والآية محمولة على التشديد، والمبالغة في الزجر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أي لا يهديهم إلى الإيمان، بل يخلّيهم وشأنهم، فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تنبيهاً على أن توليهم ظلمٌ، لما أنه تعريضٌ لأنفسهم للعذاب الخالد، والنهي لأفراد

(١) رُوي عن أبي موسى، الأشعري أنه قال: قلتُ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً، فقال: مالَكَ ـ قاتلك اللهُ ـ ألاَ تتخّذُ حنفياً؟ ـ أي مسلماً ـ أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء..﴾ قلتُ: له دينُه، وليَ كتابتُه، فقال: لا أكرمُهم إذْ أهانهم الله!! قلت: لا يتمُّ أمر البصرة إلاّ به، فقال: مات النصراني!! ـ يعني هبْ أنه مات ـ فماذا تصنع بعده!؟.

المسلمين دون جملتهم، لأنه ليس من أصول الدين، أن لا يحالف ويعاهد من يخالفهم فيه، كيف وقد كان ﷺ حالف يهود المدينة عقيب الهجرة؟ وقد قيّد ابن جرير الولاية بكونها لأجل الدين فهذا هو الممنوع والمحرَّم.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ نفاق كابن أبيٍّ وأضرابه، والخطابُ للرسول ﷺ أو لمن له أهلية للخطاب، وإنما وضع المظهر ليشير إلى أن ما ارتكبوه من التولي، بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق، ورخاوة العقل ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم[1] والرؤيةُ بصريَّةٌ، وإنما قال «فيهم» مبالغةً في رغبتهم فيها، وتهالكهم عليها، وللدلالة على أنهم مستقرون في الموالاة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يقول بعضهم لبعض ﴿ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ الدائرة أصلها ما يحيط بالشيء، والمراد بها هنا مصائب الدهر، ودائرة السوء النوائب تنزل وتهلك جمعها الدوائر، أي يقولون تدور علينا دائرة، بأن ينقلب الأمر، وتكون الدولة للكفار على المسلمين، فنحتاج إليهم، قاله مجاهد وقتادة، وقد ردَّ الله عليهم عللهم الباطلة، وبشر المؤمنين بقوله سبحانه ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ فإنَّ «عسى» منه عزَّ وجلّ وعدٌ محتوم، والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبي، وقال الضحاك: فتح قرى اليهود، وقال قتادة: هو القضاء بنصره ﷺ على من خالفه، وإعزاز الدين ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ بقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين ﴿ فَيُصْبِحُوا۟ ﴾ أولئك المنافقون المعللون بما ذكر ﴿ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ على ما أبطنوه من الكفر والشك، في أمر الرسول ﷺ وما أظهروه مما أشعر على نفاقهم، وتعليق الندامة بما يكتمونه من الموالاة، لما أنه هو الذي كان يحملهم على موالاة الكفرة.

---

(١) المراد أن المنافقين من أهل المدينة، يسارعون في مودة اليهود، ونصارى نجران، لأنهم كانوا أهل ثروة وغنى، فكانوا يخالطونهم من أجل منافعهم الخسيسة وهذه من علامات أهل النفاق، لأن حبَّهم للدنيا أعظم من حبِّهم للدين.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين، عند ظهور ندامة المنافقين، والمعنى: ويقول المؤمنون مخاطبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ ﴾؟ أي يقول المؤمنون الصادقون بعضهم لبعض: أهؤلاء أقسموا لليهود إنهم لمعكم، فلما حلَّ باليهود ما حلَّ، أظهروا، ما يسرُّونه من الموالاة، ومعنى جَهْد الأيمان: أغلظُها ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ هذا من جملة القول، أو من قول الله تعالى، شهادةً عليهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قيل ما أحبط أعمالهم؟ وما أشقاهم في الدنيا والآخرة؟!.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ لما نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، وفصَّل مصير المنافقين، شرع في بيان حال المرتدين، والمراد من المرتدين، المرتدون عقيدة وعملاً كمانِعي الزكاة، روي أنه ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ بعض الناس، فنزلت الآية تذكِّر وتحذر ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ﴾ أي يريد بهم خيري الدنيا والآخرة ﴿ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ أي يريدون طاعته، ويحترزون عن معاصيه، والمراد بالقوم في

الآية، يعمُّ كلَّ قوم يوصفون بأوصاف المسلمين، الذين يحبونه تعالى، وينشرون كلمة الله بين الناس، سواءً كانوا من العرب أو العجم، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾ أي متواضعون لهم، والذِلُّ بالكسر: اللينُ، ضد الصعوبة واستعماله بعلى لتضمين معنى العطف والحُنوِّ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أشداء متغلبين عليهم كقوله تعالى: ﴿أشداء على الكفار﴾ ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى مبينة للكيفية عزتهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي أنهم جامعون المجاهدة في سبيل الله، وبين التصلب في الدين، وفيه تعريض بالمنافقين، فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين، خافوا لوم أوليائهم من اليهود[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وُصف به القوم ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ لطفه وإحسانه إليهم ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفواضل، والألطاف ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ العلم بجميع الأشياء، فيعطي الفضل والعزَّة لمن يشاء!.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لما نهى عن موالاة الكفرة، ذكر عقيبه من هو حقيق بها، وإنما قال: ﴿وليُّكم الله﴾ ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله على الأصالة، ولرسوله وللمؤمنين على التَّبع ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم، أي الذين يحافظون على الصلاة، ويؤدُّون الزكاة لمستحقيها، فهم يؤدُّون حقَّ الله، وحقَّ عباده ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ أي خاشعون ومتواضعون لله تعالى في الصلاة، وإيتاء الزكاة، لا يريدون بذلك إلاَّ وجه الله تعالى[2] .

---

(١) اللَّوم: العذلُ على أمرٍ من الأمور، وإذا كان الفعل مذموماً يقال لفاعله: لم فَعلتَ هذا الفعل القبيح، فهذا هو اللَّوم، وقد يلام الإنسان على فعلٍ حسن محبوب، قال الشاعر:

وإذَا الفَتَىٰ عرف الرشادَ لنفسِهِ ... هانَتْ عليهِ مَلامةُ العُذَّالِ

(٢) ظنّ بعضهم أن معنى قوله تعالى: ﴿وهم راكعون﴾ أنهم يؤدُّون الزكاة في حال ركوعهم، حتى زعم بعضهم أن عليَّ بن أبي طالب تصدَّق وهو راكع، وهذا خطأ =

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي ومن يتخذهم أولياء ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ الحزب، الطائفة من الناس جعلوا حزب الله تعظيماً لهم، كأنه قيل: ومن يتولهم فإنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية النهيَ العام عن موالاة جميع الكفار، ونبّه على العلّة، بأنَّ من هذا شأنهُ، جمع بالمعاداة، فكيف بالموالاة؟ ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ التعرض لعنوان إيتاء الكتاب، لبيان شناعتهم، لما أن إيتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين، المؤسس على الكتاب المصدِّق لكتابهم ﴿ وَٱلْكُفَّارَ ﴾ أي المشركين لتضاعف كفرهم ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ في العون والنصرة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في ذلك بترك موالاتهم، أو بترك المناهي على الإطلاق، فيدخل فيه ترك الموالاة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ حقاً فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة.

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا ﴾ أي الصلاة، أو المناداة، وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة بالنص، لا بالمنام وحده، ومنام «عبد الله بن زيد» كان أول ما قدم ﷺ المدينة، وسورةُ المائدة من آخرِ القرآن نزولاً، حيث ورد بعد ثبوته، فيكون النص تقريراً له ﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ روى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس، أنه قال: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا، لاقاموا، فإذا رأوهم ركعاً وسُجّداً، استهزؤوا بهم، وضحكوا منهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق، والهزؤ به، والعقل يمنع منه، ولو كان لهم عقلٌ لما اجترؤوا على تلك العظيمة، وسمى تعالى الأذان مناداةً، لقول المؤذن فيه: حيَّ على الصلاة، حيّ على الفلاح.

= وفهم غريب لمعنى الآية، وإنما المراد أنهم خاشعون متواضعون لعظمة الله جلَّ وعلا، وانظر ما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٧٤ في الردِّ على من زعم ذلك.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يخاطبهم، ويبين أنَّ الدين منزهٌ عما صدر عنهم من الاستهزاء، أي قل لأولئك الفجرة ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ ﴾ نقم الأمر كرهه، أي هل تنكرون وتعيبون منا ﴿ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ من القرآن المجيد ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم، وسائر الكتب الإلٰهية ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي متمردون خارجون عن دائرة الإيمان، فإن الكفر بالقرآن العظيم، مستلزمٌ للكفر بسائر الكتب الإلٰهية، ومعنى الآية: ما تنقمون منا ديننا لعلةٍ من العلل، إلاَّ لإيماننا بالله تعالى، وما أُنزل إلينا وما أنزل من قبلنا، ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بشيء مما ذُكر، وقيل: ﴿أكثركم﴾ لإخراج المؤمنين منهم، فإن منهم من قد آمن، وحَسُن إيمانه.

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ لما أُمر ﷺ بإلزامهم، ببيان أن مدار نقمتهم على الدين أولاً، هو اشتماله على كفرهم، أمر عقيبه بأن يوبخهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب، ما هم عليه من الدين المحرَّف، أي هل أخبركم بما هو شرٌّ في الحقيقة مما تعتقدونه شراً؟ هو أنتم المفسدون المكذبون لرسل الله، عن ابن عباس قال: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ من اليهود، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، قال: أومِنُ بالله ﴿وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى. . . ـ إلى قوله تعالى ـ ونحن له مسلمون﴾ فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا لا نؤمن بعيسى، ولا بمن آمن به، ثم قالوا: لا نعلم ديناً شراً من

دينكم، فأنزل الله الآية[1] ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي جزاءً ثابتاً في حكمه تعالى، والمثوبة مختصة بالخير، كالعقوبة مختصة بالشر، فوُضعت ههنا موضعها على طريقة التهكم، كقول الشاعر: «تحيةُ بينهمْ ضربٌ وَجيعُ» ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، بتقدير مضاف، أي هو دين من لعنه الله ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وهم اليهود أبعدهم الله من رحمته بكفرهم، وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، قال ابن عباس: إن المسخين بالقردة والخنازير، كانا في أصحاب السبت، مُسخت شبانهم قردة، وشيوخهم خنازير ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ عطف على صلة «مَنْ» كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بتلك الفضائح ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي شرٌّ مصيراً ومآلاً في الآخرة، لأن مكانهم الجحيم، ولا مكان أشر منه ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وأكثر ضلالاً وبعداً عن الطريق المستقيم، وفيه دلالة على أنَّ دينهم شرٌ محض، بعيد عن الحق، فمن هذا حاله، كيف يتجاسر على الاستهزاء بدين الإسلام ولكنهم اليهود اللعناء، لا يتورَّعون عن كل جريمة.؟

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ قال قتادة: نزلت في ناس من اليهود، كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ويظهرون له الإيمان نفاقاً، وقيل: هم عامة المنافقين ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا، لا يؤثر فيهم ما سمعوا منك وكلمة «هم» للتأكيد في إضافة الكفر إليهم ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم، وإنما لم يقل سبحانه «وقد خرجوا» إفادة لتأكيد الكفر، دون لفظ الخروج، لأنه خلاف الظاهر، إذ كان الظاهر بعد تنور أبصارهم، برؤية مطلع شمس الرسالة، وتشنف أسماعهم بلآليء درر النبوة، أن يرجعوا عما هم عليه من الغواية، فلما سمعوا قول النبي ﷺ وأنكروه، ازداد كفرهم وضلالهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٠/ ٤٥٢.

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ
وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ
أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أولئك اليهود، والخطاب لسيد الرسل ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ المراد بالإثم الكذب ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم ومجاوزة الحد في الطغيان، والكلامُ مسوقٌ لوصفهم بسوء الأعمال، بعد وصفهم بسوء الاعتقاد ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي الحرام مطلقاً، وقال الحسن: الرشوة في الحكم، خصَّه بالذكر مع اندراجه في الإثم، للمبالغة في التقبيح ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لبئس شيئاً يعملونه من تلك الأفعال الشنيعة.

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ «لولا» هنا للتحضيض أي الحث على فعل الشيء المحبوب فهي بمعنى «هلَّا» أي هلَّا يزجرهم علماؤهم وأحبارهم ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي عن فعل المعاصي والآثام، وأكلهم المال الحرام!؟ قال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: هذا التحضيضُ يتضمن توبيخهم على السكوت وترك النهي ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وهذا أبلغ مما تقدم من الفعل والعمل، لما تقرَّر في اللغة، أن الفعل ما صدر عن الإنسان مطلقاً، فإن كان عن قصدٍ سُمّي عملاً، ثم إن حصل بمزاولةٍ وتكرر، حتى رسَخَ وصارَ مَلَكةً له، سُمّي صُنعاً وصَنْعة، فلذا كان الصنع أبلغ، لاقتضائه الرسوخ، ففي الآية إشارة إلى أن ترك النهي أقبح من الارتكاب.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال ابن عباس: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود، حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله سبحانه، وكفروا برسول الله ﷺ، كفَّ عنهم ما بسط عليهم، فعند ذلك قال: «فنحاص بن عازوراء» يد الله مغلولة، وحيث لم ينكر الآخرون نسبت إلى الكل، وأرادوا بذلك لعنهم الله تعالى، أنه ممسكٌ فإن كلاً من غَلِّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾[2] وهذا من أشنع جرائم اليهود، حيث اتهموا الله بالبخل لعنهم الله ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم، والفقر والنكد، وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً يسيراً، إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً كثيراً، أو يُراد بغلّ الأيدي حقيقة، يُغلون أسارى في الدنيا، ويقيدون بالسلاسل إلى النار في الآخرة ﴿وَلُعِنُوا۟﴾ أي أُبعدوا عن رحمة الله تعالى ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ أي بسبب ما قالوا ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عطف على مقدر، أي كلا ليس كذلك، بل هو في غاية ما يكون من الجود والسخاء ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي هو مختار في إنفاقه، يوسّع تارةً، ويضيّق أخرى، على حسب مشيئته، ومقتضى حكمته، وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي، أن يضيّق عليهم، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ الآية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ من اليهود، وهم علماؤهم ورؤساؤهم، أو المقيمون على الكفر منهم مطلقاً ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي يزدادون طغياناً وكفراً مما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح، والزيادة من حيث الكمّ والكثرة،

---

(١) العرب تقول: فلان مغلول اليد إذا كان بخيلاً لا ينفق، وفلانٌ يده مبسوطة إذا كان سخياً كريماً، فالآية كناية عن البخل والجود، والقرآن نزل بأساليب العرب المعروفة عندهم التي يتخاطبون بها.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٢٩.

إذ كلما نزلت آية كفروا بها، فيزداد طغيانهم وكفرهم ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ أي بين اليهود، وقيل: بين اليهود والنصارى، لأنه قد جرى ذكرهم في قوله سبحانه: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى﴾ ولشمول قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أهل الكتاب﴾ للفريقين ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ فلا تتوافق قلوبهم، ولا تتطابق آراؤهم، **قال أبو حيان**: لا يزال اليهود والنصارى متعادين، وفي ذلك إخبار بالغيب، فإنه لم يجتمع لحرب المسلمين جيش يهود ونصارى، منذ سلَّ الإسلامُ السيف ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي كلما أرادوا محاربة الرسول ﷺ، ورتبوا مباديها، ردَّهم الله تعالى بتفرق آرائهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فإيقاد النار كنايةٌ عن إرادة الحرب، وقد كانت العرب إذا تواعدت للقتال جعلوا علامتهم إيقاد نار على جبل أو ربوة، ويسمونها نار الحرب، والمراد من إيقاد النار، إظهار الكيد بالمؤمنين، وإطفائها صرف ذلك عن المؤمنين، وقيل هو أعم من ذلك، أي كلما أرادوا حرب أحد غلبوا، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة، سلَّط الله عليهم بختنصَّر المجوسي، ثم أفسدوا فسلَّط عليهم قطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلَّط عليهم الفرس، ثم أفسدوا فسلَّط الله عليهم المسلمين ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون سعي فساد، فيما يأتونه من إيقاد الحرب، وتهييج الفتن، ولم يكن سعيهم للإصلاح والشؤون الاجتماعية، بل كانوا يسعون للفساد بين الناس، كانوا يحرِّضون المشركين على الرسول ﷺ، فكانوا سبباً للغزوات الكثيرة، كما أنهم يغرون الدول بعضهم على بعض في هذا الزمان، نعوذ بالله من شرورهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون!! ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم، ولذلك أطفأ الله ثائرة فسادهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ أي اليهود والنصارى والمراد بهم معاصرو رسول الله ﷺ أي لو أنهم - مع ما صدر عنهم من فنون الجنايات - آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي ما حرَّم الله تعالى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها وإن كانت في غاية العظم ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ مع ذلك ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تكفير السيئات في مقابلة الإيمان، وإدخال الجنة في مقابلة التقوى، وتكرير اللام لتأكيد الوعد، وفيه تنبيه على عظم معاصيهم، وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجُبُّ[1] ما قبله.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بمراعاة ما فيها من الأحكام، التي من جملتها شواهد النبوة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من القرآن الكريم، وإيراده بهذا العنوان، للإيذان بوجوب إيمانهم به لنزوله عليهم أيضاً، لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب، وفي إضافة الرب إلى ضميرهم، مزيد لطفٍ بهم في الدعوة إلى الإقامة ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي لأوسع الله عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات السماء والأرض، وفي هاتين الشرطيتين من حثهم على الإيمان والتقوى، لنيل سعادة الدارين، وتنبيههم على أن ما أصابهم من الضنك والضيق، إنما هو من جناياتهم، لا لقصورٍ في فيض الفيَّاض جل وعلا، ودلت الآية على أن الإيمان والتقوى، سببٌ لسعة الرزق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أهل القرىٰ آمنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عليهمْ بَرَكَاتٍ من السَّمَاءِ والأرْض﴾[2] ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي عادلة، غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي وكثير منهم أشرار فجار لتحريفهم الحق، والإعراض عنه، وهم الأجلاف المتعصبون.

---

(١) في اللغة جبَّ يَجُبُّ جَبّاً وجِبَاباً أي يقطع، فالإسلام يقطع ويهدم ما قبله من الكفر والذنوب، وانظر المعجم الوسيط مادة جبب.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٦٧) قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٦٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٦٩) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ نداء تشريف ﴿ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ إلى الثقلين كافة، بلِّغْهم جميع ما أُنزل إليك من الأحكام، وما يتعلق بها كائناً ما كان ﴿ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ أي مالك أمورك ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ ﴾ ما أُمرت به من التبليغ كافة ﴿ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾ أي فما بلغت شيئاً من رسالته، لأن كتمان بعضها يضيع ما أُدّيَ منها، كترك بعض أركان الصلاة، واستدل بالآية على أنه ﷺ لم يكتم شيئاً من الوحي، وأما ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: «حفظتُ من رسول الله ﷺ وعائين: فأما أحدهما فبثثتُه، وأما الآخر فلو بثثتُه قُطع مني هذا البلعوم»[1] أي مجرى الطعام، فإنما هو في غير الأحكام الشرعية، كأمور المنافقين وأسمائهم، وبعض الأمور الغيبيّة التي لو كشفها لجرَّتْ إلى فتنة، وجميع ما عند النبي ﷺ من الأسرار الإلٰهية، والأحكام الشرعية، قد اشتمل عليه القرآن الكريم، قال الله سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ وقال: ﴿ما فرَّطْنَا في الكتاب من شيء﴾ وفي الحديث الشريف: «أما إنها ستكون فتنة، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخَبَرُ ما بعدكم، وحُكْمُ ما

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ١/٢١٦ قال البخاري: البلعومُ مجرى الطعام.

بينكم. . .»[1] الحديث. ومن زعم أن هناك أسراراً خارجة عن كتاب الله تعالى فقد أعظم الفرية، وجاء بالضلال بلا مرية، وزعمت الشيعة أن في الآية: ﴿مما أُنزل إليك﴾ خلافة علي فقد رَوَوْا بأسانيدهم عن أبي جعفر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشقَّ ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله هذه الآية، ومن وقف على ما يرويه الشيعةُ فيها، وكان له أدنى خبرة، رأى العَجَب العُجاب، وتحقّق أن أقوال القوم كصرير باب، أو كطنين ذباب، ومما يبعد دعوى الشيعة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن الناس فيه يراد بهم الكفار، بدليل ختم الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنه في موضع التعليل لعصمته ﷺ روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كانَ رسولُ الله ﷺ يحرس ليلاً، حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من القبَّة فقال: يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله تعالى»[2].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مخاطباً للفريقين: اليهود، والنصارى ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي دينٍ يُعتدُّ به، ويليق بأن يُسمَّى شيئاً، وفي هذا التعبير من التحقير ما لا غاية وراءه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور، التي من جملتها دلائل رسول الله ﷺ وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة، فليست مرادة، لانتهاء وقت العمل بهما بنسخهما ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي القرآن المجيد، بالإيمان به، فإن إقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك، وفي هذا بيان بأن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله تعالى، لا وسائله، ولا مقاصده على الوجه الذي كان عليه سلفهم قبل مجيء خاتم الأنبياء ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي وليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم الغلوَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في فضل القرآن رقم ٢٩٠٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٨/ ٤٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٤٦.

في التكذيب، والإصرار على جحود نبوتك ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فلا تحزن لطغيانهم، فإن غائلته عائدة عليهم، ووضعُ المظهر موضع المضمر، لتسجيل الكفر عليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي مَنْ آمن من هؤلاء المذكورين، إيماناً صادقاً خالصاً، لا يشوبه شك ولا ارتياب بالله واليوم الآخر، وعمل لآخرته، فإنه ينال جزاءه بدخول الجنة، من غير أن يصيبه خوف ولا فزع.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بيانٌ لبعض آخر من جناياتهم ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ذوي عدد كثير، ليبينوا لهم أمر دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي بما لا تحبه أنفسهم، ولا تميل إليه من الشرائع، ومشاق التكاليف، عصوه ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن النَّسْخَ ممتنع على شرع موسى، والواجب عليهم في كل رسول جاء بشرع آخر تكذيبه وقتله، فلذلك كذَّبوا بعضهم، وقتلوا بعضهم، وإنما أوثر صيغة المضارع، لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب، وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي حسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب، بقتل الأنبياء عليهم السلام وتكذيبهم ﴿فَعَمُواْ﴾ أي تمادوا في فنون الغي والفساد، وعموا عن الدين، بعدما هداهم الرسل، وبيّنوا لهم مناهجه ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع الحق الذي ألقوه إليهم ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد، بعدما كانوا ببابل دهراً طويلاً، تحت قهر بختنصر، أسارى في غاية الذل والمهانة، فوجه الله ملكاً من ملوك فارس إلى بيت المقدس فعمره، وردَّ من بقي من بني إسرائيل إلى وطنهم، فاستقروا وكثروا، وكانوا كأحسن ما كانوا عليه من الحال، وذلك قوله تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرَّةَ عليهم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ وهو إشارة إلى المرة الآخرة، من مرَّتيْ إفسادهم، وذلك في سلسلة جرائمهم الشنيعة المتلاحقة، فقد أوغلوا في الضلال، واجترؤوا على قتل زكريا، ويحيى، ثم قصدوا قتل عيسى ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ أي كثيرون منهم ضالون، وإنما قال سبحانه: ﴿كثير منهم﴾ لأن بعضاً منهم لم يكونوا كذلك ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ بما عملوا، وهذا وعيد لهم وتهديد.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ شروع في تفصيل قبائح النصارى، وهم فرقة تسمى الملكانية يقولون: إن الله اسمٌ يجمع أماً، وابناً، وروح القدس، فصار كلهم إلَهاً واحداً، فعيسى هو الله، واليعقوبية منهم يقولون: إن الله سبحانه حلَّ في ذات عيسى، واتحد بذاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ أي وقد قال المسيح مخاطباً لهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ أي إني عبدٌ مربوب مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم، ولا يزال أمره هذا محفوظاً عندهم ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي شيئاً من عبادته سبحانه كنسبة علم الغيب وإحياء الموتى بالذات إلى عيسى ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لأنها دار الموحّدين ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

فإنها معدة للمشركين ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ما لهم من أحد ينصرهم، بإنقاذهم من النار.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ معنى قولهم: ﴿ثالث ثلاثة﴾ أي أحد هذه الأعداد، لا الثالث خاصة، فإنهم يقولون: إن الإلّهية مشتركة بين الله سبحانه، وعيسى، ومريم، ويؤكده قوله تعالى: ﴿أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلّهين من دون الله﴾؟[1] وهو المتبادر من قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي وما في الوجود ذاتٌ واجب مستحق للعبادة إلاّ إله موصوف بالوحدانية، مستحق للعبادة، متعال عن قبول الشركة، ولا ترى أظهر بطلاناً من مقالة النصارى، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة آلهة، بوجه من الوجوه، وهل يجوز أن يتحد موجودان، بحيث لا يبقى بينهما الإثنينية؟ هذا شيء

(١) سورة المائدة، آية: ١١٦.

مستحيل، ممتنع بالشرع والعقل[1] ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي إن لم يرجعوا عمَّا هم عليه إلى التوحيد والإيمان ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي بالله ليمسن الذين بقوا منهم على الكفر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي نوع شديد الألم من العذاب.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾؟ الاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، وتعجيبٌ من إصرارهم على الكفر، أي ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة، فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول؟ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا، وهي مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ استئناف مسوقٌ لتحقيق الحق، وبيان حقيقة حاله، وحال أمه عليه السلام، أي ليس المسيح ابن مريم إلا رسول كسائر الرسل قبله، وليس فيه من صفات الألوهية شيء ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله، خصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى، وإن خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وكل ذلك من جنابه عزَّ وجل، وإنما موسى وعيسى مظاهر لشؤونه وأفعاله تعالى، فأين لكم وصفه بالألوهية؟ ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي وما أمه أيضاً، إلا كسائر النساء، اللواتي لازَمْنَ الصِّدق، فكانت عفيفةً أمينةً شريفة، وليست زوجة لله كما يزعم النصارى، واستدل بالآية من ذهب إلى عدم نبوة مريم، لأنه تعالى أشار

---

(١) الأقانيم الثلاثة «الآب، الابن، روح القُدُس» على زعم النصارى وهي مختلفة كل الاختلاف، فالآب غير الابن، والابن غير روح القدس، فكيف تكون الثلاثة واحداً؟ وإذا قلنا: هذه طاولة، وهذا كرسي، وهذا سرير، فهل يقبل عاقل أن تقول له: إن هذه الثلاثة واحد؟ هل هي ثلاث كراسي؟ هل هي ثلاث طاولات؟ لا، هل هي ثلاثة أسِّرة؟ لا، كيف تكون إذاً الثلاثة واحداً؟ ولذلك يقولون: لا يجتمع عقلٌ ونصرانية، إذ كيف يكون الآب والابن وروح القدس ثلاثتها واحداً؟.

في معرض بيان أشرف خصائصها «الصدّيقية» ولو كان لها مرتبة «النبوة» لذكرها ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ أي كان عيسى وأمه كسائر البشر، يأكلان الطعام، ويحدثان الحدث، فكيف يكونان إلٓهين؟[1] ثم عجَّب تعالى ممن يدعي الربوبية لهما، مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة ببطلان ما يقولون عليهما ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يُصرفون عن الحق، وثم لتفاوت ما بين العَجَبَيْن، أي أن بياننا عَجَبٌ، وإعراضُهم عنها أعجبُ، والإفك: الكذبُ، وأصله الصرف والقلبُ، ويقال للكذب إفك، لأنه صرفٌ عن الحق، قيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾؟ أي أتعبدون من دون الله من لا يقدر لكم على النفع والضر؟ يعني عيسى عليه السلام، فإنه عاجز عن دفع الضر عن نفسه فضلاً عن غيره؟ فلا يملك مثل ما يفعل الله تعالى بالخلق، من البلايا والمصائب، وما ينفع به من الصحة والسعة، وقيل: المراد بـ «ما» كلّ ما يعبد من دون الله، كالأصنام وغيرها، غلَّبَ ما لا يعقل على ما يعقل ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بضمائركم، وهو متضمن للوعيد لمن عَبَد غير الله تعالى.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى فريقي أهل الكتاب، بعد إبطال مسلك كل منهما، للمبالغة في زجرهم عما سلكوه واختار الطبري كونه خطاباً للنصارى خاصة، لأن الكلام معهم ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ غلا في الدين غُلواً تصلَّب وشدَّد حتى جاوز الحد، أي لا تجاوزوا الحدَّ وهو نهي للنصارى عن رفع عيسى عليه السلام عن رتبة

---

(١) في الآية الكريمة إشارة بارعة رائعة إلى بطلان ألوهية عيسى، فإن من يأكل الطعام، ويشرب الشراب، يحتاج إلى التغوط والتبول، وإخراج الفضلات من بطنه، فكيف يكون عيسى إلهاً، وهو يأكل ويشرب، ويحدث الحدث، ثم هو قد خرج من فرج امرأة؟ أليس هذا كافياً على بطلان دعوى الألوهية؟.

الرسالة إلى ما يقولون، إنه إله، ولليهود عن وضعهم له عن الرتبة العلية، إلى ما يقولون إنه ابن زنى ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا تغلوا غلواً باطلاً، وذكرهم بعنوان: «أهل الكتاب» للإيماء إلى أن كتابهم ينهاهم عن الغلوّ في دينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم، الذين ضلُّوا قبل مبعث الرسول ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ أي أناساً كثيرين ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم، أو إضلالاً كثيراً ﴿وَضَلُّوا۟﴾ عند بعثة النبي ﷺ ووضوح محجة الحق ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام، بعد مبعثه ﷺ كذّبوه وبغوا عليه.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لعن الله عز وجل، وبناء الفعل للمفعول، للجري على سنن الكبرياء ﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور، والإنجيل على لسانهما ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي اللعن المذكور، والطرد من رحمة الله ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾ بسبب عصيانهم ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ وبسبب اعتدائهم المستمر.

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ مؤذن باستمرار الاعتداء منهم، وعدم التناهي عن تعاطي المنكرات، أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر والمراد بالمنكر، قيل صيد السمك يوم السبت، وقيل أخذ الرشوة،

وقيل: أكل الربا، والأولى العموم، وهو أن يراد به نوع المنكر ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تقبيح لسوء أعمالهم، وتعجيبٌ منه بالتأكيد القَسَمي، أي لبئس شيئاً فعلوه في الدنيا، وفي هذه الآية زجر شديد، لمن يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد روى حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله تعالى أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم تَدْعونه فلا يستجيب لكم»[1]. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فيا حسرة على المسلمين، في إعراضهم عن هذا الواجب الكبير.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ككعب بن أشرف وأضرابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد من ﴿الذين كفروا﴾ مشركو مكة، روي أن جماعة من اليهود، خرجوا إلى مكة، ليتفقوا مع مشركيها على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، فلم يتمَّ لهم ذلك ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي لبئس شيئاً قدَّموه ليَردُوا عليه يوم القيامة ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو المخصوص بالذم، أي موجب سخط الله وغضبه عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ أبد الآبدين أي لبئس ذلك لأنه أكسبهم السخطَ والخلود.

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله تعالى إيماناً صحيحاً وبنبينا ﷺ وبالقرآن الكريم ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي ما اتَّخذوا المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان الصادق وازعٌ عن توليهم قطعاً ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون من دينهم، متمردون في نفاقهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن رقم ٢١٧٠ ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم، ثم يدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم» وانظر مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٦.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ﵿ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد، يخبر أن اليهود أشد الناس عداوةً للمسلمين، لتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى وركونهم إلى التقليد، وتكذيبهم لأنبياء الله ومعاداتهم، وقد قيل: إن من مذهب اليهود، أنه يجب عليهم إيصال الشر، إلى من يخالفهم في الدين، بأيّ طريق كان، وفي تقديم اليهود على المشركين، إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، فالوثنيون واليهود أشد الطوائف عداوة للمؤمنين ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ﴾ المراد منهم ـ ما روي عن ابن عباس ـ: النجاشي وأصحابه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي كونهم أقرب مودة للذين آمنوا، للين جانبهم، ورقة قلوبهم ﴿ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، ولا يتكبرون كاليهود، والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشيء إذا تتبعه، سموا بذلك لمبالغتهم في تتبُّع العلم، والرهبان جمع راهب وهو العابد، وأصله من الرهبة أي الخوف، والتنكير في «رُهباناً» لإفادة الكثرة، وفي الآية دليل على أن التواضع،

والإقبال على العلم، والإعراض عن الشهوات، محمودة أينما كانت، لا سيَّما ممن ينتسب إلى العلم والدين!.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ وهذا بيان لرقة قلوبهم، وشدة خشيتهم، والفيض: أن يمتلىء الإناء ويسيل من شدة الامتلاء، جُعِلتْ أعينُهم من فَرطِ البكاء، كأنها تفيض أنفسها، قال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه، قال لجعفر بن أبي طالب: هل في كتابكم ذكر لمريم؟ قال: فيه سورة مريم، فقرأها، فبكى النجاشي وأصحابه، والمراد بالنصارى «نصارى الحبشة» الذين سمعوا القرآن فبكوا وآمنوا، لا النصارى عامة، بدليل قوله بعده ﴿يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ وليس كل النصارى كذلك[1] ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي وذلك من أجل ما عرفوه من الحق، الذي بيَّنه لهم القرآن الكريم ﴿يَقولُونَ﴾ كأنه قيل ماذا يقولون؟ فأجيب بقوله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي صدّقنا بنبيك وبكتابك ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي من الذين شهدوا بأن الإسلام حقٌّ، أو من الشاهدين من أمته، الذين هم شهداء الله على الأمم يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ هذا من تتمة قولهم، قالوه تحقيقاً لإيمانهم، ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوحدانيته سبحانه، على الوجه الذي جاءت به الشريعة المحمدية ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن الكريم ﴿وَنَطْمَعُ﴾

---

(١) هذا هو الحقُّ وهو الصحيح، أن الآية نزلت في نصارى الحبشة ـ زمن النجاشي ـ فإنهم لمَّا سمعوا القرآن، بكوا حتى اخضلَّتْ لحاهم بالدموع، وأعلنوا إيمانهم هم والنجاشي، بالقرآن والرسول، بدليل قوله تعالى بعده ﴿ترىٰ أعينَهُمْ تَفِيضُ من الدَّمع ممَّا عَرَفُوا من الحقِّ، يقولون ربنا آمنَّا فاكتُبْنَا مع الشَّاهِدِينَ﴾ وليست في النصارى عامة كما نرى من حال الصرب المجرمين، فالنصارى إخوة اليهود في المكر والخبث والعداء، فتنبَّه رعاك الله.

ونحن نطمع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ونحن نطمع في صحبة الصالحين في الجنة.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي فجزاهم الله تعالى ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ أي بقولهم الذي عبَّروا عنه عن الإيمان وإخلاصهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، واعتادوا الإحسان في الأمور كلها من أهل الإيمان، أقيم الظاهرُ مقام ضميرهم مدحاً لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بيان لحال المكذبين، وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب، وبغيرها تتبيَّن الأشياءُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما طاب ولذّ منه، أي لا تمنعوها أنفسكم وتحرّموا الطيبات بنحو يمين، روي أن رسول الله ﷺ جلس يوماً، فذكَّر الناس، ووصف القيامة، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت «عثمان بن مظعون» واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فقال لهم الرسول ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمَا واللهِ إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي

وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] أي ليس من المتقين، فلا ينافي هذا النهي أن الله تعالى مدح النصارى بالرهبانية، فربَّ ممدوحٍ بالنسبة إلى قوم، مذموم بالنسبة إلى آخرين، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ تأكيد للنهي السابق، والاعتداء يكون كذلك، بتجاوز الحلال إلى الحرام، أو بالإسراف في تناول الطيبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في موضع التعليل لما قبله، أي يبغضهم ويمقتهم لتجاوزهم حدود الله.

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ أي وكلوا مما أحلَّ اللهُ لكم وطاب مما رزقكم الله، والآية دليل على شمول الرزق للحلال والحرام، إذ لو لم يقع الرزق على الحرام، لم يكن لذكر الحلال فائدة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان به تعالى، يوجب المبالغة في التقوى، والانتهاء عما نهى عنه، وأكلُ اللذائذ لا ينافي التقوى، فقد أكل النبي ﷺ ثريد اللحم، ومَدَحه، وكان يحبُّ الحلوى.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات..﴾ الآية في القوم الذين حرَّموا على أنفسهم اللحم، والنساء، قالوا يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية[2] ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ أي بما عقدتموه ووثقتموه بالقصد والنية، إذا حنِثْتُم فيه، وحذف للعلم به ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ فكفارةُ نكثه، التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث، وعندنا لا يجوز لقوله ﷺ: «إذا حلفتَ على يمينٍ،

---

(١) أصل الحديث في الصحيحين من رواية أنس بن مالك. ولفظ الحديث كما في رواية البخاري «جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، قالوا: فأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه!!» الحديث.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ١٠/ ٥١٤.

ورأيتَ غيرها خيراً، فأتِ الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»[1] ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ أي فكفارته أن يطعم الحانثُ عشرة مساكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي من أقصده في النوع والمقدار، وهو لكل مسكين عندنا نصف صاع من بر، أو صاع من شعير، وعن ابن عمر أن الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزيت، والخبز والسمن، والأفضل الخبز واللحم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ وهو ثوب يستر عامة بدنه، فلم يُجْزِ السراويل فقط ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق إنسان كيفما كان، مؤمنة كانت أو كافرة لإطلاق النص، وشرط الشافعي الإيمان حملاً للمطلق على المقيَّد، ومعنى «أو» التخيير في إيجاب إحدىٰ الكفارات الثلاث، وتفاوتها قدراً وثواباً، لا ينافي التخيير المفوض، وبدأ سبحانه بالإطعام تسهيلاً على العباد ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة، واعتبر عدم الوجدان وقت الأداء، ويشترط استمرار العجز إلى الفراغ من الصوم، واختلف في الواجد، روي عن قتادة قال: إذا كان عنده خمسون درهماً فهو ممن يجد، ويجب عليه الإطعام، وعن الشافعي وأحمد ومالك، من عنده فضل عن قوته وقوت من تلزمه يومَهُ وليلته، وعن الإمام أبي حنيفة إذا لم يكن عنده نصاب فهو غير واجد[2] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي مضى ذكره ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً، أو ولا تحلفوا أصلاً ولا تبذلوها لكل أمر، قال تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم﴾ أو بأن تكفروها إذا حنثتم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كذلك البيان البديع ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أحكام شريعته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم أو نعمة الواجب شكرها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٣٠ ومسلم في الأيمان رقم ١٦٥٤ والنسائي ٧/ ٢٥ في الأيمان أيضاً.

(٢) النصاب يراد به نصاب الزكاة، فكل من ملك/ ٢٠٠/ مائتي درهم فضة فهذا لا يجزئه الصوم لأنه غني ويجب عليه أن يُطعم أو يُعتق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٩٢) لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٩٣) ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ ﴾ وهي الأصنام المنصوبة للعبادة، وفرق بعضهم بأن الأنصاب حجارة لم تصوَّر، كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها، والأصنام ما صُوِّر، وعُبد من دون الله عز وجل ﴿ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ ﴾ وهي الأقداح التي كانوا يستقسمون بها كاستشارة لآلهتهما المزعومة ﴿ رِجۡسٞ ﴾ قذر تعاف عنه العقول، وعن الزجاج: الرجس كل ما استقذر من عمل قبيح ﴿ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ لأنه مسبّب عن تسويله وتزيينه، أي رجس كائن من عمله ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ أي الرجس، وابتعدوا عن هذه القذارات الحسية والمعنوية ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه، لقد أكد الله تحريم الخمر والميسر، في هذه الآية الكريمة، بفنون التأكيد، حيث صُدِّرت الجملة بإنما، وقرنا بالأنصاب والأزلام، وسُمِّيا رجساً من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن تعاطيها شرٌّ بَحْتٌ، وأمر بالاجتناب عنها لا عَنْ عينهما، وجعل ذلك سبباً يُرجى منه الفلاح، فيكون ارتكابها خيبة وضلالاً، ثم قرر ذلك ببيان ما فيها من المفاسد الدنيوية والدينية.

فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ ﴾ وتخصيصهما بإعادة الذكر، للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما، وذكر الأصنام والأزلام، للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة

والشر، وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تخصيص الصلاة بالإفراد، مع دخولها في الذكر للتعظيم، وللإشعار بأن الصادَّ عنها كالصادّ عن الإيمان، لما أنها عماد الدين، ثم أعيد الحثُّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام، فقال سبحانه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ إيذاناً بأن الأمر في الزجر والتحذير، وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور، قد بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه؟ ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا ربنا انتهينا!.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به، ونهيا عنه ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ مخالفتهما في ذلك، أمروا بالحذر لأنه يدعوهم إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الامتثال بما أُمرتم به ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي إنما عليه تبليغكم وقد فعل ذلك، وقامت عليكم الحجة، وانتهت الأعذار، فلم يبق بعد ذلك إلا العقاب، الذي ينتهي بكم إلى الدمار.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ أي إثم وحرج ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي تناولوا أكلاً أو شرباً، عن البراء بن عازب قال: مات ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريم الخمر، قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت ﴿لَيسَ عَلَى الذِينَ امَنُوا﴾[1] الآية. والطَّعْمُ كالطعام، يُستعمل في الأكل والشرب ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ أي ليس عليهم جناح، فيما تناولوه من المأكول والمشروب، إذا اتقوا أن يكون في ذلك شيء من المحرمات ﴿وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي استمروا على الإيمان، والأعمال الصالحة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ أي اتقوا ما حرَّم عليهم بعد ذلك ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بتحريمه واستمروا على الإيمان ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ أي ما حرم عليهم بعد ذلك

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم/ ٣٠٥١/ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿وَأَحْسَنُوا﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة، والمعنى إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، فلا جناح عليهم فيما طعموه من المطاعم والمشارب، إذ ليس فيها شيء محرم عند طعمه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء من ذلك ومن صار محسناً، صار لله محبوباً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب فيه تكريم لأهل الإيمان ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ أي والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليعرف أحوالكم ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ أي من صيد البر، مأكولاً أو غير مأكول ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ابتلاهم الله تعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، بحيث يتمكنون من صيدها، أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم وهم محرمون، والتقليل ﴿بشيء﴾ للتنبيه على أنه ليس من العظائم، التي تدحض الأقدام، كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه؟ فنهاهم الله تعالى عنها ابتلاءً، كما ابتلى بني إسرائيل بصيد البحر، لكنَّ الله عزَّ وجل عصم المسلمين فلم يصطادوا شيئاً منها، وعن ابن عباس ومجاهد: أن الذي تناله الأيدي فراخ الطير وصغار الوحش، والذي تناله

الرماح الكبارُ من الصيد ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ليتميز الخائف من عقابه الأخروي، وهو غائب مترقب، لقوة إيمانه فلا يتعرض للصيد، ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك النهي، فصاد في حالة الإحرام ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين، لأن من لا يملك زمام نفسه، ولا يراعي حكم الله تعالى، في أمثال هذه البلايا الهيّنة، لا يكاد يراعيه في عظائم الأمور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ والتصريح للنهي مع كونه معلوماً من قوله تعالى ﴿غير محلي الصيد﴾ لتأكيد الحرمة، وترتيب ما تعقبه عليه، و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام، وهو المحرم، أي لا تقتلوه وأنتم محرمون، وذكر القتل دون الذبح ونحوه، للإيذان بأن الصيد وإن ذبح، في حكم الميتة، وإليه ذهب أبو حنيفة وأحمد ومالك، وهو القول الجديد للشافعي، وفي القديم لا يكون في حكم الميتة، يحل أكله للغير ويحرم على المحرم ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ أي ذاكراً لإحرامه، عالماً بحرمة قتل ما يقتله ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ أي فعليه جزاء مماثل لما قتله، والمراد به عند الشيخين: المِثلُ باعتبار القيمة، يُقوَّم الصيدُ حيثُ صِيد فإن بلغت قيمته قيمة هِدي، يُخيَّر الجاني أن يشتري بها ما قيمته قيمة الصيد، فيهديه إلى الحرم، وبين أن يشتري بها طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُرٍّ، أو صاعاً من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ بيان للهدي المشترى بالقيمة، وعند مالك والشافعي: هو المِثْلُ باعتبار الخلقة، لأن الله أوجب المثل مقيداً بالنعم، ولنا أن النص أوجب المثل، والمثل المطلق هو المثْلُ صورة ومعنى، وهو غير مراد هنا بالإجماع، فبقي أن يراد المثل معنى وهو القيمة، ومما يرشد إلى أن المراد بالمثل هو القيمة، قولُه عزَّ وجلَّ ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ أي بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي حكمان عدلان من المسلمين، لأن التقويم هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد، دون المماثلة في الصورة، التي يستوي في معرفتها كل أحد من

الناس، والمراد من ﴿ذوا عدل﴾ التعدد، ويراد منه اثنان، لأنه أقل مراتبه، يروى أنه جاء أعرابي إلى أبي بكر فقال: أني أصبت من الصيد كذا، فسأل أبو بكر «أبيَّ بن كعب» فقال الأعرابي أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: قال الله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فشاورت صاحبي، فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به ﴿هَدْيًا﴾ أي يحكم به في حال الهدي ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ معنى بلوغه الكعبة أن يذبح في الحرم ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ إشارة إلى الطعام كأنه قيل: فعليه جزاء مماثل للمقتول من النعم، أو طعام مساكين، أو صيام أيام بعددهم، فحينئذ يجزىء، لكون المماثلة وصفاً لازماً للجزاء، ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي فعليه جزاء ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي فإن الله ينتقم منه في الآخرة، لأنه انتهك محارم الله، وأما الكفارة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد، تكرر عليه الجزاء، وعن ابن عباس يعزَّر بالضرب ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ شديد فينتقم ممن يتعدى حدوده، ويصر على معاصيه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي ما يصاد في المياه كلها، بحراً كان أو نهراً وهو ما يعيش في الماء، مأكولاً أو غير مأكول ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي ما يُطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم التعرض لجميع ما يُصاد في المياه، والانتفاع به، وأكل ما يؤكل وهو السمك، وقيل المراد بصيد البحر: ما صيد، وبطعامه ما قذفه البحر ميتاً ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ تمتيعاً لكم للمقيمين منكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي المسافرين يتزودونه قديداً ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ وهو ما يفرخ فيه، وإن كان يعيش في الماء كطير الماء ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي محرمين، وظاهره يوجب حرمة ما صاده الحلال على المحرم، وإن لم يكن له مدخل فيه، وهو قول عمر، وابن عباس، وجماعة من السلف، وعن أبي هريرة وسعيد بن جبير أنه يحل له ما صاده الحلال، إذا لم يشر إليه، ولم يدل عليه، وهذا مذهب أبي حنيفة لأن

الخطاب للمحرمين دون غيرهم، واستدل بما روي عن أبي قتادة قال: «كنت يوماً جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ والقوم محرمون، وأنا غيرمحرم، فأبصروا حماراً وحشياً، فقمتُ إلى الفرس فشددت على الحمار فعقرتُه، ثم جئت به، فوقعوا فيه يأكلون، ثم إنهم شكُّوا في أكلهم إياه، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال لهم: «هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها؟ قالوا: لا، قال: كلوا ما بقي من لحمها»[1].
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم، وهو وعيد وتهديد.

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ أي صيّرها ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ سمي البيت الحرام، لأن الله تعالى حرَّمه، وعظَّمه، وشرَّفه، وحرَّم أن يُصاد فيه، وأن يُعضد شجره، وأراد بالبيت الحرام جميع الحرم، فإنَّ الحرم كما أنه سببٌ لأمن الوحش، فكذلك هو لحصول الخيرات ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ أي سبب انتعاشهم، في أمر معاشهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الذي يؤدى فيه

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ٤/٢٢ باب إذا رأى المحرمون صيداً، ومسلم في الحج أيضاً رقم ١١٩٦ باب تحريم الصيد للمحرم، ومالك في الموطأ ١/٣٥٠.

الحج، أي وجعل الشهر الحرام ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أيضاً قياماً لهم، والمراد بالقلائد: البدن خصت بالذكر، لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر، والهدي الذي يُهدى للحرم من الأنعام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي شرع ذلك ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن تشريع هذه الشرائع، المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية، من أوضح الدلائل على حكمة الشارع، وعدم خروج شيء عن علمه المحيط ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح العباد، وما فيه خيرهم وسعادتهم.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصرَّ على ذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة، لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى، وأقلع عن الانتهاك.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة، وقد بلَّغ ما وجب عليه، فأيُّ عذر لكم بعد هذا؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه تعالى شيء من أحوالكم وأعمالكم، فيؤاخذكم بذلك.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أي الرديءُ والجيد من كل شيء، فهو حكم عام، في نفي المساواة عند الله تعالى بين النوعين، في الأشخاص، والأعمال، والأموال، قُصد به الترغيب في جيد كلٍّ منها، والتحذير عن رديئها ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ أي وإن سرك أيها الناظر كثرة الخبيث، فإن العبرة بالرداءة والجودة، دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل، خير من المذموم الكثير، وهوَ مَثَلٌ ضربه الله تعالى للتمييز بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والحلال والحرام، ولهذا قال تعالى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي فاتقوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفوز بالثواب العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ ﴾ أي لا تسألوا عن أمور لا حاجة لكم إليها، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فُرض عليكم الحجُّ فحجُّوا، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، ثم قال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلتُ: نعم، لوجبَتْ ولَمَا استطعتم، وإنما أهلك من كان قبلكم، كثرةُ سؤالهم، واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[١]. و«أشياء» هو اسم جمع وقيل هو جمع شيء ﴿ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ أي إن ظهرت لكم وكلفتم بها، شقت عليكم وساءتكم لأنكم لا تحتملونها ﴿ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ ﴾ والمراد ما يشقُّ عليهم من التكاليف الصعبة، التي لا يطيقون حملها، والأسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها، ونحو ذلك مما لا خير فيه، لإيجابها عليهم بطريق التشديد،

---

(١) أخرجه مسلم في الحج رقم ١٣٣٧ باب فرض الحج مرة في العمر، والنسائي ٥/ ١١٠ باب وجوب الحج.

لإساءتهم الأدب، أي لا تكثروا مساءلة رسول الله ﷺ عما لا يعنيكم، إن أفتاكم بها حسبما أوحي إليه لم تطيقوا حملها، والآية تتضمن النهي عن الفضول، وما لا يعني، وفي الحديث الشريف: «إن أعظم المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء، لم يُحرَّم على الناس، فحُرِّم من أجل مسألته»[(١)] والسؤال على نوعين: **أحدهما**: ما كان على وجه التبيين فيما يحتاج إليه من أمر الدين، وذلك جائز، كسؤال عمر وغيره في الخمر، **وثانيهما**: ما كان على وجه التعنُّت، نظيرُه سؤال الأقرع حين وجب الحج، والمراد بما في الحديث هذا النوع[(٢)] ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ عما سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها، وفيه حثهم على الجد في الانتهاء عنها يعني كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم، ويعفو عن كثير.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ أي سألوا مثل هذه المسألة المحظورة، المستحقّة للوبال، والضمير في موقع المفعول به، وذلك من باب الحذف والإيصال، والمراد سأل عنها، واختلف في تعيين القوم فعن ابن عباس هم قوم عيسى سألوه إنزال المائدة، وقيل هم قوم موسى سألوه بيان البقرة ﴿مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا﴾ أي صاروا بسببها ﴿كَٰفِرِينَ﴾ لأنهم سألوا أنبياءهم أشياء، فلمّا أمروا بها تركوها فهلكوا.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ١٣/٢٢٦ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٨ باب توقيره ﷺ.

(٢) ورد عن حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية أن المعنى: لا تسألوا عن أشياء خفيَّة، يكون في الإخبار عنها مساءة لكم، إمَّا لتكليف شرعي يلزمكم، وإمَّا لخبر محزن يسوءكم، مثل الذي سأل الرسول ﷺ: مَنْ أبي؟ ولكنْ إذا نزل القرآن بشيء، وابتدأكم ربكم بأمر، فحينئذٍ إن سألتم عن بيانه بُيِّن لكم. نقله صاحب البحر المحيط ٤/ ٣١.

أهل الجاهلية، وهو أنهم كانوا إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن، آخرُها ذكر، بَحَروا أذنها ـ أي شقّوها ـ وخلَّوا سبيلها، فلا تُركب ولا تُحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيتُ فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، فإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإذا ولدتهما قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يُذبح لها الذكر، وإذا جاء من صلب الفحل عشرة أبطن حرَّموا ظهره، ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا: حمى ظهره، ومعنى ﴿ما جعل﴾ أي ما شرع ووضع ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون، ويقولون: الله أمرنا بهذا، وأول من سيَّب السوائب، ونصب الأنصاب، وغيَّر دين إبراهيم هو «عمرو بن لُحَيّ» ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أن ذلك افتراء باطل، ولا يعرفون الحلال من الحرام، ولكنهم يقلّدون كبارهم، ومنهم من يعرف بطلان ذلك، ولكن منعهم حبُّ الرياسة، وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ أي لأولئك المشركين على سبيل الإرشاد إلى الحق ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ الذي أنزل عليه ذلك، لتميّزوا الحرام من الحلال ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ في هذا الشأن فلا نلتفت لغيره، وفي الآية بيان لعنادهم، وانهماكهم في التقليد، واستعصائهم على الهادي إلى الحق ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ أي أيقولون هذا القول، ولو لم يكن آباؤهم يعقلون شيئاً من الدين، ولا يهتدون إلى الحق؟ والهمزة للإنكار، والتعجيب، وفائدة التعجيب المبالغة في الإنكار، ودلت الآية أن الاقتداء إنما يصح، بمن عُلِم أنه عالم مهتد، فلا يكفي التقليد للجاهل الذي ليس له حجة صحيحة من شرع ودين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة، الذين ماتوا على الكفر، فقيل لهم ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضلَّ، إذا كنتم

مهتدين، ومن جملة الاهتداء أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لحديث «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يُغيِّروا ولا يُغيِّروا، إلاَّ يوشك أن يعمَّهم الله بعقاب»(١) وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فقال ﷺ يا معاذ: «مروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوىً متَّبعاً، وإعجاب كل امرىءٍ برأيه، فعليكم أنفسكم، لا يضركم ضلالةُ غيركم»(٢) ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بالثواب والعقاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من أعمال الهداية والضلال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨ والترمذي في التفسير رقم ٣٠٥٩ وفي الفتن رقم ٢١٦٩.

(٢) أخرجه ابن مردويه، ورواه الترمذي بأوسع من هذا رقم ٣٠٥٨ في كتاب التفسير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله ﴿ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ ﴾ المراد ههنا الإشهاد في الوصية، أي أشهدوا بعض المسلمين العدول عند الوصية ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ أي شارفه وظهرت علائمه ﴿ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ﴾ أي حين تريدون تقرير الوصية على أنفسكم، ونبهت الآية على أن الوصية من المهمات المقررة، التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم، ويذهل عنها ﴿ ٱثۡنَانِ ﴾ أي شهادة اثنين، لفظه خبر ومعناه أمر، يعني ليشهدْ اثنان ﴿ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ أي من أقاربكم المسلمين، لأن الأقارب أعلم بأحوال الميت، وأنصح له، وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له ﴿ أَوۡ ءَاخَرَانِ ﴾ أي شهادة آخرين ﴿ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ أي من غير المسلمين، كما روي عن ابن عباس، وابن مسعود، واختاره جماعة من المتأخرين ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي سافرتم فيها ﴿ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ ﴾ أي فقاربكم الأجل حينئذ، وليس معكم من أهل الإسلام من يتولى أمر الشهادة، كما هو الغالب المعتاد في الأسفار، فليشهد آخران على الوصية ﴿ تَحۡبِسُونَهُمَا ﴾ أي تقفونهما للتحليف ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي من بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، ولأن جميع الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه عن الحلف الكاذب، والخطاب للموصى لهم، وقيل للورثة، وقيل للحكام والقضاة ﴿ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ فيحلفان به تعالى ﴿ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ معترضة بين القسم وجوابه، أي إن ارتبتم في شأنهما بخيانة، وأخذ شيء من التركة فحلفوهما ﴿ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا ﴾ جواب القسم والمعنى: لا نأخذ لأنفسنا عَرَضاً من الدنيا، بالحلف الكاذب أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ﴿ وَلَوۡ كَانَ ﴾ أي المقسم له ﴿ ذَا قُرۡبَىٰ ﴾ أي قريباً منا ﴿ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي الشهادة التي أمر الله، بحفظها وتعظيمها ﴿ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾ أي إن كتمناها نكون من الظالمين، المستحقين للعقوبة.

﴿ فَإِنۡ عُثِرَ ﴾ أي اطلع بعد التحليف ﴿ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا ﴾ أي فعلاً يوجب إثماً من تحريفٍ، أو كتمٍ، بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة

﴿ فَـَٔاخَرَانِ ﴾ أي فرجلان آخران ﴿ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ أي يقومان مقام الذين عثر على خيانتهما، لإظهار الحق، وإبراز كذبهما ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾ أي من أهل الميت والمراد من ﴿الأولَيَيْن﴾ الأقرباء إليه وهما في الحقيقة الآخران القائمان مقام الذين استحقا إثماً ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ ﴾ أي ليميننا ﴿ أَحَقُّ ﴾ بالقبول ﴿ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾ أي من يمينهما ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ عليهما بإبطال حقهما ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي الظالمين أنفسهم، والمراد بالشهادة عند الكثيرين ومنهم ابن عباس اليمين، ﴿وما اعتدينا﴾ أي ما تجاوزنا في شهادتنا الحق، وما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما، ومعنى الآيتين عند المفسرين: أن المحتضر إذا أراد الوصية، ينبغي أن يُشهد عدلين من ذوي دينه، أو نسبه، فإن لم يجدهما، بأن كان في سفر فآخران من غيرهم، ثم إن وقع ارتياب في صدقهما، أقسما على صدق ما يقولان، بالتغليظ في الوقت، فإن اطلع على كذبهما بأمارة، حلف آخران من أهل الميت، وادعى أن الحكم منسوخ. قال الزجاج: إن هذه الآية من أشكل ما في القرآن، وقال الفخر الرازي: إن هذه الآية في غاية الصعوبة، إعراباً وحكماً وسبحان الخبير بحقائق كلامه.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الحكم المذكور ﴿ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ أي أقرب أن يؤدي الشهود، الشهادة على وجهها الذي تحمّلوها عليه، من غير تحريف ولا خيانة فيها، خوفاً من العذاب الأخروي ﴿ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة، بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا الافتضاح بإبطال أيمانهم، والعمل بأيمان الورثة، فينزجروا عن الخيانة، فأي الخوفين وقع حصل المقصد، الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في مخالفة أحكامه التي من جملتها ما ذكر ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ ما تؤمرون به سماع طاعة وقبول ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ الخارجين عن الطاعة.

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾ منصوب بمضمر، أي واحذروا يوم يجمع الله الرسل، فإن تذكُّر ذلك اليوم الهائل، مما يضطرهم إلى تقوى الله عزّ وجل، وتخصيص الرسل بالذكر لبيان شرفهم وفضلهم، وتعظيم شهادتهم، فالشهود في الآخرة رسل الله المكرمون، وأما الحشر فلجميع الخلائق كما قال سبحانه: ﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناسُ وذلك يوم مشهود﴾[1] ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لهم مشيراً إلى خروجهم عن عهدة الرسالة، ماذا أجابتكم به أممكم؟ ولما كان سبحانه مطلعاً على أحوال الرسل، لم يقل لهم: هل بلغتم رسالاتي؟ وإنما قال: ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾؟ أي ما الذي أجابتكم أممكم، حين دعوتموهم إلى الإيمان؟ هل أجابوكم إجابة قبول، أو إجابة رد ﴿ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ قالوا ذلك تأدباً أي علمنا ساقطٌ مع علمك، كأنه لا علم لنا، فوّضوا الأمر إلى علمه تعالى، لما اعتراهم من مقاساة الأهوال والشدائد من أممهم، إظهاراً لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعته، وفيه التشكي منهم، ورد الأمر إلى علمه تعالى، والعلاّم صيغة مبالغة، والمراد به الكامل في العلم.

---

(١) سورة هود، آية: ١٠٣.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ في الآية تذكير بعبودية عيسى، وتوبيخ لمن عبدوه من دون الله، وتخصيصه بالخطاب من بين الرسل، لِمَا أن شأنه متعلق بكلا الفريقين، من أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ أي اذكر إنعامي إليكما، وفضلي عليكما، وتذكيره بالنعمة ليكون توبيخاً ومزجرة للكفرة المختلفين في شأنه، ثم وضّح طرفاً من هذا الإنعام فقال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي حين أمددتك وقويتك بالروح الطاهرة المقدسة «جبريل» عليه السلام ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي تكلم الناس وأنت طفل رضيع في فراشك، وهذه معجزة ظاهرة، حيث لم تجر العادة بكلام الصبي حديث الولادة، كما تكلمهم في سن الكهولة والشيخوخة، وهذه معجزة أخرى، تدل على حياته في السماء، حيث رفعه الله إليه، وسينزل إلى الأرض في آخر الزمان، ليكلم الناس بحقيقة أمره ورسالته، وليس كما زعم اليهود أنهم صلبوه واعتقد به النصارى ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ أشارت الآية إلى أن تلك الخوارق، ليست من قبل عيسى بل من جهته سبحانه، أظهرها على يديه معجزة له ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ أعيدت «إذ» لكون إخراج الموتى من قبورهم، لا سيما بعدما صاروا رميماً، معجزة باهرة، حَرِيَّةٌ بتذكير وقتها صريحاً ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ يعني اليهود، حين همُّوا بقتله، ولم يتمكنوا منه ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي حين جئتهم بالمعجزات الواضحة، مما ذكر ومما لم يُذكر، كالإخبار بما يأكلون، ويدخرون في بيوتهم، ونحو ذلك ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله، أي كففتهم عنك حين قالوا ذلك، عند مجيئك إياهم بالبينات، فزعموا أن هذه الخوارق، ما هي إلا من قبيل السحر الواضح.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا
مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ
عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن
نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا
عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا
عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ معنى الإيحاء إليهم، أمره تعالى إليهم في الإنجيل، أي حين أمرت الحواريين وقذفت في قلوبهم، فجاء استعمال الوحي بمعنى الأمر، وإنما لم يترك الوحي على ظاهره، لأنه مخصوص بالأنبياء، والحواريون ليسوا كذلك ﴿ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ أن مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول، كأنه قيل: آمنوا بوحدانيتي، وبرسالة رسولي، وفيه إشارة إلى عدم إخراجه عن حد الرسالة، فهو رسول وليس بإله ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ طبق ما أُمرنا به ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون في إيماننا، وهذا القول منهم نعمة جليلة، كسائر النعم عليه وعلى والدته أيضاً.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه، منقطع عما قبله كما ينبىء عنه الإظهار ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الأظهر من أقوال المفسرين، أن هذا السؤال من الحواريين، لم يكن عن شك وارتياب في قدرة رب الأرباب، وإنما كان سؤال استفسار واستخبار، عن إنزال الله المائدة من السماء، فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت، ولكنهم أخطأوا في التعبير فقالوا: ﴿هل يستطيع﴾ ويريدون به: هل يفعل ربك ذلك، فإنهم كانوا مؤمنين، وأُيد ذلك بقوله تعالى: ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ الآية، ومعنى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ ﴾ هل يجيبنا ربك إلى هذا الطلب، فينزل علينا

مائدة، والمائدة في المشهورِ الخِوان الذي عليه الطعام، ﴿ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ من أمثال هذا السؤال، واقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتي، أو صَدَقتم في ادعائكم الإيمان.

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا منها ولسنا نريد من السؤال إزالة شبهتنا في قدرته سبحانه وفي صحة نبوتك وليس مرادنا اقتراح الآيات بل مرادنا ما ذكر ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بازدياد اليقين ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ علم مشاهدة على ما قدمناه ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ عند من لم يحضرها ليزداد المؤمنون بشهادتنا إيماناً.

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، ثم توضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، ثم دعا الله فقال: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ ﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الألوهية، ومرةً بوصف الربوبية، إظهاراً لغاية التضرع، ومبالغة في الاستدعاء، حذف حرف النداء في الأول وعُوّض عنه الميم، أي يا ألله يا ربنا ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي أنزل علينا مائدة فيها الطعام، من محض فضلك وعطائك، من عندك، قال عمار بن ياسر: إن المائدة التي نزلت كان عليها من ثمر الجنة، ومن طعام الجنة، وقال سلمان الفارسي: إن المائدة لما نزلت قال شمعون رئيس الحواريين: يا روح الله!! أمن طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال له: ليس من طعام الجنة، ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله فقال له كن فكان ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظّمه، ويكون يوم فرح ﴿ لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ أي لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا ﴿ وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ أي آية كائنة منك، دالة على كمال قدرتك، وصحة نبوتي ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ صنوف الطعام في هذه المائدة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الأرزاق، ومعطيها بلا عوض.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ إجابةً لسؤالكم، أي سأنزل المائدة من السماء حسب طلبكم ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ ﴾ أي بعد تنزيلها ﴿ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ ﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية ﴿ عَذَابًا ﴾ اسم مصدر بمعنى التعذيب ﴿ لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ ﴾ أي أعذبه تعذيباً لا أعذّبه مثل ذلك التعذيب ﴿ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي أحداً من البشر. روى الترمذي عن عمّار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدةُ من السماء، خبزاً ولحماً، وأُمروا أن لا يخونوا، ولا يدّخروا لغدٍ، فخانوا، وادخروا ورفعوا لغدٍ، فمُسِخوا قردة وخنازير»(١).

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي اذكر وقت قوله تعالى لعيسى ابن مريم في الآخرة، توبيخاً للكفرة ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ ﴾ أي أأنت دعوت الناس إلى عبادتك، والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟ ﴿ مِن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٤٢ برقم ٣٠٦١.

﴿دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي من غير الله تعالى، فجعلت نفسك في مقام الألوهية، وإنما سأله ذلك على رؤوس الأشهاد في الآخرة، توبيخاً لمن عبد المسيح، ليكون إنكاره أبلغ في التكذيب، وأشد في التقريع والتأنيب ﴿قَالَ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك يا رب من أن أقول ذلك، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ أي ما ينبغي لي أن أقول قولاً، لا يحق لي أن أقوله، فأنا عبد لك ولستُ برب، وأنت وحدك المعبود في هذا الوجود، فكيف أدعوهم إلى عبادتي؟ وقوله: ﴿ما يكون لي﴾ أي لا ينبغي ولا يليق بي، أبلغ من «لم أقله» فلذا أوثر عليه، ثم أكَّد ذلك بحجة أخرى، على سبيل الترقي، فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ مقرر لعدم صدور القول المذكور، لأن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى، فحيث انتفى علمه سبحانه به، انتفى صدوره عنه ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك، وقوله: ﴿في نفسك﴾ للمشاكلة، أو المراد بالنفس الذات، أي تعلم ما أضمره في ذاتي، ولا أعلم حقيقة ذاتك وما فيها من صفات الكمال، والآية مبالغة في الأدب، وتفويض الأمر إليه سبحانه ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ تعليل وتقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه أي إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا، وعلمك محيط بما كان ويكون.

ثمَّ بين ما قاله عليه السلام لقومه بقوله:

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ أي ما أمرتهم إلا ما أمرتني به، ثم فسر ما أُمر به ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ أن مفسرة والمعنى: قلتُ لهم: اعبدوا الله خالقي وخالقكم، فأنا عبد لله مثلكم ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ رقيباً أراعي أحوالهم، وأمنعهم عن المخالفة، وشاهداً لأفعالهم من إيمان وكفر، وفي أناجيلهم ما رواه يوحنا عنه: «وهذه هي الحياةُ الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ أي كنت شهيداً عليهم مدة دوامي فيما بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ بالرفع إلى جنابك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي

الحافظ لأعمالهم، والمراقب لحركاتهم، والشاهد على أفعالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي وأنت المطّلع على كل شيء، لا يخفى عليك أمر من أمور العباد.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك، أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك فيما يفعل بملكه، فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت، لا اعتراض عليك في فعلك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي وإن تغفر لهم ما اقترفوا من جرائم وذنوب، ومقصوده تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك التعرض لهذا الباب ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ أي القوي القادر على جميع المقدورات، ومن جملتها الثواب والعقاب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ أي يقول الله تعالى يومئذ، عقيب جواب عيسى مشيراً إلى صدقه ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا اليوم ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي المستمرين على الصدق، الذين صدَّقوا رسل الله في الدنيا، وصَدَقوا في إيمانهم وطاعتهم لله، ينفعهم صدقهم لأنه يوم الجزاء على العمل، ويوم فوز المؤمنين الصادقين ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لهم حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لحصول المقصد الأقصى، وهو الفوز بجنات النعيم ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ كما أن عظم شأن الفوز، تابع لعظم شأن المطلوب، وهو الجنة دار السرور والحبور.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ تحقيق للحق، وتنبيه على كذب النصارى، وفساد ما زعموا، أي له خاصة ملك جميع ما في الكون، خلقاً وملكاً، وتصرفاً لا مالك سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي القادر على كل شيء، هذه السورة اشتملت على أنواع من العلوم، منها بيان الشرائع

والأحكام، ومنها المناظرة مع اليهود والنصارى، فختم بهذه الآية للإشارة إلى أن كل ما سوى الحق سبحانه موجود بإيجاده، يتصرف في الكل، بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام، وهو الملك العلام، نسأل الله أن يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجناته ورضوانه.

«تم تفسير سورة المائدة والحمد لله رب العالمين»

* * *



مكية وهي مائة وخمس وستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تعليقُ الحمد باسم الذات، للإيذان بأنه عزَّ وجل هو المستحقُّ له بذاته، ووصفُه بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له باعتبار أفعاله العظام، وتخصيصُ خلقهما بالذكر، لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية، التي أجلُّها نعمة الوجود، الكافية في إيجاب حمده تعالى على كل موجود، أخبر تعالى بأنه حقيقٌ بالحمد، ونبّه على أنه المستحق للحمد، على هذه النعم الجسام، حُمِدَ أو لم يُحْمد، ليكون حجةً على الذين هم بربهم يعدلون، وجَمَعَ السَّماءَ وقدَّمها لشرفها، وأشرفيةُ السماءِ لأنها محلُّ الملائكة، وقبلةُ الدعاءِ، ومعراجُ الأرواح الطاهرة، ومعظم آيات الله فيها، وغير ذلك، والمراد من

الخلق: الإنشاءُ والإيجاد، أي أوجد السماوات والأرض، على ما هما عليه، ممّا فيه آياتٌ للمتفكرين ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ جَمَع الظلمات لكثرة أسبابها، ولم يذكر النور في القرآن إلا مفرداً، والظلمات إلاّ جمعاً، لأن النور شيءٌ واحد، وإن تعدَّدت مصادره، وأما الظلمات فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام، وهي كثيرة، والمراد من الظلمات: ظلمةُ الشرك، والنفاق، ومن النور: نورُ الإسلام، وقيل: المراد حقيقة النور والظلام، فهما مظهر من مظاهر القدرة الباهرة، عبَّر تعالى عن إحداث النور والظلمات بالجعل، تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما، بل لا بدَّ لهما من خالق مبدع، وهو الله رب العالمين ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ العدلُ بمعنى العدول أي الانصراف، والمعنى: أنه سبحانه خلق هذه الأجرام العظام، التي دخل فيها كل ما سواه ثم هؤلاء الكفرة، الجاحدون للنعم، يسوُّون به تعالى غيره، ممن لا يقدر عليها، وهم في قبضة تصرفه، و«ثُمَّ»، لاستبعاد ما وقع من الكفرة وللتوبيخ، أي وبعد كل هذه الدلائل، يشرك الكفار فيسوُّون بين الأوثان والرحمن.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي ابتدأ خلقكم منه، فإنه المادة الأولى للكل، وآدم هو أصل البشر خُلق منه، وتخصيص خلقهم بالذكر، من بين دلائل البعث، لما أن محل النزاع بعثهم، وكلُّ البشر له حظ من إنشائه منه، حيث لم تكن فطرة آدم مقصورة على نفسه، بل كان أنموذجاً منطوياً على فطرة آحاد الجنس، وقيل معنى خلقكم منه، من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض، وأياً ما كان ففيه من وضوح الدلالة، على كمال قدرته تعالى على البعث، فإن من قَدَر على إحياء ما لم يشمَّ رائحة الحياة قط، كان إحياء ما قارنها أظهر قدرة ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ أي كتب لموت كل واحدٍ منكم ﴿أَجَلًا﴾ خاصاً به من الزمان، يفنى عند حلوله لا محالة، وكلمة «ثم» للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم، وبين تقدير آجالهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو أجل القيامة، وقيل: الأول ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث، وهو الأوفق لما روي عن ابن عباس قال: إن الله

قضى لكل أحد أجلين: أجلاً من مولده إلى موته، وأجلاً من موته إلى مبعثه، فإن كان براً وصولاً إلى الرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر وإن كان فاجراً قاطعاً نقص من أجل العمر، وزيد في أجل البعث، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُعمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتَابٍ﴾[1] ﴿عِندَهُۥ﴾ أي وأجلٌ مثبتٌ ومبيَّنٌ في علمه تعالى، لا يتغيَّر، وتسميته أجلاً باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لامترائهم، بعدما ثبت أنه خالقهم، وخالق أصولهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها، وإبداع الحياة فيها، وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمعها ثانياً، والامتراء في الشيء: الشكُّ فيه، ولا شك في أن لكل فرد أجلاً في علم الله تعالى، فلا يتغير، ولا يقتضي هذا نفي الأسباب، فإن صلة الرحم من أهم أسباب هناء المعيشة، وهناءُ المعيشة من أهم أسباب طول العمر، وكذلك الدعاء الذي منشؤه قوةُ الإيمان، التي تقاوم الهموم والأكدار، اللذان يهرمان قبل أوان الهرم.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ مسوقة لبيان شمول أحكام إلٰهية لجميع المخلوقات، وإحاطة علمه بأعمال العباد ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو المستحق للعبادة فيهما لا غيره، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[2] كأنه قيل: وهو المعبود فيهما﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما أسررتم، وما جهرتم به، من الأقوال، والأفعال. والمراد من السر ما يخفيه الإنسان في ضميره، وبالجهر ما يظهره، وفائدةُ ذكر الجهر للمقابلة، والتأكيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير وشر، فيثيب عليه ويعاقب وقيل: أريد بالسر والجهر: ما يخفى وما يظهر من أحوال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح وتخصيصها بالذكر لإظهار كمال الاعتناء بها، لأنها التي يتعلق بها الجزاء.

---

(١) سورة فاطر، آية: ١١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٨٤.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن، التي من جملتها تلك الآيات الناطقة ببدائع صنع الله تعالى ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه، وإيثار الجملة على أن يقال: «إلا أعرضوا عنها» للدلالة على استمرارهم على الإعراض، حسب استمرار الإتيان، كما يفصح عنه كلمة «لمَّا» في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يعني كذَّبوا بالقرآن المنير الواضح، وهو كاللازم لما قبله وكالدليل عليه، على أنهم لما أعرضوا عن القرآن، وكذَّبوا به، وهو أعظم الآيات، فكيف لا يعرضون عن غيره؟ والمراد من الحق القرآن الذي أعرضوا عنه، عبَّر عنه بذلك، إبانةً لكمال قبح ما فعلوه، فإنَّ تكذيب الحق مما لا يُتصور صدوره عن عاقل ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم و«سوف» لتأكيد مضمون الجملة وتقريره، أي فسيأتي البتة وإن تأخر، و«ما» عبارة عن الحق المذكور، عبَّر عنه بذلك تهويلاً لأمره بإبهامه، والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الذي يعظُم وقعه، وأنباؤه تعالى عبارة عما سيحلُّ بهم من العقوبات العاجلة، من القتل، والسبي، والجلاء، ونحو ذلك. رتب الله تعالى أحوال الكفار على ثلاث مراتب: **الأولى**: كونهم معرضين، **والثانية**: مكذبين، **والثالثة**: مستهزئين فبين الله

تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب، وسينالون جزاء هذا التكذيب.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ مسوق لتعيين ما هو المراد بالأنباء، التي سبق بها الوعيد، والقرْنُ: عبارةٌ عن أهل عصر من الأعصار[1]، والمعنى: ألم يعرف هؤلاء المكذبون المستهزئون، بمعاينة الآثار، وتواتر الأخبار، كم أمة أهلكنا من قبل خلقهم؟ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأضرابهم؟ ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً، وأعطيناهم ما تمكنوا به من أنواع التصرف فيها ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من القوة والسعة في المال، والاستظهار بالعدد والأسباب والخطاب لكفرة قريش ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّدْرَارًا﴾ مغزاراً كثير الصبّ، وهو صيغة مبالغة من قولهم: درَّ اللبن، ويقال: سحاب مدرار إذا تتابعت أمطاره ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي من تحت مساكنهم، وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم، مستمرة على الجريان، والمراد أنهم عاشوا في الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، وأعطيناهم ما لم نعط أهل مكة، ففعلوا ما فعلوا ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ فما أغنت عنهم تلك العُدَد والأسباب ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أوجدنا ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ بعد إهلاك كل قرن ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً من الهالكين، والمعنى: أنه تعالى كما قدر أن يهلك من قبلكم وينشىء مكانهم آخرين، يقدر أن يهلككم يا أهل مكة، وهذا بيان لكمال قدرته تعالى، وفي الآية ما يوجب الاعتبار، فإنهم مع ما كانوا عليه من العَدَد والعُدَد أُهلكوا لكفرهم، فكيف بمن هم أضعف منهم؟

---

(١) القرونُ جمع قرن، وهو أهلُ كل زمان، مأخوذ من الاقتران، كأنَّ أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم، وقيل: القرنُ مائةُ سنة.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل، لمّا قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون أنه من عند الله وأنك رسول الله، والقرطاسُ: الورقُ الذي يكتب فيه ﴿ فَلَمَسُوهُ ﴾ أي الكتاب ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ بعدما رأوه بأعينهم، بحيث لم يبقَ لهم في شأنه اشتباه، والرؤيةُ واللمس أقوى اليقينيات الحسيّة، ولا سيما إذا اجتمعا ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ جواب «لو» أي لقالوا تعنتاً وعناداً للحق، وإنما وضع الموصول موضع الضمير، لتسجيل الكفر عليهم ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا، مشيرين إلى ذلك الكتاب ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بيّن كونه سحراً.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ هلاّ أُنزل عليه ملك، يكلمنا أنه نبيٌّ كقوله تعالى: ﴿لولا أُنْزِلَ إليه ملكٌ فيكونَ معهُ نَذيراً﴾[1] ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي ولو أنزلنا عليهم ملكاً على صورته الحقيقية، فشاهدوه بأعينهم، لتمَّ أمر إهلاكهم بسبب مشاهدتهم له، لمزيد هول المنظر، وقد قيل: إن جميع الأنبياء وهم هم إنما رأوا المَلك في صورة البشر، ولم يره أحد منهم على صورته غير النبي ﷺ كما صحَّ من رواية الترمذي عن

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

عائشة: «أن النبي ﷺ رأى جبريل مرتين، على صورته الأصلية»[1] ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يُمهلون بعد إنزاله ومشاهدتهم له طرفة عين.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الضمير الأول للنذير، والضمير الثاني للمَلك، والمعنى: لو جعلنا النذير الذي اقترحوه مَلَكاً، لمثّلنا ذلك الملك رجلاً لعدم استطاعة البشر لمعاينة الملك على هيكله وفي إيثار رجلاً على «بشراً» إيذانٌ بأن الجعل بطريق التمثيل، لا بطريق قلب الحقيقة، وفيه إشعار بأن الرسول لا يكون امرأة، وهو متفق عليه ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ اللَّبْسُ: الخلطُ، لبس عليه الأمر خَلَطه ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ بأن يقولوا له: إنما أنت بشر، ولستَ بِمَلك، فيلتبس الأمر عليهم ويختلط، وفيه تأكيدٌ لاستحالة جعل النذير مَلَكاً!!

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، أي وبالله لقد استهزىء برسلٍ أولي شأن خطير، ذوي عدد كثير، كائنين من قبلك، ولستَ أول رسول استهزأ به قومه ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا متضمن أن من استهزأ بالرسل عوقب، فكأنه سبحانه وعده بعقوبة من استهزأ به، و«حَاقَ» بمعنى أحاط، ولا يكاد يُستعمل إلاَّ في الشر، أي فأصابهم الذي كانوا يستهزئون به، حيث أُهلكوا لأجله، أو نزل بهم وبال استهزائهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بأَهْلِهِ﴾[2].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد بيان ما فعلت الأمم الخالية، وما فُعل بهم، أمر الله رسوله بإنذار قومه، تحذيراً لهم عما هم عليه، وتكملةً للتسلية، بما ضمنه من العِدَةِ اللطيفة، بأنه سيحيق بهم، مثل ما حاق

---

(١) رواه الترمذي في التفسير ٥/٣٦٨ من حيث عائشة، ولفظُه «ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلاَّ مرتين: مرَّةً عند سدرةِ المنتهى، ومرَّةً في جياد، له ستمائة جناح، قد سدَّ الأُفق».
(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

بأضرابهم الأولين، أي سيروا في الأرض لتعرُّف أحوال أولئك الأمم ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي تفكَّروا في أنهم كيف أُهلكوا بعذاب الاستئصال، والعاقبةُ: هي منتهى الأمر ومآله، ووضع المكذبين موضع المستهزئين، لتحقيق أن مدار إصابة ما أصابهم، هو التكذيب لا الاستهزاء فقط، ولمَّا بيَّن الله تعالى في الآيات السابقة، أصول الدين، وشبهات الكفار على الرسالة، وما يدحضها، قفَّى سبحانه على ذلك، بتلقينه أسلوباً آخر، وهو أسلوب السؤال والجواب.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

فقال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أي قل يا رسول الله على سبيل التقريع: ﴿لِمَن مَا في السَمٰوات والأرض﴾؟ أي لمن الكائنات جميعاً، خلقاً، ومُلْكاً وتصرفاً؟ فإن أجابوك وإلاّ ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقرير الجواب نيابة عنهم، بأن الكل له سبحانه، وفيه إشارة إلى أن الجواب، قد بلغ من الظهور، إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا على دفعه دافع، كما نطق به تعالى في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر، ناطقة بشمول رحمته الواسعة للجميع، لبيان أنه تعالى رؤوف

(١) سورة لقمان، آية: ٢٥.

بعباده، لا يعجّل عليهم بالعقوبة، ومعنى كتب الرحمة إيجابها بطريق التفضل والإحسان، ومن رحمته أنه تعالى خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده، بنصب الآيات، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لاجتناب مقتضيات سخطه ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله ليجمعنكم مبعوثين إلى يوم القيامة، وهذا من مقتضيات تلك الرحمة، لأن الجمع لأجل الحساب والجزاء رحمة بالمكلفين، والعلم به رحمة أيضاً، لأنه لولا خوف الحساب والعذاب، لحصل الهرجُ والمرجُ، ولحصل الظلمُ، فصار الإيمان بيوم القيامة، من أعظم أسباب الرحمة، والخطاب للكافرين، وقيل عام، أي ليجمعنكم أيها الناس إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه، لوضوح أدلته ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة، والعقل السليم، واستماع الوحي ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عدم إيمانهم بسبب خسرانهم، فإن إبطال العقل، والانهماك في التقليد، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر، والجملةُ لتقبيح حالهم، غير داخلة تحت الأمر.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ احتجاج ثانٍ على المشركين، أي له جلَّ وعلا ما ثبت واستقر في الليل والنهار، الجميعُ عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه، فهو الخالق، وهو المالك لجميع الكائنات والأشياء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ مبالغ في كل مسموع ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ مبالغ في العلم بكل معلوم، فلا يخفى عليه شيء من الأفعال والأقوال.

﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي قل لهؤلاء المشركين: أغيرَ الله أتخذ معبوداً؟ قيل: إن المشركين من أهل مكة، قالوا له ﷺ: يا محمد، تركتَ ملة قومك وقد علمنا أنه لم يحملك على ذلك إلا الفقر، فارجع فإنا نجمع لك من أموالنا، حتى تكون من أغنيائنا، فنزلت الآية ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما على غير مثالٍ سابق، أي هو المخترع والموجد لهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرْزق،

فالمراد من الطعام: الرزقُ بمعناه اللغوي، وهو كل ما يُنتفع به ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابق أمته في الدين، وينبغي لكل امرٍ، أن يكون هو العامل أولاً بما أَمَرَ به، ليكون أدعى للامتثال ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ولا تكوننَّ في أمر من أمور الدين من المشركين.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بمخالفة أمره ونهيه أيَّ عصيانٍ كان، وفيه بيان لكمال اجتنابه ﷺ عن المعاصي على الإطلاق ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عذاب يوم القيامة، وفيه تعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، وعِظَم اليوم لعِظَم ما يقع فيه، وليس في الآية دلالةٌ على أنه ﷺ يخاف على نفسه الكفر والمعصية، لأن الشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ إن كانَ للرحمنِ ولدٌ فأنا أوَّلُ العابدينَ﴾[1].

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي الرحمة العظمى وهي النجاة، وقيل: المرادُ فقد أدخله الجنة، فَذُكِر الملزومُ وأُريد اللازمُ، لأن إدخال الجنة من لوازم الرحمة ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفوز المبين: هو بدخول الجنة لقوله تعالى: ﴿فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز﴾ والفوزُ: الظفرُ بالبُغْية، ونيلُ المطلوب.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢١)﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٨١.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي ببلية كمرضٍ، وفقرٍ، ونحو ذلك، والخطابُ للرسول ﷺ وحكمه عام ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا قادر على كشفه سواه سبحانه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من صحة وغنى وغير ذلك ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيمسكه ويحفظه عليك، من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[1] ومن دقائق بلاغة القرآن المقابلة بين الضر والخير، والنكتةُ فيه أن الضر من الله تعالى ليس شراً في الحقيقة بل هو تربية واختبار، ثم ذكر الخير في مقابلة الضُرِّ، فأفاد أن ما ينفع الناس من النعم، إنما يحسن إذا كان خيراً لهم، وقدم الضر إيذاناً على أن المضرة يعقبها الخير والسلامة[2]، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا غلامُ إني أعلمك كلماتٍ: احفظِ الله تعالى يحفظكْ، احفظِ الله تعالى تجدْه أمامك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلمْ أن الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعُوك بشيء، لم ينفعوك إلاّ بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلامُ، وجفَّتِ الصُحُفُ»[3].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ تصويرٌ لقهره تعالى، وعُلوِّه بالغلبة والقدرة، والقاهر والقهار الذي يدبّر ما يريد، فلا يستطيع أحد ردَّ تدبيره، وظاهر الآية يقتضي القول بالجهة، والله تعالى منزه عنها، لأنها محدثة بإحداث العالم، ومذهب السلف إثبات الفوقية لله تعالى، كما نص عليه الإمام الطحاوي، واستدلوا بما روى أبو داود من قوله ﷺ للرجل الذي

---

(١) سورة يونس، آية: ١٠٧.

(٢) إنما قدم الضر على النفع، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً، كما قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٦٠ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند رقم ٢٦٦٩.

استشفع بالله تعالى عليه: «ويحك، أتدري ما الله تعالى؟ إن الله تعالى فوق عرشه، وعرشُه فوق سماواته» وبالجملة يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، وتفويض علم ما جاء من المتشابهات إليه عز وجل، والإيمان بها، والله تعالى أعلم ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي ذو الحكمة البالغة، وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي العالم بما دقَّ من أفعال العباد.

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾؟ روى الكلبي أن كفار مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنْ ليس لك عندهم ذكرٌ، فأتنا بمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزلت ومعنى ﴿أكبرُ شَهٰدَةً﴾ أعظم وأصدق أي قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين: أيُّ شيء أكبر شهادة؟ فإن أجابوك، وإلاَّ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ أي الله أكبر شهادة، شهيد بيني وبينكم أني رسولُه ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قِبَله تعالى ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ العظيم الشاهد برسالتي ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ بما فيه من الوعيد والاقتصار على الإنذار، لما أن الكلام مع الكفار ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أي لأنذركم به يا أهل مكة، وسائر من بلغه من الثقلين، إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن الكريم تعمُّ الموجودين، وقت نزوله ومن بعدهم، روي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغه القرآن فكأنما شافهتُه»[1] ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾ تقريرٌ لهم مع إنكار واستبعاد لدعواهم ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ بذلك وإن شهدتم به، فإنه باطل صرْف ﴿قُلۡ﴾ تكرار الأمر للتأكيد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي بل أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ من الأصنام، قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداءً، أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال «من بَلَغَه القرآنُ فكأنما رأى النبيَّ ﷺ وكلّمه» وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٠.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هذا جواب عما سبق من قولهم: سألنا اليهود والنصارى ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ أي يعرفون رسول الله، بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ بصفاتهم ونعوتهم، بحيث لا يشكّون في ذلك أصلاً ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ من أهل الكتاب والمشركين، بأن ضيّعوا الفطرة السليمة، وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: فكيف هذه المعرفة؟ قال: لأنا بمحمد أشدُّ معرفةً مني بابني، لأني لا أدري ما أحدثتِ أمُّه، فقال عمر: قد وفّقت وصدقتَ[1].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بادعائه أن له سبحانه شريكاً، وبقوله الملائكة بنات الله، وأمثال ذلك، الاستفهام إنكار لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساوياً له ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ المنزلة كالقرآن المجيد والمعجزات التي سموها سحراً، وكلمة «أو» للإيذان بأن كلاً من الافتراء، والتكذيب وحده، بالغٌ غاية الإفراط في الظلم، كيف وقد جمعوا بينهما؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي الشأن الخطير هذا، وهو ﴿ لَا يُفْلِحُ ﴾ أي لا يفوز بمطلوب، ولا ينجو من مكروه ﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ من حيث إنهم ظالمون، وإذا كان حال الظالمين هذا، فما ظنك فيمن هو في غاية الظلم والفجور؟.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ٱنظُرْ
كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا
يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي ويوم نحشر الكفار وآلهتهم جميعاً، على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم ﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ﴿ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ﴾ بالله تعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله سبحانه؟ وإضافتها إليهم، لما أنَّ شركتها ليست إلا بتسميتهم، وتقوُّلهم الكذب، كما ينبىءُ عنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تزعمونها شركاء، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علَّقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكأنهم غيّب عنهم.

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ الفتنةُ: اختلف في المراد منها هنا: فقيل: الشركُ واختاره الزجاج[1]، وهو مروي عن ابن عباس وقيل: معذرتهم، وقيل: جوابهم، وإنما سماه فتنة، لأنه كذب قصدوا به الخلاص ﴿ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾ أي لم يكن كفرهم الذي لزموه مدة أعمارهم، إلاَّ جحوده والتبرؤ منه، بأن يقولوا ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ يكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع، من فرط الحيرة والدهشة، كما يقولون ﴿ربنا أخرجنا منها﴾ وقد أيقنوا بالخلود.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ تعجيب من كذبهم، بإنكار صدور الشرك عنهم في الدنيا، أي انظر كيف كذبوا على أنفسهم؟ فإنه أمر عجيب ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ المراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها، أي زالت وذهبت عنهم أوثانهم، فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أي فريق منهم يستمعون إليك، ومفعوله مقدَّر وهو القرآن، قال ابن عباس: إن أبا سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر:

---

(١) قال الزجاج: مثالُ الآية أن ترى إنساناً يحبُّ غاوياً، فإذا وقع في مهلكةٍ، تبرَّأ منه، فيقال له: ما كان حبك لفلان إلاَّ أن تبرأت منه!؟.

ما يقول محمد؟ قال: ما يقول إلا أساطير الأولين، مثل ما كنتُ أحدثكم به، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ الأكنَّة جمع كِنَان، وهو ما يُسْتَر به الشيءُ، والكِنان: الغطاءُ وزناً ومعنى أي يستمعون إليك، وقد ألقينا على قلوبهم أغطيةً ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي صمماً وثقلاً مانعاً من سماعه، وهذا تمثيلٌ معربٌ عن كمال جهلهم بشؤون النبي ﷺ، وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ ﴾ أي يشاهدوا ويبصروا كل معجزة، دالة على صدق الرسول ﷺ، كانشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه الشريفة، وتكثير القليل من الطعام، ونحو ذلك ﴿ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ لفرط عنادهم، والمراد ذمهم بعدم الانتفاع بحاسة البصر، بعد أن ذكر سبحانه عدم انتفاعهم، بعقولهم وأسماعهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ يعني إنهم إذا جاؤوك إنما جاؤوا ليخاصموك ويجادلوك، و «حتى» هي التي يقال لها: حتَّى الابتدائية ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ إنما وضع الموصول ذماً لهم، وإشعاراً بعلة الحكم، أي بلغوا من التكذيب إلى أنهم إذا جاؤوك مجادلين لك لا يكتفون بعدم الإيمان، بل يقولون ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأساطير[1] جمع أسطورة، ومعناها الخُرافة، وعَدُّ أحسنِ الحديث وأصدقه، من قبيل الخرافات، رتبةٌ من الكفر، لا غاية وراءها.

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ الضمير عنه للقرآن، أي وهم لا يقنعون بما ذُكر، بل ينهون الناس عن استماعه، لئلا يقفوا على حقيقته، فيؤمنوا به ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم، إظهاراً لغاية نفورهم عنه، ويحتمل أن يكون الضمير للرسول، على معنى ينهون الناس عن الإيمان به ﷺ، ويتباعدون عنه، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس رواه ابن جرير وغيره،

---

(١) قال في القاموس: الأساطيرُ: الأحاديث التي لا نظام لها، وأرادوا ما هذا إلا كقصص وأخبار الأولين التي سطَّروها، وليس كلام الله تعالى!!.

ولا يخفى ما في «ينهون» و «ينأون» من التجنيس البديع(1) ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ أي وما يهلكون بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها لأشد العذاب، وهو عذاب الضلال والإضلال ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي والحال أنهم غير شاعرين بهلاك أنفسهم، على أن مقصدهم ليس منع الناس عن استماع القرآن، بل إغراقهم في الطغيان، فقد كانوا يبغون الغوائل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونفيُ الشعور أبلغُ من نفي العلم، كأنه قيل وما يدركون ذلك أصلاً.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الخطاب إمَّا لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، وجواب «لو» محذوفٌ إيذاناً بقصور العبارة عن تفصيله أي لو تراهم حين يوقفون على النار لرأيت ما لا يسعه التعبير، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿فَقَالُوا۟﴾ لعظم أمر ما تحققوه ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي إلى الدنيا، تمنياً للرجوع والخلاص ولكن هيهات ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ أي بآيات الله الناطقة بصدق الرسل، والمخبرة عن أحوال النار وأهوالها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل.

---

(1) الجناس فَنٌّ من فنون علم البديع، يزيد الكلام رونقاً وجمالاً، فقد اتفقت الحروف بين «ينهون» و «ينأون» إلاَّ في حرف واحد، ويُسمى هذا بالجناس الناقص، وهناك الجناس التام كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ يراد بالساعة الأولى القيامة، وبالثانية المدة من الزمن، فقد اتفقا في اللفظ، واختلفا في المعنى.

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ إضرابٌ عما ينبىء عنه التمني، أي ليس ذلك ناشئاً عن رغبة في الإيمان، بل ظهر لهم في موقفهم ما كانوا يخفونه في الدنيا، والمراد بها النار التي وقفوا عليها ﴿ وَلَوْ رُدُّوا ﴾ من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنوه ﴿ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ من فنون القبائح، ونسوا ما عاينوه من أنواع العذاب، لخبث طينتهم، وسوء استعدادهم، ولهذا لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوه ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لأن ديدنهم الكذب، في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ ﴾ أي ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أي ليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا عودة إلى الحياة بعد الموت.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الوقوفُ هنا مجازٌ عن الحبس، للتوبيخ والتأنيب، أي لو رأيت حالهم لأشفقت عليهم ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا ﴾ مشيراً إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي حقاً لا باطلاً كما زعمتم، والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أكَّدوا إقرارهم باليمين، إظهاراً لكمال يقينهم بحقيته، ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ الذي عاينتموه ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ في الدنيا، ولعل هذا التوبيخ إنما يقع بعدما وُقفوا على النار، إذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ أي البعث وما يتبعه من الحساب والجزاء ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ ﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم، فإنه أبدي لا

حدَّ له، والساعة: القيامة، أُطلق على القيامة، إمَّا لوقوعها بغتة، أو لأنها تقوم في آخر ساعة الدنيا ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا ﴿يَحَسْرَتَنَا﴾ تعالي فهذا أوانك، والحسرةُ أشدُّ الندم، والتلهف على الشيء الفائت، والحسرة لا تُطلب ولا يتأتى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك، كأنهم ذهلوا فنادَوْها، ومثل ذلك نداء الويل ونحوه، ولا يخفى حسنه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي على تفريطنا وتقصيرنا في اكتساب الأعمال الصالحة، في الحياة الدنيا، والتفريطُ: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله، فرَّط في الأمر تفريطاً قصَّر فيه وضيَّعه ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ الوزرُ في الأصل: الحملُ الثقيلُ، سُمّي به الإثمُ لثقله على صاحبه، وذكرُ الظهور لأن المعتادَ حملُ الأثقال على الظهور، والغرضُ أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات، والحال أنهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس شيئاً صنعوه وارتكبوه، أوْرَدَهم نار الجحيم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لمَّا حقَّق أن وراء الحياة الدنيا حياةً أخرى، يلقون فيها ما يلقون، بيَّن هنا حال تلك الحياتين في أنفسهما فقال: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ واللهو: صرفُ النفس عن الجدِّ إلى الهزل، لَهَا بالشيء يلهو لَعِب به، والمعنى: وما أعمال الدنيا إلا لعب ولهو، تشغل الناس بما فيها من منفعة سريعة الزوال، عما فيه منفعة جليلة باقية، من الإيمان والعمل الصالح، والكلامُ من «التشبيه البليغ» جعلت الدنيا نفسها لعباً ولهواً مبالغة، كما في قول الشاعر: «وإنما هي إقبالٌ وإدبارُ» أي ليست الدنيا إلا كلعب الأطفال، يتلهى بها الصبيان، وعما قريب تزول ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي الآخرة والاستعداد لها ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي يخشون الله ويخافون عقابه، لأن منافع الآخرة خالصة عن المضار، ولذاتها غير منغصة بالآلام، مستمرة على الدوام، خَصَّ المتقين لأنهم الأصل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان؟

والفاء للعطف على محذوف أي ألا تتفكرون فلا تعقلون؟ والاستفهام للتنبيه والحث على التأمل.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ الآية مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، عن الحزن الذي كان يعتريه، من إصرار المشركين على التكذيب ببيان أنه ﷺ بمكانةٍ من الله تعالى، وكلمة «قد» لتأكيد العلم، وقد كانوا يقولون: إنه شاعر، وكاهن، ومجنون[1]. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنَّا لا نكذِّبك، ولكن نكذِّبُ بما جئتَ به، فأنزل الله هذه الآية[2] ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ على الحقيقة لعلمهم بصدقك، وفيها بيان لبلوغه ﷺ في جلالة القدر، غايةً ليس وراءها غاية، حيث نفى

(١) وقيل معنى الآية: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم، روي ذلك عن قتادة وغيره، ويؤيّده ما رواه السُّديّ أنه التقى الأخنس بن شُريق، وأبو جهلٍ فقال الأخنسُ لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد ﷺ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٢٤٤ باب تفسير سورة الأنعام.

تكذيبهم له ﷺ وأثبته لآياته، على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[1] إيذاناً بكمال القرب، واضمحلال شؤونه ﷺ في شأن الله عز وجل، وفيه أيضاً استعظامُ جنايتهم، كأنه قيل لا تعتدَّ به وكله إلى الله تعالى، فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذّبونك في الحقيقة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي ولكنهم يجحدون آيات الله ويكذبونها، لتمرنهم على الظلم، وإيرادُ الجحود في موضع التكذيب، للإيذان بأن آيات الله تعالى من الوضوح، بحيث يشاهد صدقها كل أحد، وأن من ينكرها إنما ينكرها بطريق الجحود، الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه، كما في قوله تعالى: ﴿وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمَاً وعُلُوّاً﴾[2].

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تفنن في تسليته ﷺ فإن عموم البليّة، يهوّن أمرها بعض تهوين، وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، أي وبالله لقد كُذّبت من قبل تكذيبك رسلٌ أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير، ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ فتأسَّ بهم، واصطبر على ما نالك من قومك، فأنت أولى بالصبر لأنك مبعوث إلى العالمين، فاصبر كما صبروا، وفيه تأكيد للتسلية ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فيه إيذان بأن نصره تعالى لهم أمر مقرّر للصابرين ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المراد بكلماته تعالى ما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ. إِنَّـهُمْ لَهُم المَنْصُورُونَ﴾[3] أي لا مغيِّر لوعد الله الذي وعد به رسله، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل، للإشعار بعلة الحكم، فإن من موجبات الألوهية أن لا يغالبه أحد، ولا يقع منه خلف ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جملة قسمية لتحقيق ما منحوا من النصر، أي ولقد جاءك يا محمد من خبر

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة النحل، آية: ١٤.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٧١ ـ ١٧٢.

الرسل، وخبر أممهم ماذا حلَّ بهم، فالمراد بنبئهم نصره تعالى للرسل، وجميع ما جرى بينهم وبين أممهم.

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي إن عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين، يُروى أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في محضر من قريش، فقالوا: يا محمد ائتنا بآية من عند الله تعالى ونحن نصدِّقك، فأبى الله أن يأتيهم بآية مما اقترحوا، فأعرضوا عنه ﷺ فشقَّ ذلك عليه لما أنه كان شديد الحرص على إيمان قومه، وكان يودُّ أن ينزلها الله تعالى طمعاً في إيمانهم، فنزلت الآية، يقال كَبُرَ على فلانٍ الأمرُ، أي: شقَّ عليه المعنى: إن شقَّ عليك إعراضهم عن الإيمان، وأحببتَ أن تجيبهم إلى ما سألوه ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾ أي فإن قدرت ﴿ أَن تَبْتَغِيَ ﴾ أي تطلب ﴿ نَفَقًا ﴾ أي سَرَباً ومنفذاً، والنَّفَقُ بفتحتين سَرَبٌ في الأرض له مخلص إلى مكان ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي مِرْقاةً ومصعداً ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ مما اقترحوه من الآيات فافعل، أي لا تستطيع أيها الرسول الإتيان بشيء من تلك الآيات، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك، لعلمه بأنه لا يكون سبباً لما تحب من هدايتهم، والمقصود من هذا أن يقطع الرسول ﷺ طمعه من إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على الهدى والرشاد لفعله، بأن يوفقهم للإيمان، ولكنْ لم يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي الجاهلين بدقائق شؤون الله تعالى، الذين لا يعرفون حكمة الله، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثله، كما أن قوله تعالى: ﴿ولا تطع الكافرين﴾ لا يدل أنه ﷺ أطاعهم، على أن الجهل هنا ضد العلم، لا ضد الإيمان، وكلُّ جهل بهذا المعنى ليس عيباً، لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علماً، وإنما يُذم الإنسان بجهل ما يجب عليه معرفتُه.

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي إنما يقبل دعوتك إلى الإيمان،

الذين يسمعون ما يُلقى إليهم سماع تفهم وتدبر، دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ والمراد من السماع هو سماع الفهم والتدبر، وما عداه كلا سماع ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الكفار[1] كما قال الحسن ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ من قبورهم إلى المحشر ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فيجازيهم على كفرهم، فحينئذ يسمعون.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟﴾ أي رؤساء قريش الذين بلغ بهم الضلال، إلى حيث لم يقنعوا بما شاهدوه من الآيات، التي تخرُّ لها صُمُّ الجبال ولم يعتدوا به ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ أي هلاّ نزل على محمد ﴿ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ملجئة للإيمان ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ من الآيات الملجئة ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما أن في تنزيلها إبطالاً لأساس التكليف، المبني على قاعدة الاختيار، ولأنها إذا نزلت فلم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستئصال، فيقترحونها جهلاً، ويتخذونها ذريعةً إلى التكذيب، وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم، لما أنَّ بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون، مكابرةً وعناداً.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنف، مسوقٌ لبيان كمال قدرته عز

---

(١) شبَّه تعالى الكفار بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون ولا يعقلون ولا يسمعون، وكأنهم خشب مسنَّدة، قال قتادة: الآية مثلٌ للمؤمن والكافر، فالمؤمن يسمع كلام الله فينتفع به ويعقله، والكافر أصمُّ أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به «تفسير الطبري».

وجل، ليكون كالدليل على أنه تعالى، قادرٌ على تنزيل الآية، وإنما لا يُنزلها رحمةً بالعباد، أي ما من شيءٍ يدب على وجه الأرض من صغير ولا كبير ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ قيّد بالجناحين، لنفي المجاز، لأن غير الطائر قد يقال فيه: طار، إذا أسرع ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ أي طوائف مخلوقة ﴿أَمۡثَالُكُمۚ﴾ كل أمة منها مثلكم، أحوالها محفوظة، ومصالحها مرعية ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ يعني اللوح المحفوظ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم، من جليل ودقيق، لم يُهمل فيه أمر حيوان ولا جماد، وفيه بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي، أي ما أغفلنا وما تركنا في الكتاب من شيء من الأشياء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها، فينصف بعضها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجمَّاء من القرناء[1] أي ثم مرجعهم ومآلهم إلى ربهم فيجازيهم على أعمالهم[2].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بالقرآن، وسائر الحجج العقلية، والشرعية ﴿صُمّٞ وَبُكۡمٞ﴾ هذا من التشبيه البليغ، أي إنهم كالصمّ، وكالبكم، لا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر منه نفوسهم، ولا يقدرون أن ينطقوا بالحق، ولذلك لا يستجيبون ويقولون في الآيات ما يقولون ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ أي في ظلمة الكفر، وفي ظلمة الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، والمراد أنهم غارقون في الجهل وسوء الحال، فإن الأصم الأبكم، إذا كان بصيراً، ربما يفهم شيئاً بإشارة غيره، وأما إذا كان مع ذلك أعمى، فينسدُّ عليه باب الفهم بالكلية، ولذا شبّهوا بالموتى ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ أي أمره إلى ربه،

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

(٢) قال الطبري: فالرب الذي لم يضيّع حفظ أعمال البهائم، والدواب، والطير، حتى حفظ عليها حركاتها، وأفعالها، وأثبت ذلك في أم الكتاب ـ اللوح المحفوظ ـ وحَشَرها ثم جازاها على ما سَلَف منها في دار البلاء، كيف يضيِّع أعمالكم، ويفرّط في حفظها، ويترك جزاءكم في الآخرة؟ مع ما خصكم من العقل والفهم الذي لم يعطه الطير والبهائم؟.

فمن يشأ الله إضلاله، يخلق فيه الضلال، لا بطريق الجبر، لا بطريق الكسب والاختيار منه ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه، والآية دليل لأهل السنة على أن الإيمان والكفر بإرادته سبحانه ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٥)﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هذا قولٌ أمر الله رسوله أن يوجّهه إلى الكفار، مذكراً إياهم بما أودع في فطرتهم، من توحيده عزَّ وجل، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض يفسد فطرتهم وعقولهم، قال الفراء: للعرب في (أرأيت) لغتان: إحداهما رؤية العين، فإذا قلت للرجل أرأيتك، كان المراد هل رأيت نفسك، ثم يثنّى ويُجمع، والثاني أن تقول: أرأيتك وتريد أخبرني، وإذا أردت هذا المعنى تركت التاء مفتوحة على كل حال، تقول: أرأيتكَ أرأيتكُما أرأيتكُم أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ حسبما أتى الأمم السابقة ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي لا محيص عنها البتة ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ هذا مناط الاستخبار ومحطّ التبكيت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم من الصادقين أخبروني من تدعون؟ والمراد إقامة الحجة عليهم، أنهم يفزعون إلى الله وقت الشدة، لينجيهم من عظيم البلاء، ولهذا قال بعده.

﴿ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ ﴾ أي بل تخصونه تعالى بالدعاء، وتقديمُ المفعول لإفادة التخصيص ﴿ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ أي فيفرّج عنكم عظيم البلاء ﴿ إِن شَآءَ ﴾ أن يتفضل عليكم، يعني أن قبول دعائهم تابعٌ لمشيئة الله المبنية على حِكَم خفية، قد يقبل وقد لا يقبل ﴿ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾ أي وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما رُكّز في العقول، من أنه تعالى القادر على كشف الضر، دون غيره من الخلق، والنسيانُ مجاز عن الترك، كما روي عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون على حقيقته، فإنهم لشدة الهول ينسون ذلك حقيقة.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ ﴾ أي والله لقد أرسلنا رسلاً كثيرين بعثناهم ﴿ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ قبل زمانك يا محمد فكذّبوا رسلهم ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي فامتحنَّاهم بأنواع الشدائد، بالبأساء وهي شدة الفقر في العيش، والضراء وهي الأمراض والأسقام ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي لكي يدعوا الله تعالى في كشفها، بالتضرع والتذلل، ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم.

﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ أي هلاَّ تضرَّعوا بالتوبة حين جاءهم العذاب ليصرف الله عنهم البلاء؟ أي فلم يتضرعوا حينئذ مع وجود المقتضي، وانتفاء المانع، و«لَوْلا» هنا ليست تحضيضية لأنها تختص بالمضارع، ولما كان التضرع من لين القلب، أخبر عن قساوة قلوبهم فقال: ﴿ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ فكأنه قيل: فما لانت قلوبهم، ولكن قستْ، أي استمرت على ما هي عليه من القساوة، وازدادت عناداً وفجوراً ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ بيان للصارف لهم عن التضرع، وأنه لا مانع عندهم إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ أي تركوا ما دعاهم الرسل إليه، وانهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء ﴿ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ من السَّعة، والصحة، وصنوف النعمة، على منهاج

الاستدراج، إلزاماً للحق، وإزاحة للعلة، وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء، فقد روي من حديث عُقبة بن عامر مرفوعاً: «إذا رأيتَ الله تعالى يُعطِي العبدَ في الدنيا، وهو مقيمٌ على معاصيه، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية»[1] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ﴾ بطروا ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ من النّعم، يعني حتى إذا اطمأنوا بما أُتيح لهم، وبَطِروا وأَشِروا ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ بعذاب الاستئصال فجأة، ليكون أشد عليهم وقعاً ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ متحسرون غاية الحسرة، آيسون من كل خير، والإبلاس: الانكسار والحزنُ، يقال أبلس فلان: إذا سكت غماً، وقيل: للإبلاس ثلاثة معان في اللغة: الحزنُ، والحسرةُ، واليأس، وهي معان متقاربة.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد، قال الأصمعي: الدابر الأصلُ، ومنه قطع الله دابره أي أصله، والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب، ولم يبق منهم أحد، ووضع الظاهر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ للإشعار بعلة الحكم، فإن هلاكهم بسبب ظلمهم، لأنهم وضعوا الكفر موضع الشكر، والمعاصي مقام الطاعات ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة، تخليص لأهل الأرض من أعمالهم الخبيثة، نعمة جليلة، مستوجبةٌ للحمد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني والبيهقي ورواه أحمد في المسند ٤/ ١٤٥.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بتكرير التبكيت عليهم، وهذا أيضاً استخبار أي قل أخبروني ﴿إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ﴾ بأن أصمَّكم، وأعماكم بالكلية ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ بأن غطى عليها، بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم، فأصبحتم لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون نفعاً ولا ضُراً ﴿مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾؟ من استفهامية أي أخبروني إن سلب الله مشاعركم، من إله غيره تعالى يأتيكم بها؟ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ، من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة، أي انظر كيف نكرّرها، تارةً من جهة المقدمات العقلية، وتارةً من جهة الترهيب والترغيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ يُعرضون عن ذلك، و «ثم» لاستبعاد الإعراض، بعد تصريف الآيات، يقال: صدف عنه: أي أعرض، وأصدفه عن كذا أماله عنه، فالجملة داخلة في التعجيب، أي إنهم بعد ذلك التصريف، الموجب للإقبال والإيمان، يُدْبِرُون ويكفرون.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ تبكيت آخر لهم بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ أي العاجل الخاص بكم، كما أتى من قبلكم من الأمم ﴿بَغۡتَةً﴾ أي فجأة بأن لم تظهر أماراته ﴿أَوۡ جَهۡرَةً﴾ معاينة بعد ظهور أماراته، وتقديم البغتة لكونه أهول ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي إلاّ أنتم، وضع الظاهر موضع الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وإيذاناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم، والهلاك وإن عمَّ الأبرار والأشرار، يكون الهلاكُ يختص بالشريرين، لأن الأخيار يستوجبون بسبب نزول المضار الثواب، والأشرار يكونون خسروا الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلى الأمم ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع منهم بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى منهم بالعذاب، ولم نرسلهم ليُقترح عليهم، ويُتلهى بهم ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به

﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فلا خوف عليهم فيما يُقدمون عليه، ولا هم يحزنون على ما خلّفوه في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي التي بلَّغتها الرسل لهم، عند التبشير والإنذار ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي يصيبهم العذاب الذي أُنذروه عاجلاً، أو آجلاً، جعل العذاب ماسّاً لهم، كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن التوصيف ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر، الذي هو الإصرار على التكذيب.

﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول للكفرة الذين يقترحون عليك ما يقترحون ﴿لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي مقدوراته، مفردها خزينة أو خزانة، وهي في الأصل ما يُحفظ فيه الأشياء النفيسة، أي قل للكفرة الذين يقترحون عليك، لا أدعي أن خزائن مقدوراته تعالى، مفوَّضة إليَّ، أتصرف فيها حتى تقترحوا عليَّ تنزيل الآيات، أو إنزال العذاب، أو قلب الجبال ذهباً، أو غير ذلك مما لا يليق بشأني ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ما لم يُوحَ إليَّ حتى

تسألوني عن الساعة أو نحوها ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي من جنس الملائكة، أقدر على ما يقدرون عليه، حتى تكلّفوني مما لا يطيق به البشر، من الرقي في السماء ونحوه ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحَىٰ إليَّ من ربي. تبَرأ ﷺ عن دعوى الألوهية، والمَلَكية، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر، رداً لاستبعادهم دعواه ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ مَثَلٌ للضال والمهتدي، والمؤمن والكافر، والاستفهام إنكاري، والمراد هل يتساوى من يعلم الحقائق، ومن لا يعلمها؟ كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، وفيه التنفير عن الضلال، والترغيب في الاهتداء ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾؟ أي ألا تسمعون هذا الكلام الحق، فلا تتفكرون فيه؟ لتميّزوا بين ادعاء الحقّ والباطل؟.

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أي أنذر وخوّفْ يا رسول الله بالقرآن المؤمنين الصادقين، الذين يُرجى إيمانهم، لا الأموات الذين لا ينجع فيهم دواء الإنذار، إنما الذين يتوقع منهم الانتفاع ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ هم المجوزون للحشر، المؤمنون بالحساب والجزاء، فإن الإنذار ينجع فيهم، دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ حال من ضمير يُحشروا، والمعنى: أنذر به الذين يخافون حشرهم، غير منصورين من جهة أنصارهم بزعمهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي لكي يتقوا الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ سبب نزول الآية ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرَّ الملأ من قريش على النبي ﷺ، وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منَّ الله تعالى عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك، فأنزل الله هذه الآية[1] ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ أي

---

(١) أخرجه الطبراني وأحمد في المسند، وأخرجه مسلم بنحوه في فضائل الصحابة رقم ٢٥٠٤.

في الصباح والمساء، وأصلُ الغَدَاةِ البكرةُ، ومعنى العشيّ آخر النهار، والمراد بهما ههنا الدوام، كما يُقال: فعله مساءً وصباحاً، إذا داوم عليه، ولم يحصل منه ﷺ أنه طردهم، وقرّب منه زعماء قريش، وإنما همَّ أن يجعل لأولئك المؤمنين وقتاً خاصاً، ولأشراف قريش وقتاً آخر، ليتألفهم، فيقودهم إلى الإيمان، فنزلت الآية توجهه إلى الطريق الأسلم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي يدعون ربهم مخلصين فيه، قيّد الدعاء بالإخلاص، تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم، وينافي إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ما عليك شيء من حساب إشراكهم وأعمالهم الباطلة، ولا تؤخذ بذنوبهم وإجرامهم، وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب الرسالة، النظر إلى ظواهر الأمور، وإجراء الأحكام على موجبها، وتفويض الباطن إلى اللطيف الخبير ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ذكره للمبالغة أي: لا تؤاخذ بحسابهم، حتى يهمّك إيمانهم، ولا هم ينفعونك حتى تجاملهم وتعطيهم ما يريدون ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالمعنى: إن أولئك الفقراء يستحقون التقريب، فبطردهم تضع الشيء في غير موضعه، فتكون ظالماً بتعديك حدود الله، وهذا لبيان الأحكام، وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ابتلينا بعضهم ببعض، ابتلينا الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، فقدَّمنا هؤلاء الضعفاء، على أشراف قريش، بالسبق إلى الإيمان، وقد مضت سنة الله تعالى، بأن يسبق الفقراء، إلى إجابة دعوة الرسل الكرام، وإلى دعوة كل إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تَبَعاً لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، لأنه يشقُّ عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم نوح، وهود، وصالح وغيرهم ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ اللام للعاقبة أي ليقول بعض الأغنياء، مشيرين إلى الفقراء، محقرِين لهم، نظراً لما بينهما من التفاوت الدنيوي ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأن وفّقهم لإصابة الحق، والفوز بما يسعدهم عنده سبحانه ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي من دوننا، ونحن الرؤساء وهم

الفقراء؟ وهو إنكار لأن يُخَصَّ هؤلاء من بينهم بإصابةِ الحقِّ، والسَّبقِ إلى الخيرِ، كقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[1] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه، وبمن لا يقع منه فيخذله؟ والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك، والمعنى: أليس الله عالماً على أتم وجه، محيطاً علمه بالشاكرين لنعمه حتى يستبعدوا إنعامه!!.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وُصفوا بالإيمان، كما وُصفوا بالإخلاص، تنبيهاً على إحرازهم لفضيلتي: العلم، والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقرَّب ولا يطرد، ويُعزَّ ولا يُذلَّ، ويُبشَّر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة[2] ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ منه تعالى بتبشيرهم بالسلامةِ عن كل مكروه، وأن يبدأهم بالسلام ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي أوجبها على ذاته المقدسة، بطريق التفضل والإحسان، بسعة رحمته تعالى، وفي التعرض لعنوان الربوبية، إظهار لغاية اللطف بهم ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي من عمل ذنباً، جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ عن ذلك ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد عمل المنكر والسوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي في توبته، بأن أتى بشروطها، من التدارك، والعزم على عدم العود أبداً[3] ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فشأنه سبحانه أنه مبالغ في المغفرة والرحمة له.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١١.

(٢) قال القرطبي ٦/ ٤٣٥: نزلت هذه الآية في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام».

(٣) هذه قاعدة من قواعد الدين، أمر ﷺ بأن يبلّغها لأمته، الذين يقعون في بعض المنكرات جاهلين عاقبتها، بأن يتوبوا وينيبوا ويصلحوا عملهم، وألاّ يغتروا بمغفرة الله ورحمته، فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله فإنَّ ﴿رحمةَ الله قريبٌ من المحْسِنِينَ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح ﴿ نُفَصِّلُ ﴾ دائماً ﴿ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي القرآنية في صفة أهل الطاعة، وأهل الإجرام، المصرّين منهم والأوّابين ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ولتستوضح يا رسول الله سبيلهم فتعامل كلاً منهم بما يستحقه، ولذلك فصّلنا هذا التفصيل، ولم يذكر سبيل المؤمنين، لأن ذكر أحد القسمين، يدلُّ على الآخر.

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، قطعاً لأطماعهم الفارغة عن ركونك إليهم إني صُرفت ومُنعت بالأدلة الحقّانية، والآيات القرآنية ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ ﴾ أي عن عبادة الآلهة الذين ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ والمراد بهم الأصنام، إلاَّ أنه عبَّر بصيغة العقلاء، جرياً على زعمهم ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ﴾ تكرير الأمر اعتناءً بشأن المأمور به، وفي هذا القول استجهالٌ لهم، وتنصيص على أنهم تابعون لأهواء باطلة، ليسوا على شيء من الدين ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت، ولن أكون في زمرة أهل الرشاد، ولهذا قال بعده ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ والمراد وما أنا في شيء من الهدى، حتى أعدَّ في عدادهم، إن أنا سايَرتكم على أهوائكم في عبادة غير الله.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تبيينٌ للحق الذي عليه ﷺ أي: أنا على بصيرة من شريعة الله عزَّ وجلَّ، والمراد بها الوحيُ والحججُ العقلية، والتنوين للتفخيم أي بينة جليلة الشأن ﴿مِّن رَّبِّي﴾ أي كائنة من جهته سبحانه ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ الضمير للرب، أي كذبتم به حيث أشركتم به غيره والمعنى: إني على بينة كائنة من ربي، وكذبتم بالله، بالأخبار التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب، وقوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي من العذاب الذي كانوا يستعجلونه، بقولهم بطريق الاستهزاء: ﴿متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾؟ أي ليس ما تستعجلونه في حكمي وقدرتي، حتى أجيء به ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ أي ما الحكم في تأخير ذلك ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخلٌ بما فيه بوجه من الوجوه ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي يتبع الحق والحكمة، فيما يحكم به ويُقدِّره ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي خير الحاكمين بين عباده، يحكم بالعدل، ويفصل بين الحق والباطل، ولا يظلم أحداً.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾ أي في قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي لأستريح منكم، ولكنَّ الأمر بيد الله عز وجل، قال ابن عباس: أي لو كان الأمر بيدي، لم أُمْهِلكم ساعة ولأهلكتكم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بحالهم، بأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج، لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إليَّ، ولم يقض بتعجيل العذاب.

﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه مستعار من المفاتيح التي جمع مِفتح بالكسر، وهو المفتاح الذي تفتح به الخزائن والأبواب، والمقصود أنه سبحانه، هو العالم بالمغيبات جميعها كما هي ابتداء ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله، والمعنى: إن ما تستعجلونه من العذاب، ليس مقدوراً لي حتى ألزمكم به، ولا معلوماً لديَّ لأخبركم وقت نزوله، بل هو مما يختص به عز وجل، قدرةً وعلماً، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم والمصالح. روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «مفاتح الغيب

خمسٌ، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلاّ الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، وما تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تعلم نفسٌ بأي أرض تموت، ولا يدري أحد متى يجيء المطر، إلا الله»[1] فإن قلت: لم عدَّ هذه الخمس، وكلُّ المغيبات لا يعلمها إلا الله؟ الجواب لأن شأنهم في الجاهلية الاهتمام بهذه الأشياء فخصّها بالذكر ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هذه تكملة له وتنبيهٌ، على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء، أي يعلم ما فيهما على اختلاف أجناسها، وكثرة أفرادها سواءً كانت في البر والبحر ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها، والمكان الذي سقطت فيه ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي في بطون الأرض، وكنى بالظلمة عن البطن، لأنه لا يدرك ما فيه، كما لا يُدرك في الظلمة ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ قيل: الرطبُ الماء، واليابسُ البادية، أو ماينبت، وما لا ينبت[2] ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ في علمه تعالى مسجّل في اللوح المحفوظ، الذي هو محل معلوماته سبحانه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرعد ٨/ ٣٧٥ فتح الباري.
(٢) قال في البحر المحيط: وانظر إلى حُسن ترتيب هذه المعلومات، حيث بدأ أولاً بأمر لا ندركه نحن بالحسّ وهو «مفاتح الغيب» ثم بأمرٍ ندرك كثيراً منه بالحسّ وهو «البر والبحر» ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو، والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض، فدلَّ ذلك على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات، لا يغيب عن علمه شيء، في الأرض ولا في السماء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه، استعير التوفي من الموت للنوم، لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي يعلم ما كسبتم فيه، خصَّ الليل بالنوم، والنهار بالكسب، جرياً على المعتاد ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي يوقظكم في النهار، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي، وتوسيط قوله تعالى: ﴿وَيَعلَمُ مَا جَرَحتُم﴾ بينهما، لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم، بالتنبيه على أن ما يكتسبونه من السيئات، مع كونها موجبة لإهلاكهم، يفيض عليهم الحياة، ويمهلهم كما ينبيء عنه كلمة التراخي ﴿ثُمَّ﴾ كأنه قيل: هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي، ثم يبعثكم في جنس النهار، مع علمه بما ستجرحون فيها ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معيَّنٌ لكل فرد، بحيث لا يكاد يتخطى أحد ما عُيِّن له طرفة عين، وهو أجل بقائه في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره أصلاً ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعكم ومصيركم بالموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيام قيل: الحواس تقبض عند النوم، فأما الروح لا تقبض، إلا إذا انقضى الأجل، وكما يُرَدُّ الإحساس بعد الإيقاظ، فكذا الأنفس تحيا بعد موتها.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي المتصرف في أمورهم، يفعل بهم ما يشاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه أن المكلف، إذا علم أن أعماله تُكتب عليه، وتُعرض على رؤوس الأشهاد، كان ذلك أزجر له عن المعاصي، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ والمقصود ضبط الأعمال، فمنهم من يقول: إنهم يكتبون الطاعات والمعاصي، بأسرها، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

وَلاَ كَبِيرةً إلاَّ أَحْصَاهَا﴾[1]؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ حتى للغاية تجعل ما بعدها غايةً لما قبلها، كأنه قيل: ويرسل عليكم حفظةً مدة حياتكم، حتى إذا انتهت مدةُ أحدكم، وجاءت أسبابُ الموت ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ المفوضون لذلك وهم ملك الموت وأعوانه، وانتهى هناك حِفْظُ الحَفَظة قال الكلبي: إن ملك الموت هو الذي يلي ذلك، ثم يدفع الروح إن كانت مؤمنة إلى مَلَك الرحمة، وإن كانت كافرة إلى ملك العذاب، وقد جاء إسناد الفعل إلى ملك الموت فقط باعتبار أنه المباشر، وإلى الله تعالى باعتبار أنه سبحانه الآمر الحقيقي ﴿وَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ أي رُدَّ العباد بعد البعث ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ أي مالكهم وخالقهم ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وأن الكافرين لا مَوْلَىٰ لهم﴾ لأن المولى هناك يراد به الناصر ﴿ٱلْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره بوجه من الوجوه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب جميع الخلائق بنفسه في أسرع زمان، لأنه لا يحتاج إلى فكر ورويّة، ولا يشغله حساب عن حساب، ثم إن كيفية الحساب مما لا تحيط بتفصيلها عقول البشر، وليس لنا إلاَّ الإيمان به، مع تفويض كيفية ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

---

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: من ينجيكم من شدائد البر والبحر الهائلة، التي تبطل الحواس، وتدهش العقول، والظلماتُ: كناية عن مخاوفهما وأهوالهما ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي إعلاناً وإسراراً كما روي عن ابن عباس والحسن، ويحتمل أن يُراد بهما باللسان، والقلب ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ أي تدعونه قائلين لئن أنجيتنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الشدة والورطة التي عبَّر عنها بالظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الراسخين في الشكر، المداومين عليه لأجل هذه النعمة، لأن الإنسان في هذه الحالة، ينقطع رجاؤه عن كل ما سواه، وتشهد الفطرة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله عزَّ وجلَّ، ولهذا أخلصوا وتضرعوا.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي غم يأخذ بالنفس كسائر الهموم والأكدار، والأمراض والأسقام ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تعودون إلى الشرك، ولا توفون بالعهد.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ هذا تذكير بقدرته تعالى على تعذيبهم، إثر التذكير بقدرته على تنجيتهم، وإنذار بأن عاقبة كفران النعم، أن تزول وتحل محلها النقم، والتنوينُ للتفخيم أي عذاباً عظيماً ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من جهة العلو كالصيحة، والحجارة، والريح ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالرجفة، والخسف، والإغراق ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أي يخلط أمركم عليكم بجعلهم مختلفي الأهواء ﴿شِيَعًا﴾ جمع شيعة أي يجعلكم فِرقاً متحزبين وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يقاتل بعضكم بعضاً، أخرج أحمد ومسلم عن ثوبان أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إني سألتُ ربي لأمتي، أن لا يهلكها بِسَنَةٍ عامة - أي بقحط أو جدب - فأعطانيها، وسألتُه أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»[١] الحديث. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ على

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه مسلم رقم ٢٨٨٩ أوله «إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ=

أنحاءٍ شتى من الطريق الحسي، والعقلي، بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي كي يعلموا جليّة الأمر، فيرجعوا عما هم عليه، من المكابرة والعناد.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي وكذَّب بهذا القرآن المجيد ﴿قَوْمُكَ﴾ أي المعاندون منهم لغاية عتوّهم وضلالهم ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي كذبوا به والحال أنه الكتاب المنزل بالحق ﴿قُل﴾ لهم منبهاً ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ لأمنعكم من التكذيب، وأجبركم على التصديق، إنما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ أي لكل شيء من الأنباء، التي من جملتها عذابكم ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي وقت استقرار ووقوع البتة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه ما يحلُّ بكم من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الخوض: الدخول فيها بالتكذيب، والاستهزاء، والطعن فيها، كما هو دأب قريش في أنديتهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مجالستهم، والقيام عن مجلسهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ﴾ أي كلام ﴿غَيْرِهِۦ﴾ أي غير آياتنا ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي فتجالسهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي بعد تذكر النهي، والخطاب

= مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ ملكَ أمتي سيبلغُ ما زُوي لي منها..» الحديث وأخرجه الترمذي رقم ٢١٧٧ وأبو داود رقم ٤٢٥٢ كلهم في باب الفتن.

للرسول ﷺ والمراد غيره من المؤمنين، لأن النسيان الذي منشؤه الوساوس الشيطانية محال على النبي ﷺ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي معهم، فوضع المظهر موضع المضمر نعياً عليهم، وأنهم بذلك الخوض ظالمون، واضعون التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم، راسخون في ذلك.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وما يلزم المتقين، من قبائح أعمالهم وأقوالهم ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي مما يحاسبون عليه من قبائحهم روي عن ابن عباس أنه قال: لمَّا نزلت الآية السابقة، قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام، ونطوف بالبيت، وهم يخوضون فيه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ استدراك أي ولكن يذكّرونهم ويمنعونهم، بما أمكن، ويظهرون لهم الكراهة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يجتنبون الخوض حياءً أو كراهة لمساءتهم.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي دع هؤلاء المجرمين الذين ﴿ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي كُلّفوه، وأُمروا بإقامة أحكامه، وهو دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حيث سخروا به واستهزؤوا، أو اتخذوا ما يتدينون به، شيئاً من اللعب واللهو ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية، واطمأنوا بها، حتى زعموا أن لا حياة بعدها، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ﴾ ترك معاشرتهم ومخالطتهم، لا ترك الإنذار لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن من يصلح للتذكير، وقد جاء مصرحاً به في قوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[1]

(١) سورة ق، آية: ٤٥.

والقرآن يفسّر بعضه بعضاً ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي لئلا تبسل أي تُسلم للهلكة، والمعنى: وذكر الناس بالقرآن، لئلا تُبسل كل نفس بما كسبت، أي تُسلم وتُحبس وتُترك في العذاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس للنفس من غير الله تعالى ناصر ينصرها، أو قريب يتولى أمرها ولا شفيع يشفع لها، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[2] ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ تفدي تلك النفس ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ كل فداء مما في الأرض ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي ذلك الفداء، ولو جاءت بملء الأرض ذهباً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي أولئك المتخذون دينهم لعباً ولهواً، المغترون بالحياة الدنيا، هم الذين أُهلكوا بما كسبوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء مغلي، تتقطع منه أمعاؤهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر في الدنيا، مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضاً حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿بما كسبوا﴾ لأنه العمدة في أسباب العذاب، والأهمُّ في باب التحذير.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

---

(١) سورة المدثر، آية: ٣٨.

(٢) سورة غافر، آية: ١٨.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي أنعبد متجاوزين عبادة الله، الجامع لجميع صفات الألوهية، التي من جملتها القدرة على النفع والضر، ما لا يقدر على نفعنا إذا عبدناه، ولا على ضرنا إذا تركناه، وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ أي ونرد إلى الشرك، والتعبير عنه بالرد على الأعقاب، لزيادة قبحه، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك، حالة قد نُبذت وراء الظهر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي هدانا للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي أنردُّ رداً مثل ردِّ الذي استهوته الشياطين، والاستهواءُ: من هَوَىٰ في الأرض إذا ذهب فيها، أي كالذي تخطفته مردة الشياطين وأضلّته، فذهبت به في المفاوز والقفار، والكلام وارد على التمثيل، حيث شبّه فيه من خلص من الشرك، ثم نكص على عقبيه، بحال من ذهبت به الشياطين في أغوار الأرض وأضلته، بعد ما كان على الجادة المستقيمة[1] ﴿حَيْرَانَ﴾ أي تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدري ما يصنع؟ ﴿لَهُۥٓ﴾ أي للمستهوىٰ ﴿أَصْحَٰبٌ﴾ رفقة ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ أي إلى الطريق المستقيم ﴿ٱئْتِنَا﴾ أي يقولون ائتنا، وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون، ثابتون على الطريق المستقيم، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله، لمن يدعو إلى عبادة الأصنام، ولمن يدعو إلى عبادة الله تعالى، كمثل رجل في رفقةٍ، ضلَّ به الشيطان عن الطريق المستقيم، وجعل أصحابه يدعونه إليهم، وجعل الشيطان يدعوه إليه، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب؟ ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي هدانا إليه، وهو الإسلام ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي وحده وما عداه ضلال محض ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ

---

(١) هذا مثل ضربه الله عزَّ وجل لمن عبد غير الله، من وثنٍ وصنم، فهو في تخبطه وضلاله، كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته، وسارت به في المفاوز والمهالك، فألقته في هوّة سحيقة، ولم يستجب لداعي الهدى والفلاح.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وأُمرنا بأن نستسلم لله عزَّ وجل، ونخلص العبادة له في جميع أمورنا وأحوالنا.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ عطف على موضع لنسلم، كأنه قيل: أمرنا أن نسلم، وبأن نقيم الصلاة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإلى الله وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضاً، وعدم التصريح لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي قائماً بالحق، لا عبثاً وباطلاً، وإظهاراً للحق، لأن صنعه تعالى دليل على وحدانيته عزَّ وجلَّ، ونظيرُ الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[1] ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ استئناف لبيان أن خلقه للأشياء، ليس مما يتوقف على مادة أو مدة، بل يتم بمحض الأمر، أي وقضاؤه سبحانه كائن، حين يقول لشيءٍ من الأشياء «كن» فيكون ذلك الشيء بدون تأخير ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي استقر الملك له في ذلك اليوم، صورة ومعنى، بانقطاع العلائق الكائنة في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ؟ لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[2] والصورُ: قرنٌ ينفخ فيه، ويعرف الناسُ أمور الآخرة، بأمثال ما شاهدوا في الدنيا، ومن عادة الناس، النفخُ بالبوق، عند الأسفار، وهو تمثيلٌ لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش، إذا نفخ بالبوق، روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور يا رسول الله؟ قال: قرن يُنفخ فيه»[3] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي كل غيب وشهادة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما يفعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور الخفية والجلية.

---

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

(٢) سورة غافر، آية: ١٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/١٢٦ وأبو داود رقم ٤٧٤٢ والترمذي رقم ٢٤٣٢ ورواه مسلم بلفظ «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ».

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي اذكر يا رسول الله لهؤلاء الكفار، وقت قول إبراهيم عليه السلام، الذي يدَّعون أنهم على ملته، موبخاً ﴿ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ على عبادة الأصنام، فإن ذلك ممَّا ينادي بفساد طريقتهم ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾؟ أي أتجعلها لنفسك آلهة؟ على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ ﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ عظيم عن الحق ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أي بيِّن في كونه ضلالاً، لا اشتباه فيه أصلاً، وحكمة كون بعض أقارب الرسل كافراً، هي تقرير أصل التوحيد، الهادم لقاعدة الوثنية، والرسل لا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً، ولو كان أقرب الناس إليهم، فكيف بغيرهم من البشر؟

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي مثل ذلك التبصير البديع، نُبصِّر إبراهيم بملكنا الواسع ونعرِّفه به، وإنما عدل عن صيغة الماضي إلى صيغة المستقبل، استحضاراً لصورتها، حتى كأنها حاضرة ومشاهدة ﴿ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ربوبيته تعالى ومالكيته لهما، وكونهما بما فيهما مربوباً ومملوكاً له تعالى، والملكوت معناه الملك العظيم، والتاء فيه للمبالغة وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ أي من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين درجة عين اليقين، من معرفة الله

تعالى، واللام متعلقة بمحذوف أي فعلنا ما فعلنا وأريناه تلك الآيات الباهرة، ليكون من الراسخين في اليقين، لا يخالجه أدنى شك أو ارتياب.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ جنَّ عليه: سَتره فمعنى: ﴿جنَّ عليه الليل﴾ ستره بظلامه، وهذه المادة بتصرفاتها تدل على الستر ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ جواب لمَّا، والمراد بالكوكب فيما روي عن قتادة: أنه الزهرة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ وهذا منه عليه السلام على سبيل الفرض، وإرخاء العَنان، مجاراة مع أبيه وقومه، الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قولٍ، يحكيه ثم يكرُّ عليه بالإبطال، وهذا هو الحقُّ الحقيقُ بالقبول ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ المتغيرين من حال إلى حال، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعاً، أفل الشيء أفولاً: غاب.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي مبتدأ في الطلوع، منتشر الضوء، قال الأزهري: مأخوذٌ من البزغ وهو الشق، كأنه بنوره يشق الظلمة، وظاهر الآية أن هذه الرؤية، بعد غروب الكوكب ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ وهو على منهاج الكلام السابق ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ كما أفل الكوكب ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾ إلى جنابه الحق الذي لا محيد عنه ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ استعان بربه في درك الحق، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه، إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً، لتغيير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذه آلهاً فهو ضال، والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله: ﴿لاَ أُحِبُّ الأَفِلِينَ﴾ وفي هذه الجملة دليل على أن استدلاله عليه السلام ليس لنفسه، بل محاجَّةٌ لقومه، ولما ذكر هذه القصة قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ ولم يقل على نفسه.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ وإنما لم يؤنث لصيانة الرب عن وصمة التأنيث، ولأن الشمس تأنيثها غير حقيقي ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ تأكيد لما رامه من إظهار النَّصَفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر، وكون الشمس أكبر مما قبلها

مما لا خفاء فيه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ كما أفل ما قبلها ﴿قَالَ﴾ لقومه صادعاً بالحق بين ظهرانيهم ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي من إشراككم، وإنما احتج عليه السلام بالأفول دون البزوغ، مع أنه أيضاً انتقال من حالة إلى حالة، لأنه انتقال مع احتجاب، وأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة، يعرفها كل أحد، ثم لمَّا تبرأ منها، توجَّه إلى موجدها، الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ﴾ أي أوجد وأنشأ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ التي هذه الأجرام من أجزائها ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ التي تلك الأصنام من أجزائها ﴿حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، ولستُ من المشركين. تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه[1]، والمراد من توجيه الوجه قصده سبحانه بالعبادة وحده.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ (٨٢) وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (٨٣)﴾.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: والحقُّ أن إبراهيم عليه السلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدهنَّ إضاءة الشمسُ، ثم القمر، ثم الكوكب «الزهرة» فلما انتفت الألوهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع تبرأ منهم فقال ﴿إني بريء مما تشركون﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي شرعوا في مغالبته في أمر التوحيد، تارة بإيراد أدلة فاسدة، وأخرى بالتخويف والتهديد ﴿قَالَ﴾ منكراً عليهم لما اجترؤوا عليه من محاجته بعد وضوح الحق ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾في وحدانيته سبحانه ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ في موضع الحال مؤكد للإنكار، أي وقد هداني ربي وبصَّرني بالحق بإقامة الدليل عليكم بوحدانيته، وقولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ جواب عما خوَّفوه به، من إصابة مكروه من جهة أصنامهم، كما قال لهودٍ قومُه: ﴿إنْ نقولُ إلاَّ اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوء﴾[1] وهذا التخويف كان على ترك عبادة الأصنام، وقيل: بل على الاستخفاف والاستهزاء بها ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أي لا أخاف في وقت من الأوقات، إلا في وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروهٍ بي، وذلك إنما هو من جهته تعالى، من غير دخلٍ لآلهتكم فيه أصلاً ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء، ومنها أن يكون في علمه تعالى أن يحيق بي مكروه من قبلها ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم بمعزل عن القدرة، على شيء ما من النفع والضر، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري؟ وفي إيراد التذكر دون التفكر، إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز في العقول، لا يتوقف إلا على التذكير.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ أي وكيف أخاف آلهتكم المزعومة، التي أشركتموها مع الله في العبادة ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ أي ولا تخافون الله الجليل القادر، وهو حقيق بأن يخاف منه، لأنه إشراك بالمبدع الصانع، وتسويةٌ للضعيف العاجز بالقادر؟ أي كيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً، وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات، وهو إشراككم بالله الذي فطر السموات والأرض؟ وعبَّر عنه بقوله سبحانه: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي بإشراككم ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ على طريقة التهكم، مع

(١) سورة هود، آية: ٥٤.

الإيذان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾؟ أي أيُّنا أحقُّ بالأمن؟ أنحن وقد عرفنا الله بالأدلة الساطعة، أم أنتم وقد أشركتم معه الأوثان، وكفرتم بالواحد الديَّان؟ أينا أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم، فأخبروني بذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ أي لم يخلطوا ﴿إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك كما يفعله المشركون، حيث يزعمون أنهم مؤمنون بالله، وأن عبادتهم لغيره من تتمات إيمانهم، لكونها لأجل التقريب والشفاعة.. روي أن هذه الآية لمَّا نزلت على رسول الله ﷺ أشفق منها أصحاب النبي فقالوا: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] فقد ظنوا أن المراد من الظلم المعاصي، فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فبيَّن النبي ﷺ أن المراد من الظلم هنا: الشركُ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر، من الإيمان الخالص عن شائبة الشرك، لهم الأمنُ فقط ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ومن عداهم في ضلال.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي أرشدناه إليها وعلمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي حجة على قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي رتباً عظيمة عالية، من العلم، والحكمة وما تستدعيه المصلحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كل ما فعل من رفع وخفض ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه.

---

(١) الحديث في الصحيحين، فقد أخرجه البخاري في الإيمان ١/ ٨٢ ومسلم رقم ١٢٤ في الإيمان أيضاً، وفي رواية أخرى: ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾!؟.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ
ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ
هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ
فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ
ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ أي كلاً منهما أرشدناه إلى طريق السعادة، لا أحدهما دون الآخر ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ ﴾ أي من قبل إبراهيم، وعدَّ هداه نعمة، لأن شرف الوالد سارٍ إلى الولد ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ الضمير لإبراهيم عليه السلام، لأن مساق النظم الكريم، لبيان شؤونه الجليلة، من إيتاء الحجة، ورفع الدرجات، وهبة الأولاد الأنبياء، وكل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته، من المشركين واليهود، بأن إبراهيم كان مؤمناً موحّداً، لا كما يدَّعون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ إنما بدأ بذكرهما، لأنهما جمعا بين النبوة والملك، وسليمان هو ابن داود ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء إبراهيم ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ جزاءً مثل ذلك الجزاء، والمراد بالمحسنين الجنس، ومطلق المشابهة في مقابلة الإحسان بالإحسان من غير بخسٍ، لا المماثلة من كل وجه.

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنات ﴿ وَإِلْيَاسَ ۖ ﴾ هو من أسباط هارون ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من

أولئك المذكورين ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والجملة اعتراض جيء به للثناء عليهم.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم، ولوط هو ابن أخ إبراهيم ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا﴾ بالنبوة ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالمي عصرهم، وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق، وقد ذكر الله تعالى أربعة عشر نبياً، لم يرتبهم على حسب تاريخهم، لأنه تعالى أنزل كتابه هدىً وموعظة، لا لسرد أخبار التاريخ.

﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ آدم، وشيث، ونوحُ، وهود، وصالح ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم الجماعات الكثيرين، وإن لم يكونوا جميعاً أنبياء، فهم مؤمنون مهتدون. ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي اصطفيناهم ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ما هدوا إليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى إلى الطريق المستقيم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ وهم المستعدون لذلك، وتفيد الآية على أنه تعالى متفضلٌ بالهداية عليهم ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ﴾ أي أولئك المذكورون مع فضلهم وتقدمهم ﴿لَحَبِطَ عَنۡهُم﴾ لبطل وسقط عنهم مع علو شأنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من الأعمال المرضية، فكيف بمن عداهم؟.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء، باعتبار اتصافهم بما ذُكر من الصفات الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي فصل الأمر بين الناس بالحق، أو الحكمة وهي معرفة حقائق الأشياء ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ إنما ذكر الأعم، لأن بعض من دخل في آبائهم وذرياتهم، ليسوا برسل ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي كفار قريش، فإنهم بكفرهم برسول الله ﷺ وما أُنزل عليه كافرون بجميع الرسل ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا﴾ أي أمرنا بمراعاتها، ووفقنا للإيمان بها، والقيام بحقوقها ﴿قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ في وقت من الأوقات، بل مستمرون على الإيمان بها،

وفي الآية دليل على أنه عزَّ وجلَّ ينصر رسوله ﷺ، ويقوي دينه، وقد حقق له ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين من الأنبياء ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ إلى الحق، والنهج المستقيم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ المراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وأُصول الدين والاقتداءُ المأمور به ليس إلا في الأخلاق الفاضلة، كالحلم، والصبر، والزهد، والشكر، والتضرع، ونحوها، وأنه ﷺ قد امتثل وأتى بجميع ذلك، فاجتمع فيه من خصال الكمال، ما كان متفرقاً فيهم، وفي أمره ﷺ بالاقتداء بهداهم، دون الاقتداء بهم، ما لا يخفى من الإشارة إلى علوّ مقامه!! ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ أي لا أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ، أو القرآن، فإنَّ مساق الكلام يدل عليهما، وإن لم يَجْرِ ذكرهُما ﴿أَجْرًا﴾ أي جُعْلاً من جهتكم، كما لم يسأل من قَبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أُمر بالاقتداء بهداهم، لأن عدم أخذ الأجرِ في مقابلة الإحسان، من مكارم الأخلاق ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي تذكيرٌ وعظة ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون قوم وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الإنس والجن.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ لمَّا بيَّن شأن القرآن العظيم، وأنه نعمة جليلة على كافة الأمم، عقَّب ذلك ببيان كفرهم به، على وجهٍ سَرَىٰ ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الإلّهية، والمعنى: ما عرفوا الله تعالى ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي حق معرفته، وعن ابن عباس معناه: ما عظموا الله تعالى حقَّ تعظيمه، وما قاله الأخفش أوفق بالمقام، أي ما عرفوه سبحانه، في اللطف بعباده، والرحمة عليهم، ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك، بل أخلُّوا إخلالاً عظيماً ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ منكرين لبعثة الرسول، وإنزال الكتب ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ شيئاً من الأشياء قال مجاهد: إنهم مشركو قريش، والجمهور على أنهم اليهود، ومرادُهم من ذلك المبالغة في إنكار إنزال القرآن الكريم، بدليل نقض كلامهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أي قل لهم ذلك على طريقة التبكيت والتقريع على سوء جهلهم.

روى الطبراني عن سعيد بن جبير أنَّ مالك بن الصيف ـ من أحبار اليهود ـ قال ﷺ له: أنشدك الله تعالى الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله تعالى يُبغض الحَبْر السمين؟ قال: نعم، قال ﷺ: فأنت الحبر السمين، فضحك القومُ، فغضب فقال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيءٍ﴾ الآية، ثم إنَّ وصف الكتاب، بالوصول إليهم، لزيادة التقرير، وكذا تقييده بقوله سبحانه: ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ فإنَّ كونه بيِّناً بنفسه، ومبيِّناً لغيره، مما يؤكِّد الإلزام ﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي هدىً كائناً للناس، وليس المراد بهذا، مجرد الإلزام بالاعتراف فقط، بل بإنزال القرآن أيضاً، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم لإنزاله، لما فيها من الشواهد، وقد نعى عليهم ما فُعل بها من التحريف والتغيير، حيث قيل: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي تضعونه في قراطيس مقطَّعة، وورقات متفرقة، وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب، ونزّلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة، وليس المراد وضعهم له في قراطيس، إذ كل كتاب لا بدَّ أن يودع في القراطيس، بل المراد التوبيخ على الجعل في قراطيس موصوفة بقوله

سبحانه: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي كثيراً منها، والمراد من الكثير نعوت النبي ﷺ وسائر ما كتموه من الأحكام، كرجم الزاني المحصن، وهذا خطاب لليهود بلا مرية، وكانوا يفعلون ذلك مع عوامهم متواطئين عليه ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم ودنياكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يجيب عنهم، إشعاراً بتعيين الجواب، بحيث لا محيد عنه، وإيذاناً بأنهم أُفحموا ولم يقدروا على التكلم ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ دعهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ولفظة ﴿الله﴾ جملة حُذِف أحد جزئيها، أي اللهُ أنزله.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ هذا تحقيقٌ لنزول القرآن على محمد ﷺ وتكذيبٌ لهم في كلمتهم الشنيعة ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع، لاشتماله على منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الكتب التي قبله، وتصديقه للكل، في إثبات التوحيد، ونفي الشرك، وأصول الشرائع التي لا تُنسخ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي لإنذارك أهل مكة، سُمّيت بذلك لأنها قبلة أهل البلاد، ومَحَجُّهم، وأعظم القرى شأناً وهم يجتمعون عندها كاجتماع الأولاد عند الأم، ويعظمونها تعظيم الأم ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أهل المدر والوبر، في المشارق والمغارب، لعموم بعثته ﷺ لجميع الناس ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن الكريم، فإنَّ من صدَّق بالآخرة، خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر، حتى يؤمن بالنبيِ والكتاب، ويحافظ على الطاعة، وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين، وعَلَمُ الإيمان، وأما المنكرون للبعث والجزاء، فلا يشعرون بشدة الحاجة إلى هداية القرآن، ومشركو مكة أعرضوا عن القرآن لأنهم لا يعتقدون البعث ﴿وَهُم عَلَىٰ صَلاَتِهِم يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدونها في أوقاتها، بأركانها وشرائطها وآدابها، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها من العبادات.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ
وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي لا أحد أظلم منه[1]، كالذين قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾ من جهته تعالى ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ كمسيلمة الكذاب، والأسود العَنْسي ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي أنا قادر على مثل ذلك، كالذين قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ وقد دخل في حكم هذه الآية، كلُّ من افترى على الله كذباً، في ذلك الزمان وبعده، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أي ولو ترى الظالمين إذْ هم ﴿ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي شدائده، من غَمَره إذا غشيه، والغمرةُ: الشدةُ، ومنه غمرات الموت، وتقييد الرؤية بهذا الوقت ليفيد رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر، وجواب الشرط محذوفٌ، أي لرأيت أمراً فظيعاً هائلاً ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ وهم أعوان ملك الموت ﴿ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ لقبض أرواحهم، كالمتقاضي الملحِّ، يبسط يده إلى من عليه الحق، ويُعنِّف عليه في المطالبة، من غير إمهال، أو باسطو أيديهم بالعذاب، قائلين ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي أرواحكم من

(١) الاستفهام إنكاري معناه النفيُ، أي لا أحد أظلمُ منه على معنى: إنه أظلم من كل ظالم، وزيادة قوله: ﴿كذباً﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك، للإيذان بأن ما قالوه مع أنه افتراء هو كذب في نفسه، فقد جمعوا بين الكذب، وجريمة الافتراء على الله.

أجسادكم، أو خلّصوا أنفسكم من العذاب ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي وقت الإماتة أو الوقت الممتد إلى ما لا نهاية له ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي العذاب المتضمن للشدة والإهانة، وحاصل المعنى: ولو ترى أيها المخاطب ما يحلُّ بالظالمين عند الموت، وما بعده، لرأيت أمراً فظيعاً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من ادعاء الوحي، ودعوى النبوة كذباً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها، ولا تؤمنون بها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ أي منفردين عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم، وعنِ الأولاد والأموال ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي على الهيئة التي وُلدتم عليها، عُراةً، وحُفاة، كما روي عن عائشة أنها قرأت هذه الآية، قالت يا رسول الله واسوأتاه، النساء والرجال سيحشرون جميعاً، ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال ﷺ: «لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه»[1] ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، من الأموال، والأولاد، والخدم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي في الدنيا، ولم تحملوا نقيراً وهذا يدل على أن ما يكتسبه الإنسان، ولم يصرفه في الخيرات، فصفته هذه التي ذكرها، أمَّا إذا صرفها إليها، فما تركها وراء ظهره، بل قدَّمها تلقاء وجهه، كما قال الله تعالى: ﴿وما تُقَدِّموا لأنفسكُمْ من خَيْرٍ تَجدُوهُ عنْدَ الله﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي شركاء الله في ربوبيَّته واستحقاق عبادتكم لها، تعالى الله عن ذلك، وبَّخ الله تعالى المشركين بذلك، ثم يقول الله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وقع التقطُّعُ بينكم، وأصله لقد تقطع ما بينكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاءكم، أو أن لا بعث ولا جزاء.

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه، ورواه الترمذي في التفسير ٥/٤٠٣ بلفظ: «تُحشرون حُفاة، عُراة، غُرْلاً - أي غير مختونين - فقالت امرأةٌ أيُبصر أو يرى بعضُنا عورةَ بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لكلِّ امرىءٍ منهمْ يومئذٍ شأنٌ يغنيه﴾» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ ﴾ شروعٌ في تقرير بعض بدائع الله تعالى، الدالة على كمال علمه وقدرته، إثر تقرير أدلة التوحيد، والفَلْقُ: الشقُّ أي شَاقُّ الحبِّ بالنبات، والنوَىٰ بالشجر، ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ أي مخرج ما ينمو من الحيوان والنبات، مما لا ينمو من النطفة والحبّ ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ ﴾ كالنطفة والحبِّ ﴿ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ﴾ كالحيوان والنبات، أو المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ولما كان الحي أشرف من الميِّت، وجب الاعتناء بإخراج الحي أكثر من الاعتناء بإخراج الميت، فلذا وقع التعبيرُ عن الأول بصيغة الفعل ﴿يُخْرِجُ﴾ وعن الثاني بصيغة الاسم ﴿وَمُخْرِجُ﴾ تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحيِّ أكثر وأكمل، من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ القادر العظيم الشأن هو ﴿ ٱللَّهُ ﴾ المستحقُّ للعبادة وحده ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته، وتشركون به من لا يقدر على شيءٍ أصلاً؟.

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ الإصباحُ في الأصل مصدر أصبح، إذا دخل في الصباح، سُمّي به الصبحُ والصباحُ مثله وهو أول النهار، فلقه عن بياض النهار، أي فالق ظلمة الإصباح بالإصباح، وذلك لأن الأفق مملوء من الظلمة، فشقَّ سبحانه ذلك بالنور الذي ظهر في الجانب الشرقي ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي يسكن إليه من يتعب بالنهار، ويستأنس به، لاسترواحه فيه، وكلُّ ما يسكن إليه الرجل ويطمئن به، من زوجٍ أو حبيب يقال له: سكنٌ، والمعنى سكن فيه كل طير ودابة أي: جعلَ الليل مسكوناً فيه، أخذاً له من السكون ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ معطوفان على الليل أي مجعولان ﴿ حُسْبَانًا ﴾ على أدوار مختلفة، تُحسب بهما الأوقات التي نيطت بها العبادات، والمعاملاتُ، والحُسْبانُ بالضم مصدر حسبت، والمصدر حِسَابا

بالكسر، وحُسْباناً بالضم، أي أُحصيت عدداً ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ الغالب القاهر، الذي لا يتعاصاه شيء من الأشياء، ومبالغ في العلم بجميع المعلومات، التي من جملتها المصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ أي أنشأ لأجلكم النجوم ﴿لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ أي جعلها كائنة لاهتدائكم في أسفاركم، عند دخولكم المفاوز أو البحار، إذا ضللتم وتحيَّرتم فيه، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي في ظلمات الليل، في البر والبحر، ذكر تعالى هنا بعض منافعها، وهو الاهتداء إلى البلدان في الأسفار، ومن منافعها يستدلون بالنجوم على القِبلة، ومنها أنها زينة السماء، ولا بأس في تعلم علم النجوم ومعرفة البروج والمنازل، ونحو ذلك، مما يتوصل به إلى مصلحة دينية، قال العلامة ابن حجر: والمنهي عنه من علم النجوم، ما يدّعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في المستقبل، يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب، فمن ادعى علمه بذلك فهو فاسق، فأمَّا الإخبار عمَّا يُدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم، الذي يُعلم به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى، وكم بقي من الوقت، فإنه لا إثم فيه، بل هو فرضُ كفاية ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي بينَّا الآيات التكوينية، والحجج الدالة على شؤونه تعالى، فصلاً، فصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معاني الآيات المذكورة، ويتفكرون في عظمة، الخالق جلَّ وعلا، وتخصيص التفصيل بهم، لأنهم المنتفعون به.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم ﴾ تذكير لنعمة أخرى، فإن رجوع الكثرة إلى أصل واحد، أقرب إلى التوادّ والتعاطف، وفيه أيضاً دلالة على عظيم قدرته سبحانه ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي فلكم استقرارٌ في الأصلاب، واستيداع في الأرحام، وقيل: المستودعُ: القبرُ، والمستقرُّ: إما الجنةُ أو النارُ، وقال مجاهد: المستقر على الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ والمستودع القبرُ ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ ذكر تعالى مع النجوم. ﴿يَعلَمُونَ﴾ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق آدم ﴿يَفقَهُونَ﴾ لأن إنشاء بني آدم من نفسٍ واحدة دقيقٌ يحتاج إلى استعمال فطنة، وتدقيق نظر[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ تذكير لنعمة أخرى، منبئةٍ عن كمال قدرته عزَّ وجل ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ﴾ أي بسبب الماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي أخرجنا بهذا الماء من جميع أنواع النبات ما هو غذاء للبشر ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ خَضِر اللونُ، خَضَراً من باب تعب فهو خضِر وأكثر ما يستعمل الخضر، فيما تكون خضرته خَلْقية، والخَضِرُ بمعنى الأخضر، والمعنى: فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له، شيئاً غضّاً أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ ﴾ أي نُخرج من ذلك الخَضِر ﴿ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ أي بعضه فوق بعض، وهو السنبل المنتظم للحبوب، متراكبة على هيئة مخصوصة، مثل سنبل القمح، والشعير، والأرز ونحوها،

---

(١) في القرآن أسرار دقيقة، لا يفطن لها الإنسان إلاّ بإمعان النظر، وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز، فقد عبَّر تعالى عن الأمور التي تحتاج إلى تفكر وتبصر بقوله: ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ إشارة إلى أن أطوار الخلق في الإنسان، وما احتوى عليه من العجائب، أمر خفيٌّ تتحيَّر فيه الألباب، فلذلك ختمت الآية بقوله: ﴿لقوم يفقهون﴾ أي يفهمون ويدركون الأسرار والدقائق، بخلاف النجوم فإن أمرها ظاهر مشاهد، لا تحتاج إلى كثير عناء، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ فتدبر دقائق أسرار القرآن!!.

وتقديم الزرع على الأشجار، لأن حاجة الناس إليه أكثر ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ النخل يستعمل في الواحد والجمع ﴿مِن طَلۡعِهَا﴾ الطلع شيء يخرج من النخل كأنه غُبارٌ، والطَّلْعُ أول ما يبدو من ثمر النخل، فإذا شق كيزانه سمي عِذْقاً وهو القِنْوُ ﴿قِنۡوَانٞ﴾ وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب ﴿دَانِيَةٞ﴾ سهلة للمجتني، قريبةٌ من القاطف، وقيل: المراد دانية من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾ أي وأخرجنا به جنات من أعناب ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ منصوبان على الاختصاص، وتخصيصهما بالذكر لعزة هذين الصنفين عندهم، ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ يقال اشتبه الشيئان وتشابها، نحو استويا وتساويا، أي مختلفاً في الطعم، والقدر، واللون، وغير ذلك من الأوصاف، الدالة على كمال قدرة صانعها، قال قتادة: مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ نظر اعتبار واستبصار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ أي إذا أخرج ثمره، كيف يثمر ضئيلاً، لا يكاد ينتفع به ﴿وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ أي نُضجه وإدراكه كيف يصير إلى كماله اللائق به، ويكون شيئاً جامعاً لمنافع جمة؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارة إلى ما أمر بالنظر إليه ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي لآيات عظيمة، دالة على وجود القادر الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجناس المختلفة من أصل واحد، وانتقالها من حال إلى حال، بشكل بديع، تحار في فهمه الألباب، لا يكون إلا بإحداث عالم، قادر، يعلم تفصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته، ولا يقدر على ذلك أحد، إلا الله عزَّ وجل، ولذلك عقب الله بتوبيخ من أشرك فقال سبحانه:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾.

فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ الذي شأنه ما فُصِّل ﴿شُرَكَآءَ﴾ في الألوهية ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ أي الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وَخَلَقَهُمۡۖ﴾ حال

من فاعل جعلوا، والمعنى: وقد علموا أن الله تعالى خالقهم، دون الجن، وليس مِن يخلق كمن لا يخلق؟ ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ افتعلوا وافتروا له، قال الفراء: يقال خَلق الإفكَ، واختلقهُ، وخَرَقَهُ بمعنىً، وقال الراغب: أصلُ الخرق قطعُ الشيء على سبيل الفساد، من غير تفكير ولا تدبر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهو ضدُّ الخلق، فإنه فعل الشيء بتقديرٍ ورفق، أي وزوَّروا له ونسبوا إليه ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ﴾ فقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله، والله تعالى منزَّهٌ عما قاله السفهاء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ أي بغير علم بمرتبة ما قالوه، وأنه من الشناعة بحيث لا يُقادر قدرُه ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزّه وتقدّس عما قالوه، من أنَّ له شريكاً أو ولداً، وهذه غاية السفاهة والجهالة، فكيف يجعلونهم شركاء وهو المنزَّه عن المثيل والنظير؟

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي موجدهما بغير آلة، ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان، ومعنى ذلك: أن إبداعه لهما لا نظير له، لأنهما أعظم المخلوقات الظاهرة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؟ أي من أين يكون أو كيف يكون له ولد؟ لأن الولد جزء الوالد، والله تعالى منزَّهٌ عن الجزئية والبعضية بالكلية، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ﴾ أي كيف يكون له ولد، وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ﴾ فكيف يتصور أن يكون المخلوقُ ولداً لخالقه[1] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فلا تخفى عليه خافية.

---

(١) الغرض من الآية الردُّ على من نَسَب لله الولد، من وجهين:
أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعُها.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخطاب للمشركين، والإشارة إلى المنعوت بجلائل النعوت ﴿رَبُّكُمْ﴾ مالك أمركم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخبارٌ أربعة مترادفة، أي ذلك الموصوف، هو الله المستحق للعبادة خاصة، مالك أمركم، لا شريك له أصلاً، وخالق كل شيء مما كان وما سيكون ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة، أي فاعبدوه، ولا تعبدوا مَن دونه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات، متولي أموركم، فِكلوها إليه، وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي لا تحيط به تعالى الأبصار، جمع بصر، وهي حاسة النظر، والإدراكُ: اللحاقُ والإحاطةُ، والآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية، فلم يقل تعالى: لا تراه الأبصار، وإنما قال ﴿لا تُدرِكُهُ الأَبصٰرُ﴾ أي لا تحيط به إحاطة معرفة وشمول كما قال سبحانه: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ واستدلال المعتزلة بالآية على نفي رؤية الله في الآخرة وهو خطأ كبير، لمعارضتها للنصوص الثابتة الصريحة في رؤية المؤمنين لربهم في الجنة. قالوا: إن رؤيته تعالى مستحيلة، ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، واحتجوا بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظرة﴾[1] واستدلوا بما رواه

= الثاني: أن الله خلق السموات والأرض، ومن كان بهذه العظمة، فهو غني عن الولد، وعن كل شيء، وهذا غاية الوضوح والجلاء.

(١) سورة القيامة، آية: ٢٢ ـ ٢٣.

الشيخان عن جرير قال: كنا جلوساً ليلة مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر وكان بدراً فقال: «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر..» الحديث. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لا تُدرِكُهُ الأبصَرُ﴾ أي لا يحيط بصر أحدٍ بالله تعالى، وإليه ذهب الكثير من أئمة اللغة، يقال: رأيتُه وما أدركه بصري، أي ما أحاط به من جوانبه ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي يراها على وجه الإحاطة والشمول، إذ لا تخفى عليه خافية، وخصَّ إدراك الأبصار، مع أنه تعالى يدرك كل شيء، لرعاية المقابلة وهو نوع من البلاغة لطيف ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي اللطيف بعباده، الخبير بشؤونهم ومصالحهم فيدرك ما لا تدركه الأبصار.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبَدنِ، سُميت بصائر لأنها تجلي الحق وتبصره، وهي نورٌ في القلب تستبصر به النفسُ، كما أن البصر نورٌ تبصر به العينُ، والمراد بها ههنا الآيات القرآنية، أي جاءكم القرآن بالآيات البينات، والحجج الواضحات، التي تبصرون بها الهدى من الضلال، فهو كالبصائر للقلوب ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق بتلك البصائر، وآمن وعمل صالحاً ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فلنفسه أبصر، ونفعه مخصوص بها ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ أي ومن لم يبصر الحق، بعدما ظهر له بتلك البصائر وضل عنه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي وباله وضرره عليها، لا يضرُّ غيره، وإنما عبر عنه بالعمى تقبيحاً وتنفيراً عنه، وعمى البصائر شرٌّ من عمى الأبصار ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر، والله تعالى هو الذي يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أي مثل ذلك التصريف نصرف الآيات، أي نوضحها ونبينها ليعتبروا ويتعظوا ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ أي قرأت وتعلمت، وليس هذا بوحي منزل، وقد قالوا هذا إفكاً وزوراً، وزعموا أنه ﷺ تعلّم من غلام رومي، كان يصنع السيوف بمكة، أو تعلّم من اليهود هذه الأخبار ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ ﴾ أي ولنبيّن هذا القرآن ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الحق من الباطل، فإنهم هم المنتفعون به.

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي دم على ما أنت عليه من الشرائع والأحكام، التي عمدتها التوحيد، ولا تلتفت لأفعالهم وأقوالهم، والمقصود تقوية قلبه، وإزالة حزنه ﷺ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ولا تحتفل بأهوائهم، ولا تلتفت إلى أذاهم.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ عدم إشراكهم ﴿ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ وهذا دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر، لعدم صرف اختياره نحو الإيمان، وإصراره على الكفر، ولو اختاروا الإيمان لهداهم إليه ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي رقيباً مهيمناً تحفظ عليهم أعمالهم ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي من جهتهم تقوم بأمورهم، وتدبير مصالحهم، إنما أنت مبلغ.

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح، كأن تقولوا: تباً لكم ولآلهتكم وقيل: إن سبَّ الآلهة، سبٌّ لهم، كما يقال: ضربُ الدابة صفعٌ لراكبها ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا ﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل، بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي لعدم معرفتهم بعظمة الله وجلاله. أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: قالوا يا محمد لتنتهينَّ عن سبِّ آلهتنا أو لنهجونَّ ربك!! فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم، وظاهر الآية وإن كان نهياً عن سب الأصنام، فالغرض النهي عن السبِّ الذي يكون وسيلة إلى سبِّ الله عزَّ وجلَّ، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية وجب تركها، فإن ما يؤدِّي إلى الشرّ شرٌّ، والسبُّ عن جهل يقع كثيراً من المختلفين في الدين، يسبُّ يهودي نبيَّ نصراني، والنصراني يسبُّ نبي اليهودي، ويسب شيعي سنياً وينتقص أبا بكر، فيسب السنيُّ علياً، وهذا كله من الجهل والغضب والغيظ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التزيين القوي ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ من الخير والشر، بإحداث ما يمكّنهم منه، قال ابن عباس: زيَّنا لأهل الطاعةِ الطاعةَ، ولأهل الكفرِ الكفرَ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم ﴾ مالك أمرهم ﴿ مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أي رجوعهم ومصيرهم، بالبعث بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعيد بالجزاء، كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلتَ، وفيه نكتة خفية، مبنية على حكمة، وهي أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض، فإنما يظهر مخالفاً لصورته الحقيقية، فإن المعاصي سموم قاتلة، قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة، كالمرأة الفاتنة الحسناء، ستظهر في الآخرة بصورة منكرة قبيحة، عند ذلك يعرفون حقيقة أعمالهم المنكرة.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۙ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ أي المشركون ﴿ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ الجَهْد بفتح الجيم وضمها: الطاقة والمشقة، يُقال: جهد الرجل في كذا أي جدَّ فيه وبالغ، والمعنى هنا أنهم حلفوا، واجتهدوا في الحلف، أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ من مقترحاتهم التي طلبوها، والداعي إلى هذا القسَم، التحكم على الرسول ﷺ في طلب الآيات، واستحقار ما رأوا منها، فاقترحوا غيرها، وحالهم هو المكابرة والعناد، والتمادي في العتوّ والفساد ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ والمراد من الإيمان بها: التصديقُ بالنبي ﷺ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي أمر هذه المعجزات عند الله وحده، وفي حكمه خاصة، يتصرف فيها حسب مشيئته، لا قدرة لي على الإتيان بها، وهذا سدٌّ لباب الاقتراح من المشركين ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كلام مستأنف لبيان الحكمة الداعية لعدم مجيء الآيات، خوطب به المسلمون لأنهم كانوا راغبين في نزولها، طمعاً في إسلامهم، أيْ أيَّ شيءٍ يعلمكم أيها المسلمون حالهم، وما سيكون عند مجيء الآيات، فلعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها، فما لكم تطلبون مجيئها؟!.

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي وما يشعركم أنا نقلِّب أفئدتهم عن إدراكٰ الحقّ فلا يدركونه، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه، لإعراضهم بالكلية عن النظر في الآيات الكونية ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي كما كفروا بالقرآن أول مرة، واستمروا على الكفر والضلال ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي نخليهم وشأنهم، بعدما عُلم فساد استعدادهم، وفرط نبُوِّهم عن الحق، وندعهم في طغيانهم متحيرين، لا نهديهم هداية المؤمنين الصادقين!!.

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي ولو أنزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلاَئِكَةُ﴾ فرأوهم بأعينهم، وسمعوا شهادتهم لك بالرسالة بآذانهم، ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بأن أحييناهم، وشهدوا بحقية الإيمان، وشهدوا بصدق محمد عليه السلام ﴿وَحَشَرْنَا﴾ أي جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي لو أحضرنا لديهم كل شيء عياناً ومشاهدة ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي ما صح لهم الإيمان، لتماديهم في العصيان ولا ينظرون في شيء من الآيات، نظر استدلال ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذُكر من الأمور الموجبة للإيمان، في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئته تعالى لإيمانهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾(١) والآية بيان لاستحالة وقوع إيمانهم، كأنه قيل: ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله، وهيهات ذلك، وحالهم حالهم بدليل قوله تعالى: ﴿ونُقلِّبُ أفْئِدَتَهُمْ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكنّ أكثر المسلمين، يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم، أو ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ كلام مبتدأ مسوقٌ لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يشاهده من عداوة قريش له، ببيان أن ذلك ليس مختصاً به، بل

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

هو أمر ابتلي به كلٌّ من سبقه من الأنبياء الكرام، لأن القدر والمنزلة، إنما تظهر بالعدو والأضداد، ألا ترى أن إبراهيم كان خليلاً، سُلِّط عليه نمرود، وموسى كان كليماً سُلّط عليه فرعون، ونبينا ﷺ كان حبيبا سُلّط عليه أبو جهل وكفار قريش، أي وجعلنا لكل نبي عدواً، فعلوا بهم ما فعل بك قومك، فاصبر كما صبروا ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ أي مردة الفريقين من شياطين الإنس وشياطين الجن، ومعنى هذا الجعل أن سنة الله في الخلق مضت، بأن يكون الشرير المتمرد، العاتي عن الحق، يكون عدواً للدعاة من الأنبياء عليهم السلام وورثتهم ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي يلقي ويوسوس بعض كلٌّ من الفريقين، إلى البعض الآخر، قال مالك بن دينار: إنَّ شيطان الإنس أشدُّ من شيطان الجن، لأني إذا تعوذت بالله تعالى، ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي المموّه منه، المزيَّن ظاهرُه الباطل، من زخرفه إذا زينه ﴿غُرُورٗاۚ﴾ مفعول له أي ليغرُّوهم أو مصدر لفعل مقرَّر، أي يغرونهم غروراً والتغرير بالزخرفة قد ارتقى عند شياطين هذا الزمان، ولا سيما شياطين السياسة، ارتقاءً عجيباً، فإنهم يخدعون الأحزاب، والأمم، والشعوب، فيصوّرون الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة، والشيوعية عدالةً، بتغيير الأسماء، وتزيين أقبح المنكرات، نعوذ بالله تعالى من شرورهم ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم، ولكن هناك حكمة الابتلاء ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من مكائد، فإن الله ناصرك عليهم وإنما قال هنا ﴿وَلَو شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وفيما يأتي ﴿وَلَو شَاءَ الله مَا فَعَلُوهُ﴾ فغاير بين الاسمين، فهذه الآية من عداوتهم له ﷺ، التي لو شاء منعهم عنها، ويقتضي ذكره جل شأنه بهذا العنوان، إشارة إلى أنه تعالى مربّيه، وهو في كنف حمايته، وأما الآية الأخرى ـ ١٣٧ ـ فذكر قبلها إشراكهم فناسب ذكره عزَّ اسمه بعنوان الألوهية، التي تقتضي عدم الإشراك،

فكأنه قيل ههنا إذا كان ما فعلوه من عداوتك من فنون المفاسد، فاتركهم وما يفترونه من أنواع المكايد، ولا تبال بهم، فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة، ولك عواقب حميدة، لِتَضَمُّنِ مشيئته سبحانه، على الحكم البالغة.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ صَغَا إلى الشيء: مال، أي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليغرَّهم به، ولتميل إليه ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وإنما خَصَّ بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة، إشعاراً بتعمقهم في الضلال وعدم إيمانهم بالآخرة، بما يلقى إليهم، فإن لذات الآخرة محفوفة في هذه النشأة بالمكاره، وآلامها مزينة بالشهوات، فالذين لا يؤمنون بها، لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات، ودون هذه الشهوات آلاماً، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم في الدنيا بادي الرأي، فهم مضطرون إلى حب الشهوات، التي من جملتها مزخرفات الأقاويل، وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال، ناظرين إلى عواقب الأمور، لم يتصور منهم الميل إلى المزخرفات، لعلمهم ببطلانها، ووخامة عاقبتها ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم، بعدما مالت إليه أفئدتهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ أي ليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ له من القبائح، التي لا يليق ذكرها.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي قل لهم: أفغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم؟ والحَكَمُ أبلغ من الحاكم، لأنه لا يوصف به إلا العادل، يُروى أنَّ مشركي قريش قالوا لرسول الله ﷺ: «اجعل بيننا وبينك حَكَماً من أحبار اليهود، أو من أساقفة النصارى، ليُخْبِرونا عنك بما في كتابهم من

أمرك، فنزلت الآية»[1] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ أي أغير الله أبتغي حكماً، والحالُ أنه هو الذي أنزل إليكم القرآن، الناطق بالحق والصواب، مبيناً فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، وغير ذلك من العقائد والشرائع؟ فأي حاجة بعد ذلك إلى الحَكَم؟ فكفي به حاكماً بيني وبينكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم، أن القرآن حقٌّ وأنه كلام الله تعالى لموافقته لما عندهم من التوراة والإنجيل، وفي التعبير عن التوراة والإنجيل باسم الكتاب، إيماء إلى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة، المقتضية للاشتراك في الحقّية والنزول من عند الله تعالى، حيث وجدوه حسبما نعت فيه، وعاينوه موافقاً له في الأصول، ومخبراً عن أمور لا طريق إلى معرفتها سوى الوحي، مع أنه ﷺ لم يمارس كتبهم، ولم يخالط علماءَهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي الشاكّين في أنه منزل من ربك بالحق، فيكون من باب التهييج، وقيل: الخطابُ للأمة وإن كان له ﷺ صورة، فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه، لأنه حقٌّ منزل من عند الرحمن.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ شروع في بيان كمال القرآن، أي تمّ كلام الله المنزَّل على خاتم النبيّين ﴿صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ مصدران نصبا على الحال، أي صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قدَّر، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ أي لا أحد يبدّل شيئاً من كلماته، بما هو أصدق وأعدل منه، فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى؟ فيكون هذا ضماناً للقرآن وآياته بالحفظ، كقوله تعالى: ﴿وإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلا نبيَّ، ولا كتاب بعدها ينسخها، ويبدل أحكامها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل ما يمكن أن يُعلم، فيدخل في ذلك أقوال وأحوال البشر، ثم إنه تعالى لما أجاب عن شبهات الكفار، وبين بالدليل صحة النبوة، أرشد إلى أنه بعد ظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقلُ إلى كلمات الجهال، فقال عزَّ شأنه:

---

(١) انظر زاد المسير في التفسير لابن الجوزي ٣/ ١١٠ ونسبه إلى الماوردي.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

قولُه سبحانه: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ المراد بـ ﴿مَن فِي الأرضِ﴾ الناسُ، وبأكثرهم: الكفارُ الضالون المضلّون، أي إن تطعهم بمخالفة ما شرع لك، يضلوك عن الحق، وعن الشريعة التي شرعها الله لعباده، لأن الضالّ لا يأمر إلا بما فيه ضلال ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما هم عليه من الشرك والضلال ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ وظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، فهم على آثارهم يهتدون ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون، وأصلُ الخرص: القولُ بالظنِّ والتخمين، وهو أقبحُ أنواع الكذب، أي يكذبون على الله سبحانه، فيما ينسبونه إليه، كاتخاذ الزوجة، والولد، وعبادة الأوثان، وتحليل المُتْعة، وتحريم البحائر، وغير ذلك.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو تعالى أعلم بالفريقين، بمن ضل عن سبيل الرشاد، وبمن اهتدى إلى طريق الإيمان والسعادة.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أمرٌ مرتب على النهي عن اتباع المضلين، رُوي عن ابن عباس قال: جاء اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما يقتل الله تعالى؟ فأنزل الله الآية. أي إذا كان

أمر أكثر الناس على الضلال، فكلوا مما ذكر اسم الله تعالى عليه، ولو كان من البحائر، والسوائب، ونحوها[1] ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحل الله، واجتناب ما حرَّمه، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله، تقديره: فكلوا مما ذُكر عليه اسمُ الله.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾؟ وأيُّ غرضٍ لكم في أن تتحرجوا عن أكله، وما يمنعكم عنه؟ إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب، عن أكل ما ذُكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب، ونحو ذلك، وسبب نزول الآية، أن المسلمين كانوا يتحرجون من أكل الطيبات تزهداً، فنزلت[2] ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بقوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرماً﴾ الآية، فبقي ما عدا ذلك على الحل ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ مما حُرِّم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ﴾ أي كثير من الكفار، يُضلّون الناس بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ﴿بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ بتشهيهم من غير تعلق بدليل يفيد العلم، المقتبس من الشريعة، بل بمجرد الأهواء والشهوات، يُضلّون غيرهم كما ضلوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ بالمتجاوزين الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، فيجازيهم على صنيعهم، والمرادُ بهم هذا الكثير، ووَضع الظاهر موضع ضميرهم، لوصفهم بصفة الاعتداء.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ۝١٢٠﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٤٦ ولفظه: أتى أناس النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله: أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ الآية.

(٢) انظر تفسير ابن الجوزي ٣/ ١١٢.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي اتركوا المعاصي ما يُعلن منها وما يسرُّ، وما بالجوارح وما بالقلب، روي أن أهل الجاهلية، كانوا يرون أن الزنا إذا ظهر كان إثماً، وإذا استتر فلا إثم فيه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ أي يكتسبون الإثم من الظاهر والباطن ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي سيلقون جزاء إجرامهم في الآخرة، بقدر ما كانوا يبالغون في إفساد فطرتهم، بالإصرار عليه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر الآية في تحريم متروك التسمية، عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب أحمد وقال مالك والشافعي ذبيحة المسلم حلال، وإن لم يذكر اسم الله عليها، وفرّق أبو حنيفة بين العمد والنسيان قال: إن ترك التسمية عمداً حرم، وإن تركها نسياناً حلَّ لحديث «رُفع عن أمتي الخطأ و النسيان وما استكرهوا عليه»[1] ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصيةٌ وخروج عن طاعة الله ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾ أي يوسوسون ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الذين اتبعوهم من المشركين فيما أنهوا إليهم بقولهم: إن محمداً وأصحابه، يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يقتلونه حلال، وما يقتله الله حرام، يعنون الميتة ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بالوساوس الشيطانية ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال الحرام، وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره، فقد أشرك به تعالى، بل آثره عليه سبحانه، والظاهر أن التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك، من باب التغليظ.

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٤٠٠ في الحدود، وإسناده حسن.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ هذا تمثيل للمؤمنين والكفار، فالمؤمنون مستنيرون بأنوار الوحي الإلهي، والمشركون خابطون في ظلمات الكفر، فكيف يُعقل إطاعتهم لهم؟ والهمزةُ للإنكار والنفي، أي أو من كان ﴿ميتاً﴾ أي كافراً ﴿فَأَحْيَيْناهُ﴾ أي فأعطيناه الحياة المعنوية، لأن الإيمان حياةُ القلوب ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ﴾ مع ذلك ﴿نُورًا﴾ عظيماً، يميز به الحقّ والباطل، وهو نور القرآن لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجهُمْ من الظُّلُمَاتِ إلى النّور﴾[1] ﴿يَمْشِى بِهِۦ﴾ أي بسببه ﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي فيما بينهم آمناً ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي خابطٌ فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ ولا يتخلص منها، لأنها قد أحاطت به، ولم يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور، قال ابن عباس: إن المراد بالميت الكافر، وبالإحياء: الهدايةُ، وبالنور: القرآنُ، وبالظلمات: الكفرُ والضلالةُ[2]، والآية نزلت في عمر رضي الله عنه وهو المراد بمن أحياه الله تعالى، وأبي جهل الذي بقي يتخبط في ظلمات الكفر والجهل، والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك كلٌّ من انقاد لأمر الله، ومن بقي على الضلالة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التزيين المذكور، أي كما أبقينا هذا الكافر يتخبط في الظلمات كذلك ﴿زُيِّنَ﴾ من جهته تعالى خلقاً، ومن جهة الشيطان وسوسة ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ كأبي جهل وأضرابه ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما حكي عنهم من القبايح.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.

(٢) شبه تعالى المؤمن بالحي، الذي استنار قلبه بنور المعرفة والإيمان، فهو يعرف الطريق ويهتدي إلى منافع الدنيا والآخرة، كما شبَّه الكافر بالميت، الذي يتخبط في ظلمات الضلالة والكفر، لا يعرف المنفذ ولا المخلص، ففي الآية استعارة بديعة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي كما جعلنا في مكة مجرمين ﴿ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ وجعلنا بمعنى صيَّرنا، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس، والمكر بهم، أي جعلناهم مزيناً لهم أعمالهم، مصرين على الباطل، مجادلين به الحق، ليمكروا فيها، وهذا تسلية للرسول ﷺ ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ لأن وباله يحيق بهم، اعتراضٌ على سبيل الوعد لرسول الله ﷺ، والوعيد للكفرة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي والحال أنهم ما يشعرون بذلك أصلاً، بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكرُ السَّيِّئُ إلاَّ بأَهْلِهِ﴾[1] وهذا بيان من معجزات القرآن الكريم، فأولئك المجرمون الذين يعادون الرسول ﷺ ويمكرون في عصرهم، ولا يحيق مكرهم إلا بأنفسهم، قد وقع الأمرُ كما أنبأ الله ذو الجلال، ويكون كذلك من يعادون الحق، ويمكرون بأهله.

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ هذا رجوع إلى بيان حال مجرمي أهل مكة، بعدما بيَّن بطريق التسلية أن حال غيرهم أيضاً كذلك، أي إذا جاءتهم معجزة أو آية من القرآن، تأمرهم بالإيمان ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ قال المفسرون: قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوّة حقاً، لكنتُ أحقَّ بها، فإني أكثرُ منه مالاً وولداً، وقال مقاتل: نزلت الآية في أبي جهل حين قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

كفرسَيْ رهان، قالوا: منَّا نبيٌّ يُوحى إليه؟ واللهِ لا نرضى به، ولا نتَّبعه أبداً حتى يأتينا وحيٌ كما يأتيه»، وقال الضحاك: سأل كلُّ واحد من القوم أن يختص بالرسالة والوحي، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرِىءٍ منهُمْ أَنْ يُؤتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾[1] ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي الله أعلم من هو أهل للرسالة، فإن النبوة ليست بالنسب والمال، وإنما هي بفضائل نفسانية، يخصُّ الله تعالى بها من يشاء من عباده، فيجتبي لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه، فقد جرت عادة الله تعالى، أن يبعث من كل قوم أشرفهم، وأطهرهم جِبلَّةً ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾استئناف ناعٍ عليهم ما سيلقونه من فنون الشر، بعدما نعى عليهم حرمانهم، مما أمَّلوه من عزّ النبوة، وشرف الرسالة، والسين للتأكيد أي سيصيب هؤلاء، المجرمين، على وجه التحقيق واليقين ﴿صَغَارٌ﴾ أي ذلٌّ وحقارةٌ بعد تكبرهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي من عند الله يذلُّهم به، ويُهينهم في هذه الحياة الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ أي بسبب مكرهم المستمر، وجزاء مكرهم الشرّير.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ أي يعرِّفه طريقَ الحقّ، ويوفقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيتسع له، وينفسح لقبوله وهو كناية عن جعل النفس قابلةً للحقّ، مهيَّأة لحلوله، مصفَّاةً عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار ﷺ حين سئل عنه فقال: نورٌ يقذفه اللهُ في قلب المؤمن، فينشرح له،

---

(١) سورة المدثر، آية: ٥٢.

وينفسح، فقالوا: هل لذلك أَمَارةٌ؟ فقال، ﷺ: الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتَّجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل النزول[1] ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أي يخلق فيه الضلالة، لسوء اختياره ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ بحيث ينبو عن الحق، فلا يدخله الإيمان ﴿حَرَجًا﴾ شديد الضيق، وهو مأخوذ من الحرجة، وهي الأشجار الملتفُّ بعضُها على بعض، لا يصل إليها شيء ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ شبَّهه مبالغة في ضيق صدره، بمن يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبَّه به على الإيمان يمتنع عنه، كما يمتنع عنه الصعود، وأصل يصَّعَدُ يتصعَّد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجعل ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي العذاب والخذلان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي على الكفرة المجرمين الذين لا يؤمنون بآيات الله.

قال مجاهد: الرجسُ ما لا خير فيه، وقال الزجاج: هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وهذه الآية الكريمة، معترك أهل الكلام، فالقدرية ينكرون خلق الخَلْق بتقدير سابق من الله تعالى، ويقولون: إن الآية ظاهرة في أن هداية الإنسان يخلق في صدره انشراحاً للإسلام، وهذا الخلق يحصلُ أُنُفا أي جديداً غير مرتب على تقدير سابق، والجبرية يقولون إسلام المرء بفعل الله وحده، ليس باختيار العبد وكسبه، والأشعرية يقولون: له فيه كسب، ولكنه بخلق الله جل وعلا، والإنسان مسؤول عن كسبه وفعله، ويقول المعتزلة إيمان المرء وكفرُه بفعله المستقل، ومن نظر في الكتاب الكريم، يتجلّى له الحقُّ، فقد قال تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلّ شيء﴾ وقال ﴿إنَّا كل شيء خلقناه بقدَر﴾ فإن كل شيء بإرادته ومشيئته، وفيه أن المكلف بفعله وكسبه واختياره، ولا يكون فعله منافياً لخلق الله ومشيئته، ولا مستغنياً عن توفيقه وإمداده.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري ١٢/ ١٠٠ وانظر ابن كثير ٢/ ١٨١.

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٗاۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢٧ ﴾.

﴿ وَهَٰذَا ﴾ الذي جاء به القرآن ﴿ صِرَٰطُ رَبِّكَ ﴾ الطريق الذي ارتضاه لعباده، وذكرُ الربوبية، إيذان بأنَّ تقويم ذلك الصراط للتربية، وإفاضة الكمال ﴿ مُسْتَقِيمٗاۗ ﴾ أي لاعوج فيه، أو عادلاً مطرداً فاستمسك به ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ ﴾ بيناها مفصلة ﴿ لِقَوْمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتذكرون ما في تضاعيفها، فيعلمون أن كل ما يحدث من الحوادث، خيراً كان أو شراً، فإنما يحدث بقضاء الله وخلقه، وأنه تعالى عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل ويريد، وتخصيصُ القوم بالذكر لأنهم هم المنتفعون.

﴿ ۞ لَهُمْ ﴾ أي للمتذكرين ﴿ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أي دار الله أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره ﴿ عِندَ رَبِّهِمْۖ ﴾ أي ذخيرةً لهم عنده، لا يعلم كنهها غيره ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي مولاهم وناصرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعٗا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٖ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعٗا ﴾ نصب بإضمار اذكر والضمير لمن يُحشر من الثقلين ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ ﴾ يعني الشياطين بدليل قوله تعالى: ﴿قَدِ استَكثَرتُم مِنَ الإنسِ﴾ والمعشرُ: الجماعةُ من الناس، أمرهم واحد، المعشر، والنَّفرُ، والقومُ، والرهطُ، معناهم الجمع لا واحد لهم، للرجال دون النساء ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ ﴾ أتباعكم أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، فحشروا معكم، كقولهم: استكثر الأمير من الجنود، وهذا

بطريق التوبيخ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بالجن، بأن دلّوهم على الشهوات، وما يتوصل به إليها، والجن بالإنس، بأن أطاعوهم، وحصّلوا مرادهم، وكانوا وسطاء في الإغواء والتضليل، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان، واتباع الهوى، وإظهار الندامة عليها ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي البعث، ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين، للإيذان بأن المضلّين قد أُفحموا، فلم يقدروا على الكلام أصلاً ﴿قَالَ﴾ ربنا عزّ وجل ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم ومحل إقامتكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي ماكثين في نار جهنم أبداً ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قبل الدخول، وهو ما بين الحشر إلى دخول النارِ، كأنه قيل: النار مثواكم أبداً، إلا ما أمهلكم الله، وقيل: هذا الاستثناء معلّق بمشيئة الله تعالى، وفائدته إظهار القدرة، وكانٍ من الجائز العقلي في مشيئته تعالى أن لا يعذبهم، ولو عذّبهم ألاّ يُخَلّدهم، وليس بأمر واجب عليه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم، وبما يليق بهم من الجزاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الإنس ﴿بَعْضًۢا﴾ آخر منهم، أي نجعلهم بحيث يتولونهم، بالإغواء والإضلالِ وغير ذلك، واستدل به على أن الرعية إذا كانوا ظالمين، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، كما ورد في الأثر «كما تكونون يولّ عليكم»[1] ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوه من الكفر.

(١) روي عن ابن عباس أنه قال: «إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولّى أمرهم شرارهم» وعن مالك بن دينار قال: قرأت في بعض كتب الحكمة أن الله تعالى يقول: «إني أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة» التفسير الكبير للفخر الرازي.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ توبيخ المعشرَيْن بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ ﴾ في الدنيا ﴿ رُسُلٌ ﴾ من عند الله عز وجل ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ من جملتكم، لأن الرسل من الإنس خاصة، وإنما جعلوا منهما للإيذان بتقاربهما واتحادهما، تكليفاً وخطاباً، كأنهما جنس واحد، فقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن، وأنذروا به قومهم، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعونَ القُرآنَ﴾[1] الآية وقال الضحاك: إن الله تعالى أرسل للجن رسلاً منهم، كذلك، وادعى البعض قيام الإجماع على أن الله لم يرسل إلى الجن رسولاً منهم كما يدل عليه ظاهر الآيات، كحصر الرسالة في الرجال وجعلها في ذرية نوح، وإبراهيم، وجملة القول أنه ليس في المسألة نص قطعي، فنحن نؤمن بما ورد، ونفوض الأمر إلى الله تعالى ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ أي يتلون عليكم آيات ربكم التي بها سعادتكم وفلاحكم ﴿ وَيُنذِرُونَكُمۡ ﴾ أي يخوفونكم ﴿ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾ يوم الحشر، الذي عاينوا فيه أفانين العقاب ﴿ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ ﴾ أي بإتيان الرسل وإنذارهم، وبمقابلتهم بالكفر والتكذيب، كما حكى تعالى عنهم: ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ اعتراض لبيان ما أداهم إلى ارتكاب القبائح، أي اغتروا في الدنيا بالحياة الفانية ﴿وَشَهِدُواْ﴾ في الآخرة ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿ كَٰفِرِينَ ﴾ بالآيات والنذر التي أتى بها الرسل.

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٩.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قص من أمرهم ﴿ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ «أَنْ» مخففة من «إنَّ» وضمير الشأن اسمها، والمعنى ذلك ثابت لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بسبب أيِّ ظلم فعلوه، قبل أن يُنهوا عنه، بإنزال كتاب، وإرسال رسول، لأن الله عادل فلا يعاقب أحداً إلا بعد الإنذار ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ أي وهم غافلون لم ينبهوا برسول، وإنما علّل بما ذكر لبيان كمال نزاهته سبحانه عن الظلم.

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من المكلّفين من الثقلين، الذين بلغتهم الدعوة ﴿ دَرَجَٰتٌ ﴾ أي مراتب متفاوتة ﴿ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أي من أعمالهم، صالحة كانت أو سيئة، سيجازون عليها ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ليس الله غافلاً ولا ناسياً لأعمال العباد، بل هو رقيب عليهم، مطلع على أقوالهم وأفعالهم، وفيه تهديد ووعيد للإنس والجن، وأنه سبحانه سيجازيهم بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ عن العباد والعبادة، المعروف بالغنى عن كل ما سواه، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لإظهار

اللطف به، وتنزيه ساحته عن شمول الوعيد الآتي له ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ أي الموصوف بالرحمة العامة، فيترحَّم على العباد، ويمهلهم على المعاصي إلى ما شاء، وفيه تنبيه على أن الإرسال للرسل، ليس لنفسه، بل رحمةً من الله على العباد ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ما به إليكم حاجة، إن يشأ يذهبكم أيها العصاةُ، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم﴾ أي وينشىء من بعد إذهابكم ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق والعباد، يكونون أعْبَدَ منكم لله، وأطوع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم ترحماً عليكم، وتضمنت الآية التحذير من بطش الله عز وجل وانتقامه من العصاة المجرمين.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله، والحساب والثواب والعقاب ﴿لَأَتٍۖ﴾ لكائن لا محالة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[1] وإيثاره عليه لبيان كمال سرعة وقوعه، بتصويره بصورة طالب حثيث، لا يفوته هارب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولستم معجزين ربكم، ولا خارجين عن قدرته وعقابه وإن ركبتم في الهرب، متن كل صعب وذلول.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وهو أمرٌ له عليه السلام بطريق التلوين، بأن يواجههم بتشديد التهديد، وتكرير الوعيد، ويُظهر لهم ما هو عليه من غاية التصلب في الدين، وعدم المبالاة بهم، أي قل يا رسول الله ﴿ياقومي﴾ وفي هذا النداء ضرب من الاستمالة لهم، يذكِّرهم بأنهم قوم الرسول، الذين يحرص على خيرهم ومنفعتهم ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم، والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمعاداة، والغرض منه التهديد والتخويف، لا أنه أمر وطلب ﴿إِنِّى عَامِلٌۖ﴾ ما كنت عليه من المصابرة، والثبات على الإسلام ﴿فَسَوْفَ

---

(١) سورة المرسلات، آية: ٧.

﴿تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة، أي فسوف تعلمون أيُّنا له العاقبة الحسنى، التي خلق الله تعالى لها هذه الدار، وفيه مع الإنذار، إنصافٌ في المقال، وحسن الأدب، وتنبيه على وثوق المنذر بأنه محق ﴿إِنَّهُۥ﴾ أيّ الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وضع الظلم موضع الكفر، إيذاناً بأن امتناع الفلاح، يترتب على أي فردٍ من أفراد الظلم.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ شروعٍ في تقبيح أحوالهم، بحكاية أقوالهم وأفعالهم السخيفة، تنبيهاً على ضعف عقولهم، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى كلامهم، أي وجعل مشركو العرب ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي ممَّا خلق وأوجد من أنواع المخلوقات ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ يعني الزرع والثمر ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني من نتاج الإبل، والبقر، والغنم، جعلوا لله تعالى أشياء، وأشياء منها لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه للهِ زاكياً نامياً، أخذوه فجعلوه لآلهتهم، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه، وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان، جبروه مما جعلوه لله، معتلّين بأن الله تعالى غنيٌّ، وما ذلك إلا لحب آلهتهم، وإيثارهم لها، فما جعلوه لله صرفوه للضِيفانِ والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها، وعلى خدّامها، وفيه تنبيه على فرط جهالتهم، حيث أشركوا الخالق في خلقه، جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجّحوه عليه تعالى[1] ﴿نَصِيبًا﴾ أي جعلوا لله نصيباً، ولأصنامهم نصيباً،

---

(١) قال ابن عباس: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا للهِ=

ولم يذكر اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمر الله تعالى به، والمراد بالشركاء الأوثان، وسموهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي فما عيَّنوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عيَّنوه لله تعالى، وما عيَّنوه لله يُصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لآلهتهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ من إيثار مخلوق عاجزٍ عن كل شيء، على خالقٍ قادرٍ على كل شيء، وعملُهم العجيب لا يقبله عقل ولا شرع، ولذا نسب إلى الإساءة.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك التزيين في قسمة الحرث والأنعام ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي مشركي العرب ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ فكانوا يئدون البنات الصغار، بأن يدفنوهنَّ أحياء، وكانوا في ذلك فريقين: أحدهما يقول: إن الملائكة بنات الله سبحانه، فألحقُوا البنات بالله تعالى، والآخر يقتلهن خشية الإنفاق وكانوا ينذر أحدهم إذا بلغ بنوه عشرة أن ينحر واحداً منهم ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ من الشياطين أو من السَّدنة، سميت الشياطين شركاء، لأنهم أطاعوهم في المعصية، وقتل الأولاد، وقال الكلبي: هم سدنة آلهتهم، لأنهم كانوا يزيّنون قتل الأولاد

= منه جزءاً، وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمّي لله، ردُّوه إلى الوثن وقالوا: إن الوثن فقير، والله غني، وأخذوا حق الله فجعلوه للأصنام أ هـ، تفسير ابن كثير ٢/١٨٦.

﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ أي يهلكوهم بالإغواء، والتزيين الرديء الفاسد، الذي يذهب بما أودع الله في قلوب الوالدين من عواطف الرحمة والرأفة، بل يقلبها إلى منتهى الوحشية، حتى يقتل ريحانة قلبه ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أي ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، حتى انحرفوا عنه إلى الشرك ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ عدم فعلهم ذلك ﴿ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم الشياطين ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي فدعهم وما يختلفونه من الإفك والكذب على الله، وهو وعيد وتهديد للمشركين شديد.

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم ﴿ هَٰذِهِۦٓ ﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ﴿ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ أي ممنوع منها ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ ﴾ يعنون خدم الأوثان، من الرجال دون النساء ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ أي قالوا ذلك متلبّسين بزعمهم الباطل، من غير حجة ﴿ وَأَنْعَٰمٌ ﴾ أي وهذه أنعام ﴿ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامي ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها اسم الأوثان والأصنام ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ أي على الله سبحانه، وجملةُ القول أنهم قسموا أنعامهم إلى هذا التقسيم، وجعلوه من أحكام الدين، ونسبوه إلى الله تعالى افتراءً عليه سبحانه ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي بسببه، وفي إبهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى.

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ حكاية لفن آخر من فنون كفرهم ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنون به أجنة البحائر، والسوائب، كما روي عن مجاهد ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي حلال لهم خاصة، إن وُلد حياً، دون الإناث ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ وهن الإناث باعتبار اللفظ ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي وإن ولدت ميتة ﴿فَهُمْ﴾ أي الذكور والإناث ﴿فِيهِ﴾ أي فيما خرج من بطون الأنعام ﴿شُرَكَاءُ﴾ أي يأكلون من الميتة جميعاً ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي جزاء وصفهم الكذبَ على الله تعالى، في التحليل والتحريم، كقوله تعالى: ﴿وتصف أَلْسِنَتُهم الكَذِبَ﴾ ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيم في تدبيره، عليم بخلقه، والحكيم العليم لا يترك جزاءهم، الذي هو من مقتضيات الحكمة، واستدل بالآية، على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور، دون الإناث، وأن ذلك الوقف يفسخ، ولو بعد موت الواقف، لأن ذلك فعل الجاهلية، واستدل بعض المالكية بمثل ذلك في الهبة، وأخرج البخاري عن عائشة قالت: «يعمد أحدكم إلى المال فيجعله للذكور من ولده، إنْ هذا إلا كما قال الله تعالى: ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾»[1].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ وهم قبيلة ربيعة، ومضر، وأضرابهم من العرب، الذين كانوا يئدون بناتهم، مخافة السبي والفقر، أيّ خسروا دينهم ودنياهم ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفة عقولهم، وجهلهم بأن الله رازق أولادهم لا هم، ولذا سُمُّوا جاهلية ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما وهذا أيضاً من الجهالة ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ وهذا أيضاً من الجهالة لأن الجرأة على الله تعالى، والكذب عليه من أعظم الذنوب ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على عائشة رضي الله عنها.

الطريق المستقيم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه وأن هدوا بفنون الهداية، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَد خَسِرَ الذِينَ قَتلوا أولادهُم سَفَها بِغَيرِ عِلمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ الله افتِراءً عَلى الله قَد ضَلوا وَمَا كَانُوا مُهتَدِينَ﴾[1].

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾ أي هو الله الذي خلق بساتين من غير شركة لأحدٍ فيها ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ المعروشات من الكرم: ما يُحمل على العريش، وهي عيدان تصنع كهيئة السقف يُوضع الكرم عليها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض على حالها، وقيل: إن المعروش ما يحتاج إلى العريش من الكرم، وغير المعروش هو القائم من الشجر، المستغني باستوائه، وقوة ساقه ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ أي أنشأهما كذلك ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي ثمره الذي يؤكل، مختلفاً في الهيئة والكيفية ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والشكل ولا يتشابه في الطعم ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم ينضج، وفائدة رخصته في الأكل منه قبل أداء حقه، ولا يتوهم أنه لا يُباح إلا إذا أدرك، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق، لأن رعاية النفس مقدمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2] وفي الخبر

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٦/ ٥٥١ فتح الباري.
(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

«ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ الذي أوجبه الله تعالى فيه ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وهو في رواية ابن عباس العشر، أو نصف العُشر كما ذهب إليه الحسن وقتادة ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ في التصدق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ روي عن ابن جريج قال: نزلت في «ثابت بن قيس» قطف خمسمائة نخلة، ففرّق ثمرها كلَّها، ولم يدخل منه إلى منزله شيئاً»[1] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم من حيث إسرافهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي خلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يُفرش، أي يُضجع للذبح والأكل، والمراد بها الكبار الصالحة للحمل، والصغار التي تذبح للأكل كأنها فرش ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي كلوا بعض ما رزقكم الله منها من الحلال، وفيه تصريح بأن إنشاءها لأجلهم ومصلحتهم، ولا تحرموها كما في الجاهلية، وقيل معنى الآية: استحلُّوا الأكل مما أعطاكم الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ في أمر التحليل والتحريم، تقليد أسلافكم المفترين على الله سبحانه ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي طرقه، فإن ذلك بإغوائه واستتباعه إياهم أي طرقه، فإن ذلك بإغوائه واستتباعه إياهم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لكم، فقد أخرج أبويكم من الجنة.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٢/١٣٨ قال: والمختار قول عطاء أنه نهيٌ عن الإسراف في كل شيء.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي خلق لكم من الأنعام ثمانية أنواع، أحلَّ لكم أكلها ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أنشأ من الضأن اثنين: الكبش والنعجة، وهي: ذوات الصوف من الغنم، الواحد ضائن، والأنثى ضائنة ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ التيسُ، والعنزُ، جمع ماعز كصاحب وصحب، وهي ذوات الشعر من الغنم وهذه الأربعة تفصيل للفرش، الذي هو معظم ما يتعلق به الحلُّ والحرمة ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم، وإظهاراً لعجزهم عن الجواب ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من ذينك النوعين وهما: الكبشُ، والتيسُ ﴿حَرَّمَ﴾ الله عزَّ وجلَّ كما تزعمون أنه هو المحرم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ وهما النعجة والعنز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ أي أم ما حملت إناث النوعين حَرَم، ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى، جاءت به الأنبياء يدل على أنه تعالى حرَّم شيئاً مما ذُكر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه سبحانه.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ هما الجملُ، والناقةُ ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ هما الثور، والبقرة ﴿قُلْ﴾ إفحاماً لهم ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟ كرَّره مبالغة في التوبيخ والتقريع، والمعنى كما قال كثير من العلماء: إنكار أنه تعالى حرَّم عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وإنما عقَّب كلَّ واحد مما ذُكر من الأمر والإنكار، لما في التكرير من المبالغة في التبكيت والإلزام ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ تكرير للإفحام، أي بل أكنتم شاهدين ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي حين وصاكم بهذا التحريم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبي، فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك، إلاَّ المشاهدة والسماع، وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي من أظلم ممن نسب إليه تعالى تحريم ما لم يُحرِّم بغير دليل ولا برهان؟ ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كائناً من كان، أي لا يوفّقه ولا يرشده إلى طريق الخير والسعادة.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿ قُل ﴾ أمرٌ لرسولِ الله ﷺ، بعد إلزام المشركين وتبكيتهم، بأن يبيِّن لهم ما حرَّم الله تعالى عليهم، أي قل يا رسول الله ﴿ لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ في القرآن الذي أوحاه الله إليَّ، وفيه تنبيه على أنّ التحريم إنما يُعلم بالوحي، أي لا أجد بعدما تفحَّصتُ ما أُوحى الله إليَّ ﴿ مُحَرَّمًا ﴾ أي محرَّما من المطاعم التي حرَّموها ﴿ عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ أيَّ طاعم كان، من ذكرٍ أو أنثى ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ ﴾ ذلك الطعام ﴿ مَيْتَةً ﴾ أي بهيمة ماتت حتف أنفها والمراد بها ما لم يذبح ذبحاً شرعياً، فيتناول المنخنقة ونحوها ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ أي دماً سائلاً مصبوباً، وقد رُخّص في دم العروق بعد الذبح ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ أي أو أن يكون لحم خنزير ﴿ فَإِنَّهُۥ ﴾ أي الخنزير ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي قذرٌ ونَجسٌ، لتعوُّدِ الخنزير أكل النجاسة ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ أي أو أن يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أي ذُبح على غير اسم الله ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾ أي أصابته الضرورة، الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي غير طالب ما ليس له طلبه، أو غير قاصدِ التلذذ بأكله ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي متجاوزٍ قدر الضرورة ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغٌ في المغفرة، والرحمة، ولا يؤاخذه بذلك، والاستثناء منقطع، أي لا أجد ما حرَّموه، لكنْ أجدُ الأربعة المذكورة التي حرَّمها الله، ولا دلالة في الآية على الحصر، وإنما هو ردّ لمزاعم أهل الجاهلية، فيما حرَّموه من تلقاء أنفسهم.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ أي اليهود خاصة عقوبةً لهم ﴿ حَرَّمْنَا ﴾ فوق ماذُكر من المحرمات الأربعة ﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ ﴾ أي ما ليس منفرج الأصابع، كالإبل، والنعام، والأوز، والبط، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن زيد أنه الإبل فقط ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ لا لحومهما، فإنها باقية على الحل ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ استثناء من الشحوم، أي ما علق بظهورهما والجنب، من داخل بطونهما من الشحم، ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ أي ما حملته الحوايا وهي ما على الأمعاء من المباعر والمصارين ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ﴾ وهو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ذلك التحريم ﴿ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ ﴾ بسبب ظلمهم، وهو قتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وكانوا كلما أتوا بمعصية، عُوقبوا بتحريم شيء ممَّا أُحلَّ لهم، وهم ينكرون ذلك، ويدَّعون أنها لم تزل محرمة على الأمم، فردَّ ذلك عليهم بقوله عزَّ وجلَّ ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ في جميع أخبارنا التي من جملتها هذا الخبر.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ الضمير لليهود والمشركين، أي فإن كذبَّك اليهود، وأصرُّوا على ادعاء قدم التحريم، وكذلك المشركون فيما نُقل من أحكام

التحليل والتحريم ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصي، بل يمهلكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ أي لا يدفع عذابه ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، فلا تغتروا بذلك، فإنه إمهال لا إهمال، وهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ حكاية لفن آخر من كفرهم، وإخباره قبل وقوعه، ثم وقوعه حسبما أخبر، برهان ساطع على أنه كلام الله تعالى، لأنه إخبارٌ عن غيب ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا نشرك ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ لما فعلنا الإشراك نحن ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ من قبلنا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ مما حرَّمنا، أرادوا به أن مافعلوه مرضيٌّ عند الله تعالى، كما أخبر الله عنهم في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَالله أَمَرَنَا بِهَا﴾[1] فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قل إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ﴾. ولو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله، وإجلالاً له، ومعرفة بحقه، لما عابهم، ولكنهم قالوا هذا تكذيباً واستهزاء، وجدلاً من غير معرفة بالله تعالى، ويؤيده قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ما كذَّب هؤلاء، كذَّب أسلافهم المشركون قبلهم كذّبوا أنبياءهم بمثل مقالتهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي حتى ذاقوا عذابنا، الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم، وهو عذاب الاستئصال. وبعد هذا التذكير، أمر الله النبي ﷺ أن يطالب المشركين، بدليل علمي على زعمهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾؟أي من أمرٍ معلوم، يصحُّ الاحتجاج به على ما زعمتم؟ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي فتظهروه لنا على أتم وجه؟ والاستفهام للتعجيز والتوبيخ، ولذلك عقَّب تعالى عليه، ببيان حقيقة حالهم، فقال ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتّبعون في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً[2] ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي

---

(١) الأعراف، آية: ٢٨.

(٢) قال ابن الجوزي ٣/ ١٤٥: جعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل، فكأنهم =

تكذبون على الله تعالى، وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الإطلاق، بل فيما يعارضه نصٌّ قطعي .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ الفاء جواب شرط محذوف أي إذا ظهر أنْ لا حجة لكم فقل ﴿فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ﴾ التي بلغت غاية الظهور والإقناع، والمراد بها الكتاب المبين ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها، والحمل عليها، ولكنْ شاء أن يترك للعباد، أمر الاختيار في الإيمان والكفر، ليتمَّ التكليف ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِنَ ومَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾ أي أحضروهم للشهادة على صحة ما تزعمون و«هلمَّ» اسم فعل أمر، بمعنى أحضر، وهات، ويستوي فيه الواحدُ، والجمعُ، والمذكَّرُ، والمؤنَّثُ، بمعنى الدعاء إلى الشيء، كما قال تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم، والمقصود من إحضارهم فضيحتهم، وإظهار أن لا متمسَّك لهم، وقوله ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما حرَّموه من الأنعام وهو طلب تعجيز ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ بعدما حضروا بأن الله حرَّم هذا ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي فلا تصدقهم فإنه كذبٌ بحتٌ، وبيِّن لهم فساده ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي لا تتّبع أهواء الضالين المكذبين لآيات الله، فإنما يتبعون الهوى، وهو شقاء وضلال ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ﴾ كعبدة الأوثان ﴿ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يجعلون له عديلاً أي شريكاً، والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله، وبين الكفر بالآخرة، وبين الإشراك به سبحانه فإنهم جامعون لها متصفون بها.

= قالوا: لو لم يرضَ اللهُ ما نحن عليه لحال بيننا وبينه، وإنما قالوا ذلك مستهزئين، ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم: لمَ تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالون، فهم على المشيئة أيضاً، فلا حجة لهم لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر. أ هـ.

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾.

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ أمرٌ له عليه السلام بعدما ظهر له بطلانُ ما ادَّعوا على الأسلوب الحكيم، أي تعالوا أقرأ ما حرَّمه ربكم عليكم على وجه اليقين، لا بالظن والتخمين ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أقرأ الذي حرمه ربكم عليكم، وفي ذكر الربّ وإضافته إليهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ لاستمالتهم إلى امتثال الأمر، لأنه يربيهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ بدأ سبحانه بأمر الشرك، لأنه أعظم المحرمات، وأكبرالكبائر ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ أي أحسنوا بهما ﴿ إِحْسَانًا ﴾ كاملاً، لا إساءة معه، وإنما ذُكر ضمن المحرمات، لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضدّه، فكأنه قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحساناً، والسرُّ في الأمر بالإحسان، المبالغةُ والدلالةُ على أن ترك الإساءة إليهما، غيرُ كافٍ في قضاء حقوقهما، ولهذا لم يقل: ولا تسيئوا إليهما، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ أمْلق إملاقاً: افتقر، أي لا تقتلوهم خشية الفقر، لئلا تروهم جياعاً ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أي نحن نرزق الفريقين، رزقُكم ورزقُهم علينا، فلا تخافوا الفقر، وتُقدموا على ما نهيتم عنه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ أي المنكرات الكبائر، كالزنى وشرب الخمر ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي ما يُفعل علانية في الحوانيت، كما هو دأب أراذلهم، وما يفعل سراً باتخاذ الأخدان، كما هو عادة رؤسائهم وكبرائهم، وتعليق النهي بقربانها، للمبالغة في الزجر، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّمه الله في السرِّ والعلانية ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي حرَّم قتلها، بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد، فيخرج الحربي ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كالقصاص، وقتل المرتد، ورجم

المحصن[1] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذُكِر من التكاليف الخمسة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً، ولمَّا كانت الأمور المنهي عنها، مما تَقتضي بديهة العقل بقبحها، ختمت الآية الكريمة بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ أي تستعملون عقولكم التي تحبسها عن مباشرة القبائح المحرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ أي لا تتعرضوا بوجهٍ من الوجوه لمال اليتيم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالفعلة التي هي أحسن الأفعال بماله، كحفظه وتثميره، ونحو ذلك، والخطابُ للأولياء، والأوصياء، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فإنه غاية لما يُفهم من الاستثناء، لا للنهي، كأنه قيل: احفظوه حتى يبلغ، فإذا بلغ فسلموه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿فإن آنستم منهم رُشْداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾[2] والأشدُّ جمع لا واحد له، والمراد به بلوغ الحلم ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ أي أتمُّوا ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ أي المكيل ﴿وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، والتسوية، من غير زيادة ونقصان ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وهو اعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل، للإيذان بأن مراعاة العدل على وجه الدقة، لا يتحقق في كل مكيل وموزون، إلا إذا كان بميزانٍ دقيق كميزان الذهب، وفي التزام ذلك في

(١) لما رواه الشيخان عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ دم امرىء مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيِّب ـ أي المتزوج ـ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

(٢) سورة النساء، آية: ٦.

بيوع الحبوب والفواكه، حرجٌ عظيم، كأنه قيل عليكم بما في وسعكم، بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد به، وما وراء ذلك معفو عنكم، ويجوز أن يكون المعنى: جميعُ ما كلفناكم به ممكنٌ غير شاق، ونحن لا نكلف ما لا يُطاق ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة الواجب ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي ذا قرابة منكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[1] فالعدل واجبٌ في الأقوال، كما أنه واجب في الأفعال، لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس، فهو ركنُ العمران، وقطبُ رَحَى النظام ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي ما عهد إليكم من الأمور، أو أيَّ عهد كان، كنذرٍ ونحوه ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكرون وتتعظون، وتعملون بمقتضاه، وهذه الأحكام العشرة لا تختلف باختلاف الأمم، والأعصار، وهنَّ محرمات على بني آدم جميعاً، ولما كانت هذه التكاليف الخمسة في هذه الآية، تحتاج إلى تبصر وتذكر، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ إشارة إلى ما ذكر في هذه السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة الغراء، وقال ابن عباس ﴿هذا﴾ الإشارة إلى شريعة الإسلام، ويلائمه النهي الآتي ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحدٌ، ومقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ والأصل «تَتَفَرَّقُ» أي فتفرّقكم عن سبيل الهدى ودين

---

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

الإسلام، الذي لا عوج فيه ولا انحراف. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيلُ الله تعالى مستقيماً، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطّ وعن شماله، ثم قال: هذه السُّبُل، ليس منها سبيلٌ إلاَّ عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية[1] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما مر من اتباع سبيله، وترك اتباع سائر السبل ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عن اتباع سبل الكفروالضلالة، ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر سبحانه باتباعه، ونهى عن اتباع غيره، ختم ذلك بالتقوى، التي هي اتقاء النار، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية[2]، وكرر سبحانه الوصية، ويا لها من وصية، ما أعظم شأنها!! ولهذا ورد عن ابن مسعود أنه قال: من سرَّه أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ بخاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا... تَتَّقُونَ﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ شافياً كافياً، والمراد بالكتاب التوراة ﴿تَمَامًا

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٣٥ ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٠ حيث كانت المحرمات الأوَل واضحة لا يقع فيها عاقلٌ نظَرَ بعقله، جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأُخر شهواتٌ، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكَّرون﴾ ثم لمَّا كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾!!.

﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي أعطيناه التوراة تماماً للكرامة والنعمة، على من كان محسناً وصالحاً، وهو موسى عليه السلام الذي أحسن العبادة والطاعة لله منّةً عليه منّا، لما سلف منه من حسن العبادة والمجاهدة في سبيل الله ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي بياناً مفصّلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى﴾ أي دلالة الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالمكلفين من أتباعه من بني إسرائيل ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي بالبعث والثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون، وعن ابن عباس المعنى: كي يؤمنوا بالبعث، ويصدّقوا بالثواب والعقاب.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن الكريم، الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن، لا يُقادر قدره ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بواسطة الروح الأمين، مشتملاً على فنون الفوائد الدينية والدنيوية ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي كثير الخيرات والمنافع ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي فاستمسكوا به واجعلوه إماماً لكم، فإنَّ عظم شأن الكتاب في نفسه، وكونه منزلاً من جنابه عزَّ وجل، موجبٌ لاتّباعه ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى، وتخصيص الإنزال بكتابهما، لأنهما اللذان اشتهرا حينئذ من الكتب السماوية ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ أي وقد كنا عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لا ندري ما هي؟ وهذا خطاب لأهل مكة، لقطع عذرهم بإنزال القرآن الكريم بلغتهم.

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾

إلى الحق الذي هو المقصد الأقصى ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ أي لا تعتذروا يا أهل مكة بذلك فقد جاءكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾ أي حجة واضحة تعرفونها لظهورها وكونها بلسانكم، وهذا هو الجواب القاطع لكل من اعتذر، فإن القرآن بيّنةٌ عظيمة، مبيّنةٌ للحق، في العقائد، والفضائل، والشرائع، كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يربيكم ويتعهد مصالحكم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهداية ورحمة من رب الأرباب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟ أي لا أحد أظلم وأفجر ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ممن كذّب بالقرآن، ولم يؤمن بآياته البينات، وعبَّر عما جاءهم ﴿بآيات الله﴾، تهويلاً للأمر، وتنبيهاً على أن تكذيب أي آية من آيات الله، كافية في الكفر، فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوي على الكل؟ ﴿وَصَدَفَ﴾ أي صرف الناس ﴿عَنْهَا﴾ عن الآيات، فجمع بين الضلال والإضلال ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم وضلالهم أيضاً ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي العذاب القبيح السيِّىء، الشديد النكاية ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون عن آيات الله، ويمنعون الناس عن الهداية والإيمان، وذكره بصيغة المضارع ﴿يَصْدِفُونَ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، أي هم في كفر دائم، وإعراض مستمر.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أو يأتي أمر ربك بالعذاب[1] ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ

(١) قال الطبري ١٢/٢٤٥ ﴿أو يأتي ربك﴾ أي يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه.

رَبِّكَ﴾ أي أشراط الساعة الكبرى، كطلوع الشمس من مغربها، وخروج يأجوج ومأجوج، والسياقُ الناطق بعدم نفع الإيمان، عند إتيان ما ينتظرونه، يستدعي أن يُحمل ذلك على أمور هائلة، وهو الأنسب لقوله تعالى: ﴿قل انتظروا إنَّا منتظرون﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ لما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعةُ حتى تطلع الشمسُ من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس، آمن مَنْ عليها، فذلك حين: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾»[1] وإنما لم يقبل الإيمان في ذلك الوقت، لأنه ليس بإيمان اختياري، وإنما هو إيمانٌ لخوف الهلاك، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ﴾[2] فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند الغرغرة، والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً، لم تقدّم إيمانها، أو قدمته ولم تكسب فيه خيراً، ومن ضرورة اشتراط النفع بتحقيق الأمرين معاً، أن الإيمان وحده لا يكفي في ذلك الحين، وفي ذلك خلاف بين المعتزلة وأهل السنة، وللمعتزلة جدال في هذه الآية، يستدلون بها أن الإيمان لا ينفع بدون عمل الخير، ويمنع ذلك الآخرون، والتحقيق في المسألة أن الإيمان الصحيح، يستلزم العمل في الجملة، دون الشمول، فيجوز عقلاً أن يترك المؤمن بعض الواجبات، أو يرتكب بعض المحرمات، ولكنه يتوب ويموت قبل أن يتمكن من العمل، وما أظن أنه يوجد عاقل يختلف في نجاة مثل هذا بمجرد الإيمان ﴿قُلِ﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحد هذه الأمور ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لذلك، وحينئذ نشاهد ما يحلُّ بكم من سوء العاقبة، وفيه تأييد لكون ما ينتظرونه إتيان أمره تعالى بالعذاب، ووعدُ الله للرسول ﷺ والمؤمنين، بمعاينتهم لما يحيق بهم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/٢٩٧ ومسلم ٢/١٩٤ وأبو داود ٤/١٦٣ وفي رواية أخرى في الصحيح «فإذا طلعت ورآها الناسُ، آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ، ثم قرأ الآية».

(٢) سورة المؤمن، آية: ٨٤.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ روي عن ابن عباس وقتادة أن الآية نزلت في اليهود والنصارى، أي بدَّدوا دينهم، وفرَّقوه أبعاضاً، فتمسك بكلٍّ بعضٌ منهم ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أي فِرَقاً وأحزاباً، كل فرقة تعادي الأخرى. أخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة»(١) قال الخطابي: في هذا الحديث، دلالةٌ على أن هذه الفرق غير خارجة من الدين، إذ جعلهم من أمته ﷺ، ومجموع الآثار الواردة في تفسير الآية تدل على شمولها للتفرق في أصول الدين، بحيث يعادي المسلمون بعضهم بعضاً، كما قالت أم المؤمنين عائشة (رضي) في الثورة يوم قتل عثمان رضي الله عنه: «إلا إنَّ الله ورسوله، بريئان من الذين فارقوا دينهم، فكانوا شِيَعاً» ﴿وكَانُوا شِيَعاً﴾ أي فِرَقاً وأحزاباً كل فرقةٍ مختلفة عن الأخرى، تتخذ لها إماماً ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أنت بريء منهم، وهم منك برءاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يتولى جزاءهم يوم القيامة كيف يشاء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وقيل: المفرّقون هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة(٢) ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ يوم القيامة

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في السنة رقم ٤٥٩٧ والترمذي في الإيمان رقم ٢٦٤١ ولفظ الترمذي: «إن بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٠٤: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه =

﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا بعد تعذيبهم بأيديهم، بما مضت سنته عز وجل في الاجتماع البشري، من ضعف المتفرقين، وتسلُّط الأقوياء عليهم، فيذيق بعضهم بأس بعض، بما تثيره عداوة التفرق بينهم من الحروب والشرور، ثم ينبئهم عند الحساب، عاقبة ما ارتكبوه من تفرق وتمزُّق، أنهم كانوا جاهلين بما ارتكبوه.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ المراد من الحسنة ههنا: الإيمانُ، والأعمال الصالحة، أي من جاء بالأعمال الحسنة من المؤمنين ﴿ فَلَهُۥ عَشْرُ ﴾ حسنات ﴿ أَمْثَالِهَا ﴾ فضلاً من الله تعالى، وهذا أقل ما وعد تعالى من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين، وبسبعمائة، وبغير حساب ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ أي بالأعمال السيئة، كالكفر، والعصيان ﴿ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص الثواب، أو زيادة العقاب، وأمَّا إيجاب كفر ساعة بعقاب الأبد، فلأنَّ الكافر على عزم وتصميم أنه لو عاش أبداً، لبقي على ذلك الاعتقاد أبداً، فيعامل بنيته.

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ ﴾ أي قل يا محمد لأولئك الضالين إن ربي أرشدني بالوحي، وبما نصب في الآفاق والأنفس، من الآيات التكوينية ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريق قويم، موصل إلى الحق، وهو دين الإسلام ﴿ دِينًا ﴾

= واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنِّحَل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسوله منهم.

أي هداني ديناً ﴿قِيَمًا﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه، مصدرٌ نُعت به مبالغة، وهو أبلغ من القائم قال الزجاج: وهو مصدر كالصِّغر، والكِبَر، وكان الأصل أن يأتي بالواو «قِوَماً» كما قالوا: عِوَض، ولكنه شذَّ عن القياس، يعني: ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دين الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ما كان منهم في أمر من الأمور أصلاً، لأن الحنيفية تنافي الشرك، ففيه تكذيب لهم، في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم، لأنه عليه السلام كان على دين التوحيد، وفيه ردٌّ على الذين يدعون أنهم على ملته، من أهل مكة القائلين: الملائكةُ بنات الله، واليهود القائلين: عزير ابن الله، والنصارى القائلين: عيسى ابن الله.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾ أي عبادتي كلها ﴿وَنُسُكِى﴾ أي ذبحي وقرباني ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ أي حياتي وموتي، وما أقدِّمه في هذه الحياة من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالصة لوجهه عز وجل.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي لا أشرك فيها غيره ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده، والإخلاص في العمل ﴿أُمِرْتُ﴾ لا بشيء غيره ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته أي وأنا أول من خضع وأذعن، وانقاد إلى امتثال ما أمر الله تعالى به.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾؟ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي قل لهم يا محمد: أغير الله تعالى أطلب رباً، فأشركه في العبادة؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي والحال أنه خالق مالك كل شيء، وكلُّ ما سواه مربوب له

تعالى، فكيف يُتصور أن يكون شريكا له في الربوبية؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يروى أنهم كانوا يقولون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، فردَّ عليهم بأن ما كسبته كل نفس من الخطايا محمولٌ عليها، لا على غيرها، وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي نفسٌ آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيداً لما قبله، أي لا تحمل حاملةٌ حِمْلَ أخرى من الذنوب والآثام، وفي الحديث «مَنْ سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ـ أي من بعد ممات من سنّها ـ من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئةً، كان عليه وزرُها، ووزرُ من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] ولا تعارض بين الآية والحديث، فكلٌّ من هذا وذاك، من عمل الهادين والمضلين، لأنهم الذين دعوهم إلى الهدى أو الضلال ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيهٌ له إلى الكل، لتأكيد الوعد، وتشديد الوعيد، أي رجوعكم أيها الناس إلى مالك أمركم يوم القيامة، وهو الله رب العالمين ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي من أمر الدين، ببيان الرشد من الغي، وتمييز الحق من الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ﴾ أي الله الذي جعلكم ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً، كلما مضى قرنٌ جاء قرنٌ، تتصرفون فيها كما يتصرف المالك بملكه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الفضل، والغنى، والرزق، وغير

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة رقم ١٠١٧ وهو طرفٌ من حديث طويل في القوم العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ مسلمين وقد اشتد بهم الفقر، وأنظر تمام الحديث في جامع الأصول ٦/ ٤٥٧.

ذلك ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ كثيرة متفاوتة ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ من المال والجاه، أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم، لينظر ماذا تعملون؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ تجريد للخطاب لرسول الله ﷺ، مع إضافة اسم الرب إليه، لإبراز مزيد اللطف به ﷺ ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي عقابه الأخروي سريع الإتيان، لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله، لأن كل آتٍ قريب ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ لمن رعاها حقَّ رعايتها، وأطاع الله في هذه الحياة، ويجوز أن يُراد بالعقاب عقاب الدنيا، كالذي يَعْقب المجرم من البعد عن الفطرة، وقساوة القلب، وغشاوة الأبصار، وصمم الأسماع ونحوِ ذلك، وفي الوصفين الواردين على بناء المبالغة، مع التأكيد باللام ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ما لا يخفى من التنبيه على أنه سبحانه غفور رحيم بالذات، لا تتوقف مغفرته ورحمته على شيء، مبالغ في ذلك.

وما ألطف افتتاح هذه السورة بالحمد، وختمها بالمغفرة والرحمة، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا الحظ الأوفر منهما، إنه ولي الإنعام، وله الحمد في كل ابتداء وختام. وهذا آخر الكلام في تفسير سورة الإنعام، والحمد لله الملك العلام، وصلى الله على رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام!.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنعام»

* * *



مكية وهي مائتان وست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾.

﴿الٓمٓصٓ﴾ سبق الكلام في مثله[1] وأخرج البيهقي عن ابن عباس أن المعنى: أنا الله أعلمُ، وأفصِلُ.

﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هو كتاب، والمراد به القرآن العظيم، الحائز للكمالات المختصة به ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من جهته تعالى ربِّ العزة والجلال، وهي صفة مشرِّفة لقدره ﷺ وقدر ما أنزل إليه، بُني الفعلُ للمجهول جرياً على سنن الكبرياء، إيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل، لغاية ظهور تعينه ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي لا يكن فيك ضيق صدر

(١) تقدم في أول سورة البقرة، أن الحكمة من ابتداء بعض السور، بالحروف الهجائية المقطَّعة، هو بيان «إعجاز القرآن» وأنه منظوم ومركّب من أمثال هذه الحروف المقطَّعة، ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله، وهو ما اختاره المحققون من المفسرين.

من تبليغه، مخافة أن يكذبوك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ تعليل للإنزال أي لتنذر به جميع الثقلين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكرى اسم بمعنى التذكير، أي ولتذكِّر به المؤمنين تذكيراً، وتخصيص التذكير بالمؤمنين، لأنهم هم المنتفعون به، وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين، أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي أنزله إليكم ربكم، ففيه الهدى والشفاء والبيان، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين، مزيدُ لطفٍ بهم، وترغيبٍ لهم في الامتثال بما أُمروا به ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله، كالأوثان والرهبان والكُهَّان، تقبلون منهم ما يلقونه إليكم، ليضلُّوكم عن الحق، ويحملوكم على البدع والأهواء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً حيث لا تتأثرون بذلك فتتركون دين الله، وتتبعون غيره.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ ذكَّرهم تعالى بما نزل بمن قبلهم من العذاب، بسبب إعراضهم عن دين الله تعالى، والمراد بقوله: ﴿أَهلكنَاهَا﴾ إرادة إهلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ﴾ أي أردتم القيام إلى الصلاة، وهنا يراد أردنا إهلاكها ﴿فَجَآءَهَا﴾ أي فجاء أهلها وقيل: المراد إهلاك نفس القرية مع أهلها، بهدم أو خسف ﴿بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال، أي بائتين، والبياتُ: الإغارة على العدوّ ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة، وهي الاستراحة وسط النهار،

وإن لم يكن مع ذلك النوم، قال تعالى: ﴿وأحسن مقيلاً﴾ في حق الجنة، والواقعُ أنه لا نوم فيها، فحاصل المعنى: أتاهم عذابنا تارةً ليلاً، كعذاب قوم لوط، وتارة وقت القيلولة، كعذاب قوم شعيب، وتخصيصُ الحالتين بالعذاب، لما أن نزول المكروه عند الغفلة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع، فلا ينبغي للعاقل أن يأمن صفو الليالي، ولا يَغْتَرَّ بالأيام الخوالي، وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر، لأن القيلولة أظهر في إرادة الدَّعَةِ، وخفض العيش، فإنها من دأب المترفين، دون من اعتاد الكدح والتعب في النهار.

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم كقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم ﴿ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ ﴾ عذابنا وعاينوا أماراته ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم، تحسراً وندامة، وطمعاً في الخلاص، وهيهات!!.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنسأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِين عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[1] أي فلنسألنَّ الأمم قاطبة، قائلين: ماذا أجبتم المرسلين؟ فإن قلت: قد أخبر الله عنهم في الآية الأولى، بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم، فما فائدة هذا السؤال؟ الجواب أن هذا السؤال للتوبيخ والتقريع، والمنفي في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ سؤال الاستعلام، فإن الله عالم بما صنعوا لا يحتاج إلى سؤالهم، ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي نسأل الرسل الكرام ماذا أجيبوا؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾[2] لأن الكفار يقولون: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ والمراد من هذا السؤال: توبيخ الكفرة، وتقريعهم أيضاً، والحاصل أن المكلَّفين يسألون عن أمور أُخر،

---

(١) سورة الحِجْر، آية: ٩٢ ـ ٩٣.
(٢) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

والمواقفُ يوم القيامة شتَّى، ويسأل ربُّ العزة والجلال عباده فيها عن أمور عديدة، فطوبى لمن أخذ بعضده السعد، فأجاب بما ينجيه!!.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي على الرسل حين يقولون: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّم الغُيُوبِ﴾ أو عليهم وعلى المرسل إليهم جميعاً ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم، والمراد الإحاطة بأقوالهم وأفعالهم، لا يشذُّ منها شيء عن علمه سبحانه.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي وزن الأعمال، والتمييز بين الراجح منها والخفيف، والجيد والرديء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم السؤال والحساب ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الوزن الحقُّ للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل، واختلف في كيفية الوزن، والجمهورُ على أن صحائف الأعمال تُوزَنُ بميزان له لسانٌ وكفتان، ينظر إليه الخلائق، إظهاراً للعدل، وقطعاً للمعذرة، ويؤيده ما روي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلصُ رجلاً من أمتي، على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سِجِلاًّ، كلُّ سِجِلّ مثلُ مدّ البصر، فيقول سبحانه: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول سبحانه: أفلك عذرٌ؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، يا رب، فيقول جلَّ شأنه: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليكَ اليوم، فتخرج له بطاقة فيها «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» فيقول: احضُر وزنك!! فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة، مع هذه السِجِلاَّت؟ فيقال: إنك لا تُظلم، فتوضع السِجِلاَّتُ في كِفة، والبطاقةُ في كفة، فطاشت السِجلاَّتُ، وثقلت البطاقةُ، ولا يثقل

مع اسم الله تعالى شيء»[1] وشأن الميزان أن يوضع في إحدى كفتيه شيء، وفي الأخرى ضده، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، فالنطق بهذه الكلمة الطيبة حسنة، فتوضع كسائر الحسنات، وأيد ذلك بقوله: «إنَّ لك عندنا حسنة» دون أن يقول إيماناً، وقيل الوزن: عبارة عن القضاء والحكم العادل، وإليه ذهب المعتزلة، قال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، والحال أن البشر قد اخترعوا موازين الأعراض، كالحر، والبرد، ونحوهما، أفيعجز القادر على كل شيء، عن وضع ميزان للأعمال؟ والأصل فيه أن كل ما ثبت من الأخبار، في الكتاب والسنة، فهو حقٌّ نؤمن به، ولا نحكم في صفاته وكيفياته ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ تفصيلٌ للأحكام المترتبة على الوزن، والموازين جمعُ موزون، وهو العمل الذي له وزن عند الله سبحانه، والمراد به الحسنات، أي فمن رجحت موازينه التي تُوزن بها حسناته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من العذاب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي موازين أعماله القبيحة السيئة، بسبب الكفر واجتراح المنكرات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي ضيَّعوا الفطرة السليمة، فخسروا سعادتهم وحياتهم بالهلاك والخلود في النار ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي جزاء على ظلمهم وتكذيبهم لآيات الرحمن، واستدل بهذه الآية على أن عذاب الكفار متفاوت، ولا يُعقل أن يكون عذاب أبي جهل، كعذاب أبي طالب، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان رقم ٢٦٤١ ورواه أيضاً ابن ماجه، والحاكم وصحَّحه.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لمَّا أمر الله سبحانه أهل مكة، باتباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، ذكَّرهم بما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر، ترغيباً في الامتثال بالأمر والنهي، فقال: ﴿وَلَقَد مَكَّنَّاكُم﴾ أي جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً، وأقدرناكم على التصرف فيها، من سكناها وزرعها وغير ذلك ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي ما تعيشون به وتحيون، من المطاعم والمشارب ونحوها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة الجسيمة، وفيه تحذير لهم من كفران النعمة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم، سارية إلى ذريته، موجبة لشكرهم كافة ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم «آدم» طيناً غير مصوَّر، ثم صوَّرناه، وإنما نُسب الخلقُ والتصويرُ إلى المخاطبين، توفيةً لمقام الامتنان، وتأكيداً لوجوب الشكر عليهم، إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه، ومصنوع على شاكلته ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، تكريماً له ولذريته، فامتثلوا الأمر، وسجدوا إلا إبليس اللعين، فقد أبى واستكبر وكان من الكافرين. وهذا صريح في أن الأمر ورد بعد خلقه عليه السلام وهو المراد بما حُكي في سائر السور، وكلمة «ثُمَّ» تقتضي التراخي عن التصوير، والمعنى: أنَّا ابتدأنا خلق آدم من تراب، ثم صوَّرناه، ثم بعد الفراغ قلنا... الخ.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي قال الله تعالى لإبليس: أيَّ شيءٍ منعك من السجود، و﴿لا﴾ زائدة، بدليل قوله تعالى: في سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ ومثلها ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾(1) أي ليعلم، وفائدةُ الزيادةِ التأكيد، وأنها منبهة على أن الموبَّخ عليه تركُ السجود، فإن قلت: لم سأله وهو أعلم به؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وافتخاره بأصله، وحسده لآدم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي حين أمرتك بالسجود له، وفيه دليل على أن هناك أمراً خاصاً لإبليس بالسجود لآدم، وإن لم يكن من الملائكة، وقد جاء في سورة الحِجر: ﴿مَالَكَ أَنْ لاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾؟ واختلاف العبارات عند الحكاية، يدلُّ على أن اللعين قد أدمج في معصيةٍ واحدة، ثلاثَ معاصٍ: مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، و الاستكبار، وقد وُبِّخ حينئذ على كل واحد منها، لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن، على ما ذُكر فيه، اكتفاءً بما ذُكر في موطنٍ آخر ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هذا في الحقيقة ليس بجواب، بل هو جواب من حيث المعنى(2) استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه قال: المانع أنّي خيرٌ منه، ولا يحسُن للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به؟ فهو الذي سنَّ التكبر، وأخطأ في القياس، حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهو تعليل لما ادعاه ـ عليه اللعنة ـ من فضله على آدم، وحاصله إني أشرف منه، لأنك خلقتني من نار، وهي جوهر نوراني، وخلقته من طين، وهو ظلماني، وقد غَلِط في ذلك، بأن رأى الفضل كلّه باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار السرِّ الإلهي المودع فيه، كما نبَّه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فيه مِنْ روحِي﴾ وبالعلم الذي وهبه له، ولذلك أمر

---

(1) سورة الحديد، آية: ٢٩.

(2) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤٤١: وجواب إبليس اللعين ليس عما سُئل عنه، ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي عليه، إذْ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين!!.

الملائكة بالسجود له، فهو أعلم منهم، وله خواص ليست لغيره، وقد أخطأ إبليس أيضاً في قوله: النار أفضل، بل الطين أفضل، لرزانته ووقاره، ومنه الحلم والحياء والصبر، وفي النار الطَّيْشُ والحدةُ والترفعُ، وذلك الذي دعاه إلى الاستكبار، والترابُ عدة الممالك، والنار عدة المهالك، والتراب منه الأمانة والإنماء، والنار مظنة الخيانة والإفناء، والتراب يطفىء النار، والنار لا تطفئه، وهذه فضائل غفل عنها إبليس، حتى نزل بفاسد من المقاييس، قال جعفر الصادق: «أولُ من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه»!!.

﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ من الجنة التي هي في السماء، التي يسكنها المؤمنون يوم القيامة، وقيل: إنها روضة بعدن، وكانت على نَشَز من الأرض[1]، وبعد العصيان حُجب اللعين من السماء، التي هي مقره ومعبده ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ ﴾ أي فما يصح ولا يستقيم لك ﴿ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ تعليل للأمر بالهبوط، وفيه تنبيه على أن التكبر، لا يليق بأهل الجنة، وأنه تعالى طرده لتكبره، لا لمجرد عصيانه، ولا يخفى لطافة التعبير به دون الخروج، في مقابلة قوله: ﴿أنا خير منه﴾ والمراد بالتكبر التكبر على الله، وهو أعظم التكبر ﴿ فَٱخۡرُجۡ ﴾ تأكيد للأمر بالهبوط ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أي ممن أهانه الله لِكِبْرِه، والصَّغَارُ بالفتح: الذلُّ أي إنك من الأذلاء، يذمُّك كلُّ إنسان،

(١) القول الأول أنها الجنة التي في السماء هو الصحيح، لأن الله تعالى ذكر في سورة «طه» وصفاً لا ينطبق إلا على جنة الخلد التي في السماء، وهو قوله سبحانه: ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وانظر المسألة مفصلة في كتابنا النبوة والأنبياء ص ١٧٠.

ويلعنك كلُّ لسان. عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من تواضع لله تعالى رفعه الله، ومن تكبَّر وضَعَه الله»(١).

﴿قَالَ﴾ أي قال اللعين بعدما سمع هذا الطرد ﴿أَنظِرْنِي﴾ أي أمهلني ولا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي آدم وذريته، وهو وقت النفخة الثانية، وأراد اللعين بذلك أن يجد فُسحة من إغوائهم، ويأخذ منهم ثأره لاستحالته بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أي إنك من جملة الذين أخرتُ آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه الحكمة، وظاهره إلى يوم يبعثون، حيث وقع في مقابلة كلامه، لكن في سورة الحِجر، وصَّ التقييدُ بيوم الوقت المعلوم، والمشهور أنه يوم النفخة الأولى(٢)، دون يوم البعث، لأنه ليس بيوم موت، وفي إنظاره ابتلاءٌ للعباد، وحكمُه حكم ما خلق الله تعالى في الدنيا، من صنوف الزخارف، وأنواع الملاهي والملاذ، وما رُكِّب في الأنفس من الشهوات، ليمتحن بها عباده.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسم كما في قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ والإغواء خلق الغيِّ، وأصل الغي الفسادُ، وجاء بمعنى الجهل كما في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ وبمعنى الخيبة، ومنه

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٧٥ ﴿قال أنظرني﴾ أي أمهلني وأخرني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي إلى يوم البعث، فأراد أن يعبر قنطرة الموت، وسأل الخلود، فلم يجبه إلى ذلك، وأنظره إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم، وقد بيَّن إمهاله في سورة الحِجر بقوله سبحانه: ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ولا مانع عند أهل السنة، أن يُراد بالإغواء خلق الغيّ بمعنى الضلال، أي بما أضللتني، وهو المروي عن ابن عباس لعموم قوله سبحانه: ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ﴾ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لآدم وذريته ترصداً بهم، كما يقعد القُطَّاع لقطع الطريق على الناس ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي طريق الإسلام الموصل إلى الجنة، فالقعود مجازٌ عن الإغواء، والآية تدل على أن إبليس كان عالماً بالدين الحق، ولذا قيل: كُفْرُ إبليس كفر عناد، لا كفر جهل، وفي الحديث الشريف إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: «أتُسلمُ وتَذَرُ دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تُقاتِل فَتُقْتَل فتنكح المرأة، ويُقسم المالُ؟ فعصاه فجاهد، فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة»(1).

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي من الجهات الأربع، التي يعتاد هجوم العدوّ منها، ولذلك لم يذكر الفوق والتحت ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي مطيعين، وإنما قال ذلك ظناً منه، لقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ صَدَّقَ عَلَيهِمْ إبْليسُ ظَنَّهُ﴾ لمَّا رأى مبدأ الشهوة متعدداً، شهوة النساء، والمال، والجاه، والتسلط كما قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ وأنها تدعو النفس إلى عالم الجسم، وليس هناك ما يدعو إلى عالم الروح إلاّ قوة واحدة، وهي العقل، وما يصنع واحدٌ مع متعددٍ؟.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

---

(1) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٨٣ من حديث سَبْرة بن فاكه مرفوعاً، وأخرجه النسائي ٦/ ٢٢ في الجهاد، قال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن، وصححه ابن حبان.

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿ مَذْءُومًا﴾ أي مذموماً كما روي عن ابن زيد، أو مهاناً لعيناً كما روي عن ابن عباس يقال: ذأمه: إذا عابه وحقَّره فهو مذؤوم[1] ﴿ مَّدْحُورًا﴾ مطروداً، دَحَره طرده وأبعده ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام موطئة للقسم، وجوابه ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ومعنى ﴿مِنكُمْ﴾ منك ومنهم على تغليب المخاطب، وهذه الآية تدل على أن جميع أصحاب البدع، والضلالات، يدخلون جهنم لأن كلهم متابعون لإبليس، ثمَّ الظاهر أن هذه المخاطبات لإبليس عليه اللعنة، كانت منه عز وجل من غير واسطة، وليس المقصود بها الإكرام، بل التعذيب والتعنيف.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة، وكلا من ثمارها وخيراتها من أي مكان شئتما، ولا تقربا شجرة معينة، فتصبحا خاسرَيْن، نادمينْ بظلمكما لأنفسكما.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي ألقى إليهما الوسوسة ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات، التي يقبح كشفها، وأراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتهما، ولذلك عبَّر عنها بالسوأة، وفيه دليل على أن كشف العورة من غير حاجة، قبيحٌ ومستهجنٌ في الطبع ﴿ مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن

---

(١) قال ابن قتيبة: المذؤوم: المذموم بأبلغ الذم، والمدحورُ: المقصيُّ المبعد من رحمة الله، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٣/١٧٨.

﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غُطّي وستر عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر ﴿وَقَالَ﴾ إبليس لهما ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكلها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي إلاَّ كراهة أن تكون ملكَيْن ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون ويخلّدون في الجنة.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي أقسم لهما، وصيغةُ المفاعلة للمبالغة، لأن من يباري أحداً في فعلٍ يجدُّ فيه، وقيل: المفاعلةُ على بابها والقَسَمُ وقع من الجانبين، قالا له: أتقسم بالله تعالى لنا أنك لمن الناصحين؟ فأقسم لهما، فجعل ذلك مقاسمة.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي فخدعهما وأطمعهما ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرَّهما به من القَسَم، فإنهما ظنَّا أن أحداً لا يقسم بالله كاذباً، ويمكن أن يقال: إن اللعين لما وسوس لهما فلم يقبلا منه، عدل إلى اليمين فلم يصدقاه أيضاً، فعدل إلى شيء آخر فدلاهما بغرور، وهو أنه شغلهما بنيل اللذات حتى صارا مستغرقين فنسيا النهي، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[1] ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي فلما وجدا طعمها، أخذتهما العقوبة، وشؤم المعصية، فظهرت لهما عوراتهما، وأبصر كل منهما عورة صاحبه فاستحيا، وكان لباسهما من ثياب الجنة. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ طفق من أفعال الشروع، كأخذ، وجعل، أي أخذا يضمّان ورقة

---

(١) سورة طه، آية: ١١٥.

على ورقة، ويلصقانها على أجسامهما، والخصفُ: ضمُّ الورق بعضه إلى بعض، أشبه بالخَرْز للنعل ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي على سوأتهما ﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ذلك من ورق التين أو الموز ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ بطريق العتاب والتوبيخ ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي ألم أحذّركما من الأكل من تلك الشجرة ﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة، وهذا عتاب على الاغترار بقول العدو اللعين.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أي أضررنا بها بالمعصية، والإخراج من الجنة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ذلك بعدم العقاب عليه ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بالرضا علينا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ممن خسروا أنفسهم وسعادتهم.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض، بعضكم عدو لبعض، ولكم في الأرض موضع استقرار وتمتع إلى حين انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي تحيون في الأرض، مدة العمر المقدر لكل منكم، نظيره قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1].

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ٥٥.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ خطاب لكافة الناس، أي يا أبناء آدم ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ أي خلقنا لكم ذلك، بأسباب نازلة من السماء، كالمطر الذي ينبت به القطن، الذي يُجعل لباساً، وجميع بركات الأرض، تُنسب إلى السماء، والإنزال بمعنى الخلق كما قال الله تعالى: ﴿وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فيه بَأسٌ شديدٌ﴾ أي خلقنا الحديد، وفي التعبير بالإنزال تعظيم للنعمة، كما تقول: رفعتُ حاجتي إلى فلان ﴿ يُوَٰرِي ﴾ أي يستر ويُخفي ﴿ سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ أي عوراتكم التي قصد إبليس إبداءها، وقد كان العرب يطوفون بالبيت عرياناً، كما تلاعب فيهم الشيطان، فأغواهم بخلع الملابس، كما أغوى آدم وحواء بالأكل من الشجرة، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد، عقيب ذكر ظهور السوءات، إظهاراً للمنة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العري وكشف العورة، من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر بابٌ عظيم من أبواب التقوى ﴿ وَرِيشًا ﴾ لباس الزينة[1]، استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري عوراتكم، ولباساً يزينكم ويجمّلكم في المساجد والمجالس، وتفسير الريش بالزينة مرويٌّ عن ابن زيد ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي خشية الله والورع، خير ما يلبسه الإنسان[2] ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي لباس التقوى خير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي إنزال اللباس ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدَّالة على فضله، وعميم رحمته على عباده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون نعمته ويشكرونها، ويتورعون من العصيان والقبائح.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢١٦: يمتن الله على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباسُ ستر العوراتُ وهي السوءات، والرياشُ والريش ما يُتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من الزيادات والكماليات. اهـ.

(٢) في الآية الكريمة استعارة لطيفة فقد شبّه تعالى الإيمان والورع والخشية باللباس الذي يستر الجسم والعورة، ويخفي القبائح، ويزيّن الإنسان ويجمّله، ولهذا قال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ كما أن الريش في قوله تعالى: ﴿يواري سوآتكم وريشاً﴾ مستعار من ريش الطير، لأنه زينته ولباسه.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ تكرير النداء في مقام الوعظ والتذكير من أقوى الأساليب في التأثير ﴿ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي لا يوقعنكم في الفتنة والمحنة بأن يوسوس لكم ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ أي لا تغفلوا عن وسوسة الشيطان لكم، والنهي وإن كان متوجهاً إلى الشيطان، لكنه في الحقيقة متوجه إلى المخاطبين كما في قولك لا أرينك ههنا ﴿ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر منهما العورات، وسميت العورة سوأة، لأن العاقل يسوؤه كشفها ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴾ القبيل جمع قبيلة، وهي الجماعة المجتمعة، التي يقابل بعضهم بعضاً، أي إن الشيطان يراكم هو وجنوده وأتباعه ﴿ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ﴾ أي من حيث لا ترونهم أنتم، فهو لكم بالمرصاد، فاحذروا كيده ومكره، ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم، لا يقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم، قال ذو النون: إن كان الشيطان يراك من حيث لا تراه، فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه، وهو الله البصير الستار، ويشهد لما قلنا ما صح لرؤيته ﷺ للشيطان، ولبعض الجن ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المقارنة في الشر، أولياء، أي أعواناً وقرناء مسلّطين عليهم، بسبب الكفر والضلال.

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً ﴾ أي وإذا فعل المشركون عملاً قبيحاً كالطواف حول البيت عراةً [1]، وهو المراد بالفاحشة ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ ﴾ احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء عليه سبحانه، وقد كانت شبهتهم الشيطانية، هي أنهم يقولون: لا نطوف ببيت الله في لباس عصينا فيها الله، ونطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ ﴾ أي لا يأمر بالقبيح، وعادتُه تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال، والحث على مكارم الخصال، وهذا تكذيب لهم على ذلك الافتراء ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؟ الهمزةُ للإنكار والتوبيخ، أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح، من غير علمٍ ولا دراية؟.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، أمر ربي بالعدل في الأمور كلها ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ وتوجهوا إلى عبادته تعالى، مستقيمين غير عادلين عن شرعه ودينه ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ في كل وقت سجود ﴿ وَٱدْعُوهُ ﴾ واعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ ﴾ أي الطاعة، فإن مصيركم إليه بالآخرة ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ كما أنشأكم من الأرض تعودون إليها، بقدرته ابتداءً ﴿ تَعُودُونَ ﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم، وإنما شبَّه الإعادة بالإبداء، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها، والآية كقوله سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وفي الخبر «تبعث كل نفس على ما ماتت عليه».

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ بأن وفَّقهم للإيمان ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ ﴾ وهم الكافرون ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي حقت عليهم الضلالة،

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه قال: كانت العرب تطوف حول البيت عراة، وكانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوافاً؟ تجعله على فرجها وتقول:
اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه ... فما بدا منه فلا أحلُّه
فأمر الرسول ﷺ ألاّ يطوف بالبيت عريان. وانظر جامع الأصول ٤/ ١٣٩.

لاتباعهم إغواء الشيطان، وإعراضهم عن طاعة الرحمن، ومعنى ﴿حق﴾ أي ثبت بأسبابها الكسبية، لا أنها جعلت غريزة لهم، وهذا دليل على أن علم الله تعالى لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتولِّيهم الشياطين ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي يظنون أنهم على هدى ورشاد.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ أي ثيابكم لمواراة عوراتكم، والزينة: ما يزين الشيء، والمراد هنا الثياب الحسنة المعتادة، بدليل الإضافة، وأقل هذه الزينة ما يستر عورته، وما زاد على ذلك من التجمل عند الصلاة، ولا سيما في صلاة الجمعة والعيدين سنة لا واجب، ولكنَّ إطلاق الأمر يدل على وجوب الزينة بحسب عرف الناس ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ مما طاب لكم، قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم اللحم والدسم، يعظّمون بذلك حجَّهم، فهمَّ المسلمون أن يفعلوا مثله، فنزلت الآية ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾ بتحريم الحلال، وبالإفراط في الطعام، قال ابن واقد: جمع الله تعالى الطبَّ في نصف آية، فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ أي لا يرضى فعلهم، ولا يحب طريقتهم، وهذا وعيد شديد لمن أسرف.

﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ ﴾.

﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ من الثياب وما يتجمل به ﴿ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ

﴿ٱلرِّزْقِ﴾ المستلذات من المآكل، والمشارب، والملابس، وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والمشارب، والملابس الإباحة، لأن الاستفهام إنكاري، وفي الحديث: «إن الله تعالى إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه»(١) ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالأصالة، و الكفرة وإن شاركوهم فيها فبالتبع، وفي الآية إضمار تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الدنيا و﴿خَالِصَةً﴾ للمؤمنين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي مثل هذا التفصيل والبيان نفصِّل الأحكام، ونبيِّن ونوضّح الآيات التشريعية ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة، وسنن الاجتماع، وطبائع البشر، وهذا التفصيل من الآيات العلمية، شاهدة على نبوته ﷺ لأنه خلاصة علوم كثيرة، فاصلة بين النافع والضار لا يعلمه ﷺ وإنما هي وحي من الله تعالى له.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي ما تزايد قبحه من الذنوب ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي جهرها وسرها وعن ابن عباس ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الزنا علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا سراً ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي ما يوجب الإثم، وهو تعميم بعد تخصيص، ويراد به جميع المعاصي، وقيل: إن الإثم هو شرب الخمر، كما نُقل عن ابن عباس، والحسن، وذكره أهل اللغة وأنشدوا قول الشاعر:

نَهَانَا رَسُولُ الله أنْ نقربَ الزِّنَا
وأنْ نَشربَ الإثْمَ الَّذي يُوجِبُ الوِزْرَا

(١) أخرجه الترمذي في الأدب رقم ٢٨٢٠ بلفظ «إن الله يحب أن يُرى أثرُ نعمته على عبده» وقال ﷺ للأحوص: «إذا آتاك الله مالاً، فليُر أثرُ نعمة الله عليك وكرامته» أخرجه النسائي في الزينة، وانظر جامع الأصول ١٠/٦٥٨.

وقال الآخر: شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ أي الظلم والاستطالة على الناس، أُفرد بالذكر للمبالغة في الزجر عنه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة توضيح وبيان، لأن البغي لا يكون إلا بغير الحق ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي حجة وبرهاناً، وفيه تهكم بالمشركين، وتحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته، والافتراء عليه، كقولهم: ﴿والله أَمَرَنَا بِهَا﴾ وهو أعظم أصول المحرمات، بل هو أصل الأديان الباطلة، فما من أمة ارتكبت هذا إلاّ سلبها الله سعادتها، فإنَّ الكذب على الله أساسُ الكفر والضلال.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المهلكة ﴿أَجَلٌ﴾ أي وقت معيَّنٌ لنزول العذاب بهم، وفيه وعيد لأهل مكة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكها المقدَّر، والمراد من مجيء الأجل قربُه، أي إذا حان وقرب ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ منه ﴿سَاعَةً﴾ برهة من الزمان، فإنها مَثَلٌ في غاية القلة، وليس المراد بها الساعة في مصطلح الناس ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي ولا يتقدمون عليه، وهو عطف على يستأخرون للمبالغة في انتفاء التأخر، بنظمه في سلك المستحيل عقلاً، وأجل الأمة على نوعين: **أحدهما**: أجل من يبعثه الله فيهم. من الرسل لهدايتهم، فيردُّون دعوتهم، كِبراً وعناداً، فيكذِّبون فيهلكون، وبهذا هلك قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، وهذا النوع من الهلاك كان خاصاً بأقوام الرسل، وانتهى ببعثة صاحب الرسالة العامة ﷺ.
والنوع الثاني: الأجل المقدَّر لحياة الأمم، سعيدة، وعزيزة بالاستقلال،

والرفاه، التي تنتهي بالشقاء والمهانة، وهذا النوع منوط بسنن الله تعالى في الاجتماع البشري والعمراني، وأسبابُه محصورة في مخالفة هدى الآيات، بالإسراف باقتراف الفواحش والآثام، والبغي على الناس، فما من أمة من أمم الأرض، ارتكبت هذه الضلالات وكثرت فيها المنكرات، إلا أهلكها الله[1].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى كافة الناس، اهتماماً بشأن البشر ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي إن جاءكم رسل كائنون من جنسكم، لأنهم إذا كانوا من جنسهم، كان أقطع لعذرهم، لأنهم يعرفونه وأحواله ﴿يَقُصُّونَ﴾ أي يبيِّنون ﴿عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ أحكامي وشرائعي، ويخبرونكم بها ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي فمن اتقى منكم الشرك والتكذيب، وأصلح عمله، فلا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة التي تَقُصُّ وتُبيِّن أحوال الأمم، وأمور الدين ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ ولم يقبلوها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لتكذيبهم، وإدخال الفاء في خبر ﴿من اتقى﴾ ولم يدخل في خبر ﴿الذين كذبوا﴾ للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي لا أحد أظلم ممن

---

(١) يدل على هذا قول الرسول ﷺ لأم المؤمنين زينب رضي الله عنها حين سألت الرسول فقالت: «يا رسول الله: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخَبَثُ» أي إذا كثر الفسوق والفجور، رواه البخاري.

تقوَّل على الله ما لم يقله، أو كذَّب ما قاله، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، من الافتراء والتكذيب ﴿يَنَالُهُمْ﴾ أي يصيبهم ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي مما كُتِب لهم وقُدّر من الأرزاق، والآجال، مع ظلمهم وافترائهم، لا يُحرمون ما قُدّر لهم من ذلك إلى انقضاء أجلهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي ملك الموت وأعوانه، والمراد بهم هنا ملائكة العذاب ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي لقبض أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الرسل لهم توبيخاً وتهكماً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا، وتستعينون بها في المهمات؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي غابوا عنَّا، لا ندري أين مكانهم؟ ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي اعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ أي عابدين لما لا يستحق العبادة، حيث اتضح لهم حاله وضلاله، وما ذُكر إنما هو للتحسر والاعتراف بما هم عليه من الخسران، ولا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأن الطوائف مختلفة والمواقف عديدة، والأحوال شتى.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني كفار الجن والإنس، قدم الجن لمزيد شرهم ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ وفيه إشعار بأنهم يدخلون النار فوجاً فوجاً ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالاقتداء بها، فيلعن الأتباع القادة، يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد

فلعنكم الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ غاية لما قبله أي يدخلون فوجاً فوجاً لاعناً بعضهم بعضاً، إلى انتهاء تلاحقهم، باجتماعهم في النار، والإدراكُ: اللحاق ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ منزلة وهم الأتباع ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي لأجلهم، إذ الخطابُ مع الله تعالى لا معهم ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ أي دَعَوْنا إلى الضلال فاقتدينا بهم ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا﴾ أي مضاعفاً كما روي عن مجاهد ﴿مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ أي من نار جهنم، لأنهم سبب ضلالنا ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أمّا القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأمّا الأتباع فبكفرهم وتقليدهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الآخر، فلذا طلبتم استحقاق الرؤساء الضعف دونكم:

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ حين سمعوا جواب الله تعالى ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ أي لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب، فنحن متساوون في الضلال، وفي استحقاق العذاب الأليم، عَنَوْا بالفضل تخفيف العذاب ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم وكفركم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هذا نوع آخر من جزاء المكذبين ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ عن الإيمان بها، والعمل بمقتضاها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم، ولا تعرج إليها أرواحهم، كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم لتتصل بالملائكة وفي الحديث الشريف: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة، التي كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروحٍ ورَيْحان، وربٍّ غير غضبان، يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى

السماء السابعة»[1] الحديث. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ هو البعير زوج الناقة، والعرب تضرب به المثل، في عظم الخلقة، كقول الشاعر: لقد عظم البعيرُ بغير لُبٍّ ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجرم وهو البعير، فيما هو مثل في ضيق المسلك، وهو ثقب الإبرة، وذلك مستحيل لا يكون أبداً، فكذلك ما توقف عليه[2]، وقد كثر مثل هذا في كلامهم، فيقولون: لا أفعل كذا حتى يشيب الغُرابُ، وحتى يَبْيَضَّ القَارُ، ومرادهم لا أفعل كذا أبداً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أهل العصيان والإجرام.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي لهم فراش ومسكن ومضجع من نار جهنم، وتنوينُه للتفخيم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي أغطية وهي اللُّحُف، والآية مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[3] والمراد أنَّ النار محيطة بهم من جميع الجوانب، وأخرج ابن مردويه عن عائشة أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «هي طبقاتٌ من فوقه، وطبقاتٌ من تحته..»[4] الحديث ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء الشديد ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى، للتنبيه على أنهم بتكذيبهم الآيات، واستكبارهم عنها، جمعوا صفتين: الإجرام، والظلم، ولا يخفى على المتأمل في لطائف القرآن العظيم، ما في إعداد المهاد، والغواش لهؤلاء المستكبرين عن الآيات، ومنعهم من العروج إلى الملكوت، وتقييد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير بخرق الإبرة من اللطافة ما فيه!!.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٦٤ ورواه النسائي، والبيهقي، والحاكم وصحّحه، وانظر تمامه في تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٢.

(٢) هذا تمثيل بالغ الروعة في تصوير استحالة دخول الكفار جنة النعيم، أي إنهم لا يدخلون الجنة، إلا إذا أمكن دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على ضيقه وصغره.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٦.

(٤) أخرجه ابن مردويه، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بآياتنا ولم يكذّبوا بها ﴿ وَعَمِلُوا ﴾ الأعمال ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ على الوجه الذي دعتهم إليه الرسل، وهذا بمقابلة الاستكبار عنها ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي ما تقدر عليه بسهولة ﴿ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وهذا على عادته سبحانه في أن يشفع الوعد بالوعيد و﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ اعتراضٌ بين المبتدأ وخبره، للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقتهم، ولا يشقُّ عليهم.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي أخرجنا من قلوبهم أسباب الغِلّ، حتى لا يكون بينهم إلا التواد، وعن علي كرم الله وجهه: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم»(١) وصيغة الماضي للإيذان بتحققه والغل: الحقدُ. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض، مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونُقُّوا ـ أي خلصوا من الذنوب كلِّها ـ أُذن لهم في دخول الجنة»(٢) الحديث. ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن قتادة عن علي رضي الله عنه، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب المظالم ٥/ ٧٠ وتتمته: «فو الذي نفس محمد بيده، لأَحَدُهم أهدى بمنزله في الجنة، منه بمنزله كان في الدنيا».

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي للإيمان الصحيح، والعمل الصالح، لتحصيل هذا النعيم العظيم ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي ولولا هداية الله وتوفيقه، لما وصلنا إلى هذه السعادة، وهذا القولُ من أهل الجنة، لإظهار السرور بما نالوا، والتلذذ بالتكلم به، لا للتعبد، فإن الدار ليست دار تكليف، بل هي دار تشريف ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطاً وسروراً، أي والله لقد جاؤوا بالحق، وهذا مصداق ما وعدونا من الجزاء على التوحيد، والعمل الصالح، ولا يخفى ما في هذه الآية، من الرد الواضح على المعتزلة، الزاعمين أن كل مهتدٍ خَلَق لنفسه الهدى، فاعرض قول المعتزلة في الدنيا: المهتدي من اهتدى بنفسه على قول الله تعالى حكاية عن قول الموحدين ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوَلآ أَنْ هدانا الله﴾ واختر لنفسك أي الفريقين تقتدي به ﴿وَنُودُوٓا۟﴾ أي نادتهم الملائكة ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ ومعنى البعد في اسم الإشارة، لرفع منزلتها، وعلوِّ شأن أهلها ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أي أعطيتموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالكم الصالحة، سمَّاها ميراثاً، لأنها لا تُستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله كالميراث، وزعم المعتزلة أن دخول الجنة بسبب الأعمال ﴿بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ لا بالتفضل، ولا يخفى أنه لا محيص لأحدٍ عن فضل الله تعالى، لأن اقتضاء الأعمال لذاتها دخول الجنة مما لا يكاد يعقل، وقصارى ما يُعقل أن الله تعالى تفضَّل فرتَّب عليها دخول الجنة، فلولا فضله لم يكن ذلك، فإنَّ مآل كلامهم فيه، أن الجنة ونعيمها مستحق على الله تعالى، لا تفضل له عليهم في ذلك، بل هو بمثابة ديْنٍ أدي إلى صاحبه، سبحان الله هذا بهتان عظيم، وتكذيب لخبر صحيح: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٥٢ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المنافقين.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) ﴾.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ بعد الاستقرار فيها، وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع والمعنى ينادي ﴿ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ أي من كان يعرفه في الدنيا من أهلها، تبجحاً بحالهم وشماتةً بأعدائهم، وتحسيراً لهم، لا لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ على ألسنة رسله ﴿ حَقّٗا ﴾ حيث نلنا هذا المنال الجليل والكرامة العظمى ﴿ فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ﴾؟ من العذاب والخزي والهوان؟ ولا يستبعد هذا النداء هناك، على بعد ما بين الجنة والنار من المسافة ﴿ قَالُواْ ﴾ في جواب أهل الجنة ﴿ نَعَمۡۚ ﴾ قد وجدنا ذلك حقاً ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ ﴾ قيل: هو «مالك» خازن النار، وقيل: ملكٌ من الملائكة، يأمره الله تعالى بذلك ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي الفريقين ﴿ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والمراد الإعلام بلعنة الله تعالى لهم، زيادة لسرور أصحاب الجنة، وجزع أصحاب النار.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي يستكبرون بأنفسهم عن دينه سبحانه، ويمنعون الناس عن دين الإسلام، بالنهي عنه، وإدخال الشبه في دلائله ﴿ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾ أي يطلبون الاعوجاج والتناقض لها، ويصفونها بالزيغ، والميل عن الحق ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ أي غير معترفين بالقيامة وما فيها.

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) ﴾.

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ ﴾ أي بين الفريقين حجاب عظيم يمنع وصول أحدهما

على الآخر، وإن لم يمنع وصول النداء، وأمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي على أعاليه وهو السور المضروب بينهما، جمع عرف، مستعار من عرف الفرس ﴿رِجَالٌ﴾ طائفة من الموحدين، قصَّرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النّار، جُعلوا هناك حتى يُقْضَى بين الناس، لأن المقالات الآتية وما تتفرع عليه لا تليق بغيرهم ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة، والنار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلاماتهم كبياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها في أهل النار، والسيما: العلامةُ ﴿وَنَادَوْا﴾ أي رجال الأعراف ﴿أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ﴾ حين رأوهم وعرفوهم ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق الدعاء والتحية، أي سلمتم من المكاره ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جملة حالية، أي نادوهم وهم لم يدخلوها بعد، وهم طامعون في دخولها (١).

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي أبصار أصحاب الأعراف، وفيه إشارة إلى أن صارفاً صرف أبصارهم، لينظروا من غير رغبة منهم، وهي تدل على هول المطلع ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ﴾ تلقاء مصدر بمعنى الجهة، أي وإذا صرفت أبصارهم جهة أهل النار ﴿قَالُوا﴾ متعوّذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أي مع هؤلاء الأشقياء في النار، وهذا دعاء أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، وكان مصيرهم مجهولاً.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) قال ابن مسعود والحسن: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم، إلاّ لخيرٍ أراده لهم، وإنما طمع أصحاب الأعراف، لأن النور الذي كان في أيديهم، لم يُطفأ حين طُفىء كلُّ ما بأيدي المنافقين ا.هـ المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٥١٦.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ كرّر ذكرَهُم مع كفاية الإضمار، لزيادة التقرير والتأكيد ﴿رِجَالٗا﴾ من رؤساء الكفرة، حين رأوهم بين أصحاب النار ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا بأسمائهم وما يدعون به من الصفات ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾؟ أي ما الذي دفع عنكم؟ وهل نفعكم أتباعكم وأنصاركم وجمعكم للمال؟ ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي واستكباركم عن قبول الحق؟.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي أهؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يعبأ بهم؟ والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة، الذين كان الكفرة يحقّرونهم في الدنيا، ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، كسلمان، وصهيب، وبلال، ونحوهم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ كلام أصحاب الأعراف أيضاً، أي قالوا لهم: ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ بعد هذا اليوم ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي غير خائفين ولا محزونين، ادخلوا الجنة على أكمل سرور، وأتم حبور، مع الخلود في دار النعيم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار، واطمأنت به الدار ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ﴾ أي صبُّوا ﴿عَلَيۡنَا﴾ شيئاً ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من سائر الأشربة والأطعمة، على أن الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة، وفي الآية دليل على نهاية عطشهم، وشدة جوعهم، يقولون ذلك مع اليأس، وهذا كما يقال في المثل: «الغريق يتعلق بالزَّبَد، وإن علم أنه لا يغيثه» ﴿قَالُوٓاْ﴾

في جوابهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي منعهما منع المحرَّم عن المكلف، ولما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب، عذَّبهم الله في الآخرة بشدة الجوع، والعطش، جزاءً وفاقاً!.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي جعلوا الدين سخرية ولعباً فحرّموا ما شاؤوا، وأحلّوا ما شاؤوا ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخارفها العاجلة، ومواعيدها الباطلة، وخدعهم ما هم فيه من خصب العيش عن الإيمان، والعمل الصالح ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ أي نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسي، من عدم الاعتداد بهم، وتركهم في النار، تركاً كلّياً[1] ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ فلم يخطروه ببالهم، ولم يستعدّوا له، والجزاء من جنس العمل.

شبَّه عدم إخطارهم يوم القيامة ببالهم، وعدم استعدادهم له، بحال من عرف شيئاً ثم نسيه ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا منكرين أنها من عند الله، فالمعنى: نتركهم في النار تركاً مستمراً، كما كانوا منكرين أن الآيات من عند الله تعالى إنكاراً مستمراً.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي بيَّنا معانيه من العقائد، والأحكام، والمواعظ، مفصَّلة تمام التفصيل، هاديةً إلى الرشد ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على

(١) قال ابن عطية: النسيان في هذه الآية بمعنى الترك، أي نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم ا.هـ المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١.

علمٍ منّا بوجه تفصيله، مما يحتاج إليه المكلفون لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم وسعادتهم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، لأنهم هم المغتنمون من آثاره، والمقتبسون من أنواره.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾؟ أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة، إلاّ وقوع ما يؤول إليه أمره؟ بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي تركوه ترك الناسي له، فأعرضوا عنه، ولم يعملوا به ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي تبين لنا أنهم جاؤوا بالحق، فأعرضنا عنه حتى جاء وقت الجزاء[1] ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلّصنا من هذا العذاب، أو يدفع عنّا ما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل لنا عودة إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ﴾ أي فنحن نعمل ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي في الدنيا من الشرك والمعاصي، وقبيح الأعمال ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم، إلى الشرك والمعاصي ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب وفقد ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي ظهر لهم بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شفعاؤهم يوم القيامة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن خالقكم ومالككم الذي خلق الأجرام العلوية والسفلية في مقدار ستة أيام

---

(١) قال الطبري: أقسم المساكين حين حلّ بهم العقاب، أن رسل الله قد بلّغتهم الرسالة، ونصحت لهم، وصَدَقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال. جامع البيان ١٢/٤٠٨.

من أيام الدنيا، وفي خلق الأشياء بالتدرُّج مع القدرة على إبداعها دفعة، دليل على الاختيار، واعتبار للنُظَّار، وحثٌّ على التأني في الأمور[1] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الاستواء على العرش، صفةٌ لله تعالى بلا كيف، والمعنى أن له تعالى استواءً على العرش على الوجه الذي عناه، منزهاً عن المشابهة لأنه تعالى كان قبل العرش، ولا مكان له وهو الآن كما كان، منزَّه عن كل ما يشابه الخلق في جميع صفاته جل وعلا[2] ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطيه به، ولم يذكر العكس للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، غشي الشيءُ الشيءَ أي: غطَّاه، والمعنى: أن الله تعالى قد جعل الليل وهو الظلمة، يغطي النهار وهو ضوء الشمس ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي يعقبه سريعاً، كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء، محمولاً على السرعة حتى يدركه ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي خلقها حال كونها مسخرات بقضائه وتصريفه، إذ هي ليست قادرة بنفسها، وإنما يتصرفن على إرادة المدبر لهنَّ، وهذه الأجرام العظيمة منقادة لإرادته تعالى، وإفراد الشمس والقمر بالذكر مع دخولهما في النجوم، لإظهار شرفهما عليها، لما فيهما من مزيد الإشراق والنور، وبسيرهما في المنازل تُعرف الأوقات ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف، الموجد للكل، والمتصرف فيه على الإطلاق، يفعل

(١) قال القرطبي ٧/ ٢١٩: لو أراد الله لخلقها في لحظة، ولكنه أراد أن يعلّم العباد التثبت في الأمور.

(٢) قال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفاتِ تمرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل، فلا يقال: كيف؟ ولا أين؟ نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكِل الكيفية في الصفات إلى علم الله عزَّ وجلَّ. اهـ أقول: هذا مذهب السلف ـ وهو الحقُّ ـ أننا نؤمن بما ورد في القرآن العظيم، من صفات الرب الجليل، بلا تشبيهٍ ولا تعطيل، ونترك الكيفية في الصفات إلى علم علاَّم الغيوب. قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٣٠: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارُها كما جاءت، من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهرُ المتبادرُ إلى أذهان المشبِّهين، منفيٌّ عن الله عزَّ وجلَّ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

ما يشاء، ويحكم ما يريد[1] ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تقدس وتنزَّه جلَّ وعلا عن كل نقص، فهو الخالق المبدع للكائنات، الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ خَلقه.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ بعد أن بيَّن التوحيد، وأخبر أنه المنفرد بالربوبية، والمتفرد بالخلق والأمر، أمر عباده أن يدعوه مخلصين له الدين، والدعاء هو مخُّ العبادة، أي ادعوه بخشوع واستكانة، فلا ينبغي الجهر الكثير والصياح، والخفية ضد العلانية. قال الحسن البصري: «كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلاَّ همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أنه تعالى يقول: ﴿ادعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعاً وَخُفيَةً﴾ وإنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً رضيَ له فعله، فقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّه نداءً خَفِيّاً﴾!!» وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال ﷺ: أيها الناس إرْبَعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم..»[2] الحديث، قوله: «اربعوا» أي ارفقوا واقصروا، والمراد عدم رفع الصوت بالدعاء، وحسبك في فضل الإسرار به، اقترانُه في الآية بالتضرع، وإن دعاءً لا تضرع فيه ولا خشوع، لقليل الجدوى، عديم الوقار.

---

(١) هذا من الأسلوب البياني البليغ، فقد جمعت هذه الآية ـ على وجازتها ـ جميع الأمور والشؤون على وجه الاستقصاء، فله سبحانه الملك والملكوت، والأشياء والمخلوقات، وله الحكم والفصل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فقد جمعت الألفاظ القليلة، والمعاني الكثيرة، وهذا ضرب من إعجاز القرآن ﴿أَلاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ﴾.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات ١١/١٥٩ ومسلم في الذكر رقم ٢٧٠٤ باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللَّغَطُ ويشتدَّ، وتستك المسامع وتستدَّ، ولا يدرون أنهم جمعوا بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء، وكون ذلك في المسجد، روي عن ابن جريج أن رفع الصوت بالدعاء، من الاعتداء المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يحب المجاوزين لما أمروا به في كل شيء، فيدخل فيه الاعتداء في الدعاء، دخولاً أولياً، ونبَّه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به، كرتبة الأنبياء، والصعود إلى السماء، وقيل: هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه، وفي الحديث الشريف: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، ثم قرأ ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعتَدِينَ﴾»(١).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهي عن سائر أنواع الإفساد، كإفساد النفوس، والعقول، والدين، والأموال، والأنساب، والآداب، ونحو ذلك ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ أي إصلاح الله تعالى لها، وخلقها على الوجه الملائم، لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين، وبعث الأنبياء فيها ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، وقيل معناه: كونوا جامعين بين الخوف، والرجاء، والآية الأولى لبيان شرط الدعاء، وهذه لبيان فائدته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي رحمته تعالى قريب من المحسنين في أعمالهم، وشؤونهم وسائر أمورهم، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٢٨ وأبو داود رقم ١٤٠٨ ولفظه عن ابن سعد بن أبي وقاص قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا، فقال لي يا بُنَيَّ سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون قوم يعتدون في الدعاء، فإيّاك أن تكون منهم، إنك إنْ أُعطيتَ الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أُعذت من النار أُعذت منها وما فيها من الشرِّ».

أحسن العبادة نال الثواب، ومن أحسن في الدعاء، استجيب له، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه فسَّر المحسنين بالمؤمنين. وقال مطر الورَّاق: «استنجِزُوا موعودَ الله بطاعته، فإنه قضىٰ أن رحمته قريب من المحسنين»[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا ﴾ أي مبشرات بالخير، لأن الرياح تبشر بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي قُدَّام رحمته التي هي المطر، والمطر سمي رحمة، لأنه سبب لحياة الأرض الميتة، وعن ابن عمر أن الرياح ثمانية: أربع منها عذاب، وهي: القاصفُ، والعاصف، والصرصر، والعقيم، وأربع منها رحمة، وهي الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وفي الحديث عن أبي هريرة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريحُ من رَوْح الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، واسألوا الله تعالى من خيرها، واستعيذوا من شرّها»[2] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ ﴾ أي رفعت وحملت ﴿ سَحَابًا ﴾ أي غيماً، سمي بذلك لانسحابه في

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، كذا في تفسير الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٥٠٩٧ باب ما يقول إذا هاجت الريح، ورواه الترمذي في الفتن رقم ٢٢٥٣ بلفظ «لا تسبُّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنَّا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرتْ به، ونعوذ بك من شرّ هذه الريح، وشرّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرت به» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الهواء ﴿ثِقَالًا﴾ من الثِّقْل، فهو ثقيل، وثِقْلُ السحاب بما فيه من الماء ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لمنفعته ولإحيائه ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي بالبلد القاحل المجدب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من كل أنواعها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه، وتطريتها بأنواع النبات والثمرات ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من القبور، ونحييها بردّ النفوس إلى مواد أبدانها، بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك، قدر على هذا من غير شبهة.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي الأرض الكريمة التربة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره، والمرادُ بذلك أن يكون حسناً، وافياً غزير النفع[1] ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ كالحرَّة والسَّبْخَة ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي قليلاً لا خير فيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف البديع ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة، وأصلُ التصريف: تبدلُ حال بحال، ومنه تصريف الرياح ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى، وشكرُ ذلك بالتفكر فيها، والاعتبار بها، وهذا مَثَلٌ لإرسال الرسل بالشرائع، التي هي ماء حياة القلوب وللمكلَّفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها، والمحرومين من مغانم آثارها، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن، يقول هو طيبٌ، وعمله طيب، والذي خَبُث مَثَلٌ للكافر، يقول: هو خبيث، وعملهُ خبيث وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به، من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة ـ أي قطعة طيبة ـ قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير،

---

(١) هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالأرض إذا كانت طيبة التربة، يخرج النبات فيها أخضر زاهياً وافياً، كذلك مثل المؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها، فالمؤمن طيب وعمله طيب، كالبلد الطيب ثمره طيب، والكافر خبيث وعمله خبيث، كالأرض السبخة المالحة التي لا خير فيها ولا بركة، ولا يستفاد منها بشيء إلا ظهور البعوض والحشرات، وانظر الطبري ٨/ ٢١٢.

وكانت منها أجادب ـ جمع أجدب وهي الأرض التي لا تنبت ـ أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منه، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قِيَعانٌ ـ جمع قاع، وهي الأرض المستوية ـ لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين الله، ونَفَعه اللهُ ما بعثني به، فعلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يَقْبَل هُدَى اللهِ الذي أرسلتُ به»[1].

ثم إنه سبحانه وتعالى عقَّب ذلك بما يحققه ويقرِّره من قصص الأمم الخالية، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ فقال تقدست أسماؤه:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ هو جواب قَسم محذوف، أي والله لقد أرسلنا نوحاً شيخ الأنبياء، إلى قومه الكفرة المفسدين، الذين عبدوا الأصنام، فمَكَث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وهو أول نبيّ عذَّب الله تعالى قومه بالغرق بالطوفان ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي وحده ولا تشركوا معه أحداً، فناداهم بصفة القوم ﴿يا قَوْمِ﴾ مضافة إليه، لاستمالتهم إلى العبادة ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ ﴾ أي مستحق للعبادة ﴿ غَيْرُهُۥٓ ﴾ أي ما لكم في الوجود إله غيره ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إن لم تعبدوه حسبما أمرت به ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة، ووصفُ اليوم بالعِظَم، لبيان ما يقع فيه، وإنما قال عليه السلام ﴿أخافُ﴾ ولم يقطع حنواً عليهم، واستجلاباً لهم بلطف.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/١٨٥ في العلم، ومسلم رقم ٢٢٨٢ في الفضائل.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي الرؤساء من قومه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي ذهاب عن طريق الحقِّ والصواب ﴿مُّبِينٍ﴾ أي واضح كونه ضلالاً، بنهيك لنا عن عبادة آلهتنا، الذين هم شفعاء لنا عند الله.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أيُّ شيءٍ من الضلال، رداً على الكفرة، حيث بالغوا في إثباته له، بحيث جعلوه مستقراً في الضلال، ولم يقل: ضلال فإن التاء للمرة، فيرجع حاصل المعنى: ليس بي أقلُّ قليل من الضلال، فضلاً عن الضلال المبين!! ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن كونه رسولاً من الله تعالى مبلغا لرسالاته، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فكان في الغاية القصوى من الهدى، أيْ أنا رسول وأيَّ رسول كائن من رب العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أي أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم، وجَمَع الرسالات لتنوع معانيها، كالعقائد، والأحكام، والمواعظ ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ عطف على أبلغكم، والمعنى: أبلغكم جميع تكاليف الله تعالى، وأرشدكم إلى الوجه الأصلح، وأحذركم عقابه إن عصيتموه وقوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من جهته تعالى بالوحي ما لا تعلمونه من الأمور الآتية، أو أعلم من شؤونه عز وجل وقدرته على أعدائه، وسننه، في نظام العالم وما ينتهي إليه ما لا تعلمونه أنتم، قيل: كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم، فكانوا غافلين لا يعلمون ما يعلمه نوح.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدّر كأنه قيل: استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي من ربكم

﴿عَلَىٰ﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ من قومكم، وقلتم لأجل ذلك ما قلتم؟ كانوا يقولون: لا مناسبة بينه تعالى وبين البشر، من حيث إنه تعالى في غاية التقدس، والبشر في غاية الضعف والتكدر، فأنكر نوح عليهم بأن الرسول يكون ذا جهتين: يستفيض من عالم الغيب بتجرده، وصفاء روحه، ويُفيض لبني نوعه بجهة مشاركته لهم في البشرية ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي لأجل أن يحذركم عاقبة كفركم ومعاصيكم ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ منهما بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي استمروا على تكذيبه، وأصرُّوا بعد أن قال لهم ما قال، ودعاهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي من الغرق، والإنجاء من قصد أعداء الله تعالى له ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين وكانوا على ما قيل أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي في السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بسبب تكذيبهم المستمر وليس المراد بهم الملأ فقط، بل كل من أصرَّ على التكذيب منهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عُمْيَ القلوب، غير مستبصرين، يقال عَمٍ في البصيرة، وأعمى في البصر، أي عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد، والنبوة، والمعاد.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً منهم

كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذاب الله؟ والاستفهام للإنكار. ولما كان قوم هود، قد علموا ما حلّ بقوم نوح من الغرق، حسن قوله هنا ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب؟.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ الوصف هنا للذم، ومقتضى المقام يقتضي ذمهم، لشدة عنادهم، كما يدل عليه جوابهم بما حكاه الله تعالى من قولهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي متمكناً في خفة عقل، حيث فارقت دين آبائك، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي فيما ادعيت من الرسالة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ليس بي والحمدُ لله، أدنى شيء من شوائب السفاهة، والخِفَّة، ولكنني مرسل لهدايتكم من ربِّ العزة والجلال.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي ليس بي ما تزعمون وإنما أنا رسول ناصح مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ﴾ أي هل عجبتم لأن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم، لينذركم لقاء الله، ويخوفكم عذابه؟ وفي الآية دلالة على جواز مدخ الإنسان نفسه للحاجة إليه ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي بعد أن أهلكهم وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي زادكم في الناس على أمثالكم ﴿بَصْۜطَةً﴾ قوة وزيادة جسم ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي اذكروا نعم الله واشكروها له ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي يفضي شكرها المؤدي لكم إلى الفلاح والنجاح.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا ﴾ يا هود تتوعدنا بالعذاب ﴿ لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ أي لنخصه بالعبادة ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ أي نهجر ما كان عليه آباؤنا من عبادة الأوثان والأصنام ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في إنذارك لنا بنزول العذاب، وهذا منهم منتهى العناد والطغيان.

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم ﴾ أي وجب وحقَّ عليكم بإصراركم على الكفر والضلال ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي من جهته تعالى: ﴿ رِجْسٌ ﴾ عذاب مهين كأنه نتن وقذر ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ وهو إرادة الانتقام، وتنوينهما للتفخيم والتهويل ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ أي آلهة ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ يعني وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي ليس عندكم حجة ولا برهان من عند الله على عبادتها ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ نزول العذاب الذي طلبتموه. ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ لنزوله بكم.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ ﴾ الفاء فَصيحة، أي فوقع ما وقع فأنجيناه ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ في الدين ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ عظيمة لا يقادر قدرها ﴿ مِّنَّا ﴾ من جهتنا ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الدابر أصل الشيء أو آخره، وهو هنا كناية عن عذاب الاستئصال، أي أهلكناهم بالكلية حيث جاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم ﴿ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أصرُّوا على الكفر والتكذيب، ولم يرعووا عن ذلك أصلاً، وفائدة هذا النفي، التنبيه على أن مناط النجاة، هو

الإيمان بالله تعالى، كما أن مدار البوار، هو الكفر والتكذيب، فهو كالعذر عن عدم إمهالهم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ
ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ثمود قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر، بين الحجاز والشام، وسميت باسم أبيهم الأكبر ثمود المنتسب إلى سام بن نوح ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى وإن غاير بين الرسل من حيث الشرائع، إلا أنه جمع بينهم في التوحيد، حيث سلك كل واحد منهم مسلك الآخر، ومن سنة القرآن الكريم في قصص الأنبياء، أن يذكر ما كان منها للعبرة والموعظة، لا أخبار حوادث الأمم مرتبة بحسب الزمان، وقد حكى هنا عن صالح، وأنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها، وفي قصته من سورة هود أنه ذكر الآية بعد رد الدعوة، وكل ذلك صحيح ﴿ هَٰذِهِۦ

﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ إضافة الناقة إلى الاسم الجليل، لتعظيمها، كبيت الله، ولمجيئها بلا أسباب من صخر أصمّ، ولأنها حجة الله تعالى على نبوته، وقوله ﴿لَكُمْ﴾ بيان لمن هي آية ﴿فَذَرُوهَا﴾ تفريع على كونها آيةٌ من آيات الله تعالى أي فاتركوها ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب، وهو جواب الأمر أي الناقة ناقة الله، والأرض أرض الله، فاتركوها تأكل في أرض الله، وعدم التعرض للشرب، إما للاكتفاء بذكر الأكل، ولتعميمه له أيضاً كما في قول القائل: «علفتها تبناً وماءً بارداً» أي وسقيتها ماءً بارداً وقد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُوم﴾(١) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهى عن المسِّ الذي هو مقدمة الإصابة بالشر، مبالغة في النهي، أي لا تتعرضوا إليها بشيء مما يسوءها أصلاً، إكراماً لآية الله تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب أذاها (٢).

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي خلفاء في الأرض، ولم يقل خلفاء عاد مع أنه أخصر، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنزلكم، ومكّنكم وجعل لكم مباءةً ومنزلاً في أرض الحِجْر ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ رفيعة فـ «مِنْ» بمعنى «في» كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ﴾ ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم، لطول أعمارهم، قيل: إنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء، في البيوت المنحوتة، لما فيها من القوة التي لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في سائر الفصول للزراعة

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٥٥.

(٢) يروى أن قوم صالح خرجوا في عيد لهم، وطلبوا من نبيهم أن يأتيهم بآية باهرة تدل على صدق رسالته، وأن يُخرج لهم من صخرة معينة ناقة عُشراء ـ أي حاملاً ـ فدعا ربه فخرجت الناقة كما طلبوا، وكانت معجزة من وجوه: أولاً خلقها من الصخرة، وثانياً أنها كانت حاملاً وولدت أمامهم، وثالثاً: كان لها شرب يوم ولأهل المدينة شرب يوم آخر، ومع ذلك أقدموا على قتلها فأهلكهم الله.

والعمل ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم الله بها عليكم، وآلاء جمع ألى بالقصر والفتح أي نعمة ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن حق الآلاء أن تُشْكَر، فلا يُغفل عنها، فكيف بالكفر!؟.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان، وعتوا وتكبروا ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ من قوم صالح ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ أي عُدُّوا ضعفاء أذلاء ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أي قالوا للمؤمنين بصالح ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ الاستفهام للاستهزاء بهم، لأنهم يعلمون أنهم عالمون بذلك، ولذلك لم يُجبهم المؤمنون بأن يقولوا نعم، بل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من الأسلوب الحكيم، فكأنهم قالوا: العلم بإرساله لا كلام فيه ولا شبهة فيه لوضوحه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنّا به مؤمنون[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وضعوا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ موضع أرسل به، للتخلص عن الإشعار بالإيمان بالرسالة، غلواً في الإصرار على الكفر، نكايةً بالمؤمنين.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ العقر: الجرحُ، وأصله قطع ساق البعير، واستعمل في النحر، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره، أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم، فكأنه فعل كلهم، كما قال الله تعالى في سورة القمر ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[2] ومثل هذا من أعمال الأفراد، ينسب إلى الأمة في جملتها ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي استكبروا عن امتثال أمر الله، واستعجلوا النقمة ﴿وَقَالُواْ﴾ مخاطبين له بطريق التعجيز والسخرية

---

(١) قال في البحر ٣٣١/٤: هذا الجواب في غاية الحسن، إذْ أمر رسالته معلوم واضح مسلَّم، لا يدخله ريب، لما أتى به من المعجز الخارق العظيم، فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته، ولهذا قالوا في جوابهم ﴿إنَّا بما أُرسل به مؤمنون﴾.

(٢) سورة القمر، آية: ٢٩.

﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ أي من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فإن كونك من جملتهم، يستدعي صدق ما تقول، من الوعد والوعيد، وإنما قالوا ذلك، لأنهم كانوا مكذبين بكل ما أخبرهم به من العذاب، فعجَّل الله لهم ذلك، ولهذا جاء اللفظ معطوفاً بالفاء، التي تفيد التعقيب.

فقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أي الزلزلة وقد رجفت بهم الأرض، وقال مجاهد هي الصيحة، وجمع بين القولين، بأنه أخذتهم الزلزلة من تحتهم، والصيحة من فوقهم[1]، وجاء في موضع آخر الطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ولا منافاة بين ذلك، فإن الصيحة العظيمة حصل منها الرجفة لقلوبهم، ولعظمها وخروجها عن الحد المعتاد تسمى الطاغية، لأن الطغيان مجاوزة الحدّ ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ هامدين، وفي أرضهم خامدين، وأصل الجثوم البروك يقال: الناس جثوم أي قعود لا حراك بهم، أي أصبحوا هلكى عند نزول العذاب بهم، لا حركة ولا كلام، فقد خمدت أنفاسهم على التمام.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ بعد أن جرى عليهم ما جرى، مغتماً متحسراً متحزناً عليهم ﴿ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي أسديت لكم النصح بالترغيب والترهيب، ولم آل جهداً فلم تقبلوا مني ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم، وخطابه عليه السلام كخطاب رسول الله ﷺ لأهل القليب ببدر حين نادى

---

(١) الرجفة: الزلزلة، والاضطراب الشديد، وقد اجتمع على قوم صالح الصيحةُ، والرجفة، وكانت مفرطة شقت قلوبهم، فجثموا على الأرض موتى لا حركة فيهم، فقد جمع الله بين الرجفة والصيحة، عقوبة على إجرامهم.

يا فلان، يا فلان بأسمائهم، وقال: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ رُوي أن صالح عليه السلام لما نجا هو والذين معه، قال لهم: يا قوم إن هذه دار قد سخط الله تعالى عليها، فالحقوا بحرم الله تعالى وأمنه، فأهلُّوا من ساعتهم بالحج، وانطلقوا حتى وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، وأنه عليه السلام توفي بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وفي الحديث «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم..»[1] الحديث. وفي الحديث حث على الاعتبار، والخوف عند المرور على ديار الظلمة، المهلكين بالعذاب والدمار.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ معطوف على ما سبق أي وأرسلنا لوطاً إلى قومه، وإنما لم يذكر اسم المرسل إليهم، لأن قومه لم يُعهدوا باسم معروف، ولوط هو ابن هارون ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقد هاجر مع إبراهيم إلى الشام، فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، وهي بلدة بحمص ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي اذكر وقت قوله لقومه ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بطريق الإنكار والتوبيخ أي أتفعلون تلك الفعلة، المتناهية في القبح، وهي اللواط؟ ﴿مَا

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٧٠ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٨٠ وتتمة الحديث: «ثم قنَّع رأسَه وأسرعَ السيرَ حتى جاز الوادي».

﴿سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ أي ما عمل قبلكم أحد مثل هذا المنكر الشنيع، فإن مباشرة القبيح قبيح، واختراعه أقبح، وهو أمر مستقذر، تعافه طباع الحيوانات، قال عَمْرو بنُ دينار: «ما نَزَا ذكَرٌ على ذَكَر قبل قوم لوط[1]».

يعني أنهم أول من اخترع وابتكر هذه الفعلة الشنيعة، وهي إتيان الذكور في أدبارهم.

ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ لتأكيد الإنكار، وفي زيادة إنَّ، واللام، مزيد توبيخ، كأن ذلك أمر لا يتحقق من البشر، وفي إيراد لفظ ﴿الرِّجَالَ﴾ دون الغلمان مبالغة في التوبيخ، والإتيان كناية عن الاستمتاع، الذي عُهد بين الزوجين ﴿شَهۡوَةٗ﴾ أي لأجل الاشتهاء لا غير، وفي التقييد بها، بيان لخروجهم عن مقتضى الفطرة، ولا ذَمَّ أعظمُ منه، لأنه وصفٌ لهم بالبهيمة، وتنبيه على أن العاقل، ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة، طلب الولد، لا قضاء الشهوة فقط، وعمل تلك الفعلة القذرة الخبيثة ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ أي متجاوزين النساء، اللاتي هن أماكن الاشتهاء عند ذوي الطباع السليمة، كما يؤذن به قوله سبحانه ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي عادتكم الإسراف في كل شيء، وتجاوز الحدود فيها، فلهذا أقدمتم على هذه الرذيلة القبيحة.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي المستكبرين منهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ إلا قول بعضِهم لبعض مستخفّين بنبيهم والمؤمنين ﴿أَخۡرِجُوهُم﴾ أي لوطاً ومن معه من المؤمنين ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ أي من بلدتكم ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ مقصود الأشقياء الاستهزاء والسخرية بلوط ومن معه، وبتطهرهم من الفواحش وتباعدهم عنها، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم أخرجوه عنا وأريحونا من هذا المتزهد.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٤٠ ونقل عن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قوله: «لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ قصَّ علينا خبرَ قوم لوط، ما ظننتُ أنَّ ذَكَراً يعلو ذَكَراً».

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي المؤمنين منهم، وأتباعه من المؤمنين، سواء كانوا من ذوي قرابته أم لا ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تُسِرُّ بالكفر ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي نوعاً عجيباً من المطر، بمعنى أرسلنا عليهم إرسال المطر، وهي حجارة من سجيل كما قال سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[1] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ خطاب لكل من يأتي منه التأمل والنظر، تعجيباً من حالهم، وتحذيراً عن أعمالهم، وقد مكث لوط عليه السلام فيهم ثلاثين سنة، يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم فلم يجيبوه، وروي عن الزهري لمّا عذِّب قومه، لحق لوط بإبراهيم عليه السلام، وفي هذه الآيات دليل على أن اللواطة من أعظم الفواحش. أخرج البيهقي عن أبي هريرة وصححه الحاكم عن النبي ﷺ قال: «لعن الله تعالى سبعةً من خلقه، فردَّد لعنة على واحد منها ثلاثاً، فقال: ملعونٌ، ملعونٌ، ملعونٌ، من عَمِلَ عَمَل قوم لوط..»[2] الحديث.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين ابن إبراهيم،

(١) سورة هود، آية: ٨٢.
(٢) أخرجه البيهقي والحاكم وصححه، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

واختلفوا في مدين، فقيل: إنه اسم البلد، وقيل: إنه اسم القبيلة وقيل هو اسم لماء كانوا عليه ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي من النسب، وشعيب عليه السلام أُعطي قوة البيان والحجة، ولهذا قال ابن عباس: كان إذا ذكر شعيب يقول ﷺ: «ذلك خطيب الأنبياء»[1] . ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المراد من البينة ههنا: المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، فهذه الآية دلت على أنها حصلت له، ودالة على صدقه، فأما تلك المعجزة ما هي؟ فليس في القرآن دلالة عليها، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي، توجب عليكم الإيمان بها، والأخذ بما أمرتكم به ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي المكيال كما وقع في سورة هود، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَالمِيزَانَ﴾ فإن المتبادر منه الآلة، بدأ تعالى بالتوحيد لأنه أساس العقيدة، وقفى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والوزن، لأن سنة الأنبياء إذا رأوا قومهم على نوع من أنواع المفاسد، بدؤوا بمنعهم عنه، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي ولا تنقصوا الناس حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم، تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير، والقليل والكثير، والبخس من خساسة النفس، ودناءة الهمة، ومتابعة الهوى والظلم، فالله تعالى يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم، وهذا يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري، والعدوان على الأنفس، والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياءُ بالشرائع والأحكام ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من الوفاء، وترك البخس والإفساد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه من الكفر والظلم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لي في قولي.

---

(١) أخرجه ابن عساكر وذكره ابن كثير ٢/ ٤٧٤ عن الثوري أنه يقال له خطيب الأنبياء.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ أي طريق من الطرق الحسيّة ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ تخوّفون من آمن بالقتل. روي عن ابن عباس أنهم كانوا يقعدون على الطريق، يخوّفون الناس أن يأتوا شعيباً، ويقولون لهم: إنه كذّابٌ فلا يفتنكم عن دينكم ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي الطريق الموصلة إليه سبحانه وهي الإيمان ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي بالله تعالى ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي تطلبون لسبيل الله الاعوجاج والانحراف، بإلقاء الشُّبَه، والتشويه لمحاسن الدين ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا ﴾ أي وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ فوفَّر عددكم بالبركة في النسل، وكنتم فقراء فجعلكم موسرين، وكنتم أذلة فأعزكم وقوّاكم، فاشكروا الله تعالى بعبادته واتباع رسوله، وترك الفساد ﴿ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ من الأمم الماضية كقوم نوح، وهود، ولوط، واعتبروا بهم، واحذروا من سلوك مسالكهم.

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ ﴾ أي انتظروا، وفيه تهديد ووعيد ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ بحكمه العادل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ إذ لا معقب لحكمه، ولا حيف فيه ولا ظلم(١).

---

(١) قال أبو حيان: وهذا الكلام من أحسن ما تلطَّف به في المحاورة، إذ أبرزَ المتحقق في صورة المشكوك، وهو من بارع التقسيم، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار.

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ أي قال المستكبرون، البالغون من العتو والجبروت أقصاه، وهم أشراف القوم وقادتهم ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ أي والله لنخرجنك وأتباعك من بلدتنا، بغضاً لكم، ودفعاً لفتنتكم، وكراهيةً لجواركم ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ أي ترجعون إلى ديننا وتصبحون مثلنا ﴿ قَالَ ﴾ شعيب رداً لمقالتهم الباطلة وتكذيباً لهم في أيمانهم الفاجرة ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أي أتجبروننا وتكرهوننا على العودة في دينكم، ولو كنا كارهين لملتكم؟ وهو استفهام يُراد منه الإنكار على سوء صنيعهم القبيح، حيث يريدون إكراههم على الكفر.

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ يقولون: إن عدنا إلى دينكم الأعوج، واتبعنا ما أنتم عليه من الباطل، بعد إذْ أنقذنا الله منه بالإيمان، نكون قد اختلقنا وافترينا على الله أعظم أنواع الكذب!! وهذا تيئيسٌ للكفار من العودة إلى دينهم ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ أي ما يصحُّ ولا ينبغي ولا يستقيم، أن نرجع إلى ملتكم ودينكم، في حالٍ من الأحوال، إلاّ إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان، فيمضي فينا قضاؤه. أرادوا بذلك حسم طمعهم في العودة إلى دينهم، بالتعليق على مشيئة الله، وهذا ما لا يكون أبداً، لأن الله لا يرضى لعباده الكفر. وهذا شأن المؤمن يردُّ كلَّ شيء إلى مشيئة الله، مع عزمه الجازم بالثبات على الإيمان، ولم يزل الأنبياء والأكابرُ يخافون العاقبة، ألا ترى قول خليل الرحمن عليه السلام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ

نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؟[1] وكان ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلّب القلوب، ثبّتْ قلبي على دينك» ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهو سبحانه يعلم كل حكمة ومصلحة، ومشيئتُه على موجب الحكمة، أي أحاط علمه بكل شيء، مما كان وما يكون، فمحال من لطفه أن يشاء عودنا إلى الكفر ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ التوكل عليه سبحانه: إظهارُ العجز، والاعتمادُ عليه، أي اعتمدنا على الله وحده، وإظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرُّع ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق، ليتميز المحقُّ من المبطل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي خير الحاكمين، لخلوّ حكمك عن الجور والحيف.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي قال أشرافهم بعدما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه في الإيمان، وخافوا أن يؤمن قومهم ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ ودخلتم في دينه، وتركتم دين آبائكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أي مغبونون خاسرون مضيِّعون لسعادتكم، لاستبدالكم الضلالة بالهدى، جعلوا اتباع شعيب على ما هو عليه من الهدى والإيمان، خسارة وشقاوة، ويا لهم من سفهاء!!.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة، وهكذا في سورة العنكبوت وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[2] أي صيحة جبريل عليه السلام

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٥.

(٢) سورة هود، آية: ٩٤.

ولعلها كانت من مبادي الرجفة، فأسند إهلاكهم إلى السبب القريب تارة، وإلى البعيد أخرى ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي في مدينتهم[1].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ أي لم يقيموا في دارهم، وحاصل المعنى: أنهم عوقبوا بتوعدهم السابق لنبيهم بالإخراج، وصاروا هم المخرجين من القرية، إخراجاً لا دخول بعده، دون شعيب عليه السلام ومن معه، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي الذين كذبوه عوقبوا بقولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبَاً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ فصاروا هم الخاسرين، لا المتبعون له.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ﴾ قاله عليه السلام بعدما هلكوا تأسفاً عليهم، ثم أنكر على نفسه ذلك، فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؟ آسى: بمعنى أحزن، والمعنى: لقد أعذرتُ لكم في الإبلاغ والنصيحة، والتحذير، مما حلَّ بكم، فلم تسمعوا قولي، ولم تصدّقوني، فكيف أحزن عليكم؟ أي لا آسى عليكم، لأنكم لستم أحقاء بالأسى والتفجع. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ قَومٍ﴾ دون قوله: عليكم، وبإقامة الظاهر مقام الضمير، للإشعار بعدم استحقاقهم التأسف عليهم، لكفرهم وتماديهم في الضلال، كأنهم ليسوا قومه!؟ ثم إن شعيباً عليه السلام بعد هلاك قومه، نزل مع المؤمنين بمكة حتى ماتوا هناك.

ثم ذكر تعالى سنته الإلهية، في الانتقام ممن كفر به، وكذّب رسله، وعاقبة الطغاة المجرمين، بالاستدراج لهم من الشدة إلى الرخاء، ومن الفقر إلى الغنى، فقال سبحانه:

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٤٢: وقد اجتمع لهم أنواع العقوبة: الرجفةُ، والصيحةُ، وعذابُ يوم الظُّلَّة، وهي سحابة أظلّتهم، فيها شررٌ من نار ولهب، ووهجٌ عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفةٌ من الأرض شديدة، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: وما أرسلنا في قرية من نبيّ، فكذّبه أهلها، إلاّ أخذنا أصحابها، وعاقبناهم بالبؤس والفقر، والجوع والمرض، وأنواع البلايا والنكبات ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا، ويلجؤوا إلى ربهم، ويتوبوا من ذنوبهم!!.

﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ ﴾ أي ثم أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنةِ، والفقرِ والمرضِ: الرخاءَ والسَّعَة، والغنى والصِّحَة، ابتلاءً لهم بالأمرين ﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ أي حتى كثروا ونَموْا، وأبطرتهم النعمة، يُقال: عفا النباتُ إذا كثُر ونما ﴿ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ أي قالوا كفراناً للنعمة: هذه عادة الدهر، وقد أصاب آباءنا مثل ذلك من البلايا والمصائب، فلا ينبغي لنا أن ننكره، وليست هذه بعقوبة من الله لنا، فكما أن آباءنا قد ثبتوا على دينهم، ولم ينتقلوا عنه، مع ما أصابهم، فاثبتوا أنتم على دينكم ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ ﴾ أي فجأة ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ بذلك، ولا يخطر ببالهم شيءٌ من المكاره، والأخذ فجأةً أشدُّ، وحسرته أعظم، لأن المرء إذا رأى مقدمات الابتلاء، يوطّن نفسه عليها، بخلاف حال الفجأة.

﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي القرى المهلكة، الذين كذّبوا رسلهم ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله بدل كفرهم وعصيانهم، معتبرين بما جرى عليهم من السراء والضراء ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ ما حرَّم الله تعالى عليهم ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي لوسَّعنا عليهم الخير، ويسَّرناهُ لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات، والبركةُ: الزيادة والنماء، وبركاتُ السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، والمواشي والأنعام، وكل ذلك بخلق الله تعالى وتدبيره ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ ﴾ أي ولكنْ لم يؤمنوا ولم يتقوا، وقد اكتفى بذكر الأول، لاستلزامه الثاني، وللإشارة إلى أنه أعظم الأمرين ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، وفي الآية إشارة إلى أن الكفاية والسعة في الرزق، من سعادة المرء إذا كان شاكراً، ووبالاً إذا لم يشكر الله تعالى.

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن أهل القرى المكذبون لرسول الله ﷺ ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي ليلاً وقت نومهم وراحتهم، يقال: بات يفعل كذا، إذا فعله ليلاً، والاسمُ البياتُ، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أي وهم في فرشهم لا يشعرون.

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ إنكار بعد إنكار، للمبالغة في التوبيخ، ولم يقصد الترتيب بينهما، فلذا لم يؤت بالفاء ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ أي ضحوة النهار، بعد طلوع الشمس، والضُّحى: امتداد النهار، والضَّحْوةُ مثله، وجمعه ضحى، مثل قرية وقرى ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم، كأنهم يلعبون.

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾؟ مكرُ الله استعارة لاستدراج العبد، وأخذه من حيث لا يحتسب[1] ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الذين خسروا

---

(١) سمَّى تعالى إمهاله لهم، واستدراجه لهم بأنواع النعم مكراً، لأنه في صورة من يمكر بصاحبه، ليوقعه في المهلكة، كما قال سبحانه ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين﴾ فهذا الفعل بالنسبة لله كمال، وهو على الكفار والفجار وبال.

بالكفر وترك النظر والاعتبار، وأضاعوا فطرة الله، التي فطر الناس عليها، قال بعض العلماء: إن الأمن من مكر الله كفرٌ، ومثله اليأسُ من رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[1] وقال بعض المحققين: إن كان في الأمن، اعتقاد أن الله تعالى لا يقدر على الانتقام منه، وكذا إذا كان في اليأس، اعتقاد عدم القدرة على الرحمة، فذلك مما لا ريب في أنه كفر، وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد ولم يكن فيه تهاون، وعدم مبالاة بالله تعالى، فذلك كبيرة، وهو الأظهر، والله أعلم.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ أولم يتبيَّن ويتضح ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ ﴾أي يخلفون من خلا قبلهم، ويرثون ديارهم بعد هلاكهم، والمراد بهم أهل مكة ومن حولها ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ أي من بعد إهلاك أهلها ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بجزاء ذنوبهم، كما أهلكنا من قبلهم؟ ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا نصحاً، نطبع على قلب من لم نرد منه الإيمان، حتى لا يتعظ بأحوال من قبله ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يسمعون سماع تفهم، الوعظ والنصيحة، وأخبار الأمم المهلكة، فضلاً عن التدبر فيها.

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٨٧.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني القرى المارَّ ذكرهم، من قوم نوح، وعاد، وثمود، وأضرابهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي نقصُّ عليك بعض أخبارها، من أنباء الماضين، لتتبيَّن العِبَر، وتعلم المَثُلات التي أوقعها الله بالماضين من المكذبين، مما فيه عظة وتذكير ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ولقد جاءتهم رسلهم الكرام، بالمعجزات الواضحات، والحجج القاطعات، الدالة على صحة رسالتهم ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، ولجُّوا في كفرهم وعنادهم، لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعده، فحالهم واحد في العتوّ والضلال. والغرضُ بيان أنهم استمروا على التكذيب، من لدن مجيء الرسل إليهم، إلى أن ماتوا مصرّين على الكفر والاستهزاء، لا يَرْعوون ولا يتوبون، مع تكرر المواعظ، وتتابع الآيات ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ومثل ذلك الختم الشديد المحكم، على قلوب أولئك الضالين، نطبع على قلوب الكافرين المعاندين، فلا تكاد تؤثر فيهم النُّذُر والآيات.. وفي الآية تحذير للسامعين من كفار مكة الذين كذَّبوا سيد المرسلين، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم من الطغاة المفسدين.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي وما وجدنا لأكثر الخلق من وفاءٍ للعهد، بل إن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم، من الإيمان وتقوى الرحمٰن، بعد إنزال الآيات، ونصب الحجج، كما كانوا إذا وقعوا في ضُرّ وكرب، عاهدوا الله بقولهم: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ...﴾[1].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي وما وجدنا أكثرهم إلاّ عُصاة فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال لأمر الله.

قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه عليهم، هو ما فطرهم عليه،

(١) سورة يونس، آية: ٢٣.

وأخذه عليهم وهم في الأصلاب، أنه ربهم ومليكهم، فخالفوه وعبدوا مع الله غيره، بلا دليل ولا حجة من عقلٍ ولا شرع.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم، رسولنا «موسى بن عمران» بالمعجزات الباهرات، والحجج الساطعات، وهي الآيات التسع الآتي ذكرها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسلناه إلى ملك مصر « فرعون» وأشراف قومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي فكفروا وجحدوا بها ظلماً وعدواناً، وأصلُ الظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه، فلما كفروا بها جعلوا موضع ما يجب من الإيمان الكفر، فقيل ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا بها. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؟ أي فانظر أيها السامع ماذا آل إليه أمر المفسدين الظالمين؟ كيف أغرقناهم أجمعين، فلم نبق منهم أحداً! ووضع ﴿المُفسِدِينَ﴾ موضع ضميرهم، للإيذان بأن الظلم يستلزم الإفساد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦)﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أُجمل ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ أي إليكم، كما يشعر به ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي مالك أمركم.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي جدير بي، وحقٌّ عليَّ أن لا أقول على الله إلا ما هو حق وصدق!! يعني أني رسولٌ، والرسول لا

يقول على الله إلاَّ الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لم يكن هذا القول منه عليه السلام، إثْرَ ما ذكر ههنا، بل بعدما جرى بينهما من المحاورة، المحكية بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى﴾؟ وقوله: ﴿ومَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ وقد طوى ههنا ذكره للإيجاز ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي فخلِّ بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة.

﴿قَالَ﴾ فرعون له ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عند من أرسلك، كما تدَّعيه ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ أي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقُك في دعواك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فإن كونك من جملة المعروفين بالصدق، يقتضي إظهار الآية.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ أي رماها من يده ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ إذا للمفاجأة أي ففاجأ أن صارت حية ضخمة طويلة، والثعبانُ هو الذَّكرُ العظيمُ من الحيَّات، وقال آخرون: إنه الحية مطلقاً، وإيثار الجملة الاسمية، للدلالة على سرعة الانقلاب، قال هنا ﴿ثعبان﴾ وفي آية أخرى وصفها بأنها ﴿جان﴾ والجانُّ الحيةُ الصغيرةُ، والجمعُ بين هذين، بأنها كانت في عظم الجثة كالثعبان، وفي خفة الحركة كالجانّ، وقيل: انقلبت جاناً ثم أصبحت ثعباناً ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر أمره، لا يُشك في كونه ثعباناً، وبذلك تتميز معجزات الأنبياء، عن دجل السحرة.

رُوي أن موسى عليه السلام، لما ألقى العصا، صارت حية عظيمة، فاغرةً فاها، وتوجهت نحو فرعون، فوثب عن سريره هارباً وأحدث، وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها، وأنا أومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها فعادت عصا، والآية من أقوى أدلة جواز انقلاب الشيء عن حقيقته، إذ لو كان تخييلاً لبطل الإعجاز، ولم يكن

لقوله ﴿مُّبِينٌ﴾ معنى، وما حدث إنما كان بفعل الله، ولهذا كانت معجزة.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي أخرجها من جيبه لقوله تعالى: ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أو من تحت إبطه، لقوله سبحانه: ﴿واضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ والجَمعُ بينهما ممكن، لأن الجيب فتحة الصدر ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، فقد كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق، وكان موسى عليه السلام آدم ـ أي أسمر ـ شديد السمرة، فكان إذا أخرجها ظهرت مضيئة كأنها فلقة قمر.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أصحاب مشورته ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في علم السحر، وماهرٌ فيه، قالوه تصديقاً لفرعون، لأن هذا القول بعينه هو قولُ فرعون، كما في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلأ حَوْلَهُ إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ هذا من كلام فرعون، أيَّ تشيرون عليَّ في أمره؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ كأنه اتفقت آراؤهم عليه، فأشاروا على فرعون بذلك، والإرجاءُ: التأخيرُ، أي أخِّره وأخاه، حتى ترىٰ رأيك فيهما، وتتدبر شأنهما ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أرسل رجالاً يحشرون، أي يجمعون إليك السحرة، من جميع مدائن مصر، فإن غلبهم موسى صدَّقناه، وإن غلبوه علمنا أنه ساحر، والمدائن جمع مدينة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي ماهرٍ في السحر، توهَّموا أنهم بالتأخير والتدبير، يغيِّرون شيئاً من التقدير، ولم يعلموا أن الحق غالب.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعدما أرسل إليهم يُجمّعهم من البلدان قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال، ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال، واختلف في عددهم، فعن كعب أنهم اثنا عشر ألفاً، وعن ابن إسحق أنهم كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال عكرمة: كانوا سبعين ألف ساحر[1] ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي السحرة واثقين بغلبتهم ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أي أجرة وعوضاً وجزاء ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ والمقصود من الإخبار إيجاب الأجر واشتراطه، كأنهم قالوا بشرط أن تجعل لنا أجراً كبيراً إن غلبناه.

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً كما تحبون ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي إن لكم لأجراً وإنكم مع ذلك لمن المقربين عندي، وفي ذلك من الترغيب والتحريض ما لا يخفى.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي السحرة ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ ما تلقي أولاً ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ خيّروه مراعاةً للأدب، فكان ذلك سبب إيمانهم، وصاروا من المقربين عند الله، لا عند فرعون[2].

---

(١) ليس في هذه الأقوال سند يوثق به، ولكنهم كانوا جمعاً كبيراً، جاؤوا من أقصى البلاد من مصر لنصرة فرعون، والله أعلم بعددهم!!.

(٢) هذا القول لبعض المفسرين ذكره الزمخشري في الكشاف وغيره، والأظهر ـ والله أعلم ـ أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس، واليقين بالغلبة، وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول الواثق من نفسه: هل أبدأ أنا أولاً أم تبدأ أنت؟.

﴿قَالَ﴾ أي موسى وثوقاً بشأنه ﴿أَلْقُواْ﴾ أنتم ما تلقون أولاً، وثق نبي الله موسى بالحق والغلبة فأعطاهم التقدم، وذلك ليظهر الله أمر نبوته ويقوي يقينه ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ أي فلمَّا ألقوا حبالهم وعصيَّهم، وكان مع كل واحد منهم حبل وعصى ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيَّلوا إليها ما لا حقيقة له، ولذا لم يقل سبحانه «سحروا الناس» فالآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[1] وهذا هو الفرق بين المعجزة، والسحر، لأن السحر قلب الأعين عن إدراك ذلك الشيء، والمعجزة قلب ذلك الشيء حقيقة، كقلب العصا إلى ثعبان، وإخراج الناقة من الحجر الأصم ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيّلوها حياتٍ تسعى، وجاؤوا بسحر عظيم يهابه من رآه، يروى أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً، وخشباً طوالاً، وكانوا قد طلوا تلك الحبال بالزئبق ولوّنوها، وجعلوا داخل العصيِّ زئبقاً أيضاً، ثم ألقوها على الأرض، فلما أثَّر حرُّ الشمس فيها، تحركت والتوى بعضها على بعض، فإذا هي تتحرك تشبه الحيات، وقد ملأت الوادي، ففزع الناس، والسحرُ عند أهل السنة أقسام: منه ما هو تخييل كما هنا في عمل السحرة، ومنه ما له حقيقة وتأثير كما قال سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهما مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[2] وأجمع المسلمون على أنه ليس من السحر، ما يفعله الله تعالى تأييداً لرسله، كقلب العصا إلى ثعبان، وإحياء الموتى، وإنطاق الحجر أو الشجر، وأمثال ذلك من معجزات الرسل الكرام.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ .

---

(١) سورة طه، آية: ٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك لترى العجب العجاب ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي فألقاها فإذا هي تبتلع وتزدرد ما صوّروه من الإفك والكذب.

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره، وبطل إفك السحرة وكذبهم، وسعي فرعون وشيعته.

﴿ فَغُلِبُوا۟ ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المجمع العظيم ﴿ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، والضمير لفرعون وقومه.

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ أي جعلهم ما شاهدوه خارين على وجوههم، تنبيهاً على أن الحق بهرهم، واضطرهم إلى السجود، بحيث لم يبق لهم تمالك، فكأن أحداً دفعهم وألقاهم، يروى أن الاجتماع كان بالاسكندرية، وأن الحية فتحت فاها فابتعلت ما صنعوا واحداً بعد واحد، وقصدت الناس ففزعوا، ووقع الزحام، ثم أخذها موسى فعادت في يده عصا كما كانت، فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه معجزة، وليس من السحر، فعند ذلك خرُّوا سجداً لله رب العالمين.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ يعني أنهم خروا ساجدين معلنين إيمانهم قائلين ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي آمنا بالله الواحد الأحد، مالك الملك رب العالمين.

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ بدل مما قبل، أبدلوا لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون، وأكدوا ذلك بذكر هارون مع موسى، قال قتادة: كانوا أول النهار سَحَرة كَفَرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي قال فرعون موبخاً ومتوعداً للسحرة: آمنتم بموسى ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ أي قبل أن آمركم أنا بذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما صنعتموه ﴿لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ﴾ لحيلة احتلتموها أنتم وموسى، وهذا تمويه من فرعون على القبط، يريهم أنهم ما غُلبوا، وإنما تآمروا عليه ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يعني في مصر، قبل أن تخرجوا إلى الميعاد ﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ أي القبط، وتخلص لكم ولبني إسرائيل، خاف فرعون أن يصير إيمان السحرة، حجةً عند قومه، فألقى هاتين الشبهتين على أسماع عوام القبط، تثبيتاً لهم على ما هم عليه، وتهييجاً لعداوتهم لموسى عليه السلام، ثم عقَّب بالوعيد ليريهم أن له قوة، فقال: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهذا وعيد ساقه بالإجمال للتهويل، ثم عقَّبه بالتفصيل فقال:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ أي من كل جانب عضواً كاليد من جانب والرجل من آخر[1] ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم، والتصليبُ: مأخوذ من الصلب، وهو الشدُّ والربط بعد القتل على شجرة أو عمود. أياماً أو شهوراً، ليكون زجراً للآخرين.

﴿قَالُوٓاْ﴾ ثابتين على الإيمان ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي إننا جميعاً إلى ربنا راجعون، فيحكم بيننا وبينك.

إلى دَيّان يوم الدِّينِ نَمضِي وعندَ الله تَجْتَمِعُ الخُصُومُ

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تُنكر منا؟ وما تعيب علينا ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ﴾ وذلك أصلُ المفاخر، وأعظم المحاسن، ليس نتخلى عنه طلباً لمرضاتك، ثم أعرضوا عن مخاطبة فرعون وفزعوا إلى الله عز وجل فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي أفضْ علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب

(١) قال الطبري ١٣/ ٣٤: ومعنى ﴿من خلاف﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع.

فرعون لنا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، روي أن فرعون بعدما رأى ذلك خاف من موسى أشد الخوف، فلذلك لم يتعرض له بسوء.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ مخاطبين له بعدما شاهدوا ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ أي أتتركه ﴿وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر، والمراد بالإفساد، دعوة الناس إلى دين موسى والخروج على فرعون، روي عن ابن عباس قال: لمَّا آمنت السحرة، اتَّبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ﴿وَيَذَرَكَ﴾ أي يتركك ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ معبوداتك، قيل كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1] ﴿قَالَ﴾ مجيباً لهم ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل، ليعلم أنَّا على ما نحن عليه من القهر والغلبة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي غالبون كما كنا، لم يتغير حالنا، وهم مقهورون تحت أيدينا، ولم يذكر حقيقة الحال، وهو كونه خائفاً من موسى.

---

(١) ذكر المفسرون أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة تُعبد، من بقرٍ وأصنام وغير ذلك، وجعل نفسه الإله الأعلى ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وكان هو يعبد البقر، وروي عن ابن عباس أن فرعون كان يُعْبَد ولا يَعْبُد، وكان يقرأ ﴿وإلاَهَتَكَ﴾ أي يترك عبادتك والتذلل لك.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ تسليةً لهم، وعدةً بحسن العاقبة، حين سمعوا قول فرعون، وتضجّروا منه، تسكيناً لهم ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلة، وعلى ما نالكم من المكاره ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ ﴾ أي الأرض كلها لله ﴿ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني أنه ليس الأمر كما قال فرعون، فإن القهر والغلبة لمن صبر، واستعان بالله، والعاقبةُ للمتقين أي الظفر والنَّصْرُ لمن اتقى الله تعالى.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ أُوذِينَا ﴾ من جهة فرعون ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي رسولاً، يعنون به ما توعَّدهم فرعون به من إعادة قتل الأولاد، وسائر ما يفعل بهم، وذلك اشتكاء من فرعون لا أنهم كرهوا مجيئه، لأن ذلك كفر ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لما رأى شدَّة جزعهم، مسلّياً لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الذي فعل بكم ما فعل، وتوعَّدكم بما توعَّد ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ ﴾ أي يجعلكم خلفاء ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أرضهم بعد هلاكهم ﴿ فَيَنظُرَ ﴾ أي يرى ويعلم ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ من الإصلاح والإفساد، ليجازيكم على حسب ما يوجبه عملكم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود وإيذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك، بل رتب أسباب هلاكهم من حال إلى حال، إلى أن حلَّ بهم عذاب الاستئصال، والمرادُ بآل فرعون: أتباعُه ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾ جمع سَنَة، والمراد به عامُ القحط والجدب، والمعنى: ولقد أخذنا قوم فرعون بالجدب والقحط، سنةً بعد سنة ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

بإصابة العاهات زيادة في القحط ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لكي ينتبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا وينزجروا، عمَّا هم عليه من العتوّ، والظلم والفساد، فيفزعوا إلى الله، ويرغبوا في فعل الخير، لأن أحوال الشدة ترقّق القلوب، وترغِّب فيما عند الله، كذلك الشدائد والمصائب موجبات للانتباه والاعتبار، لكنْ لأهل السعادة وأولي الأبصار، فأما أهل الشقاوة فلا ينبههم كثرة النعمة، ولا ترقّقهم شدَّةُ النقمة.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الحسنة: أي السَّعة والخِصْبُ ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي لأجلنا، ونحن مستحقوها، ولم يَرَوْا ذلك من فضل الله تعالى عليهم ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء وما يكرهون في أنفسهم ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يتشاءموا بهم، ويقولوا ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم، وهذا شاهد بكمال قساوة قلوبهم، والتطيُّرُ: التشاؤم، والاسم منه طِيَرة، واشتقاقه من الطير، والأصل في هذا أن العرب كانوا يتفاءلون بالطير، فإن خرج أحدهم لمقصده، ورأى الطير من ناحية يمينه، تيمّنَ به، ويُسمى سانحاً، ويسير إلى مقصده، وإن أتى من ناحية شماله يتشاءم به، ويسميه بارحاً، فيرجع إلى بيته ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ تصديره بكلمة التنبيه، لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي سبب خيرهم وشرهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى أي في حكمه ومشيئته، المتضمنة للحِكَم، والمصالح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم، للإشعار بأن بعضهم يعلم، ولكن لا يعمل بمقتضى علمه، عناداً واستكباراً.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ
لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم
بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي قوم فرعون بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا، والسنين، ونقص الثمرات ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ تحضره لدينا وتأتينا به﴿ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ سمّوها آية لتسمية موسى عليه السلام، لا لاعتقادهم، أو قصدوا بذلك الاستهزاء، ولذلك قالوا ﴿ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ أي لتسحر بها أعيننا، ولتصرفنا عما نحن عليه من الدين، وهذا يدل على كمال الطغيان والجبروت ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدّقين لك، ومؤمنين بنبوّتك أصلاً، وكان موسى عليه السلام حديداً، ومستجاب الدعوة، فدعا عليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، ولهذا جاء العقاب سريعاً، قال تعالى مبيناً ما أصابهم من البلاء.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ عقوبةً لجرائمهم، والطُّوفانُ: اسم لكل شيءٍ يحيط بالجهات ويعمُّ، كالماء الكثير، والقتل الذريع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء، وجاء تفسيره بذلك، عن ابن عباس، روي أن الطوفان دام سبعة أيام، فقالوا لموسى: ادع لنا يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم، فنبت من العشب ما لم يعهد مثلُه، قالوا: هذا لنا نعمة، فلا والله لا نؤمن لك يا موسى، فنقضوا العهد، فبعث الله تعالى عليهم الجراد ﴿ وَٱلْجَرَادَ ﴾ وهو المعروف، سُمي جراداً لجرده ما على الأرض، وهو جند من جنود الله تعالى، يسلطه على من يشاء من عباده، روي عن سلمان الفارسي قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الجراد، فقال: أكثرُ جنودِ الله تعالى، لا آكلُه، ولا أحرِّمه»[1] روي أن الجراد أكلت، زروعهم وثمارهم، وعشبهم، فعجُّوا وضجُّوا، وقالوا لموسى: ادع لنا ربك لئن كشف الله عنا هذا لنؤمننَّ لك وأعطوه عهداً، فدعا ربه فكشف الله عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يفوا ما عاهدوا عليه، ثم بعث الله تعالى عليهم القُمَّل ﴿ وَٱلْقُمَّلَ ﴾ بضم القاف، وتشديد الميم: هو السُّوس أو

(١) أخرجه أبو داود في الأطعمة رقم ٣٨١٣، وابن ماجه في أبواب الصيد رقم ٣٢٥٨.

القملُ نفسه الذي يلحق البدن، والبراغيث، كذلك قيل: ولم يُصابوا ببلاء، كان أشدَّ عليهم من القمَّل، أخذ أشعارهم، ولزم جلودهم، ومنعهم النوم والقرار، فصرخوا بموسى: إنا نتوب فادع لنا ربك!! فدعا فرفع الله عنهم ذلك البلاء، فنكثوا العهد، فأرسل الله عليهم الضفادع، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ جمع ضِفْدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم، وكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم، وإذا همَّ الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه، وجعلت الضفادع تقذف أنفسها بالقدور وهي تغلي، فقالوا: ادع لنا ربك في كشف هذا، فدعا فكشف عنهم، فرجعوا إلى كفرهم وطغيانهم، فبعث الله عليهم الدم ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي صارت مياههم دماً، فما يستقون من بئرٍ ولا نهر، إلا وجدوه دماً ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي علامات ظاهرات، فيها عِبَرٌ وعظات، تدل على انتقام الله منهم. وكانت الآيات تأتي على فترات، تمكث فيهم من السبت إلى السبت، ثم ترتفع عنهم شهراً كما رُوي عن ابن جريج، ومع ذلك استكبروا عن الإيمان، وطاعة الرحمن، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي استكبروا عن الإيمان، وكانوا مصرِّين على الإجرام، فلم تنفعهم تلك الزواجر والقوارع، وهذا يشير إلى طغيانهم وعتوهم، وإغراقهم في الضلال والطغيان.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي وحين نزل بهم ذلك العذاب المذكور، المفصَّل في الآيات المتقدمة ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء، بحق ما أكرمك به من النبوة، والمراد استعطافه ليدعو لهم بكشف البلاء، ثم قالوا مؤكدين الوعد ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أقسمنا لك بعهد الله، لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن ولنرسلن معك أتباعك من بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي هم واصلون إليه ولا بد، وهو وقت الغرق، والمراد أنجيناهم من العذاب إلى ذلك الوقت ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب لمَّا أي فلما كشفنا

عنهم ذلك البلاء، فاجأوا النكث من غير تأمل، ونكثُ العهد: نقضُه، وأصل النكث فلُّ طاقات الصوف المغزول، فاستعير لنقض العهد بعد إبرامه.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾أي فأردنا أن ننتقم منهم، لِمَا أسلفوا من المعاصي والجرائم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي البحر العميق الذي لا يدرك قعره ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تعليل للإغراق، يعني أن سبب الإغراق هو التكذيب بالآيات، والإعراض عنها، وعدم الإذعان والقبول لدعوة موسى عليه السلام ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي لا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالاً، فلذلك كان الهلاك لهم بالإغراق.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستعباد، وذبح الأبناء، واستخدام النساء، وهم بنو إسرائيل، ذكروا بهذا العنوان، إظهاراً لكمال لطفه إليهم، في رفعهم من حضيض المذلة، إلى أوج العزة والسيادة، وفي الآية إشارة، إلى أن فضل الله سبحانه عند القلوب المنكسرة ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ يعني أرض الشام التي بارك الله فيها، والأرض المقدسة التي طلب موسى من فرعون أن يرسلهم معه ليذهب بهم إليها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وبكونها مساكن الأنبياء عليهم السلام، والأحاديث في فضل الشام كثيرة، منها قوله ﷺ: «طوبى للشام فقيل له ولم قال: إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»[1] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٩٤٩ ولفظه عن زيد بن ثابت أن رسول =

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ والمعنى: مضى واستمر عليهم ما كان مقدَّراً من إهلاك عدوهم، وتوريثهم الأرض، والحسنى تأنيث الأحسن، وصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يستحسنونه ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بسبب صبرهم على الشدائد، التي كابدوها من جهة فرعون وقومه، وحسبك بهذا تنويهاً على فضيلة الصبر، وإشارة إلى أن من قابل البلاء بالجزَعَ، وَكَلَه الله تعالى إليه، ومن قابله بالصبر، ضمن الله تعالى له الفرج ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي خرَّبنا وأهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ أي دمرنا الذي كان يصنعه فرعون، في أرض مصر، من العمارات والقصور ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروع في قصة بني إسرائيل، وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة، بعد أن أنقذهم الله عزَّ وجل من استعباد فرعون، ومنَّ عليهم من النعم العظام، الموجبة للشكر، تسليةً لرسول الله ﷺ عما رآه من اليهود بالمدينة، فإنهم جَرَوْا معه على دأب أسلافهم، مع موسى عليه السلام، وجَاوَزَ بمعنى: جاز، أي قطعنا البحر بهم، رُوي أنَّ موسى عليه السلام عَبَر بهم يوم عاشوراء، فصامُوا شكراً لله تعالى ﴿فَأَتَوْا۟﴾ أي مرُّوا بعد المجاوزة ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من العمالقة ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أي يواظبون على عبادتها ويسجدون لها، ويعبدونها من دون

= الله ﷺ قال: «طوبى للشام، فقلت: لمَ ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها».

الله ﴿قَالُوا﴾ أي قال بنو إسرائيل عندما شاهدوا ذلك ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أصنام يعبدونها، وهذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل، فلذلك ردَّ موسى عليهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم هذا، إثر ما شاهدوا من الآيات الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكّده بإنَّ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع!!.

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مكسَّر، مدمَّر، وهالك ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من الدين، يعني يدمر الله تعالى دينهم الذي هم عليه على يدي، ويجعلها فتاتاً ﴿وَبَـٰطِلٌ﴾ مضمحل بالكلية ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ماستمروا على عبادتها وإن قصدوا بذلك التقرب إلى الله تعالى، لأنه كفر محض، وإنما بالغ فيه بالمؤكدات، تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا﴾ أأطلب لكم معبوداً غير الله؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً؟ ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم، حيث قابلوا تخصيص الله إياهم عن أمثالهم، بأن قصدوا أن يشركوا به أخسَّ شيء من مخلوقاته، تباً لهم على ما يطلبون.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تذكيرٌ لهم من جهته تعالى، بنعمة الإنجاء من فرعون الطاغية الجبار، والفائدة في ذكرها في هذا الموضع التنبيهُ على أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة، فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره؟ حتى تقولوا: (اجعل لنا إلٰهاً)؟.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ أي وعدناه لإعطاء التوراة، والمناجاة، روي أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر، أن يأتيهم بكتاب من الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلمَّا هلك فرعون، سأل موسى ربه، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، فذلك قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ والعرب في أغلب تواريخها تذكر الليالي، لأن الليل هو الأصل، والنهار عارض، ولأن الليل غرر الشهور، فأمره أن يصوم ثلاثين، وهو شهر ذي القعدة، ويروى عن ابن عباس يرفعه، لمَّا أتى موسى ربَّه عزَّ وجلَّ، وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين، كره أن يكلِّم ربَّه سبحانه وريحُ فمه ريحُ فم الصائم، فتناول من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرتَ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: أي ربِّ كرهتُ أن أكلِّمكَ إلاَّ وفمي طيّبُ الرائحة، قال: أَوَ ما علمتَ يا موسى أنَّ ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟! ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ وهذه العشرة من ذي الحجة، وإنزال التوراة كان في العشر، وكلَّمه ربه فيها ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ تأكيد وإيضاح، أي تمت المدة أربعين ليلة على وجه التمام والكمال ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ حين توجَّه إلى المناجاة، حسبما أمر به ﴿ٱخْلُفْنِى﴾ أي كن خليفتي ﴿فِى قَوْمِى﴾ وراقبهم فيما يأتون ويذرون إلى أن أرجع ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح في أمورهم،

وعن ابن عباس أنه يريد الرفق بهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تتبع من سلك سبيل الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه.

والمقصود من هذا الأمر التأكيد، لأن هارون لم يكن ممن يتَّبع سبيل المفسدين، وذلك أن موسى كان يشاهد كثرة خلاف قومه حالاً بعد حال، فأوصاه في أمرهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتناه له، أي لتمام الأربعين ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير واسطة كما يكلِّم الملائكة، وسماعُ كلامه تعالى ليس من جنس سماع كلام البشر، ولا يشبه كلام المخلوقين، وقد كان هذا خصوصية لموسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿وَكَلَّم الله مُوسَى تَكْلِيماً﴾ ولمَّا سمع موسى كلامه تعالى، طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي أرني ذاتك، وهو محذوف لأنه معلوم، ولم يصرح به تأدباً، أي مكني من رؤيتك، فأنظر إليك وأراك ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ أي لا قابلية لك لرؤيتي، لن تراني بعينٍ فانية ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ استدراك لبيان أنه لا يطيق الرؤية، والمراد من الجبل طور سيناء ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ ولم يفتّته التجلّي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ إذا تجليتُ لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي ظهر له، على الوجه اللائق بجنابه تعالى ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي مدكوكاً متفتتاً، والدكُّ: الدقُّ والانسحاق والتفتُّت، فأصبح الجبل متفتتاً تذروه الرياح. أخرج أحمد والترمذي والحاكم من طرق عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكا﴾ الخ قال: هكذا ـ وأشار بأصبعيه ووضع طرف إبهامه على

أنملة الخنصر ـ فساخ الجبلُ، وخرَّ موسى صعقاً[1]، وهذا من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم، وهو أسلم وأحكم ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ أي سقط من هول ما رآه ﴿صَعِقًا﴾ مغشيّاً عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ بأن عاد إلى ما كان عليه، بعود الفهم والحسّ، والإفاقة: رجوعُ العقل والفهم إلى الإنسان، بعد ذهابهما بسبب من الأسباب ﴿قَالَ﴾ موسى تعظيماً لما رأى ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، وبأنه لا يراك أحد في هذه النشأة، واستدل أهل السنة المجوّزون لرؤيته سبحانه بهذه الآية، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك، وخلاصة الكلام في ذلك، أن أهل السنة قالوا: يدل على إمكان الرؤية من وجهين: **الأول**: أن موسى سألها، ولو كانت مستحيلة فالعاقل ـ فضلاً عن النبي ـ لا يسأل المحال. **والثاني**: أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل، وهو ممكن في نفسه، وما عُلِّق على الممكن ممكن، ولقد تمسك من نفى الرؤية من أهل البدع، والخوارج، والمعتزلة بظاهر هذه الآية، وقالوا: (لن) تكون للتأبيد ولا حجة لهم في ذلك، **قال الواحدي**: كون كلمة (لن) مفيدة لتأبيد النفي دعوى باطلة، ويدل على فساده قوله تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ مع أنهم يتمنونه يوم القيامة، ولأنه لو كان للتأبيد، لكان ذكر الأبد تكراراً.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

---

(1) سنن الترمذي كتاب التفسير ٥/٢٤٨ ومعنى: ساخ الجبلُ أي غاص في الأرض وغاب عنها. وروى الطبري ١٣/٩٧ عن ابن عباس قال: «ما تجلَّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر، فصار تراباً، وخرَّ موسى مغشياً عليه».

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي قال الله عزَّ وجل تسليةً له وتأنيساً: إن منعتك الرؤية، فقد أعطيتك من النعم العظام ما يكفيك، فقد اصطفيتك أي اخترتك وخصصتك على الناس الموجودين في زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ أي بما منحتك من الرسالة الإلهية، وتكليمي لك بدون واسطة، وإنما جمع الرسالة ﴿بِرِسَالاَتِي﴾ لأن ما جاء به من الشريعة ضروب وأنواع، من التذكير والإرشاد، والحلال والحرام، وبيان أنواع المعاملات بين البشر، كما قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلهذا جمعت الرسالات ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي فخذ ما وهبتك من شرف النبوة والتكليم، واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم العظام.

ذكَّره تعالى بنعمه على جهة الإخبار، وقنَّعه بها وأمره بالشكر عليها، وكأنّه يقول له: لا تتعداها إلى غيرها، ولا تطلب ما لا طاقة لك به!!.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي وكتبنا لموسى في الألواح العشر ـ وكانت من زبرجد على ما قال ابن عباس ـ كلَّ شيء ينفع، مما كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم، وكل ما فيه مصلحة لهم ﴿مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي إرشاداً لهم ليتعظوا بها وينزجروا، وتفصيلاً لكل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام. وتقديم الموعظة لأنها الأساس في صلاح الإنسان، فالاهتمام بها أشد، والعناية بها أتمُّ، ألا ترى أن أكثر الفواصل في الكتاب العزيز، جاء على هذا النمط، نحو قوله سبحانه: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ واستمع إلى سورة الرحمن، وقد تكرَّر فيها قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ ثلاثين مرة، وذلك ليألف السامع بها اتعاظاً وادكاراً، ويجد فيها تنبيهاً واعتباراً!!.

﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ على إضمار القول أي وقلنا له خذ ما في الألواح بجدٍّ وعزم، ونشاط واجتهاد، شأن أولي العزم ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ أي وأمرْ بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل، كالأخذ بالعزائم دون

الرُّخَص، فالعفو أفضل من القصاص، والصبرُ أفضل من الانتصار، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1] **قال ابن عباس**: أُمر موسى أن يأخذها بأشدَّ مما أُمر بها قومه. ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيه إلى قومه، حملاً لهم على الجد في الامتثال بما أُمروا به، والرؤية هنا رؤية عينية تتضمن الوعد للمؤمنين، والوعيد للفاسقين، والمراد بدار الفاسقين بلاد مصر، التي كانت تحت سلطان فرعون وزبانيته، والمعنى: سترون منازل الفاسقين ـ فرعون وقومه ـ كيف أقفرت منهم، ودمَّرهم الله لفسقهم وفجورهم، لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم، فإن رؤيتها وهي خالية من أهلها، موجب للاعتبار والانزجار.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ﴾ أي سأمنع وأصدُّ عن فهم آياتي، والتفكر بما فيها من العظات والعبر ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الذين يعدُّون أنفسهم كبراء، ويرون لهم على الخلق مزية، فلا ينتفعون بآيات الله التنزيلية والتكوينية[2] ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي يتكبرون بما ليس بحق، والتكبر بالحق لله وحده، كما في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن

(١) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٢) الصرف عن فهم معاني الآيات جائز، لأنه إنما حدث بسوء اختيارهم، والممنوع إنما هو الجبر كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فمن عمي عن طريق الإيمان أعماه الله بسوء اختياره.

نازعني في واحد منهما قذفته في النار»[1] وأما التكبر على المتكبر فهو بحق، لما في الحكمة المشهورة: «التكبُّرُ على المتكبِّرِ صَدَقةٌ» ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية، أو كل معجزة ربانية ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لتكبرهم وعنادهم، بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ أي طريق الهدى والسَّداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي لا يتوجهون إلى الحق، ولا يسلكون سبيله أصلاً، لاستيلاء الهوى عليهم، وسبيل الرشد: طريقُ الهدى والصلاح ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ أي طريق الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي يختارونه لأنفسهم مسلكاً، لموافقته لأهوائهم الباطلة، وشهواتهم الحيوانية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من تكبرهم وعدم إيمانهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض، لا غفلة سهو وجهل.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، وما وعدهم الله به من الحساب والجزاء ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت فصارت كأن لم تكن، من صلة الأرحام، وإغاثة الملهوفين، ونحو ذلك ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي لا يجزون يوم القيامة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصي.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود بهذا اللفظ في اللباس رقم ٤٠٩٠ ورواه مسلم في كتاب البر والصلة بلفظ «العزُّ إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئاً منهما عذّبته» رقم ٢٦٢٠.

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور لمناجاة ربه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروها من القبط، حين همُّوا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم، وملكوها بعد هلاكهم. المتّخذُ هو السامري، ولكنهم رضوا به، فأسند الفعل إليهم، وكان السامري رجلاً صائغاً، ورجلاً مطاعاً في بني إسرائيل، فصاغ لهم ﴿عِجْلًا﴾ وهو ولد البقرة خاصة، والمفعول الثاني محذوف أي إلّهاً ﴿جَسَدًا﴾ أي بدناً ذا لحم ودم، خالياً من الروح ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ هو صوت البقر خاصة، كالنُباح للكلب، والزئير للأسد، والنهيق للحمار، وقد اتخذه السامري لهم من الحلي، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوارٌ أي صوت كصوت البقر، وقيل: إنَّ السامري صاغه مجوفاً، ووضع في جوفه أنابيب، وجعله في مهب الريح، فكانت الريحُ تدخل في تلك الأنابيب، فيسمع لها صوت يشبه خوار العجل، وكانوا كلما خار سجدوا له، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريع على فرط ضلالتهم، وإخلالهم بالنظر، والمعنى: ألم ير الذين اتخذوا إلّهاً، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كآحاد البشر، حتى عبدوه ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلّهاً، وأقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ أي إن دأبهم وعادتهم الظلم، فليس ببدعٍ منهم هذا المنكر العظيم.

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعضُّ يده غماً، وتقول العرب لكل نادم: سُقط في يده، لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعضَّ يده، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[1] ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل، أي تبينوا

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٧.

وتيقّنوا، حتى كأنهم رأوه بأعينهم ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة المكفّرة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن خطيئاتنا، واللام في ﴿لَئِن﴾ موطئة للقسم، أي والله لئن لم يرحمنا ربنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة، وما حكي عنهم من الندامة والأسى إنما كان بعدما رجع موسى عليه السلام، كما تنطق به آية طه، لكنْ أُريد بتقديمه عليه، ليتصل ما قالوه بما فعلوه.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروع في بيان ما جرى من موسى بعد رجوعه من الميقات ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ الأسِفُ: شديدُ الغضب وقيل الحزينُ، أَسِف أسفاً: حَزِنَ وتلهف فهو أسفٌ، أي ولمَّا عاد من الطور إلى قومه، غضوباً وحزيناً، لأن الله تعالى قد أخبره بما فعلوا، قال الواحدي: إذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبتَ، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنتَ، فعلى هذا كان موسى عليه السلام غضبان على قومه باتخاذهم العجل، حزيناً لأن الله تعالى فتنهم ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي بئس ما فعلتم بعدي، حيث عبدتم العجل، والخطابُ لمن عبد العجل والمخصوص بالذمّ محذوفٌ، تقديره: بئس خلافةً خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى ﴿مِن بَعدِي﴾ أي من بعد انطلاقي وأثناء غيبتي عنكم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار نبيكم موسى؟ رويِ أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ وإن موسى قد مات!! ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي طرحها من شدة الغضب، لفرط حميته

الدينية، وشدة غضبه لله تعالى، ولم يتمالك أو يتماسك نفسه وهم يطوفون حول العجل ويسجدون. رُوي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله تعالى موسى، ليس المُعَايِنُ كالمُخْبَر، أخبره ربُّه تبارك وتعالى أنَّ قومه فُتنوا بعده، فلم يُلق الألواح، فلمَّا رآهم وعاينهم ألقى الألواح، فتكسَّر منها ما تكسر»(١). ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي بشعر رأس هٰرون، لأنه هو الذي يؤخذ ويمسك عادة، ولا ينافي أخذه بلحيته كما وقع في سورة طه فقد جمع بينهما ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ ظناً منه أنه قصَّر في كفِّهم، ولم يتمالك نفسه لشدة غضبه، وهٰرون كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان هيِّناً ليناً، ولم يقصد موسى بهذا إهانته، بل اللوم على التقصير ﴿قَالَ﴾ أي هٰرون مخاطباً لموسى ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم ليرقِّقه عليه، وكانا من أب وأم، وفيه استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي استذلوني وقهروني، ولم يبالوا بي لقلة أنصاري ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ أي قاربوا أو همُّوا أن يقتلوني حين نهيتهم عن ذلك، قاله إزاحةً لتوهم التقصير ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي فلا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم، والمراد من الأعداء القوم المذكورون ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة، أو بنسبة التقصير.

﴿قَالَ﴾ أي فلما اتضح لموسى عذرُ أخيه قال ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما فعلت بأخي قبل جليَّة الحال ﴿وَلِأَخِى﴾ إن فرط منه تقصير، ضمَّه إلى نفسه في الاستغفار ترضيةً له، ودفعاً للشماتة عنه ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام علينا ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأنت أرحم بنا منَّا على أنفسنا، فلا غرو في انتظامنا في سلك رحمتك الواسعة.

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني وأحمد في المسند ١/ ٢١٥.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ ﴾ إلَهاً وعبدوه، واستمروا على عبادته كالسامري وأشياعه ﴿ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ ﴾ عظيم لما أن جريمتهم أعظم الجرائم ﴿ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ أي مالكهم ﴿ وَذِلَّةٞ ﴾ كبيرة ﴿ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ فإن قيل: إنه تعالى بيّن أن القوم ندموا، بقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ والندمُ توبةٌ، فهل قبلَ الله توبتهم؟ والجواب وَرُدَّ بعده قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العجلَ سَيَنَالُهُم غَضَبٌ﴾ لأنهم ما ندموا وإنما خافوا من العقاب، وكان من تمام توبة القوم الأمر لهم بقتل أنفسهم، كما قال سبحانه: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾[1] أي ليقتل البريءُ المجرم. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾ أي إن كل مفتر في دين الله، فجزاؤه غضب الله، والذلةُ في الدنيا، عن مالك بن أنس قال: ما من مبتدع إلا وجد فوق رأسه الذلة، وقرأ هذه الآية.

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا ﴾ أي من بعد عملها ﴿ وَءَامَنُوٓاْ ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً، ولم يصرُّوا على ما فعلوا، بل لزموا فعل الخيرات وعمل الصالحات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة، المقرونة بالإيمان الصحيح، والعمل الصالح ﴿ لَغَفُورٞ ﴾ للذنوب وإن عظمت وكثرت ﴿ رَّحِيمٞ ﴾ مبالغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية، وهذا من أعظم البشارة للمذنبين التائبين.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٥٤.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ شروع في بقية الحكاية، وفي هذا النظم الكريم، من البلاغة والمبالغة ما فيه، فقد شبَّه الغضب بشخص يُرعد ويزمجر، ويريد أن يبطش بخصمه، وصوتُه يرتفع يريد الانتقام، ثم اختفى هذا الصوت وسكت، ففي العبارة استعارة مكنية لطيفة؛ أي ولمَّا سكن غضبه، باعتذار أخيه، وتوبة القوم ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ وفيما نسخ فيها وكُتب ﴿ هُدًى ﴾ بيان للحق عظيم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ جليلة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي للخائفين من ربهم الذين يخشون عقابه.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ أي اختار من قومه، يقال: اختار الشيء إذا أخذ خيره ﴿ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ الميقات الذي وقتناه، بعدما وقع من قومه ما وقع من عبادة العجل. روي أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بأن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه تعالى، ويسألونه التوبة على من عبد منهم العجل، فاختار منهم سبعين رجلاً، وأمرهم أن يتطهروا ويصوموا، ويطهّروا ثيابهم، ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه، فلما دنوا إلى الجبل غشيه الغمام، فأقبلوا إليه فدخل موسى بهم الغمام، وخرُّوا سجداً،

فسمعوا الأمر والنهي، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَىٰ الله جَهْرَةً﴾[1] أي عياناً، وهذا من غطرستهم وطغيانهم ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الصاعقة حيث رجف بهم الجبل فصعقوا وماتوا، فلما رأى موسى ذلك أَسِفَ عليهم، وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعَّب عليه، إذا لم يرجع بالقوم، فجعل يستعطف ربه ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل، إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم؟!.

ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أي لو شئت يا رب أهلكتهم وأهلكتني معهم، قبل أن أرى ما أرى، فإنَّا عبيدك وتحت قهرك، تفعل بنا ما تشاء!! وهذا محضُ استعطاف ورجاء ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل، بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون الجاهلون في قولهم: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾؟ ـ نعوذ بالله من خُبث اليهود ـ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذا إلا ابتلاؤك وامتحانك، تختبر عبادك بما تشاء بالسراء والضراء، و«إن» هنا نافية بمعنى «ما» والمراد بالفتنة الامتحانُ والاختبار، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ أي بالفتنة تضل من علمت منهم اختيارهم للضلالة، وتهدي بها من علمت منهم اختيار الهدى وطريق السلامة ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي أنت القائم بتدبير أمورنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ أي أنت يا رب خير من صفح وستر.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة وعافية وحياة طيبة ﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي واكتب لنا أيضاً في الآخرة حسنة، وهي المثوبة الحسنى،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

والجنة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا وأنبنا إليك، من هادَ إذا رجع والمعنى: إنا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التي جئناك للاعتذار عنها، فبعيدٌ من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تعذيبه وليس لأحد الاعتراض عليَّ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي شأنها أنها واسعة، تبلغ كل شيء، فما من مسلم ولا كافر، ولا مطيع ولا عاص، إلا وهو متقلب في الدنيا بنعمتي، وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع، ونسبة سعة الرحمة بصيغة الماضي، إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي فسأثبتها وأعينها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوي ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الكفر والمعاصي، وفيه تعريض بالقوم، كأنه قيل: لا لقومك لأنهم غير متقين ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصَّها بالذكر تشريفاً لها، ولأنها كانت أشق عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً مستمراً، من غير إخلال بشيء منها، وفيه تعريض بهم أيضاً، لأنهم كفروا بالآيات العظام التي جاء بها موسى عليه السلام.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي أرسله الله تعالى لتبليغ الأحكام ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أي الذي أنبأ الخلق عن الله تعالى التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بالآيات، وضمَّ إلى ذلك اتباع النبي ﷺ وباعتقاد نبوته من حيث وجدوا

صفته في التوراة، والمراد بهم من لحق من بني إسرائيل أيام الرسول ﷺ، فبيّن تعالى أن هؤلاء لا يكتب لهم الرحمة، إلا إذا اتبعوا الرسول ﷺ ﴿ٱلْأُمِّىَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهو نسبة إلى أمة العرب، لأن الغالب عليهم ذلك، أو إلى أمه، كأنه على الحالة التي ولدته أمه، وهو بالنسبة إليه ﷺ صفة مدح، ووصفه بذلك تنبيهاً على أن كمال علمه مع أميته إحدى معجزاته ﷺ ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ باسمه ونعوته الشريفة؛ بحيث لا يشكُّون أنه هو، وأن شأنه ﷺ حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلاً ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ أي في كتبهم السماوية، روي عن عبد الله بن سلام قال: صفة الرسول الله ﷺ في التوراة: «يا أيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكنْ يعفو ويصفحُ، ولن يقبضه الله تعالى، حتى يُقيم به الملَّةَ العوجاء، بأن يقولُوا: «لا إلهَ إلاَّ الله» ويفتح بها أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلوباً غُلْفاً»[1] وجاء من حديث سهل مولى خيثمة قال: «قرأت في الإنجيل نعتَ محمد ﷺ أنه لا قصير، ولا طويل، أبيض ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم، لا يقبل الصَّدقة، ويركب الحمارَ والبعيرَ، وهو من ذرية إسماعيل، اسمه أحمد»[2] وجاء من خبر أخرجه البيهقي عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى أوحى في الزبور، يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي، اسمه أحمد[3]، فالرسول عليه الصلاة والسلام مذكور صفته في الكتب الإلهية، وعلى وجه الخصوص في التوراة والإنجيل، كما جاء في صحيح البخاري في صفة النبي الأمي في التوراة ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المعروفُ: ما استحسنه الشرع، وارتضته العقول

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٥٨٥ قريباً من هذا اللفظ، والرواية المذكورة للبيهقي والدارمي.
(٢) أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن سهل مولى خيثمة.
(٣) أخرجه البيهقي من رواية وهب بن منبه، وهو أثر موقوف.

السليمة، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، لقوله ﷺ «بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»(١) والمنكرُ: ما استقبحه الشرع ولم تقبله العقول السليمة، والمعنى: يأمرهم بكل ما فيه خير ومنفعة لهم، وينهاهم عن كل ما فيه أذى وضرر عليهم ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ المراد بالطيبات الأمور الحلال التي يستطيبها الطبع، وبالخبائث: الأشياء المحرمة التي تستقذرها النفس، كالدم، والخنزير، والعقارب، والخنافس، والحيات، والوزغ، وسائر المستقذرات ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ الإِصْرُ: الثقل والمراد به التكاليف الشاقة الصعبة، والأغلال جمع غُلّ، وأصله الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، والأغلالُ: استعارةٌ عن الأثقال الشاقة التي تشبه الأغلال، والمعنى: يرفع عنهم الأثقال والتكاليف الشاقة التي كانت عليهم، كقطع الجلد والثوب من أثر البول، ووجوب القصاص دون الدية في القتل، وترك الاشتغال يوم السبت، وقد روي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه، وجاءت الشريعة الإسلامية برفع جميع تلك الأثقال كما قال ﷺ: «بُعثت بالحنيفيَّة السهلة السمحة»(٢) ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي فالذين صدقوه وآمنوا برسالته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي قاموا بنصرته على أعداء الدين، وناصروه على جميع من عاداه ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي اتبعوا القرآن المجيد، والشرع الحنيف الذي جاءهم به من عند الله، شبَّه الشرع والهدى بالنور، إذ القلوبُ تستضيء به كما يستضيء البصر بالنور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات الفاضلة، هم الفائزون بالرحمة الأبدية، الناجون من الشدائد والكربات يوم القيامة، ومعنى الفلاح: النجاح والفوز بالمحبوب.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ بلفظ «بعثت لأتمم حُسْن الأخلاق».

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ إلى جميع الخلق، لأن الخطاب عام لجميع الناس، أي قل يا رسول الله: إني رسول من عند الله بعثني الله إليكم جميعاً، فشرعي واضح، ورسالتي عامة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ روى الشيخان عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت ليَ الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»[1]. ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي المالك لجميع الكائنات، مالك السموات والأرض بالخلق والإبداع، والإحياء والإماتة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا إله غيره، ولا معبود بحقٍ سواه ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية، إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره، فهو القادر على إرسال الرسل إلى خلقه ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فصدقوا بالله وآياته، وصدّقوا برسوله، المبعوث إلى جميع خلقه، وذكر الرسول ﷺ بعنوان الرسالة، للمبالغة في إيجاب الامتثال، ووصفُه بقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ لمدحه ولزيادة تقرير أمره، أي النبي الأمي، صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي بما أنزل عليه وعلى سائر الرسل

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التيمم ١/٣٦٩ ومسلم في المساجد رقم ٥٢١ والنسائي ١/٢١٠.

عليهم السلام، من كتبه ووحيه، المصدّق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء، والتصريح بالإيمان بالله تعالى، للتنبيه على أن الإيمان به سبحانه لا يصح حتى يؤمن الإنسان بجميع كتب الله ورسله، وإلاَّ لم ينفع صاحبه شيئاً، والدين كلٌّ لا يتجزأ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي رجاءَ لاهتدائكم إلى المطلوب، وفي تعليقه بهما، إيذانٌ بأن من صدَّقه ولم يستمسك بالتزام أحكام شريعته، فهو بمعزل من الاهتداء، مستمر على الغي والضلالة.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبسين به، أو يهدونهم بكلمة الحق ﴿وَبِهِۦ﴾ أي وبالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام الجارية فيما بينهم، والمراد بهم الثابتون على الإيمان، القائمون بالحق، من أهل زمانه، ذكَرَهم تعالى تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر، وتزاحم أهل الحق والباطل، أمر مستمر، فمن قوم موسى أناس مهتدون، وأناس ضالون، والكلام مسوقٌ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص الرحمة والتقوى، بمتَّبعي رسول الله ﷺ، من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أي وصيَّرناهم قِطَعاً، متميزاً بعضهم من بعض أي قوم موسى ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي صيرناهم اثنتي عشرة قطعة، وكل سبط أمةٌ عظيمة، وكل واحدة كانت قبائل شتى، والسبط في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل، وفرَّقهم كذلك ليرجع أمر كل قبيلة إلى رئيسهم، ليخفّ أمرهم على موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي وأوحينا إلى موسى حين استولى على قومه العطش في التيه، أن يضرب الحجرَ بعصاه فضربه، فانبجست أي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط والقبائل، لئلا يقتتلوا على الماء ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي علمت كل جماعة وكل قبيلة منهم عينهم الخاصة بهم، وهذه إحدى معجزات موسى عليه السلام، حيث تفجرت من الحجر الأصم، عيون الماء الدافق، كما نبع الماء من بين أصابع نبينا المصطفى ﷺ معجزة له ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلنا الغمام يسترهم من حر الشمس وهم في الصحراء، ويقيهم من أذاها، ويسير معهم حيث ساروا ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي وأكرمناهم برزق هنيءٍ شهي، من عندنا تكرماً عليهم، وهو «المنُّ» شيء حلوٌ لذيذٌ ينزل على الشجر، فيجمعونه ويأكلونه، و«السلوى» وهو طير لذيذ اللحم، يسمى «طير السُمَّاني» دون كدٍّ منهم ولا تعب، فطعامهم الحلوى ولحم الطير ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ على إضمار القول، أي وقلنا لهم: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ، الذي أكرمناكم به من فضلنا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فكفروا بهذه النعم الجليلة، وما ظلمونا بذلك، ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرَّضوها بالكفر والجحود، لعذاب الله عزَّ وجل، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي واذكر يا أيها الرسول حين قلنا لأسلافهم: اسكنوا هذه البلدة المباركة «بيت المقدس» الذي باركنا

حوله بأنواع الخيرات والبركات ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي وكلوا من مطاعمها وخيراتها وثمارها من أي جهةٍ ومكانٍ شئتم، وكلوا مما تشتهون من خيراتها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي قولوا حين دخولكم بيت المقدس تائبين مستغفرين: اللهم حطَّ عنا ذنوبنا، وهي كلمة استغفار، كما يقول المؤمن: أستغفر الله العظيم ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب بيت المقدس، حال كونكم ساجدين شكراً لله تعالى ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي نعفو عن جميع ذنوبكم، وسيئاتكم التي اقترفتموها، ونمحو عنكم الخطايا والآثام ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وسنزيد المحسنين الذين أحسنوا عملهم، بطاعة الله، وامتثال أوامره، سنزيدهم من فضلنا فوق الغفران دخول الجنان.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي فغيَّر الظالمون منهم أمر الله، وقالوا كلاماً لا يليق، حيث قالوا بدل «حطة» حنطة في شعيرة، وعوضاً عن أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله، دخلوا يزحفون على أدبارهم، سخرية واستهزاءً بأمر الله. روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ﴿وَادخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغفِر لَكُم خَطِيئَاتِكُم﴾ فبدَّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم ـ أي مقاعدهم ـ وقالوا: حبةٌ في شَعْرة»[1].

والحاصل: أنهم خالفوا ما أُمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا بالسجود عند دخولهم البلدة المقدسة، شكراً لله تعالى، وأن يقولوا: حطة، فبدَّلوا السجود بالزحف، وقالوا: «حنطة» بدل حطة استهزاءً، وزادوا فيها حبة في شعيرة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي فأرسلنا على هؤلاء الظالمين عذاباً هائلاً ـ وهو الطاعون ـ بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر، وقد روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً منهم بالطاعون.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٠٤ من فتح الباري.

﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ ﴾.

﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك، سؤال تقريع وتوبيخ[1]، والمراد إعلامهم بذلك، لأنهم كانوا يخفونه، والإعلام بما هو من علومهم، التي لا تعلم إلاّ بتعليم، أو وحي، لتكون لك معجزةً عليهم ﴿عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ عن خبرها، وما جرى على أهلها، وهي عند ابن عباس «أيلة» بين مدين والطور، وعن ابن شهاب هي طبرية ﴿ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ قريبة منه ﴿ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ يتجاوزون حدود الله، بالصيد يوم السبت، وقد نُهوا عنه ﴿ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ ﴾ حيتان جمع حوت، أي حين تأتيهم الأسماك يوم السبت، لاعتيادها أحوالهم في عدم التعرض لها في ذلك اليوم ﴿ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ﴾ أي تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبتِ ﴿ شُرَّعٗا ﴾ أي ظاهرة على وجه الماء، كما قال ابن عباس، جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف ﴿ وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ ﴾ أي وفي غير يوم السبت ـ وهي سائر الأيام ـ لا تأتيهم، بل تغيب وتختفي حذراً من صيدهم، وكان ذلك بمحض تقدير العزيز العليم ﴿ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم ﴾ أي نعاملهم معاملة المختبر، ليظهر عدوانهم ونؤاخذهم به ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم المستمر، وانتهاكهم لحرمات الله.

---

(١) كان اليهود المعارضون لرسول الله ﷺ يقولون: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان، ولا معاندة لما أُمروا به، فنزلت الآية موبخةً لهم، ومقررة ما كان من فعل أهل هذه القرية، فسؤالهم إنما كان على وجه التوبيخ. المحرر الوجيز لابن عطية ٦/ ١٣.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي جماعة من أهل القرية، يعني صلحاؤهم الذين اجتهدوا في موعظتهم، حتى أيسوا من اتعاظهم، قيل: إن أهل القرية، افترقوا على ثلاث فرق: فرقة اعتدت، وفرقة وَعَظَتْ، وفرقةٌ قالت للواعظين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي مستأصلهم بالكلية ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي مهلكهم بالخسف أو المسخ، لعدم إقلاعهم عما هم عليه من الفسق، والعصيان، قالوه بمحضر من القوم، حثاً لهم على الاتعاظ ﴿قَالُوا۟﴾ أي المقول لهم ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي موعظتنا إنهاء عذر إلى الله تعالى، حتى لا نُنسب إلى تفريطٍ في النهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ولطمعنا في أن يتقوا الله، فينزعوا عمَّا هم فيه من الإجرام.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي تركوا ما ذكَّرهم به صلحاؤهم، تَرْكَ الناسي للشيء، وأعرضوا عنه بالكلية، بحيث لم تنجع فيهم تلك المواعظ أصلاً.

والنسيانُ هنا مجاز عن الترك، لأن الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان بالنسيان، وإنما يؤاخذه بالإهمال والعصيان ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أي نجينا من العذاب الناهين عن الفساد في الأرض، الواعظين المذكّرين. وقد اختلف السلف في الفرقة الثانية، التي لم تأمر ولم تنه بل سكتت.

فقال ابن عباس: ما أدري ما فُعل بالفرقة التي لم تنه ولم تأمر؟.

وقال ابن زيد: إنها هلكت مع الهالكين، لأن الله تعالى ذكر أنه نجّى الذين نهوا عن السوء.

وروى القرطبي عن عكرمة أنه قال: «قلت لابن عباس لمَّا قال: ما أدري ما فُعل بهم؟ ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوماً ما اللهُ مُهلِكُهُم﴾؟ فلم أزل به حتى عرَّفتُه أنهم قد نجوا، قال: فكساني حُلَّة»[١].

أمَّا شمول النص للناهين المحذرين فواضح، وأما شموله للساكتين، فلأنهم أنكروا أيضاً، ولكنهم لما رأوا عدم نفع النصيحة كفُّوا، وذلك إنكار بالقلب، وقد نصَّ الفقهاء أن الناهي إذا أيقن عدم نفع النصح، لا يأثم بتركه، لدخوله في باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى الغارقين في الشراب، أو الموغلين بالربا والقمار، لتعظهم وتكفَّهم عما هم فيه من الضلال، سخروا وضحكوا عليك، وذهب كلامك معهم سدى[٢]!! ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي أخذنا الطغاة الظالمين، بعذاب مؤلم موجع شديد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم الدائم المستمر، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي فلما استعصوا عن أمرنا وطاعتنا، وتكبَّروا، وأبوا تركَ ما نُهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ أي مُسخوا إلى قردة وجعلناهم صاغرين أذلاء، مبعدين عن كل خير، وترتيب المسخ على العتو ليس لخصوصية الصيد، بل العمدة في ذلك، هو المخالفةُ للأمر، والاستعصاء عليه عزَّ وجلَّ، والأمر تكويني لا تكليفي، لأنه ليس في وسعهم حتى يُكلَّفوا به، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٧/٧ قال القرطبي: وهذا مذهب الحسن البصري أيضاً، ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة المعتدية لا غير، قوله تعالى: ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾.

(٢) النصيحة واجبة للبرِّ والفاجر، إلاَّ إذا كان الضرر الناتج عن النصح أشدّ من سابقه، كما بيَّن الشيخ رحمه الله، كالنصيحة للملاحدة والشيوعيين، الذين لا يزيد معهم النصح إلاَّ سخرية واستهزاءً، فهؤلاء أمثال الحيوانات لا يُنصحون ولا يُحَدَّثون!!.

أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذَّبهم أولاً بعذاب شديد، فاستعصوا وعتوا عن أمر الله، فمسخهم الله إلى قردة تتعاوى. وروي أن الناهين لمّا يئسوا من اتعاظ المعتدين، كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدار، فأصبحوا يوماً ولم يخرج أحد من المعتدين، فقالوا إن لهم شأناً، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ من الإذن وهو بمعنى آذن أي أعلم ربك يا محمد ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ليسلطنَّ على اليهود، لا المعتدين الذين مُسخوا قردة، إذ لم يبقوا ، أي ليسلطنَّ على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي إلى انتهاء الدنيا، وهذا نصٌّ في أن العذاب إنما يحصل لهم في الدنيا، مستمراً إلى يوم القيامة ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ﴾ أي يذيقهم ويوليهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال، وضرب الجزية، والإهانة، ونحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن شاء سبحانه أن يعاقبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن آمن وعمل صالحاً.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٠.

﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ ﴾ أي فرّقنا بني إسرائيل في الأرض، وجعلنا كل فرقة منهم في قطرٍ من أقطارها، بحيث لا تخلو ناحية منها منهم، حتى لا تكون لهم شوكة قط ﴿ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ وهم من آمن بالله ورسوله، وثبت على دينه في زمانه، قبل مجيء عيسى ابن مريم، ثم الذين آمنوا بالرسول ﷺ بعد بعثته ودخلوا في الإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ﴿ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ ﴾ أي منحطون عن مرتبة الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم ﴿ وَبَلَوۡنَٰهُم ﴾ يعني جميعاً الصالح وغيره، وهي بلوى اختبار وامتحان ﴿ بِٱلۡحَسَنَٰتِ ﴾ بالنِّعَم، والخصب، والعافية ﴿ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الجدب، والشدة، النِّقَم ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ عما كانوا عليه من الكفر والمعاصي إلى طاعة ربهم.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ أي من بعد الصالحين ﴿ خَلۡفٞ ﴾ بسكون اللام أي بدلُ سوء، وهو الشائع في الشر، والخَلَف بفتح اللام في الخير، يقال: جعلك الله خير خَلَف لخَير سَلَف، والمراد أنه جاء من بعد أولئك الصالحين، جماعة أشرارٌ فجار ﴿ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي انتقل الكتاب إليهم عن آبائهم «التوراة» يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي، ولم يعملوا بها، ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ العَرَض جميع متاع الدنيا إلا الدراهم والدنانير، فإنها عَيْنٌ ، وفي الأثر: «الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأخذ منها البَرُّ والفاجر».

والأدنى صفة لمحذوف أي الشيء الأدنى، والمراد به الدنيا، وهي من الدنو للقرب بالنسبة إلى الآخرة، والمراد بهذا العرض ما كانوا يأخذون من الرشاوى في الحكومات، وعلى تحريف الكلام ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ ﴾ أي لن يؤاخذنا الله بذلك، فيتمنون على الله الأماني الباطلة، كما جاء في الحديث الشريف: «الكيّس من دَانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني»[1] ﴿ وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ ﴾ في

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦١ وقال: هذا حديث حسن.

موضع الحال، أي يرجون المغفرة وهم مصرون على الذنب، عائدون إلى مثله، غير تائبين عنه، وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا، وإصرارهم على الذنوب والآثام ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي الميثاق المذكور في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد أن يقولوا الحق، ولا يكذبوا على الله؟ والمراد به الردُّ عليهم، والتوبيخ لهم على ادعائهم القول بالمغفرة بلا توبة، والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي قرؤوه وتبصَّروا بما فيه، فهم ذاكرون لذلك، لأنهم دارسون له، ولكنْ ضيَّعوا العمل به ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى ويخافون عقابه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ فتعلموا ذلك، ولا تستبدلوا الأدنى، المؤدي إلى العذاب، بالنعيم المقيم؟ وهو خطاب لأولئك المأخوذ عليهم الميثاق، وفي الالتفات تشديد للتوبيخ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يتمسكون به في أمور دينهم، يقال أمسك بالشيء، وتمسَّك به بمعنى اعتصم، والمراد بهم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقال عطاء: هم أمة محمد ﷺ، والكتاب القرآن الجليل ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تخصيصها بالذكر، لأنها عماد الدين، وأعظم العبادات بعد الإيمان ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي لا نضيع ثواب المحسنين منهم، وضع الظاهر موضع المضمر، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع.

> ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعناه ورفعناه فوقهم، وأصل النتق الجذبُ والرفعُ، أي قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم، ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي سقيفة أو سحابة ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي تيقنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجذب، وفي الأثر: أن بني إسرائيل أبوا أن يقبلوا

التوراة، فأمر الله جبريل أن يرفع الجبل فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم وإلا ليقعنَّ عليكم، فوقع كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فَرَقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجُدُ إلاّ على حاجبه الأيسر ﴿خُذُوا﴾ أي وقلنا خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجدّ وعزم على تحمل مشاقه ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك قبائح الأعمال، أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ احتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام، وتوبيخهم بنقضه، أي واذكر للخلق حين أخذ ربك ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ المراد بهم أولاد آدم جميعاً ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ تنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم، وهم في أصلاب الآباء، ولم يُستودعوا بعدُ في أرحام الأمهات، والتقديرُ: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ المراد أولادهم على العموم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أشهد كل واحد، من أولئك الذرية، أن الله ربُّه بما ركَّب في عقولهم، من الإقرار بربوبية الله جلَّ وعلا، وصاروا بمنزلة من قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ أي خالقكم ومالك أمركم؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ على أنفسنا بأنك ربنا، لا ربَّ لنا غيرك، والمراد أقررنا بذلك، والكلام عند بعض المفسرين، أنه تمثيل لخلقه تعالى الخلق على مبدأ الفطرة، مستعدّين للاستدلال بالأدلة الكونية إلى التوحيد، كما نطق به قوله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث. وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت

ربنا شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك من غير أن يكون هناك أخذ وإشهاد، وسؤال وجواب كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(١) إلى هذا ذهب بعض أهل التفسير، منهم الزجاج، والزمخشري، وأبو حيان وأبو السعود، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الله أخرج ذرية آدم مثل الذر، وأخذ عليهم الميثاق(٢)، وجعل الله لهم عقلاً، وفهماً تعقل به، كما قال في النملة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لئلا تقولوا يوم البعث والحساب، عند ظهور الأمر وإحاطة العذاب بمن أشرك ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ عن وحدانيته تعالى وأحكامها ﴿غَافِلِينَ﴾ لم نتنبَّهْ عليه، فلا سبيل إلى الاعتذار بذلك، إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر، من خَلْقِهِم على الفطرة السليمة.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ أو تقولوا في ذلك اليوم ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي إن آباءنا هم اخترعوا الإشراك، وهم سنُّوه من قبل زماننا ﴿وَكُنَّا﴾ نحن ﴿ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ لا نهتدي إلى سبيل التوحيد فاقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ أي أتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا المضلين

---

(١) سورة فُصّلت، آية: ١١.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٧٥ بعد أن ساق الأحاديث، والآثار، والأخبار الواردة عن السلف قال: فهذه الأحاديث دالة على أن الله عزَّ وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديثين عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثمَّ قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال ﴿وإذْ أخذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل من آدم وقال ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره وقال ﴿ذرياتهم﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن كما قال سبحانه: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾، ثم أفاض في الموضوع رحمه الله تعالى.

والاعتذار بهذا باطل أيضاً، لأن التقليد عند قيام الدلائل، والقدرة على الاستدلال بها، مما لا مساغ له أيضاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ للمنافع الجليلة ليتدبرها العباد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الإصرار على الباطل، وعن الشرك والتقليد الخاسر.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود أو على قومك ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أي خبره الذي له شأن وخطر. وهو كما روى ابن عباس «بلعم بن باعوراء» وكان من بني إسرائيل، وكان قد أوتي علماً ببعض كتاب الله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، والتعبير عنه بالانسلاخ فيه إشارة إلى أن الإيمان كان طِلاءً، ولم يتمكن من قلبه كما تنسلخ الحية من جلدها، وهو مؤذن بكمال مباينته للآيات الهادية ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي تبعه حتى لحقه وأدركه، فصار قريناً له، وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية، ومبالغة في اللحوق، إذ جعل كأنه أمام الشيطان ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فصار من زمرة الضالين، الراسخين في الغواية، بعد أن كان من المهتدين، بما خالف ربه، وأطاع هواه وشيطانه، روي عن مالك بن دينار أنَّ «بلعم» كان من علماء بني إسرائيل، وكان موسى يقدّمه في الشدائد، وينعم عليه،

فبعثه إلى ملك مَدْين، يدعوهم إلى الله تعالى، فترك دين موسى، واتَّبع دين الملك فزاغ وضلَّ.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ في الكلام حذف المفعول لمشيئة أي لو شئنا رفعه لرفعناه إلى منازل العلماء الأبرار، ﴿ لَرَفَعْنَهُ بِهَا ﴾ أي إلى المنازل العالية، بسبب تلك الآيات، بمحض مشيئتنا ولكنها منافية للحكمة التشريعية، المؤسسة على تعليق الجزاء بالأفعال الاختيارية للعباد ﴿ وَلَكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى الدنيا ومال إليها، وأصل الإخلاد: اللزومُ للمكان، من الخلود ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، وإعراضه عن مقتضى الآيات، فانحطَّ أسفل السافلين، وهذه الآية أشد الآيات على العلماء، الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس. عن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء، على المال والشرف لدينه»(١).

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لهذا الرجل فقال ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ أي فقصته التي هي مثل في الخِسَّة، كمثل الكلب لما أنه أخس الحيوانات ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ أي إن تزجره وتطرده ﴿ يَلْهَثْ ﴾ يدلع لسانه ﴿ أَوْ تَتْرُكْهُ ﴾ غير مطرودٍ ﴿ يَلْهَث ﴾ اللَّهثُ: ادّلاعُ اللسان بالنّفس الشديد، وهو في الكلاب طبعٌ، لضعف قلبها، بخلاف سائر الحيوانات، فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد، إلاَّ عند التعب والإعياء(٢) ﴿ ذَّٰلِكَ ﴾ أي ذلك المثل ﴿ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ومنهم اليهود، حيث أوتوا ما أوتوا في التوراة، من نعوت النبي ﷺ، فصدّقوه وبشّروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وانسلخوا من التوراة

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد رقم ١٤٨٢ وصحّحه، ورواه النسائي وابن حبان.

(٢) أي مثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب، إن طردته وزجرته وجريت وراءه سعى فلهث، وإن تركته على سجيته دون إزعاج لهث، وهو تمثيلٌ بادي الروعة، فائق الجمال، في التصوير والإبداع.

﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي إذا تحقق أن المثل المذكور مَثَلُ هؤلاء المكذبين، فاقصص ذلك عليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيقفون على جليّة الأمر، وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿ سَآءَ مَثَلًا ﴾ استئناف مسوق لبيان قبح حال المكذبين، بعد بيان كونه كحال الكلب ﴿ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أي هذا المثل السيىء. هو مَثَلٌ لكل من كذَّب بآيات الله، وجحد نعمة فضل العلم والهداية ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ما ظلموا إلاَّ أنفسهم، فإن وبالها لا يتخطاها.

ومن تفكر الأمثال المضروبة في التنزيل، في حق المشركين والأصنام من بيت العنكبوت، والذباب، تحقق له أن مثل علماء السوء، أسوأ وأقبح من ذلك، لما هم فيه من التهالك على الدنيا، مالِهَا وجاهِهَا، والركونِ إلى لذاتها وشهواتها، ولذلك مثَّل لهم بالكلب كما مثَّل لهم بالحمار، عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك.

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ تحقيق وتأكيد لما تضمنته القصة السابقة، بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهته سبحانه وتعالى، أي من يخلق الله فيه الاهتداء، فهو المهتدي لا غير كائناً من كان، ولو كان الهدى من الله البيانُ ـ كما قالت المعتزلة ـ لاستوى المؤمن والكافر، إذ البيان ثابت في حق الفريقين، فدلَّ أنه من الله عز وجل التوفيقُ، والعصمةُ، والمعونةُ، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن، وفي الإخبار عمن هداه الله تعالى بالمهتدي، تعظيمٌ لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه في نفسه شيء جسيم، ونفع عظيم، لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ بأن خلق فيه الضلالة، لصرف اختياره نحوها ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بالضلالة ﴿ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ أي

الكاملون في الخسران لا غير، وإفراد المهتدي، وجمع الخاسرين للإيذان باتحاد منهاج الهدى، وتفرُّق طرق الضلالة وتشعُّبها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ الذرأ: الخلقُ، وبذلك فسره ابن عباس، أي والله لقد خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم المصرون على الكفر، واللام للعاقبة، كقول الشاعر: «لِدُوا للموتِ وابْنُوا لِلخَرَابِ» وتقديم الجن لأنهم أقدم خلقا، ولا يشكل أنهم خُلقوا من النار، فلا يشقُّ عليهم دخولها؟ لأنا نقول: إن الغالب عليهم الجزء الناري، لا يأبى تضررهم بها، فإن الإنس خلقوا من الطين، ويتضررون به، على أن النار لم تبق فيهم على ما هي عليه قبل خلقهم منها، كما أن حقيقة الطين لم تبق في الإنس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي لهم قلوب قاسية عليلة، لا يفهمون بها الحقَّ ولا يدركون فوائده، وهذا وصف للقلوب بتمام الإغراق في القساوة، فإنها حيث لم يأت منها الفقه، فكأنها غير قابلة له رأساً، وحذفُ المفعول للتعميم، أي لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئاً ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ المراد بالإبصار والسمع المنفيين، ما يختص بالعقلاء من الإدراك، النافع، لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشَّبَح والصوت، كما هو وظيفة الأنعام، أي لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات، التي ينتفعون بها لمعرفة عظمة الخالق ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ شيئاً من المسموعات النافعة، فيتناول الآيات التنزيلية، وهذا كله للشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المذكورون بالأوصاف المذكورة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي كالدواب والبهائم في عدم الفقه والبصر والإدراك، لأن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش، مقصورة عليها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي بل هم أسوأ حالاً من الأنعام، فإنها تدرك

المنافع والمضار، فتجتهد في جلبها وسلبها، وهؤلاء ليسوا كذلك، حيث لا يميّزون بين المنافع والمضار، بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم، ويقدمون على العذاب الأليم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة عما فيه صلاحهم، وما أعد الله تعالى من الثواب والعقاب.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والحُسْنى: تأنيث الأحسن، أي الأسماء التي هي أحسنُ الأسماء، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها ـ قال البخاري: المراد به حفظها ـ دخل الجنة»[1] ولا يظنن أحد أن أسماء الله تعالى منحصرة في هذا المقدار، بل له سبحانه أسماء غيرها استأثر بعلمها[2]، ولما كان لا سبيل إلى معرفة ذاته عز وجل، إلا بمعرفة أفعاله، وهذا بحر لا ساحل له، فكذلك لا نهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسمُّوه بتلك الأسماء الجليلة ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي اتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم: يا أبا المكارم، ويا أبيض الوجه ونحو ذلك، فإن أسماء الله تعالى توقيفية، يُراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد في هذه الأصول،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ١١/٢١٤ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٧٧ وزاد مسلم «وإنَّ الله وترٌ يحبُّ الوتر».

(٢) يدل على ذلك ما ورد في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسَك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو ستأثرتَ به في علم الغيب عندك. .» الحديث.

جاز إطلاقه عليه جل شأنه، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه وإن صح معناه، والإلحاد في أسمائه تعالى كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كاللات من الله، والعُزَّى من العزيز، ومناة من المنَّان، كما ينبغي أن يراعى حسن الأدب، فلا يجوز أن نقول يا ضار، ويا خالق القردة على الانفراد، وإن كان الله خالقاً لكل شيء، والمراد بالترك الإعراضُ وعدمُ المبالاة بما فعلوا، ترقباً لنزول العقوبة فيهم عن قريب، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإنه وقع جواباً عن سؤال مقدر، كأنه قيل: لم لا نبالي بإلحادهم؟ فقيل: سينزل بهم عقوبة عن قريب.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومن بعض البشر التي خلقنا، طائفة جليلة يهدون الناس، ويدلونهم على الاستقامة، وبالحق يحكمون في الحكومات الجارية بينهم، ولا يجورون، والمراد بهم أمة محمد ﷺ، روى الشيخان عن معاوية قال: قال ﷺ: «لا تزال من أمتي أمةٌ قائمةٌ بأمر الله تعالى، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك»[1]، واستدل بالآية على صحة الإجماع، لأن المراد منه، أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة، إذ لو اختص بعهد الرسول ﷺ لم يكن لذكره فائدة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢٩٣/١٣ من فتح الباري شرح صحيح البخاري.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ولم تنفعهم هداية الهادين، كأهل مكة وغيرهم، وإضافة الآيات إلى الله لتشريفها واستعظام الإقدام على التكذيب بها ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ سنقرّبهم البتة إلى ما يهلكهم قليلاً، قليلاً، والاستدراجُ من الدرجة، بمعنى النقل درجةً بعد درجة، من سفلٍ إلى علو أو بالعكس، فيكون استنزالاً، ثم اتسع في كل نقل تدريجي، سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط، والمعنى المراد هو النقل إلى دركات المهالك، ليبلغ أقصى مراتب العقوبة، ولذا قيل: إذا رأيتَ الله تعالى ينعم على عبد، وهو مقيم على معصيته، فاعلم أنه مستدرج، والجِبِلَّةُ الإنسانية في أصل الفطرة، سليمةٌ متهيأة لقبول الحق والدين، فإذا أخلد إلى الأرض، واتبع الشهوات، ينزل درجة درجة إلى أسفل السافلين، فيزداد بطراً وطغياناً، إلى أن تحقَّ عليه كلمةُ العذاب ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كذلك، بل يظنون أنه لطفٌ من الله تعالى بهم.

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ الإملاءُ: عبارة عن الإمهال أي أمهلهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان، وباطنه خذلان، وهو تقرير للوعيد، وتأكيد له، أي قوي لا يُدافع بقوة ولا بحيلة.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ في شأنه ﷺ ليعرفوا حقيقة حاله، الموجبة للإيمان به وبما أنزل عليه، من الآيات التي كذبوا بها، والهمزة للإنكار والتعجب، والتوبيخ ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ يعني الرسول ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي من جنون، والجنَّةُ بكسر الجيم بمعنى الجنون، والتنكيرُ للتقليل والتحقير، أي كذبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنون كائنٍ بصاحبهم، والتعبير عنه «بصاحبهم» للإيذان بأن طول مصاحبتهم له ﷺ، مما يطلعهم على نزاهته ﷺ عن شائبة الجنون، ففيه تأكيد للنكير، وعن الحسن وقتادة أنه ﷺ صعد على الصفا، فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً، يحذّرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنونٌ، فنزلت ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

﴿مُّبِينٌ﴾ أي ما هو إلا رسول منذر، واضح الأمر والإنذار، معروف حاله فقد كان ﷺ يدعوهم إلى الله عز وجل، ويقيم الدلائل القاطعة، بألفاظ فصيحة، وكان ﷺ حسن الخلق، طيّب العِشرة، نقيَّ السيرة، مواظباً على أعمال حسنة، وصار قدوة للعقلاء، وإماماً للصالحين، والمعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون، بل إنما هو نذير مبين أرسله رب العالمين، ثم لما كان أمر النبوة مفرعاً على التوحيد، ذكر سبحانه ما يدل عليه فقال تقدست أسماؤه:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما في السموات والأرض من العجائب والمخلوقات، والملكوتُ: الملك الواسع، وهو من أبنية المبالغة كالرهبوت، والجبروت، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، حيث لم يتفكروا فيما يدلُّ عليه من كمال قدرة الصانع، ووحدة المبدع، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ذاك الرسول الكريم ﷺ، والتعبير بالنظر هنا، دون التفكر، للإشارة إلى أن الدليل هنا، أوضحُ منه فيما تقدم، والملكوتُ: الملكُ العظيم الواسع، أي أولم ينظر أهل مكة، نظر اعتبار واستدلال، في ملكوت السماوات والأرض؟ ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾؟ أي وفي جميع مخلوقات الله، مما يقع عليه النظر من الأشياء التي لا يمكن حصرها، الدالة على كمال قدرة صانعها، ووحدة مبدعها؟ فإن كل فردٍ من أفراد الأكوان، دليل واضح على الصانع الديَّان سبحانه وتعالى وقوله: ﴿مِن شَيءٍ﴾ بيانٌ لما خلق الله، وفي ذلك تنبيهٌ على أن الدلالة على التوحيد، غير مقصورة على السماوات والأرض، بل كل ذرةٍ من ذرات العالم، دليل عل توحيده سبحانه كما قال العارف:

وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وأن يتفكروا لعلهم يموتمون عن قريب، فمناط الإنكار تأخيرُهم النظر، أي فما لهم لا يسارعون إلى التدبر في الآيات التكوينية، الشاهدة على صدق الرسالة المحمدية، قبل مفاجأة

الأجل، وحلول العقاب؟ فعلى العاقل المسارعة والمبادرة إلى التفكر والاعتبار ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى: إذا لم يؤمنوا بالقرآن، وهو النهاية في الظهور والبيان، فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون؟ وكأنه قيل: لعلَّ أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الموت؟.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ أي من يحكم الله بضلاله، فلا أحد يهديه، ولا يستطيع أن يضع الإيمان في قلبه ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويتركهم في الكفر، محيّرين لا يهتدون سبيلاً، والعمهُ في البصيرة كالعمى في البصر. ثم لما تقدم ذكر اقتراب أجلهم، عقَّبه سبحانه بذكر سؤالهم عن الساعة فقال:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الساعةُ: القيامةُ، وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، لأنها عند الله كساعة من ساعات الدنيا، والسائل أناسٌ من اليهود قالوا: أخبرنا متى الساعة؟ وعن قتادة أن قريشاً قالوا يا محمد أخبرنا متى الساعة فنحن أقرباؤك[1] قالوا ذلك استهزاءً فنزلت الآية ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أيان ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام، ومرساها مصدر ميمي، من أرساه إذا أثبته وأقرّه أي متى إثباتها وتقريرها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ استأثر به جلَّ وعلا، لم يطلع عليه

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٨٢ نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود، والأول أشبه لأن الآية مكية، وكان المشركون يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالىٰ: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟.

مَلَكاً مقرّباً، ولا نبياً مرسلاً، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية كما أخفى وقت الموت عن الإنسان ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يُظهر أمرها في وقتها، إلاّ هو سبحانه بالذات، لاقتضاء الحكمة التشريعية إياه، والتجليةُ: إظهار الشيء بعد خفائه ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كبرت وعظمت على أهلها، حيث لم يعلموا وقت وقوعها، وعن قتادة أن المعنى: عظمت على أهل السماوات والأرض، حيث يخافون شدائدها، وقيل المعنى: ثقلت عند الوقوع على نفس السماوات، حتى انشقت وكُوّرت شمسُها، وانتثرت نجومها، وعلى نفس الأرض حتى سُيّرت جبالُها وسُجِّرت بحارُها، والأول هو الأنسب بما قبله وبعده لقوله سبحانه: ﴿ويَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمَاً ثقيلاً﴾ ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة على حين غفلة، وفي الحديث الشريف «لتقومنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوبَهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وقد رَفَع أكلته إلى فيه، فلا يَطْعمها...»[1] الحديث ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك عنها، وعن وقت قيامها كأنك حفي عنها، أي مبالغ في العلم بها، والحفيُّ: المستقصي في السؤال، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء، والبحث عنه استحكم علمه به ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كرره تأكيداً للحكم، وتقريراً له، وتمهيداً للتعريض بجهلهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن علمها عند الله، لم يؤته أحداً من خلقه، فبعضهم ينكرها رأساً، وبعضهم يدَّعي أن العلم بذلك من موجبات الرسالة، فيتَّخذ السؤال عنها ذريعة إلى القدح في رسالته ﷺ، وظاهر الآية أنه ﷺ لم يعلم وقت قيامها، نعم عَلِم قربها على الإجمال، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعاً «بُعثتُ أنا والساعة كهاتَيْنِ، وأشار بالسبَّابة، والوسطى»[2] وفي

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن ١٣/٧٨ ومسلم رقم ١٥٧ وهو حديث طويل جامع.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٢٩٩ ومسلم في الفتن رقم ٢٩٥١ ورواه الترمذي رقم ٢٢١٥.

الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً «إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم، من صلاة العصر إلى غروب الشمس»[1] والذي ينبغي معرفته القول بحدوث العالم حدوثاً زمانياً، ولا يعلم أوله إلا الله تعالى، وكذلك عمر الدنيا، كل ذلك لا يعلمه إلاَّ الله عزَّ وجل، وجميعُ ما ورد في هذا الباب، أمور ظنية لا سند يعول عليها.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أملك لنفسي جلب نفع، ولا دفع ضر، وهو إظهارٌ للعبودية، والتبري عن ادعاء العلم بالغيوب، وبيان عجز الكل عنه، وإبطال زعمهم الذي بنوا عليه سؤالهم، من كونه ﷺ ممن يعلمها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، فإنني حينئذ أملكه بمشيئته تعالى ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ لو كنت أعرف أمور الغيب، وما سيحدث في الدنيا ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي لحصلت لنفسي الخير الذي أرجوه ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي وما أصابني شيء من الأذى والضرر، ولكن لا أعلمه فلذلك يصيبني المكروه والأذى، واستشكلت هذه الآية مع ما صحَّ أنه ﷺ أخبر بالمغيبات الجمة، وكان الأمر كما أخبر به وعُدَّ ذلك من أعظم معجزاته ﷺ؟ أجيب بأن المعنى لا أعلم الغيب إلاَّ أن يطلعني الله تعالى عليه، ويقدّره لي، فلما أطلعه الله تعالى أخبر به، ليكون ذلك معجزة له، ودلالة على صحة نبوته ﷺ ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل، للإنذار والبشارة، وشأني تذكير الخلق بالنافع والضار، من

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري ٤/ ٣٦٧ في الإجارة والترمذي رقم ٢٨٧٥ في الأمثال.

الأمور الدينية والدنيوية، لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الشرائع، أما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الإنذار ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بما جئتُ به، وتخصيصهم بالذكر لأنهم ينتفعون بالإنذار، كما ينتفعون بالبشارة.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلقكم جميعاً من نفسٍ واحدة هي آدم أبو البشر ﴿وَجَعَلَ مِنهَا زَوجَهَا﴾ أي خلق حواء من جنسها ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليستأنس بها، لأن الجنس إلى الجنس أميل، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي جامعها، كنَّى به أحسن كناية، وفيه إيماء إلى أن تكثير النوع علة المؤانسة، كما أن الوحدة علة الوحشة ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي محمولاً خفيفاً بادىء الأمر، فإنه عند كونه نطفة، أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك، ويجوز أن يراد بالخفة عدم التأذي، أي حملت حملاً خفَّ عليها ليس فيه كرب وشدة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي استمرت به، والمراد بقيت به كما كانت حيث قامت وقعدت، وهو خفيف عليها، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي صارت ذات ثقل، بكبر الولد في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ أي آدم وحواء، لمَّا خافا عاقبة الأمر عليه، تضرَّعا إليه عزَّ وجل ﴿رَبَّهُمَا﴾ أي مالك أمرهما، الحقيق بأن يخص به بالدعاء، أي دعواه تعالى أن يؤتيهما ولداً صالحاً، ووعدا بمقابلته الشكر، وقالا ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي ولداً سوياً سليم الجسم والخلقة. ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الراسخين في الشكر لك، المبالغين فيه.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي فلما وهبهما، الولد الصالح السوي ﴿جَعَلَا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والنسل، وثنَّى الضمير باعتبار أن ذلك النسل صنفان: ذكر، وأنثى، وقد جاء أن حواء كانت تلد في كل بطنٍ كذلك ﴿لَهُۥ﴾ أي لله سبحانه وتعالى ﴿شُرَكَآءَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ من الأولاد، أي جعل أولادهما له تعالى شركاء فيما آتيناهم، حيث سموهم بعبد العُزّى، وعبد مناف، ونحو ذلك، وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر في مقام التوبيخ، لما أن مساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر، في مقابلة نعمة الولد الصالح ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه فيه معنى التعجيب، أي تنزَّه وتقدَّس الله عما ينسبه إليه المشركون من الشركاء والأنداد، وضمير الجمع لأولئك النسل، الذين جعلوا لله شركاء، للإيذان بعظم شركهم، و«ما» مصدرية، أي تعالى الله عن إشراكهم. واستشكل هذه الآية، وللعلماء فيها كلام طويل، والأوفق منها ما قيل: إن صدر الآية إلى قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ لآدم وحواء، ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر، بالتخلص إلى قصة العرب وإشراكهم، ويوضح ذلك تغيير الضمير إلى الجمع ﴿عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ ولو كانت القصة واحدة، لقيل: فتعالى الله عما يشركان، وكذلك قوله بعده(١).

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في آدم وحواء، وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا له شُرَكاءَ﴾ يعود إليهما، ورووا حديثاً عن سَمُرة مرفوعاً «أن حواء لمَّا ولدت طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان...» الخ، وهذا القول لا يصح، فإن آدم عليه السلام أحد الأنبياء الكرام، ومن المحال أن يستجيب آدم وحواء لأمرٍ يخدش العقيدة، بل هو شرك بالله، وإنما الصحيح ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ أن ذلك كان في ذرّيته، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ فالآية وردت حكاية عن ذرية آدم، ممن رزقهم الله الذرية والبنين، فأشركوا مع الله، وسموا أولادهم بأسماء الشياطين، وهذا هو الحقُّ بدليل قوله تعالى بعده ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾!!.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ
أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ
أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ
لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾؟ مسوقٌ لتوبيخ كافة المشركين، ببيان ما أشركوه به سبحانه وتعالى، أي أيشركون به تعالى ما لا يقدر أن يخلق شيئاً من الأشياء أصلاً، ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده، وعنى بـ «ما» الأصنام ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وإيراد الضميرين بجمع العقلاء، مع رجوعهما إلى الأصنام، إنما هو بحسب اعتقادهم فيها، وكذا حال الضمائر الآتية، ووصفها بالمخلوقية لإبانة حالها، لما اعتقدوه في حقها، وإظهار غاية جهلهم.

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي الأصنام ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمشركين الذين عبدوهم ﴿ نَصْرًا ﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصرة عابديها ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ إذا اعتراهم حادثة من الحوادث، أي لا يدفعونها عن أنفسهم، وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعة ما.

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر وأيسر، وهو مجرد الإرشاد إلى طريق الهداية، والخطاب للمشركين، بدلالة ما بعده، أي وإن تدعوهم ـ أيها المشركون ـ إلى أن

يرشدوكم إلى ما تحصلون به المطالب، وتنجون به من المكاره، لا يتبعوكم إلى مرادكم، ولا يقدرون على ذلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ أي مستوٍ عليكم في عدم الفائدة، دعاؤكم للأصنام وسكوتكم، فإنه لا يتغير حالكم في الحالين، كما لا يتغير حالهم بحكم أنها جمادات، لا تنطق ولا تعقل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي مماثلة لكم في العجز والضعف، وعجزها أظهر من عجزكم، وتشبيهها بهم في ذلك إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم، وادعائهم لقدرتها عليهم، إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها، والاستعانة بها ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أمر للتعجيز والتقريع، أي فادعوهم في جلب نفع، أو كشف ضر، فليستجيبوا لكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؟ تبكيتٌ إثر تبكيت، مؤكدٌ لما يفيده الأمر التعجيزي، فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية، إنما تتصور إذا كان لها حياةٌ، وقُوى محركة، وما ليس له شيءٌ من ذلك، فهو بمعزل من الأفاعيل، وقد وُجِّه الإنكارُ إلى كل واحدة من هذه الآلات، تكريراً للتبكيت ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أمرٌ له ﷺ بأن يناصبهم المحاجة، ويكرر عليهم التبكيت، أي ادعوا شركاءكم واستعينوا بها في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم، وبالغوا في ترتيب ما تقدرون عليه من مبادي المكر والكيد ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلا تمهلوني ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد، فإني لا أبالي بكم أصلاً.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، تعليل لعدم المبالاة، ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب، للإشعار بدليل الولاية، كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم، لأن وليي هو الله تعالى، الذي نزَّل الكتاب الناطق بأنه وليي

وناصري ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى، أن يتولى الصالحين من عباده، فضلاً عن أنبيائه، وهذا تبشيرٌ للصالحين، وهذه الآية مما جربت المداومة عليها للحفظ من الأعداء، وكانت ورد الوالد في الأسحار، وقد أمره بعض الصالحين في المنام بها.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي تعبدونهم، أو تدعونهم للاستعانة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ في أمرٍ من الأمور ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إذا أصيبوا بحادثة، فهم أعجز عن نفع غيرهم، ودفع الضر عنهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم ﴿لَا يَسْمَعُوا۟﴾ فضلاً عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغ من نفي الاتّباع ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار وبهذا تم التعليل لعدم المبالاة فلا تكرار أصلاً، والمعنى: وترى الأصنام رأي العين، يُشبهون الناظر إليك، والحال أنهم لا يبصرونك، قيل: إنهم صُنع لهم أعينٌ، مركبة بالجواهر المتلألئة، وصورت بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه، وذهب بعضهم إلى أن الخطاب في ﴿تَرَاهُمْ﴾ للمشركين أي وترى المشركين ناظرين إليك، والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه، حكي أن السلطان محمود دخل على الشيخ الخرقاني لزيارته، وقال: يا شيخُ ما تقول في حق البسطامي؟ فقال الشيخ: هو رجل من رآه اهتدى، فقال السلطان: وكيفَ ذلك؟ وأبو جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يهتد؟ فقال الشيخ: إن أبا جهل ما رأى رسول الله ﷺ، وإنما رأى يتيم أبي طالب، ولو رأى رسول الله كما كان ﷺ، لخرج من الشقاوة واهتدى.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي ما عفا وسهل، وتيسّر من أخلاق الناس، وإلى هذا

ذهب ابن عمر، وعن ابن عباس العَفْوُ: ما فَضَل، روي أنه لما نزلت هذه الآية، كان الرجل يمسك من ماله ما يكفيه، ويتصدق بالفضل، فنسخها الله تعالى بالزكاة[1] والمراد بالعفو الحقوقُ التي تجوز المسامحة فيها، ويدخل فيه ترك التشدد في الحقوق المالية، والتخلق بالأخلاق الطيبة، وترك الغلظة، والدعوة إلى الحق بالرفق ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف والمستحسن من الأفعال، والمعروفُ: ضدُّ المنكر، والعُرفُ ضدُّ النُّكر، وهو كل خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تمارهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، آمرة للرسول ﷺ باستجماعها، أخرج ابن جرير عن الشعبي قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿خُذِ العَفوَ﴾ الآية قال ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله تعالى أمرك أن تعفوَ عمن ظلمك، وتعطيَ من حَرَمك، وتصلَ من قطعك»[2].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي ينخسنَّك منه نخسٌ أي وسوسة تحملك على خلاف ما أُمرت به، كاعتراء غضب، والنزغُ: النَّخْسُ والغرزُ، شُبِّهت وسوستُه للناس، إغراءً لهم على المعاصي، بغرز السائق ما يسوقه، نزغ الشيطان بينهم أفسد وأغرى، أي وإما يحملنك من جهة الشيطان وسوسة ما ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجىء إليه تعالى من شره، في دفعه عنك ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك به قولاً ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم تضرعك إليه قلباً فيعصمك من شره، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلاَّ وقد وُكِّلَ به قرينه من الجنِّ، وقرينُهُ من الملائكة!! قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: وإيَّايَ، ولكنَّ الله أعانني عليه فَأَسْلَمَ - أي انقاد وامتنع عن وسوستي - فلا

---

(١) الطبري ١٣/٣٢٨ قال: وأولى الأقوال بالصواب أن معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم.

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٣/٣٢٩.

يأمرني إلاَّ بخير»[1] وهذا الخطاب وإن كان له ﷺ إلاَّ أن المراد: غيره، وهو تأديبٌ عام لجميع المكلفين، ولمَّا ثبت أن لهذه الاستعاذة، أثر في دفع نزغ الشيطان، لزمت لنا المواظبة عليها في أكثر الأحوال، وفي الآية زيادة تنفير، وفرط تحذير عن العمل بموجب الغضب، وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى، تهويل لذلك، وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة، التي لا يُتخلص من مضرتها، إلاَّ بالالتجاء إلى حرم عصمته عزَّ وجلَّ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾ بيان أن ما أمر به ﷺ من الاستعاذة بالله تعالى، سنةٌ مسلوكة للمتقين، والإخلال بها دَيْدَنُ الغاوين، أي إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى ﴿ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ أي لَمَّة منه كما روي عن ابن عباس، وتنوينه للتحقير، المراد وسوسةٌ ما، من طاف يطوف كأنها طافت بهم، ودارت حولهم، فلم تقدر أن تؤثر فيهم، وهذا تأكيد لما تقدم، وبيان لعادة المتقين، أنهم إذا أصابهم أدنى نزغٍ من الشيطان ﴿ تَذَكَّرُواْ ﴾ أي ما أمر الله تعالى به، ونهى عنه، وعرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿ مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ مواقع الخطأ، ومكايد الشيطان، فيتحرزون عنها، ويفرون إلى الله عزَّ وجل، فيزدادون بصيرةً من الله تعالى.

﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ ﴾ أي إخوان الشياطين، وهم المنهمكون في الغيّ، المعرضون عن وقاية أنفسهم ﴿ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ﴾ الضمير المرفوع للشياطين أي يكون للشياطين مددٌ لهم فيه، بالتزيين والإغراء، وعن ابن عباس

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين رقم ٢٨١٤، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس.

الضمير راجع لشياطين الجن والإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي ثم لا يكفُّ هؤلاء عن الغي، ولا يقصرون ولا يرعون، والمتقون إذا أصابهم طيف، تذكَّروا وعرفوا ذلك، ونزعوا عنه، وتابوا واستغفروا، وإخوان الشياطين مستمرون في الضلالة، لا يتذكرون ولا يتوبون.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ من الآيات من القرآن، أو بآية مقترحة كما روي عن ابن عباس ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي هلاَّ جمعتها تقوّلاً من نفسك!! أو هلاَّ طلبتها من الله!! وهو تهكم منهم لعنهم الله تعالى، قال الفراء: يُقال: اجتبيتُ الكلامَ، واختلقتُه، وارتجلتُه، إذا افتعلته من قِبَل نفسك، وكذا اخترعته عند أبي عبيدة، أي قالوا: لولا اخترعتها؟ يرون بذلك أن سائر الآيات كذلك ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ لست بمختلق لها، أي أتّبع ما يوحى إليّ من ربي من غير أن يكون لي دخل في ذلك أصلاً ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن الكريم، أي هذا القرآن ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بمنزلة البصائر للقلوب، بها تبصر الحقَّ، وتدرك الصوابَ، فإنه حجج بينة، وبراهين نيرة، تغني عن غيرها، والكلام خارجٌ مخرج التشبيه البليغ، ولمَّا كان القرآن الكريم سبباً لبصائر العقول، في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، أُطلق عليه اسم البصائر، من باب تسمية السبب باسم المسبَّب.

بيَّن الله تعالى بهذا أن ظهور القرآن، معجزة بالغة كافية، في دلائل التوحيد والنبوة، فكان طلب الزيادة من باب التعنُّت ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تنوينهما للتفخيم، وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للإيذان بأنَّ كون القرآن الكريم بصائر، متحققٌ بالنسبة إلى الكل، وبه تقوم الحجة على الجميع، أما هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين، إذْ هم المقتبسون من أنواره، والجملة من تمام القول المأمور به.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إرشاد إلى طريق الفوز بالمنافع الجليلة، التي ينطوي عليها القرآن، أي وإذا قُرىء القرآن، الذي ذُكرت شؤونه العظيمة ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ استماع تحقيق وقبول، يعني أصغوا إليه أسماعكم، لتفهموا معانيه، وتتدبروا مواعظه ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ أي اسكتوا في خلال القراءة تعظيماً له، وتكميلاً للاستماع، وراعوها إلى انقضائها، نصت له أي: سكت مستمعاً، والإنصاتُ: السكوتُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة، التي هي أقصى ثمراته، والآية دليل لأبي حنيفة رحمه الله في أن المأموم لا يقرأ في سرية، ولا جهرية خلف الإمام، لأنها تقتضي وجوب الاستماع، عند قراءة القرآن، في الصلاة وغيرها، وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه، فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر[1] ويؤيده أخبار جمة، أخرج ابنُ أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جُعل الإمامُ ليؤتمَّ به، فإذا كبَّرَ فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتُوا»[2] وأخرج أيضاً عن جابر أن النبي ﷺ قال: «من كان له إمامٌ، فقراءته له قراءة» وقال الشعبي: أدركتُ سبعين بدرياً، كلُّهم يمنعون المقتدي عن القراءة خلف الإمام.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ عام في الأذكار كافة، من القراءة والدعاء،

---

(١) هذا ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة عملاً بالآية الكريمة، وذهب بعض الفقهاء إلى وجوب قراءة الفاتحة وراء الإمام لحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» ومذهب مالك أنه يقرأ في السرية ويسكت في الجهرية، وانظر الأدلة مفصلة في كتابنا روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ١/ ٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

والتسبيح، والتهليل، وغير ذلك، والخطاب للنبي ﷺ، ويدخل فيه أمته ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ فإن الإخفاء أدخلُ في الإخلاص، وأقرب من القبول، وقيل: المرادُ بالذكر في نفسه، أن يكون عارفاً بمعاني الأذكار، لأن الذكر المجرَّد باللسان، عارياً عن الذكر بالقلب، قليل الجدوى ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي اذكره متضرعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً ما فوق السر، دون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص، والمراد بالجهر رفع الصوت المفرط، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي اذكره وقت الغدوِّ أي الصباح ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ جمع الأصيل: وهو الوقتُ بين العصر إلى المغرب ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانة لسموّ قدرهم وهم ملائكة الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ تعالى وطاعته، بل يؤدونه حسبما أُمروا به ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ أي ويخصُّونه بغاية العبودية والتذلل، ولا يشركون به غيره جلَّ شأنه، وهو تعريضٌ بمن عداهم من المكلفين، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «إن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه»[1] وروى ابنُ أبي شيبة عن ابن عمر قال: كان ﷺ يقول في سجوده: «اللهم سجد لكَ سوادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعني، وعملاً يرفعني»[2].

«تَم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف»

* * *

---

(١) أخرجه البخاري ٢/٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٥ وتتمته: «فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا مكاناً لموضع جبهته في غير وقت صلاة».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.



مدنية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ النفلُ: الغنيمةُ، سُمّيت به لأنها عطية من الله تعالى، زائدة على الأجر في الجهاد من الثواب الأخروي، والمراد هنا الغنائم، عن سعيد بن جبير قال: سألتُ ابن عباس عن سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر،[1] وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود، والنسائي، والبيهقي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: من قتل قتيلاً فله كذا، فأمّا المَشْيخة فثبتوا تحت الراية، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، وقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردْءاً، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يَسْألونَكَ عَنِ الأنفَالِ﴾ الآية فقسم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية[2]، أي يسألونك يا رسول

(١) أخرجه البخاري ٨/ ٢٣٠ ومسلم رقم ٣٠٣١ في تفسير سورة الأنفال.
(٢) أخرجه أبو داود رقم ٢٧٣٧ والبيهقي ٦/ ٢٩١ والحاكم ٢/ ١٣١ وصحّحه.

الله عن حكم الأنفال ﴿ قُلِ﴾ لهم ﴿ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ أي حكمها مختص به تعالى، يقسمها الرسول ﷺ كيفما أُمر به ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الاختلاف في أمر الغنائم، وحاصل الجواب يا أيها المؤمنون إنّ ما وعدتكم به بإذن الله تعالى، وقد ملكني الله سبحانه هذه الغنائم، وهو أعلم بالحكمة، فاتقوا الله من عدم الرضا بذلك، ومن هنا يعلم حسن الأمر بالتقوى ﴿ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله ورسوله ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما يأمر وينهى عنه، فإن في ذلك مصالح لا تعلمونها، وإنما يعلمها الله ورسوله، وذكرُ الاسم الجليل في الأمرين، لتربية المهابة، وتعليل الحكم، وذكرُ الرسول ﷺ مع الله تعالى لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه والإيذان بأن طاعته طاعةٌ لله عزَّ وجل ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين، بالعدل والإحسان، ويؤيد إرادة الكمال قوله سبحانه:

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إذ المراد به الكاملون في الإيمان ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فزعت لذكره استعظاماً له، وتهيباً من جلاله، وقيل: هو الرجل يهمُّ بالمعصية، فيقال له: اتَّقِ الله، فينزع عنها خوفاً من عقابه، والاطمئنان المذكور في قوله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوبُ﴾ لا ينافي الوَجَل والخوف، لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد بنور المعرفة، وهو يجامع الخوف ﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي آيات القرآن ﴿ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ لاطمئنان النفس، ورسوخ اليقين، بتظاهر الأدلة والعمل بموجبها،

والأصوبُ أن نفس التصديق يقبل القوة، وهي التي عبَّر عنها بالزيادة، للفرق النيِّر بين يقين الأنبياء، وبين يقين آحاد الأمة، وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدّثين، لكثرة الظواهر الدالة على ذلك،[1] وذهب كثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه اسم للتصديق والإذعان، ولا يتصور فيه الزيادة والنقصان!! ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي يفوّضون إليه أمورهم، ولا يخشون ولا يرجون إلا إيَّاه، وهذه المراتب الثلاثة من أعمال القلوب، وقد أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح، فقال جلَّ وعلا.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المفروضة بحدودها، وأركانها، وشرائطها، في أوقاتها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ أي أعطيناهم من الأموال ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ أي يتصدقون فيما أمر الله تعالى به، وتدخل فيه الزكاة، والنفقة، وسائرُ الخيرات.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي المتصفون بالصفات الحميدة المذكورة ﴿ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ صدقاً بلا شك، لأنهم حقَّقوا إيمانهم، بأن ضمُّوا إليه أفاضل الأعمال القلبية. روي عن الحسن رحمه الله أن رجلاً سأله أمؤمنٌ أنتَ؟ قال: إن كنتَ سألتني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ونحو ذلك فأنا مؤمن، وإن كنت سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ الآية فلا أدري أنا منهم، أو لا؟ ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ كرامةٌ، وعلو منزلة رفيعة، درجات كثيرة ومختلفة، فإن قيل: أليس أن المفضول إذا علم حصول درجة عالية للفاضل، فإنه يتألم قلبه؟ قلنا: إن استغراق كل واحد في سعادته الخاصة به، تمنعه من حصول

(١) الشواهد كثيرة على زيادة الإيمان أو نقصه، منها قوله سبحانه: ﴿فأمَّا الذينَ آمَنُوا فَزَادتْهُمْ إيماناً وهم يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لِيَزْدَادُوا إيماناً فَوْقَ إيمانِهِمْ﴾.

الحقد والحسد ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صاف عن كد الاكتساب، وخوف الحساب، لا ينقضي أمدُه ولا ينتهي عدده.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بسبب الحق الذي وجبَ عليك، وهو الجهاد، والمرادُ من البيت مسكنه ﷺ أو المدينةُ نفسُها لأنها مثواه، وإضافة الإخراج إلى الرب إشارة إلى أنه كان بالوحي، ومعنى الآية حالهم هذه في كراهة ما وقع في أمر الأنفال، كحال إخراجك من بيتك في كراهتهم له وهو حق ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ الخروج إما لعدم الاستعداد للقتال، أو للنفرة الطبيعية عنه، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة. وقصة بدر على ما روى جماعة أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيها تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر بمكة، فنادى أبو جهل: النَّجَاءَ النَّجَاءَ فخرج أبو جهل بجمع من أهل مكة، فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد بدراً، فننحر الجَزُور، ونشرب الخمور، وتضرب على رؤوسنا القينات، أي المغنّيات، وتهابنا العرب، فمضى بهم إلى بدر، فنزل جبريل فقال: يا رسول الله: إن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقال بعضهم: إنا خرجنا

للعير، فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: لم تخبرنا عن القتال، وإنما أخبرتنا عن العير فدع العدوَّ، فتغيَّر وجهه ﷺ فقام عند ذلك أبو بكر وعمر فأحسنا الكلام، ثم قام سعد ابن عبادة فقال: يا رسول الله انظر أمر ربك فامضِ بنا إلى ما تريد، لا يتخلَّف عنك رجلٌ من الأنصار، ثم قام المقداد فقال: «يا رسول الله امضِ لما أمرك الله فإنَّا معك، لا نقول لك، كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، فتبسم ﷺ وقال: سيروا على بركة الله»[1] وبهذا تبين أن بعض المؤمنين كانوا كارهين، وبعضهم لم يكن كذلك وهم الأكثر كما تشير إليه الآية الكريمة.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقّي العير عليه ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون أينما توجهو ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير، وهلاَّ قلت لنا القتال لنستعد له ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم، وعدم تأهبهم، فقد روي أنهم كانوا ثلثمائة وخمسة عشر رجلاً فيهم فارسان، وكان المشركون ألفاً، قد استعدُّوا للقتال.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ بيان لجميل صنع الله عزَّ وجلَّ بالمؤمنين، مع ما بهم من قلة الحزم، وكثرة الخوف، أي اذكروا يا معشر المؤمنين وقت وعد الله تعالى إياكم، إحدى الطائفتين، وهما: العير أو النفير ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي كائنة لكم تتصرفون كيف شئتم ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أي

---

(١) مقالة المقداد للنبي ﷺ أخرجها البخاري ٧/ ٢٨٧ في المغازي، وفيها قوله: لا نقول لك كما قال قوم موسى ﴿اذهب أنتَ وربُّك فقاتلا﴾ ولكنَّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فأشرق وجه النبي ﷺ وسرَّه قولُه.

تريدون وتحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ لقلة عددها، وكثرة مالها، والشوكةُ مستعار من واحدة الشوك، والشوكة شدة البأس وتطلق على السلاح ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يثبته ويُعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته المنزلة ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آخرهم ويستأصلهم، والمعنى: أنتم تريدون الغنيمة، والله عزَّ وجلّ يريد العزة لكم والنصر، وشتَّان بين المرادين.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي لهذه الغاية فعل ما فعل، ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيته، وكذا إبطال الباطل ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك أعني إحقاق الحق وإبطال الباطل، والمراد بهم المشركون لا من كره الذهاب إلى النفير لأنه لا جرم منهم.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الاستغاثةُ: طلب الغوث، وهو التخليص من المكروه، ومن الشدة، وصيغة المضارع لاستحضار صورتها العجيبة، والظاهر أن المستغيثين هم المؤمنون، وقال الزهري إنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فقد قال ﷺ: «اللهم أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابةُ من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[1] كما دعا على

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٥/٢٥١ وتتمته: يهتف بربه مادّاً يديه، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك، إنه سينجز لك ما وعدك، فنزلت: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ...﴾ الآية.

أناس معينين من صناديد الكفر، الذين آذوه وهو بمكة كما ورد من رواية ابن مسعود: «اللهم عليك بقريش ـ أي بهلاكهم ـ اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام، وعُتبةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُمية بن خلف، وعُقبة بن أبي مُعَيط، قال ابن مسعود: فوالذي بعث محمداً بالحق، لقد رأيتُ الذين سمَّى الرسولُ ﷺ صرعى ثم سُحِبُوا إلى قليب بدر...»[1] الحديث، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي فأجاب دعاءكم، عقب استغاثتكم إياه على أتم وجه ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ أي بأني ممدكم أي مرسل إليكم مدداً ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين يردف بعضهم بعضاً وراء كل مَلَكٍ مَلَكٌ آخر، والأكثرون على أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وفي الأخبار ما يدل عليه، وقيل: إنهم لم يقاتلوا، وإنما نزلوا ليكثّروا سواد المسلمين ويثبتوهم، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي ما جعل الله الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾ أي بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتسكن إليه نفوسكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق، ليست إلاَّ من عنده عزَّ وجلَّ، فعلى المسلم أن لا يتوكل إلا على الله ولا يحسب النصر بالأسباب، ولا ييأس بفقدانها لأن النصر بيد الله، والإعانة منه سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ لا يُغالب في حكمه ولا يُنازع ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٠١/٧ وتتمته «فألقوا فيها، فوقف النبي ﷺ على القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال له ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم
بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ
(١١) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ
ٱلنَّارِ (١٤) ﴾.

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ ﴾ أي يجعله غاشياً لكم ومحيطاً بكم والنعاس أول النوم قبل أن يثقل ﴿ أَمَنَةً ﴾ أي أمناً مما حصل لكم من الخوف ﴿ مِّنْهُ ﴾ تعالى، أي فتنعسون أمناً كائناً منه تعالى، وكان ذلك النعاس معجزة، لأنه خارق للعادة، لأن حصول النوم، عند الخوف الشديد بعيد عادة، وبالنوم حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم من الله تعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وكان هذا قبل النعاس كما روي عن مجاهد ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ من الحدث الأصغر والأكبر ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي وسوسته وتخويفه، رُوي عن ابن عباس أن المشركين سبقوا المسلمين إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون على غير ماء، واحتلم بعضهم في النوم، وكانت منازلهم على كثيب رمل أعفر، تسوخ فيه الأقدام، فوسوس الشيطان إليهم وقال: يا أصحاب رسول الله، تزعمون أنكم على الحق، وأنكم تصلون على غير وضوء، وعلى الجنابة، وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لما سبقكم المشركون إلى الماء، فحزنوا حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادي، وتوضؤوا واغتسلوا، وسقوا الركاب، وملؤوا أسقيتهم، وتلبَّدت الأرضُ، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وكان ذلك دليلاً على حصول النصر ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بالثقة بلطف

الله تعالى ونصره، بمشاهدة طلائعه، أتى بـ «على» قصداً للاستعلاء وفيه إيماء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها، وفي ذلك من إفادة التمكن ما لا يخفى ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ بالماء ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ فلا تسوخ في الرمل، والضمير للربط أي جعلهم صابرين غير فارين ولا متزلزلين.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أي بأني بينكم على تثبيت المؤمنين ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المراد بالتثبيت: الحملُ على الثبات في موطن الحرب، والجدُّ في مقاساة شدائد القتال، وكان الملك يتشبَّه بالرجل، فيأتي ويقول: إني سمعت المشركين يقولون: لئن حملوا علينا لنُكشفنَّ، ويمشي في الصفين ويقول: أبشروا فإن الله تعالى ناصركم، وقال الزجاج: كان بأشياء يلقونها في قلوبهم بالإلهام ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنِّيَ مَعَكُم﴾ وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين، والرعبُ: الخوفُ وانزعاج النفس، بتوقع المكروه ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ أمر للملائكة وقيل: بل أمر للمؤمنين، والآية ظاهرة فيما يدعيه الجمهور، من وقوع القتال من الملائكة ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس، وقيل فوق هنا بمعنى على، أي فاضربوهم على أعناقهم ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أطراف اليدين والرجلين، وقيل: هي الأصابع.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي بسبب كفرهم وعصيانهم أمر رسولهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإظهار في موضع الإضمار، لتربية المهابة، والإشعار بعلة الحكم، والمراد من المشاقة هنا المخالفة، أي ذلك العذاب واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي مخالفته بوجه من الوجوه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي يعاقبه الله تعالى، فإنَّ عقاب الله شديد العقاب.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب مع الكفرة، على طريق الالتفات، وهو إشارة إلى القتل والأسر الذي نزل بهم ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلاً في الدنيا لأن ذلك

يسير بالإضافة إلى المؤجل، الذي أعدَّه لهم في الآخرة، ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الواو بمعنى مع، أي ذوقوا هذا العذاب العاجل، مع أن لكم عذاب النار في الآخرة آجلاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ خطاب عام للمؤمنين فيما سيقع من الوقايع والحروب، جيء به في تضاعيف القصة اعتناءً بشأنه ومبالغة في حقهم على المحافظة عليه ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبيُّ، إذا دبَّ على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به الجيش المتوجه إلى العدو، لأنه لكثرته يرى كجسم واحد، فيحس حركته في غاية البطاءة، أي زاحفين نحوكم ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ أي أدباركم فضلاً عن الفرار، بل قابلوهم وقاتلوهم والمعنى: إذا لقيتم الكفار فلا تولوهم الأدبار بالانهزام، وعدل عن لفظ الظهر إلى الأدبار، تقبيحاً للانهزام.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم اللقاء ﴿ دُبُرَهُۥٓ ﴾ فضلاً عن الفرار ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي تاركاً موقفه إلى موقف أصلح، للقتال منه، أو متوجهاً إلى قتال طائفة أخرى، أهمُّ من هؤلاء، وإما بالفرار للكرِّ بأن يخيِّل عدوه أنه منهزم، ليغرَّه ويخرجه من بين أعوانه، ثم يعطف عليه وحده، أو مع من في الكمين من أصحابه، وهو من باب خُدَع الحرب ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي منضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليقاتل معهم ﴿ فَقَدْ بَآءَ ﴾ أي رجع ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ عظيم كائن ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ تعالى ﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ﴾ أي ومسكنه الذي يأوي إليه هو نار جهنم ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ جهنم

مأوى له، والفرار من الزحف من أكبر الكبائر، وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف، لقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ الله عَنْكُمْ﴾ وعلى هذا أكثر أهل العلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاء جواب شرط مقدر كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فلم تقتلوهم أنتم بقوّتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ خطاب للرسول ﷺ، وهو إشارة إلى رميه ﷺ فلما التقى الجمعان، أتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فتناول ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلاّ شُغل بعينيه، والمعنى: وما فعلتَ أنت يا محمد، تلك الرمية حقيقة، حين فعلتها صورة، ولكنَّ الله خلقها، حين باشرتها على أكمل وجه، حيث أوصلها إلى أعينهم جميعاً، واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه تعالى، وإنما لهم كسبها ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ أي ليعطيهم من عنده تعالى ﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي عطاءً حسناً، بالنصر والغنيمة، والأجر والثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى جميع ما ذُكر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي المقصد من قتالهم إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين، وإبطال حيلهم وتآمرهم.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج، تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهمَّ انصر أعلى الجندَيْن، وأهدى الفِئَتَيْن، وأكرم الحِزبَيْن، والمعنى: إن تستنصروا على الجندين وأهداهما ﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ أي جاءكم النصرُ، سمى إهلاكهم نصراً على طريق التهكم، أي فقد جاءكم الهلاك، فالتهكم في الفتح، حيث وُضع موضع الهلاك ﴿ وَإِن تَنتَهُوا۟ ﴾ عن الكفر والحرب، ومعاداة الرسول ﷺ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الحرب الذي ذقتم غائلته لما في الانتهاء من السلامة من القتل والأسر ﴿ وَإِن تَعُودُوا۟ ﴾ لقتال النبي ﷺ ﴿ نَعُدْ ﴾ لما شاهدتموه من نصر ﴿ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ ﴾ أي لن تدفع عنكم ﴿ فِئَتُكُمْ ﴾ جماعتكم التي تجمعونها ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء أو المضار ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فئتكم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والمعونة، لأن سنة الله عزَّ وجلَّ جارية، في نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي تتولوا ﴿ عَنْهُ ﴾ عن الرسول ﷺ وأعيد الضمير إليه ﷺ لأن المراد هو الأمر بطاعته، والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعته تعالى للتمهيد، والتنبيه على أن طاعته ﷺ من

طاعته تعالى، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقدْ أطَاعَ اللهَ﴾[1] ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملة حالية، واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي، أي لا تتولوا عنه ﷺ والحال أنكم تسمعون القرآن، الناطق بوجوب طاعته، سماع فهم وإذعان.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي لا تكونوا بالمخالفة ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي كالكفرة والمنافقين الذين قالوا سمعنا بمجرد الادعاء، من غير فهم وإذعان ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي والحال أنهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به، ولا يفهمونه حق فهمه، والمنفي سماعٌ خاص، لكنه أتى به مطلقاً، للإشارة إلى أنهم نُزِّلوا منزلة من لم يسمع أصلاً، بجعلهم كالدواب والأنعام، ولهذا قال بعده:

﴿۞إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي إن شر ما يدبُّ على الأرض، أو شرَّ البهائم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿الصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحقَّ ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون به، وصفوا بهما لأن خلق الأذن واللسان لسماع الحق والنطق به، وحيث لم يوجد منهم شيء من ذلك، صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأساً، ثم وُصفوا بعدم التعقل، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تحقيقاً لفجاعة سوء حالهم، فإن الأصم الأبكم، إذا كان له عقل، ربما يفهم بعض الأمور بالإشارة، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وإذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شر الدواب، حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ شيئاً من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم إلى تحري الحق واتباع الهدى ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تدبر وتفهم، ولوقفوا على حقية الرسول ﷺ وآمنوا به وأطاعوه، ولكن علم الله تعالى أن لا خير فيهم فلم يسمعهم، لعدم الفائدة، وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ

(١) سورة النساء، آية: ٨٠.

﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عناداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بحسن الطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يورثكم الحياة الأبدية، في النعيم الدائم، ومن الجهاد الذي أعزكم الله به، كما روي ذلك عن عروة بن الزبير، وقال قتادة: القرآن لما روي أن النبي ﷺ مرَّ على أُبَيٍّ بن كعب وهو يصلي فدعاه فلم يجب وأسرع في صلاته ثم جاءه فقال ﷺ: «ما منعك من إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: ألم تخبر فيما أوحي ﴿استَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم﴾ قال: بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى»[1] قيل: إن الدعاء كان لأمرٍ لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، كما إذا رأى أعمى وصل إلى بئر، ولو لم يحذره لوقع فيه ولهلك ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أصل الحول ـ كما قال الراغب ـ تغير الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغير قيل: حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا، وهذا غير متصور في حقِّ الله تعالى، فهو بيان عن غاية القرب من العبد، أي يصرّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخُ عزيمته،

---

(١) أخرجه النسائي، وفي البخاري ومسلم أن ذلك وقع مع أبي سعيد بن المعلَّى، دعاه ﷺ وهو يصلي فلم يجبه، ثم أتاه فقال: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ ثم قال له: لأعلمنك سورة هي أعظم سور القرآن.. وذكر الحديث، انظر فتح الباري على البخاري ٨/ ٣٠٧.

ويغيّر مقصده، وفيها تنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب، وحث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت، أو غيره وفي الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ، يُصرِّفه حيث يشاء»[1] أخرجه مسلم. ويراد به كمال التصرف فيه، كتصرفه في قلب واحد ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ أي الله عزَّ وجل ﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، فسارعوا إلى طاعته وإلى طاعة رسوله.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ أي لا تختص إصابة عذابها، بمن يباشر الظلم منكم، بل يعمُّه وغيره، والمراد بالفتنة الذنب والمعصية كإقرار المنكر بين أظهركم، وظهور البدع، والتكاسل عن الجهاد، والخطاب إذا كان عاماً للأمة، وفسرت الفتنة بإقرار المنكر، لا يخبىء الأشكال على عموم الإصابة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ لأنه كما يجب على مرتكب الذنب الانتهاء عنه، يجب على الباقين رفعه، وإذا لم يفعلوا كانوا آثمين، فيصيبهم ما يصيبهم لإثمهم، لما رُوي عن أبي بكر الصدّيق قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده، أوشك أن يعمَّهمُ الله تعالى بعقاب»[2] ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وكذا لمن أقر من انتهك محارمه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٤ في القَدَر، وتتمته ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مصرِّفَ القلوب، ثبِّتْ قلوبنا على طاعتك» ورواه الترمذي رقم ٢١٤١ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعَيْ الرحمن.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في تفسير سورة المائدة، وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨.

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ ﴾ أي في العَدَد وقلة السلاح والعُدَد ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أرض مكة، يستضعفكم المشركون والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة، فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ كفار قريش، أي واذكروا حالكم وقت قلتكم وذلتكم وخوفكم من اختطافكم ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ ﴾ إلى المدينة وجعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعدائكم ﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على الكفار أو بمظاهرة الأنصار يوم بدر أو بإمداد الملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم، وقيل: هي عامة في جميع ما أعطاهم من الأطعمة والمنافع ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجليلة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾. في أبي لبابة وذلك لمَّا حاصر رسول الله ﷺ يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، وسألوا رسول ﷺ الصلح على ما صالح عليه بني النضير على أن يسيروا إلى أريحا فأبى ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان أبو لبابة مناصحاً لهم، لما أن ماله وعياله كان في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه، قال أبو لبابة: ما زالت قدماي عن مكانهما حتى علمتُ أني قد خنتُ رسول ﷺ

فنزلت الآية ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أي ما ائتمنتم عليه من الدَّيْنِ وغيره فيما بينكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون وباله.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة من الله تعالى، ليبلوكم فلا يحملنكم حبُّهم على الخيانة، كأبي لبابة، ولعل الفتنة في المال أكثر منها في الولد، ولذا قدمت الأموال على الأولاد، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر رضى الله عليهم، وراعى حدوده فيهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ بسبب ذلك الاتقاء ﴿فُرْقَانًا﴾ أي هداية ونوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي يسترها ويمحو ما سلف منها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز عنها في الأخرى، فلا تكرار، وقيل: المراد ما تقدم وما تأخر، لأن الآية في أهل بدر، ففي الحديث «لعل الله تعالى اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١] ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وُعدوه على التقوى، فضلٌ منه وإحسان كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمله ثم أنه عز وجل لما ذكّر بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ النعمة العامة للكل، ذكَّر نبيّه ﷺ النعمة الخاصة به بقوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في المغازي، وانظره كاملاً في فتح الباري ٧/ ٣٠٥.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ تذكار لما مكرت قريش به ﷺ حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكرهم، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك، وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك في دار الندوة ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالوثاق وإليه ذهب الحسن ومجاهد، أو بالحبس في بيت كما روي عن عطاء ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم بسيوفهم ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة، وذلك على ما ذكر ابن اسحق، أن قريشاً لما رأت أن رسول الله ﷺ قد كان له شيعة وأصحاب، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، فحَذِروا خروجَ رسول الله ﷺ فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره، فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوه، فقال رئيسهم: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلونكم من قومه ويخلصه من أيديكم، وقال أبو الأسود: أن تخرجوه من أرضكم، فقال رئيسهم: بئس الرأي لأنه يفسد قوماً غيركم ويقاتلونكم، فقال أبو جهل: إني أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل، ـ أي الفدية ـ عقلناه، فقال رئيسهم: صدق، فتفرقوا على رأيه[1]، فأتى جبريل فأخبره، وأمره بالهجرة، فبيَّت علياً في مضجعه، فخرج هو مع أبي بكر إلى الغار، وإلى هذه الحادثة تشير الآية الكريمة ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ أي ويحتالون ويتآمرون عليك يا محمد، ويدبر لك ربك ما يُبطل مكرهم، ويفضح أمرهم ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم، وأبلغ تأثيراً، فسمى تعالى إبطال تآمرهم، وردَّ كيدهم في نحورهم مكراً، على طريق المشاكلة أي أنه تعالى أبطل مكرهم، فإن مكره تعالى في خيريّته، أبلغ من مكر الغير في شرّيته[2].

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٠.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٦/ ٢٧٥: ﴿ويمكر الله﴾ هو إبطال لمكرهم، وردٌّ له ودفع في صدره حتى لا ينجع، فسمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في المعنى إلا هذا، وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على =

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ أي القرآن ﴿ قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ هذا قول النصر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاضيهم، أو قول الذين ائتمروا في أمره ﷺ وهذا من فرط عنادهم، وغاية مكابرتهم، إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوا، فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحدَّاهم وقرَّعهم بالعجز عشر سنين، فلم يعارضوا سورة منه مع أنفتهم، وفرط استنكافهم، وأن يُغلبوا خصوصاً في باب البيان وهم أساطينه وأربابه!! ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما هذا إلاّ ما يكتبونه من أخبار الماضين من الخرافات والأباطيل.

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قائل هذا النضر أيضاً على ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير، وأخرج البخاري عن أنس بن مالك أنه «أبو جهل»[1] وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس أن قريشاً قال بعضها لبعض: هل أكرم الله تعالى محمداً من بيننا؟ اللهم إن كان هذا.. الخ وهو أبلغ في الجحود من القول الأول، لأنهم عدُّوا حقيقته محالاً، فلذا

= ما يُفهم فيه في اللغة، فغير جائز فيه أن يقال: الله يمكر، وإنما قولنا ﴿ويمكر الله﴾ كما تقول في رجلٍ شتم الأمير، فقتله الأمير: هذا هو الشتم، فتسمي العقوبة باسم الذنب، وقوله ﴿خير الماكرين﴾ أي أقدرهم وأقواهم جانباً. اهـ.

(١) فتح الباري على البخاري ٨/٣٠٨.

علَّقوا عليها طلب العذاب، الذي لا يطلبه عاقل، والمعنى: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك، فأمطر الحجارة علينا عقوبةً على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه، والمراد منه: التهكمُ، وإظهار الجزم على كونه باطلاً.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ جواب لكلمتهم الشنيعة، وبيان لموجب إمهالهم، لأن سنته تعالى أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال، ما دام نبيُّهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب، إذا هاجر ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ والمراد باستغفارهم: إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين المستضعفين بعد الهجرة، وإما دعاء الكفرة بالمغفرة، على معنى: أنهم لو استغفروا لم يُعذَّبوا.

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾؟ أيْ أيَّ شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ أي لاحظَّ لهم في ذلك، وهم معذَّبون لا محالة، وكيف لا يُعذَّبون ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي وحالهم الصد عن ذلك حقيقة كما فعلوا عام الحديبية، وحكما كما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه حتى ألجؤوهم للهجرة وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت فنصدُّ من نشاء، ونُدخل من نشاء، فردَّ الله عز وجلَّ هذا القول بقوله ﴿ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ﴾ أي ما كانوا مستحقين ولاية أمره مع شركهم ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ ﴾ أي ما أولياؤه ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أي الذين يتقون الشرك ولا يعبدون غير الله، والمراد من المتقين المسلمون، وهذه المرتبة الأولى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن لا ولاية

لهم عليه كأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكلَّ، كما يُراد بالقلة العدم.

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، والمراد بالبيت: المسجدُ الحرام الذي صدُّوا المسلمين عنه، والتعبير عنه بالبيت للإشارة إلى أنه بيت الله تعالى فينبغي أن يعظَّم بالعبادة، وهم لم يفعلوا ﴿ إِلَّا مُكَآءً ﴾ أي صفيراً وهو فعال بضم أوله كسائر أسماء الأصوات إلا ما شذ كالنداء، من مكا يمكو إذا صفر ﴿ وَتَصْدِيَةً ﴾ تصفيقاً مأخوذٌ من الصدى، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته، روي أنهم كانوا يطوفون عراة، الرجال والنساء مشبِّكين بين أصابعهم، يصفِّرون فيها ويصفِّقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ يعني: القتل، والأسر يوم بدر، وقيل: عذاب الآخرة ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ الباء للسببية، أي بسبب كفركم وضلالكم، اعتقاداً وعملاً.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٣٧) ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كلُّ واحد منهم كلَّ يوم عشر جُزُر، أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيبت قريش ببدر، قيل لهم: أعينونا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه

ثأرنا!! ففعلوا، والمراد بسبيل الله: دينُه ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي ندماً وغماً، لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتها تصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها مبالغة، وضمير تكون للأموال على معنى تكون عاقبتها عليهم حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي في مواطن أخر بعد ذلك في الدنيا آخر الأمر، وهو من دلائل النبوة لأنه خبر قبل وقوعه فكان كما أخبر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أصروا على الكفر من هؤلاء ولم يسلموا ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يساقون لا إلى غيرها، والمقصودُ من هذا النص إخبار بأنهم لا يستفيدون من بذل أموالهم إلا الخيبة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح، واللام متعلقة بيحشرون، وقد يراد من الخبيث ما أنفقه المشركون لعداوة رسول الله ﷺ ومن الطيب ما أنفقه المسلمون لنصرته ﷺ ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضمَّ بعضه إلى بعض، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، كما يكون في الكانزين[1] ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله وأما المال المنفق في عداوة الرسول ﷺ وجعله في جهنم، لتكوى به جباههم وجنوبهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الكفار ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا ﴾ أي المعهودين، وهم أبو سفيان وأصحابه، أي قل لأجلهم ﴿ إِن يَنتَهُوا ﴾ عما هم فيه من معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من ذنوبهم التي من جملتها المعاداة، والإنفاق في الضلال، وهذا يدلُّ على أن الكافر بعد الإسلام، لا يؤاخذ بشيء مما مَرَّ، وقال ﷺ «الإسلامُ يجبُّ ما قبله»[1] ﴿ وَإِن يَعُودُوا ﴾ إلى قتاله ﷺ أو إلى المعاداة، على معنى: إن داوموا عليها ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي عاداتُ الله الجارية في الذين تحزَّبوا على الأنبياء، من نصر المؤمنين عليهم، وخذلانهم وتدميرهم.

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ عمَّ الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله سبحانه: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ من الوعيد ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ لا يوجد فيهم شرك، كما روي عن ابن عباس، والحسن، وقيل: المراد حتى لا يفتتن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ وتضمحل الأديان الباطلة كلُّها، إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا ﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان ولم ينتهوا عن الكفر ﴿ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ناصركم فثقوا ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ لا يغلب من نصره.

---

(١) هذا طرف من حديث في قصة وفاة الصحابي «عمرو بن العاص» رضي الله عنه أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ١٢١ وفيه قول النبي ﷺ: أمَا علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٩/ ١٠٥.

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤١ ﴾.

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم ﴾ روي عن الكلبي أنها نزلت في بدر، وهو الذي يقتضيه كلام الجمهور، والغُنْمُ بمعنى الربح، وكذلك المغنمُ، والغنيمةُ، وفسروها بما أُخذ من الكفار قهراً، بقتالٍ أو إيجاف فما أخذ اختلاساً لا يُسمى غنيمة ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط، خَلاَ أنَّ سَلَب المقتول للقاتل، إذا أنفله الإمام، وكذا الأراضي المغنومة ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿والله ورسُولهُ أحقُّ أن يُرْضُوه﴾ والمراد قسم الخمس على الخمسة الموصوفين في قوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وإعادة اللام في ﴿وَلِذِي القربىٰ﴾ لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبيﷺ، وقرابة النبيﷺ من بني هاشم، وبني عبد المطلب، وكيفية قسمتها أنها كانت في عهد النبيﷺ على خمسة أسهم، سهم لهﷺ، وأربعة أسهم للأصناف الأربعة، وأما بعدهﷺ فسهمه للمسلمين وكذا سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرائهم، وقيل: سهم الرسول لولي الأمر بعده، وأما الأخماس الأربعة فتقسم بين الغانمين، للراجل سهم وللفارس سهمان ﴿ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ عطف على الاسم الجليل، أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿ عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ أريد به من الملائكة والآيات ﴿ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ ﴾ أي الفريقان من المؤمنين، والكافرين، سُمِّي بالفرقان، لفرقه بين الحق والباطل ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ ومنه نصركم مع قلتكم، وكثرة أعدائكم.

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾.

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ العُدْوةُ: شَطُّ الوادي، وأصلهُ من العَدْوِ والتجاوز، والدنيا تأنيث الأدنى، أي إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأقرب إلى المدنية ﴿ وَهُم ﴾ أي المشركون ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾ أي البعدىٰ من المدينة، وهي تأنيث الأقصى ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ أي العيرُ وأصحابها «أبو سفيان» وأصحابه، وهو اسم جمع راكب ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي في مكان أسفل من مكانكم، يعني ساحل البحر، وفائدةُ هذا التوقيت الإخبارُ عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عُدَّته، وضعف شأن المسلمين، وأنَّ غلبتهم في مثل هذه الحال، ليست إلاَّ صنعاً من الله تعالى، وباهر قدرته ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال، ثم علمتم حالكم وحالهم، لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبةً منهم، ويأساً من الظفر عليهم ﴿ وَلَٰكِن ﴾ جمع بينكم على هذه الحالة من غير ميعاد ﴿ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ حقيق بأن يفعل، وهو نصر أوليائه، وقهر أعدائه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ أي ليموت من يموت عن حجة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، فلا يبقى محلٌّ للتعلل بالأعذار، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴾.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ الجمهور على أنه ﷺ أري ما أُري في النوم، وهو الظاهر المتبادر، وحكمة إراءتهم قليلاً أن يخبر أصحابه، فيكـون ذلـك تثبيتـاً لهـم ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ أي لجبنتـم ﴿ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أي أمر القتال وتفرقت آراؤكم في الثبات، والفرار ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ والمراد أنه تعالى يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجبن، والصبر والجزع، ولذلك دبَّر ما دبَّر.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ أي إذ يبصركم أيها المؤمنون ﴿ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وإنما قلّلهم في أعين المسلمين، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. قال ابن مسعود: لقد قُلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجلٍ إلى جنبي أتُراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، قلّلهم في أعينهم قبل التحام القتال، ليجترؤوا عليهم، ولا يستعدُّوا لهم، ثم كثَّرهم حتى يرونهم مثليهم، لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم، وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الواقعة، فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدِّ، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كرَّره لأن المراد بالأمر الأول، القتال على الوجه المحكي، وههنا إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ﴾ أي تصير ﴿ ٱلْأُمُورُ ﴾ فيصرّفها كيف يريد، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه، وهو الحكيم المجيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي حاربتم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء ممّا غلب استعمالُه في القتال ﴿ فَٱثْبُتُواْ ﴾ للقائهم في مواطن الحرب ولا تفروا ولا تنهزموا ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ مستمدين منه مستعينين به، مترقبين لنصره مستظهرين لذكره ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجيء إليه عند الشدائد، ويقبل عليه فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفكُّ عنه في شيء من الأحوال وفي الحديث الشريف «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا..»[1] الحديث. وإنما نهى ﷺ عن التمني، لما فيه من صورة الإعجاب، والوثوق بالقوة، ويتضمن قلة الاهتمام بالعدو وتحقيرهم، وهذا يخالف الاحتياط.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون، فيندرج فيه ما أمر به ههنا اندراجاً أولياً ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر وأُحد، تنازع القوم أي اختلفوا والتنازع أن يحاول كل واحد من الاثنين، أن ينزع صاحبه مما هو عليه ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ فتجبنوا عن عدوكم، وتضعفوا عن قتالهم ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قوتكم ودولتكم، فإنها مستعارة للدولة، من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه، مشبهة بها في هبوبها ونفوذها ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾على شدائد الحرب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بالإمداد والإعانة.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/١٠٩ ومسلم رقم ١٧٤٢ في الجهاد أيضاً.. وتتمة الحديث «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٢/٥٦٨.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ يعني أهل مكة، حين خرجوا منها لحماية العير ﴿ بَطَرًا ﴾ فخراً وأشراً ﴿ وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة، أتاهم رسول أبي سفيان وقال: ارجعوا فقد سلمت عِيْركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدراً، فنشرب فيها الخمور، وننحر الجزور، ونطعم بها مَنْ حَضَرنا حتى تهابنا العربُ، فوافوها ولكن سُقوا كأس المنايا بدل الخمر، وكانت أموالهم غنائم، والمقصود من الآية، نهيُ المؤمنين أن يكونوا أمثالهم، في البطر والرياء، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليمنعوا عن دين الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه، وفيه وعيد وتهديد.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ بأن شجّعهم على لقاء المسلمين، وزين لهم أعمالهم في معاداة المؤمنين، بأن وسوس إليهم ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ ألقى في رَوْعهم، وخيَّل إليهم أنهم لا يُغلبون، لكثرة عددهم وعُدَدِهم فالقول مجاز عن الوسوسة ومعنى ﴿ جَارٌ لكُم ﴾ أي معين وحافظ لكم، والجار الذي يجير غيره أي يؤمنه مما يخاف ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ ﴾ أي تلاقى الفريقان المسلمة، والكافرة، ورأى

اللعينُ الملائكة ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ رجع القهقرى، و ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ مَثَلٌ يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد، ففي الكلام استعارة تمثيلية، شبَّه بطلان كيده بعد تزيينه، بمن رجع القهقرى عما يخافه ﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ تبرأ منهم لمّا رأى إمداد الله لهم بالملائكة، وخاف عليهم، ويحتمل أن يكون معنى ﴿أَخَافُ اللهَ﴾ أخاف أن يصيبني بمكروه من الملائكة ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ من كلام اللعين وهو الظاهر، وكذب عدوُّ الله في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ فلو خاف الله لعبده وأطاعه، ولكنه أراد أن يبرّر سبب انهزامه من المعركة.

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي الذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد، وبقي في قلوبهم شبهة ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعنون المؤمنين الذين مع الرسول ﷺ ﴿ دِينُهُمْ ﴾ حتى تعرضوا لما لا قدرة لهم عليه، فخرجوا وهم ثلاثمائة وسبعة عشر إلى زهاء الألف، توهماً أنهمُ ينصرون بسببه، روي عن الحسن أن هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر، وأهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب لهم، وردٌّ لمقالتهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يذلُّ من استجار به، ولا يُخذل من توكل عليه ﴿حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته ما تستبعده العقول، وتحار في فهمه ألباب الفحول.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ خطاب للنبي ﷺ أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب، والمضارع هنا بمعنى الماضي، لأن «لو» تردُّ المضارع ماضياً أي ولو رأيت ﴿ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ببدر والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو ترى حالهم حين تقبض أرواحهم الملائكة ﴿ يَضْرِبُونَ

﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، يعني جميع أجسادهم، ويقولون: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، فهو بشارة لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمرّ، مما هم فيه، والتعبيرُ ﴿ذوقوا﴾ قيل: للتهكم، وفيه نكتة أخرى، وهو أنه قليل من كثير، وأنه مقدمة وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة، وجواب لو محذوف، أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف.

﴿ذَلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، و «ظلّام» لنفي الظلم بأنواعه، وهي للنسبة مثل: البزّاز، والعطّار، والنجّار، أي لا يُنسب إليه الظلم أصلاً.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وشأنُهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب منوطاً بأعمالهم السيئة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي

ذلك كائن بسبب أن الله تعالى ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ أي لم ينبغ له سبحانه، ولم يصح في حكمته، أن يكون بحيث يغير نعمة أيّ نعمة كانت أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من الأقوام ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي ذواتهم من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها، وقت ملابستهم للنعمة، ويتصفوا بما ينافيها، كحال قريش المذكورين، حيث كانوا قبل البعثة عبدة أصنام، مستمرين على حال مصححة، لإفاضة نعم الإمهال، فلما بُعث النبي ﷺ غيّروها على أسوأ حال منها حيث كذبوه ﷺ وعادوه ومن تبعه من المؤمنين، وتحزّبوا عليهم، وقطعوا أرحامهم، فغيّر الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال، ووجّه إليهم نِبال العقاب والنّكال، وأصل ﴿يكُ﴾ يكن فحذفت النون تخفيفاً لكثرة استعماله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وبسبب أنه تعالى سميع عليم، يسمع ويعلم جميع ما يأتون ويذرون.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ التكرار للتأكيد، وقيل: الأول فيما فعلوه، والثاني فيما فُعل بهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ إخبار بترتب العقوبة عليه ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي معاصيهم المتفرعة على كفرهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ عطف على أهلكنا وفيه إيذان بكمال هول الإغراق ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل من الأمم المكذبة ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعصية، وهم الواضعون الكفر والمعصية مكان الإيمان والطاعة، ولذلك أصابهم ما أصابهم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ بعدما شرح أحوال المهلكين، شرع في بيان أحوال البعض منهم، وجُعلوا شر الدواب لا شر الناس، إيماء إلى أنهم بمعزل

من مجانستهم، وإنما هم من جنس الدواب، ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أصرُّوا على الكفر، ولجُّوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فلا يتوقع منهم الإيمان لأنهم مطبوعون على الكفر عن ابن عباس: هم نفر من عبد الدار.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ المعاهدة هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين، أي أخذت منهم عهدهم بأن لا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض، وكونهم على نية في كل حال، أي ينقضون عهدهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله في غدرهم، ويستمرون على النقض، ولا يبالون بما فيه من العار والنار، والآية نزلت في يهود بني قريظة، عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح فقالوا نسينا، ثم عاهدهم ﷺ فنكثوا ومالؤوا عليه ﷺ يوم الخندق، وركب كعب إلى مكة فحالفهم على حرب رسول الله ﷺ.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم، أي إذا كان حالهم كما ذكر فإمّا تظفرنّ بهم ﴿فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ أي ففرق تفريقاً عنيفاً، بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب، ما يوجب أن تنكل ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي من وراءهم من الكفرة، والتشريدُ: التفريق مع الاضطراب فالمعنى: إن ظفرت بهؤلاء الذين ينقضون العهد مراراً فافعل بهم فعلاً ليخاف من وراءهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون بهم، فيرتدعوا عن النقض وعن الكفر.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٨)﴾.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي فاطرح إليهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ على طريق مستوٍ، بأن تظهر لهم النقض، كي لا يكون من قبلك شائبة خيانة[1] ولزومُ الإعلام عند أكثر العلماء، إذا لم تنقض مُدَّة العهد، أو لم يستفضْ نقضُهم له، أمَّا إذا انقضت المدة، أو استفاض النقض وعلمه الناس، فلا حاجة إلى ما ذُكر، ولهذا غزا النبي ﷺ أهل مكة، من غير نبذ لمعاونتهم بني كنانة، على قتل خُزاعة، حلفاء النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليل الأمر بالنبذ، كأنه قيل: وإما تعلمنَّ من قوم خيانة، فانبذ إليهم، ثم قاتلهم، إن الله لا يحب الخائنين، وهم من جملتهم، وعن عمر بن عنبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يشدَّ عقده، ولا يحلّها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»[2].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) قال النحاس في إعراب القرآن ٢/١٩٢: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثلُه، على اختصاره وكثرة معانيه، والمعنى: إمَّا تخافنَّ خيانة من قوم بينك وبينهم عهد، فانبذ إليهم العهد، أي قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة، فأوجز الله ذلك كله في هذه الآية الكريمة ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ ولله دَرُّ التنزيل.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/١١١ وأبو داود في الجهاد ٣/٨٣ والترمذي في السير ٥/٢٠٣.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي لا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين، أي مفلتين من أن يُظفر بهم، والاقتصار على دفع هذا التوهُّم، للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حول وهمهم، وإنما الذي يمكن أن يدور في خلدهم حب النجاة من الهلاك ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ في أنهم في قبضة الله عز وجل، لا يعجزون الله من الانتقام في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم﴾ خطاب لكافة المؤمنين، أي أعدُّوا لقتال الكفار على الإطلاق ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل ما يُتقوى به في الحرب أُطلق عليه القوة مبالغةً، وإنما ذكر هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبّهوا على أن النصر من غير استعداد، لا يتأتّى في كل زمان، عن عُقبة بن عامر أنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وأعدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ «ألاَ إنَّ القوّة الرميُ، قالها ثلاثاً»[1] والظاهر العموم، إلا أنه خصَّ الرمي وهو من قبيل قوله ﷺ: «الحجّ عرفة» فهذا لا ينفي غيره، لأن معنى الآية على وجوب الاستعداد لجهاد العدو، بجميع ما يمكن من الآلات، وكل ذلك من فرض الكفاية، والتاريخ سجَّل السيف سلاحاً في الحروب، ومرت العصور، وتطوَّر السلاح إلى السيارات المدرَّعة، والطيارات القاذفة، والغواصات المدمرة، والغازات الخانقة وغيرها، والشعوب الإسلامية مشمولة بهذا النداء الإلّهي ﴿وأعدُّوا﴾ فالمراد من القوة معنى شامل لأنواع القوى، فقد عمَّ الداء العُضالُ، واشتد النكال، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال، وتعيَّن على أئمة المسلمين الاستعداد التام، ولعل فضل ذلك الرمي، يثبت لهذا الرمي في زماننا، لقيامه مقامه في الذبِّ عن بَيضة الإسلام ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تربط

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ١٣/ ٦٤ بلفظ «ألاَ إنَّ القوةَ الرميُ، ألاَ إنَّ القوةَ الرميُ، ألاَ إنَّ القوةَ الرميُ» كررها ثلاث مرات، ورواه أبو داود رقم ٢٥١٥ وابن ماجه رقم ٢٨١٣ ولم يخرجه البخاري.

في سبيل الله، والرباط بالكسر ما تشدُّ به الدابة، والمراد به هنا: المربوط مطلقاً، إلا أنه استعمل في الخيل، وخُصَّ بها لأنها آلة الجهاد في كل زمان، والعطف على القوة للإيذان بفضلها على سائر أفرادها، كعطف جبريل على الملائكة، في قوله سبحانه: ﴿مَنْ كانَ عَدُوّاً لله ومَلاَئِكتِهِ، وَرسُلِهِ، وجبْرِيل وميكال، فإن الله عدوٌّ للكافرين﴾[1] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي تخوّفون به ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم كفار مكة خُصُّوا بذلك لغاية عتوهم، ومجاوزتهم الحدَّ في العداوة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة قيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون، وقوله سبحانه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي يعلمهم على الحقيقة، ويعلم خطرهم وضررهم، وما هم عليه من العداوة ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعداد القتال أو لسائر وجوه الخير ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يؤدى بتمامه إليكم جزاؤه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب، وفي التعبير عن ذلك بالظلم، مع أن له تعالى أن يفعل ما يشاء، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك.

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾.

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ﴾ جَنَحَ: مال، أي وإن مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ للصلح والاستسلام ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ للسلم أي فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فوّضْ أمرك إليه سبحانه، فإن الله يعصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، فيؤاخذهم بما يستحقونه، ويردُّ كيدهم في نحورهم.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٨.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بإظهار السِّلم والمحبة، وإبطان الحرب والكيد ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ فاعلم بأن الله كافيك من شرورهم، وناصرك عليهم، فلا تبال بهم ﴿هُوَ﴾ عزَّ وجل ﴿ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ تعليل لكفايته تعالى إياه ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ مع ما جُبلوا عليه من الحميَّة والعصبيَّة، والتهالك على الانتقام، بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة(١) ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ لتأليف ما بينهم ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ لتناهي عداوتهم، وقوة أسبابها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ جلَّت قدرتُه ﴿أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ قلباً وقالباً ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ كامل القدرة والغلبة، لا يستعصي عليه سبحانه شيء مما يريده ﴿حَكِيمٞ﴾ يعلم المصالح فيوجدها بمقتضى حكمته عزَّ وجلَّ، ومن آثار حكمته تدبير أمورهم، على وجه أحدث فيهم التوادَّ والتحاب، فاجتمعت كلمتهم وصفوفهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

---

(١) لا شك أن تأليف القلوب مع ما كانوا عليه من العداوة والبغضاء، من أعظم الآيات الربانية، فقد كانت الدماء تجري بينهم كالأنهار، حتى جاءهم الإسلام فجعلهم إخوة متحابين في الله، وانظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٤/ ٥١٤ فقد أجاد فيه وأفاد، وكذلك الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٤٦٨.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ شروعٌ في بيان كفايته تعالى إياه، في جميع أموره الظاهرة والباطنة ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ أي كافيك الله في جميع أمورك ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كفاك وكفى أتباعَك اللهُ ناصراً، والآية نزلت في غزوة بدر حيث نصر الله جنده وأولياءه المؤمنين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ التحريضُ على القتال: الحثُّ عليه، أي بالغ في حثهم على القتال في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله المأمور به ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ شرط في معنى الأمر، بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا، بعون الله وتأييده، فالجملة خبرية لفظاً إنشائية معنىً، وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بيان للألف، وهذا القيد معتبر في المائتين أيضاً ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر، لا يثبتون عند اللقاء ثبات المؤمنين، رجاء الثواب، ولا يقاتلون امتثالاً لأمر الله تعالى، بل للحمية الجاهلية.

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ﴾ شَقَّ ذلك على المسلمين، حين فُرِضَ عليهم أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيف فقال تعالى: ﴿الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً..﴾ فلما خفَّف الله عليهم من العِدَّة، نقص من الصبر بقدر ما خُفف عنهم[1] والمراد هنا بالضَّعف ضعفُ البدن، لا الضعفُ في الدين وقوله: ﴿بإذْنِ الله﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، ولمَّا كان الصبر شديد الأهمية، ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿والله مَعَ الصَّابرينَ﴾ إشارة إلى تأييدهم، وأنهم منصورون، لأنَّ من كان الله معه لا يُغلب ولا يُقهر.

---

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ٨/ ٣١٤ كتاب التفسير.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ بيان أنَّ ما يُذكر، سُنَّة مطَّردةٌ فيما بين الأنبياء، أي ما صحَّ وما استقام لنبيٍّ من الأنبياء ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ جمع أسير ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي يكثر القتل، ويبالغ فيه، حتى يُذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله، من أثخنه المرضُ إذا أثقله وأثخنته الجراحة أي أوهنته بحيث لا حراك به، وأثخن في الأرض سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ مسوق للعتاب ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه، وقمع أعدائه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغلِّب أولياءَه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يليق بكل حال، ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء، حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المنِّ بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بعدُ وإمَّا فداء﴾ لمَّا تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين، عن ابن مسعود قال: لمَّا كان يوم بدر، جيء بالأسرى وفيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: ما ترون بهؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومُك وأهلك، استبقِهم لعلَّ الله تعالى أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذَّبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، مكنَّا منهم نضربْ أعناقهم، فدخل النبي ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً، ثم خرج ﷺ فقال: إنَّ الله تعالى يليِّن قلوب رجال فيه حتى تكون ألينَ من اللَّبنِ، وإنَّ الله ليشدِّد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر مثلُ إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثلك يا

عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ أنتم عالة فلا يفلتنَّ أحد إلاَّ بفداء. قال عمر: فَهَوِي رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فقال ﷺ: على أصحابك في أخذهم الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، فأنزل الله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى..﴾[1] الآية. روي أن الأسارى كانوا سبعين، فيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، وكان الفداء لكل أسير أربعون أوقية، والأوقية أربعون درهماً، فيكون مجموع ذلك ألفاً وستمائة درهم لكل أسير.

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده، أو لا يعذب أهل بدر ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ أي لأصابكم ﴿ فِيمَآ أَخَذْتُمْ ﴾ أي لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره، لكن الذي تسبب العفو عنه، كل ما ذكر واستدل بالآية على أن الأنبياء عليهم السلام قد يجتهدون ويأتي الوحي على خلافه، ولا يقرون على الخطأ.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم، روي أنه لما نزلت الآية الأولى، كفَّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء، فنزلت هذه الآية، فالمراد مما غنمتم إما الفدية وإما مطلق الغنائم ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ أكلاً حلالاً طيباً، وفائدة الإحلال إزاحة ما وقع في نفوسهم منه، بسبب تلك المعاتبة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في مخالفته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم، من استباحة الفداء قبل ورود الإذن ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه.

---

(١) أخرجه مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب ٣/ ١٣٨٣، ورواه الترمذي مختصراً ٥/ ٢٥٣.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم ﴾ في ملكتكم واستيلائكم، كأنَّ أيديكم قابضة عليهم ﴿ مِّنَ الْأَسْرَىٰ ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء ﴿ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ إيماناً وإخلاصاً، ونيةً صحيحة، ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ من الفداء، والآيةُ نزلت في جميع أسارى بدر، وقيل: إنها نزلت في العباس، وقد روي عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: كنتُ مسلماً، لكنْ استكرهوني!! فقال ﷺ له: إن يكن ما تقول حقاً فالله تعالى يجزيك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك وابني أخويْكَ «نوفل بن الحارث» و «عقيل بن أبي طالب»[1]. وروي عنه أنه قال بعد حين: «لقد أبدلني الله خيراً من ذلك، وإني أنتظر من ربي»[2] يعني الموعود بقوله تعالى: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن آمن وتاب، والظاهر أن الآية

(١) لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر، كان معه عشرون أوقية من ذهب، فأُخذت منه ولم تُحسب من فدائه، وكُلف أن يفدي ابنيْ أخيه نوفل، وعقيل، فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب، وقال النبي ﷺ لأصحابه: أضعفوا على العباس الفداء ـ أي خذوه مضاعفاً منه ـ فأخذوا منه ثمانين أوقية، فقال العباس لرسول الله ﷺ: «لقد تركتني أتكفَّف الناسَ ما بقيتُ»!! فقال له ﷺ: وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أيّ الذهب؟ فقال: إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حَدَث فهو لكِ ولولدكِ، فقال: يا ابن أخي من أخبرك بهذا؟ قال: ربي أخبرني بذلك، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمتُ أنك رسول الله قبل اليوم، فأسلم رضي الله عنه، وأمر ابني أخيه أن يسلما، ففيهم نزلت ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى . . ﴾ الآية» وانظر صفوة التفاسير ١/ ٥١٣ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤١.

عامة لسائر الأسرى على ما تقتضيه صيغة الجمع، ولا يأبى ذلك رواية أنها في العباس، لما قالوا من أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ ﴾ أي الأسرى ﴿ خِيَانَتَكَ ﴾ بما أظهروا من القول، أي نقض ما عاهدوك من ألاّ يعودوا لمحاربتك، ولا إلى معاضدة المشركين ﴿ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ ﴾ بالكفر ونقض ميثاقهم ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل بدر، فهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته ﷺ بطريق الوعد له، والوعيد لهم، روي أنه ﷺ لما أطلقهم من الأسر تعاهد معهم أن لا يعودوا إلى محاربته ﷺ ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ أي فإن عادوا للخيانة، فسأمكّنك منهم أيضاً، وأقدرك عليهم حسبما رأيتَ يوم بدر ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في صنعه يفعل بحكمته كل ما يفعله.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ ﴾ هم المهاجرون، هاجروا من أوطانهم حباً لله ولرسوله ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ بأن صرفوها إلى المجاهدين والسلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ متعلق بجاهدوا، ولعلَّ تقديم الأموال، لما أن المجاهدة بالأموال أكثر، وأتمُّ دفعاً للحاجة، حيث لا تتصوّر المجاهدة بالنفس، بلا مجاهدة بالمال، وقيل: ترتيب هذه المتعاطفات في الآية، على حسب الوقوع، فالأول الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد بالمال، ثم بالنفس ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ ﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين، وأنزلوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم ﴿ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ ونصروهم على أعدائهم

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ في النصرة والإرث، وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب، كما هو المروي عن ابن عباس والحسن وقتادة فإنهم قالوا: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاري، إذا لم يكن بالمدينة وليٌّ مهاجري واستمرَّ أمرهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ أي من توليهم في الميراث، فلا إرث بينهم، ولا نصيب لهم في الغنيمة، ولو كانوا من أقرب أقاربكم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ إلى المدينة المنورة ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ﴾ منهم ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾ أي معاهدة، فإنه لا يجوز نقض عهدهم، بنصرهم عليهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فلا تخالفوا أمره، كيلا يحلَّ بكم عقابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ أي في الميراث، وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين، ولو كانوا أقارب، ومن هنا ذهب الجمهور إلى أنه لا يرث مسلم كافراً، ولا كافرٌ مسلماً، لقد كان كفار قريش في غاية العداوة لليهود، فلمَّا ظهرت دعوة الرسول ﷺ، تناصروا وتعاونوا على إيذائه، واشتركوا في العداوة، فصارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ أي إن لا تفعلوا ما أُمرتم به من التواصل بينكم، وتولّي بعضكم لبعض، وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي تحصل فتنة عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على العدو، كان العدو ظاهراً، والفساد زائداً ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ في الدين وهو سفك الدماء، والفساد يحصل من اختلاف الأفكار.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾ أي هم المؤمنون الكاملون حقاً، لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة من الوطن، ومفارقة الأهل والسَّكن، والانسلاخ من المال والدنيا، لأجل الدينِ والعقبى، وهو كلام مسوق للثناء عليهم، والشهادة بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة لا تبعة ولا منة فيه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي بعد السابقين إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة ﴿ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار، ألحقهم الله تعالى بالسابقين، تفضلاً منه سبحانه، وترغيباً في الإيمان والهجرة، وهي الهجرة الثانية بعد الحديبية، وهم التابعون بإحسان، وفيه إشارة إلى أن السابقين، هم السابقون بالشرف، وأن هؤلاء دونهم فيه، وبهذا القسم صارت أقسام المؤمنين أربعة، والتوارث إنما هو في القسمين الأوَّلَيْن، ولو اتفق كون المؤمنين في بلد، وفي عددهم قلة، وللكفار شوكةٌ، فيلزمهم الهجرة من وطنهم، لأنه قد حصل فيهم مثال العلة في الهجرة الأولى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القرابة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الأجانب، وهو نسخٌ للتوارث بالهجرة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ أي في حكمه في القرآن، أخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية، فتركوا ذلك، وتوارثوا بالنسب، واستدل بها على توريث ذوي الأرحام، الذين ذكرهم الفرضيون، وهم من لا فرض لهم ولا

تعصيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن جملته ما في تعليق التوارث، بالقرابة الدينية أولاً، وبالقرابة النسبيَّة آخراً، من الحِكَم البالغة، والله تعالى ولي التوفيق، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على خير خلقه محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنفال»

* * *



مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

سورة مستقلة ليست بعضاً من سورة الأنفال، وتركُ التسمية في هذه السورة لا مدخل لرأي أحد فيه، وإنما هو الوحيُ، ولا مِزية في عدم نزولها ههنا[1]، وليس المقصود ههنا إلاّ إظهار صفة القهر، ولا يتأدى ذلك مع افتتاح بالبسملة.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ ﴾.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ هذه براءة واصلة من الله ورسوله، وأصل البراءة انقطاع العصمة ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الخطاب في

---

(١) إنما لم توجد البسملة في هذه السورة، لأنها ابتدأت بالوعيد والتهديد والعذاب، وبسم الله الرحمن الرحيم آية رحمة، ولا تناسب بين الرحمة والعذاب، فهذا هو السرُّ في عدم ذكر التسمية في هذه السورة، وقد سئل علي رضي الله عنه فقيل له: لمَ لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال للسائل: يا بُنيّ إن «براءة» نزلت بالسيف، والتسميةُ رحمة، والرحمةُ أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين.

﴿عَـٰهَدتُّم﴾ للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي العرب، بإذن الله واتفاق الرسول ﷺ، فنكثوا إلا بني كنانة وبني ضمرة، وإنما نسبت البراءة إلى الله ورسوله لأنها عبارةٌ عن إنهاء حكم الأمان، وذلك منوط بحكم الله عز وجل، لأنه أمر كسائر الأوامر، واشتراك المسلمين في حكمها، إنما هو على طريقة الامتثال بالأوامر، وأما المعاهدة فحيث كان عقداً لا يتحصل في نفسه إلا بمباشرة المتعاقدين، لم يتصور صدورها عنه سبحانه، وإنما الصادر عنه الإذن، والذي يباشرها المسلمون، فنُسبت كلٌّ واحدة منهما إلى من هو أصل فيها، وإدراج النبي ﷺ في النسبة الأولى للتنويه بشأنه، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوامها على أن في ذلك تفخيماً لشأن البراءة، وتهويلاً لأمرها.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصَفر، وربيع الأول، وعشرٌ من ربيع الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر، والمقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا، ويحتاطوا لأنفسهم، ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام، أو القتل، فيصير هذا داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام، روي أنه ﷺ أراد أن يحج سنة تسع، فقيل له: المشركون يحضرون الحج ويطوفون بالبيت عراة، فبعث أبا بكر في تلك السنة أميراً على الموسم، ليقيم للناس الحج، ثم بعث بعده علياً. أخرجه أحمد والترمذي وحسَّنه عن أنس قال: بعث النبي ﷺ ببراءة مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحدٍ أن يبلغ هذا إلاَّ رجلٌ من أهلي، فدعا علياً فأعطاه إياه ليقرأ على الناس صدر براءة، فلما لحق علي قال أبو بكر رضي الله عنه: أمير أو مأمور؟ قال علي: مأمور، فمضيا فلما كان يوم التروية خطب أبو بكر، وعلَّم الناسَ مناسكهم، وقام علي يوم النحر عند حجرة العقبة، فقال: أيها الناس إني رسولُ رسولِ الله إليكم فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، من أول سورة براءة، ثم قال: أُمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، وألاَّ يطوف بالبيت عُريان، ولا

يدخل الجنة إلا كلُّ نفس مؤمنة، وأن يُتَمَّ لكل ذي عهد عهده[1]، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ﴾ بسياحتكم في أقطار الأرض ﴿غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي غير فائتين عذابه، بالهرب والتحصُّن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ووضع اسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ موضع الضمير، لتربية المهابة، وتهويل أمر الإخزاء.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾.

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي إعلامٌ، فَعَالٌ بمعنى الإفعال، كالعطاء بمعنى الإعطاء وإنما قال: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي كافة، لأن الأذان غير مختص بقوم، كالبراءة الخاصة بالناكثين، بل هو شامل لجميع الناس ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يوم العيد، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، لما أخرج البخاري وأبو داود وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات، فقال: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال هذا يوم الحج الأكبر»[2] ووصفُ الحج بالأكبر، لأن العمرة تسمى حجاً أصغر، وأمَّا تسمية الحج الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة بالأكبر، فلم يذكروها، وإن كان ثواب ذلك الحج

---

(١) انظر سنن الترمذي ٥/ ٢٥٧ من كتاب التفسير، ومسند الإمام أحمد ١/ ٧٩ أقول: وإنما بعث ﷺ علياً بعد أبي بكر، من أجل أن عادة العرب قد جرت في عقدها ونقض العهد، أن يتولى ذلك رجلٌ من نفس القبيلة، فلهذا بعث علياً ليؤذن المشركين بذلك، وليس فيه ـ كما زعم بعض الجهلة ـ تفضيل عليٍّ على أبي بكر، فقد كان أبو بكر في ذلك العام الإمام، وعليٌّ يأتمُّ به، وأبو بكرٍ الخطيب، وعليٌّ يُسْمِع الناس.

(٢) انظر فتح الباري على البخاري ٨/ ٣٢٠.

زيادةً على غيره ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من المعاهدين الناكثين ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ورسوله كذلك بريء من المشركين ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر بنقض العهد، والالتفاتُ للتهديد ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي التوبة خير لكم في الدارين ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان والتوبة ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه طَلَبًا، ولا تعجزونه هَرَباً ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم في الآخرة، والتعبيرُ بالبشارة للتهكم والسخرية.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ استدراك من النبذ السابق، كأنه قيل: لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر، لكنِ الذين عاهدتم من المشركين، ولم ينقضوا عهدهم، فلا تُجروهم مجرى الناكثين، في المسارعة إلى قتالهم، بل أتمُّوا إليهم عهدهم، وهم «بنو ضَمْرة» من كِنانة، أمر الله تعالى بإتمام عهدهم، وكان بقي من مدتهم تسعة أشهر ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهد والميثاق ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾ أي ولم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ أي أدُّوا إليهم العهد كاملاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي إلى انقضائها، ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضي الأجل المضروب للناكثين، ولا تعاملوهم معاملتهم، وهذه الطائفة لما أنفوا النكث، استحقوا من الله تعالى أن يُصان عهدهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أن مراعاة حقوق العهد، من باب التقوى، وإن كان المعاهد مشركاً، وأن التسوية بين الغادر والوفيّ، منافيةٌ لذلك.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ انقضى وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابَسَه، يقال: سلختُ الإهاب عن الشاة أي كشطته ونزعته عنها، والانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة، وفي ذلك مزيد لطف، لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر، كانت حرزاً لأولئك المعاهدين، عن غوائل أيدي المسلمين، فَنِيطَ قتالهم بزوالها. ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهود، أو الآية على العموم، أي قاتلوا المشركين كافة، واقتلوا الكفار مطلقاً ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حِلٍّ وحَرَم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي بالأسر، والأخيذُ: الأسيرُ، وفُسِّر الأسرُ بالربط، لا لا باسترقاق، وقيل: المراد إمهالهم للتخيير بين الإسلام، والقتل ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي احبسوهم في القلاع والحصون، حتى يُضطروا إلى الإسلام أو القتل ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي كلَّ ممر، لئلا ينبسطوا في البلاد، والقعود ليس المراد حقيقة، بل المراد ترقبهم وترصدهم، فالمعنى: ارصدوهم في كل مرصد يُرصد فيه ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ طيبةً بهما أنفسهم، تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم، واكتفى بذكرهما لكونهما رأسَ العبادات البدنية، والماليّة ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة، ومانع الزكاة لا يُخلى سبيله، وتخلية السبيل في كلام العرب: كنايةٌ عن الترك، ونُقل عن الشافعي أنه استدلَّ بالآية، على قتال تارك الصلاة، وقتال مانعي الزكاة، لأنه تعالى أباح دماء الكفار بجميع الأحوال، ثم حرَّمها عند التوبة عن الكفر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ولعل أبا بكر رضي الله عنه استدلَّ بها على قتال مانعي الزكاة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف، ويثيبهم بإيمانهم وطاعتهم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك عن القتل، وطلب منك جوارك، للتعرف على أمور الدين، بعد انقضاء الأشهر، من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي فآمنْهُ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يتدبَّر ويطَّلع على حقيقة الأمر، ويعرف دين الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ بعد سماع كلام الله، إنْ لم يؤمن ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ أي موضع أمنه، وهو ديار قومه، التي يأمنون فيها، ثم يجوز قتالهم وقتلهم فيه، والآية دليلٌ على أن المستأمن، لا يؤذى، وليس له الإقامة في دار الإسلام، ويُمكَّنُ من العودة إلى وطنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان، وما حقيقة الدين الذي تدعوهم إليه، فلا بدَّ من أمانهم، ريثما يسمعون كلام الله تعالى ويتدبرونه، ولا يبقى لهم معذرة، قال الحسن: هذه الآيةُ محكمةٌ إلى يوم القيامة، واختلف في مقدار مدة الإمهال، فقيل: أربعة أشهر، وقيل: مفوّضٌ إلى رأي الإمام، ولعله الأشبه.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ⑦﴾.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ كيف استفهام بمعنى إنكار الوقوع لا الواقع، والمراد بالمشركين الناكثون، لأن البراءة إنما هي في شأنهم، أيْ على أيِّ حالٍ يوجد لهم ﴿عَهْدٌ﴾ معتدٌّ به ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ يستحق أن تُراعى حُقوقه، ولا يتعرض لهم أخذاً ولا قتلا؟ أي كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر، فلا تطمعوا في وفائهم وتمسكهم بالعهد ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ﴾ أي لكنِ الذينَ عاهدتم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهم المستثنون فيما سلف، والتعرض لكون المعاهدة ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لزيادة بيان عظم شأنها، وحرمة المعاهدة ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾

أي مدة استقامتهم لكم، استقيموا معهم بالوفاء بالعهد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهود، ويخافون الموعود.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿كَيْفَ﴾ تكريرٌ للاستنكار، وفائدة التكرار التأكيد بعدم الثقة بعهودهم ووعودهم، أي كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله وعند رسوله ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ أي لا يراعوا في شأنكم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي حِلفاً، ولا عهداً، ومعنى ﴿يَظهَرُوا عَليكُم﴾ أي يغلبوكم وينتصروا عليكم، وأصلُ الرقوب: النظرُ بطريقِ الحِفظ والرعاية، ومنه الرقيبُ، ثم استعمل في مطلق الرعاية، والإِلُّ: بكسر الهمزة: العهدُ والقرابةُ، أي لا يخافون الله، ولا يراعونه فيكم، والذمَّةُ: الحقُّ الذي يُعاب، ويُذمُّ على إغفاله، وسمي به لأن نقضه يوجب الذمَّ، فالمعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد، على كلٍّ من المتعاهدين، مشروطٌ بمراعاة الآخر لها، فإذا لم يراعها المشركون، فكيف تراعونها أنتم؟ ولمَّا كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر، موهماً للرعاية عند عدمه، بيَّن أنهم في حالة العجز، أيضاً، ليسوا من الوفاء في شيء، وأنَّ ما يُظهرونه لكم، مداهنةٌ لا مُهادنة ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يقولون بأفواههم كلاماً حلواً، بالوعد بالوفاء بالعهد، ويؤكّدون ذلك بالأيمان الكاذبة، ويتعلّلون عند ظهور خلافه، بالمعاذير الكاذبة، وتقييدُ الإرضاء بالأفواه، للإيذان بأنَّ كلامهم، مجرد ألفاظٍ يتفوَّهون بها، من غير أن يكون لها مصداقٌ في قلوبهم ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ما يتفوه به أفواههم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون للعهد ومتمرِّدون، ليست لهم مروءةٌ رادعة، ولا عقيدة وازعة، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التحامي عن الغدر، ووصفُ الكفرة بالفسق في غاية الذم.

﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝١١ ﴾.

﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي استبدلوا بالقرآن وآياته الآمرة بالاستقامة، تركوها وأخذوا بدلها ﴿ ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ عوضاً يسيراً، وهو اتباع الهوى والشهوات، والجملةُ كالتعليل لقوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ لأن من فسق وتمرَّد، اتَّبع الهوى والشهوات، والركون إلى اللذات ﴿ فَصَدُّواْ ﴾ أي صرفوا ومنعوا غيرهم عن الإيمان ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ أي عن دينه الموصل إلى الله تعالى ﴿ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي بئس ما كانوا يعملونه، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ أي عملهم هذا القبيح.

﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ ﴾ نعى عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين مطلقاً، أي لا يراعون في قتل مؤمن ـ لو قدروا عليه ـ عهداً ولا ذمة ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما عُدِّد من الصفات السيئة ﴿ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾ المجاوزون الغايةَ القصوى من الظلم والبغي.

﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ عن الكفر، وسائر العظائم، كنقض العهد وغيره ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ على الوجه المأمور به ﴿ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ أي لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الإخوان، وفيه استمالتهم ما لا مزيد عليه، وبها استدل على تحريم دماء أهل القبلة، وقتال من ترك الصلاة أو الزكاة، قال ابن مسعود: «أمرتم بالصلاة والزكاة، فمن لم يزكِّ فلا صلاة له». ومما يدلُّ عليه ما روي عن أبي هريرة أنه قال: لما توفي النبي ﷺ، واستُخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: «كيف تقاتل الناسَ، وقد قال ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا «لا إله إلاّ الله» فمن قال: «لا إله

إلا الله» عصم مني مالَه ونفسَه، إلاّ بحقه، وحسابُه على الله تعالى» فقال أبو بكر: واللهِ لأقاتلنَّ من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حقُّ المال، واللهِ لو منعوني عَنَاقاً ـ أنثى المعز ـ كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فواللهِ ما هو إلاّ أن رأيتُ أنَّ الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»[1] ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي نبيِّنها والمراد بها الآيات المتعلقة بأحوال المشركين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتفكرّون فيها.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ أي وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وأظهروا ما في ضمائرهم من الشرِّ ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب، وتقبيح الأحكام، وتوجيه الطعن إلى الدين نفسه، ومن ذلك الطعن بالقرآن، وذكر النبي ﷺ بسوء، فيقتل الذمي به، استدلالاً بالآية ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع ﴿أئمّةَ الكُفرِ﴾ موضع الضمير، للدلالة على أنهم أهلُ الرياسة والتقدم بالكفر، أحقاء بالقتل، وتخصيصُهم بالذكر، لأن قتلهم أهمُّ ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا عهود لهم ولا وعود على الحقيقة، وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذميَّ إذا طعن في الإسلام، فقد نكَثَ عهدَه ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فقاتلوا﴾ أي قاتلوهم إرادة أن ينتهوا، أي ليكنْ غرضكم من القتال انتهاؤهم عما هم عليه من الكفر، لا مجرد الأذية لهم والترجي من المخاطِبين، لا من الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢١٧/١٣ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠ وفي رواية «لو منعوني عِقَالاً» وهو الحبل الذي يربط به البعير.

﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) ﴾.

﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ ﴾ تحريض على القتال لأن همزة الاستفهام فيه للإنكار وقد دخل بعدها النفي، ونفي النفي إثبات، فيفيد الحث والتحريض عليه أي فقاتلوا ﴿ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ ﴾ وهم كفار مكة، نكثوا أيمانهم التي عقدوها في الحديبية مع الرسول ﷺ والمؤمنين، على أن لا يعاونوا عليهم، فعاونوا حلفاءهم «بني بكر» على «خزاعة» حلفاء رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿ وَهَمُّواْ ﴾ أي عزمت قريش ﴿ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ من مكة، حين تشاوروا في أمره بدار النَّدْوة ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بقتال خزاعة، والبادي أظلم. ذكر سبحانه ثلاثة أمور، كل منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد، فكيف بها حال الاجتماع؟ ثم زاد ذلك بقوله ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ أي أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم؟ ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ أي فالله أحقُّ بأن تخشوا عقوبته، بمخالفة أمره، وترك قتال عدوه؟ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فقاتلوا أعداءه، فإن قضية الإيمان أن لا يخشى المؤمن إلاَّ منه سبحانه.

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ ﴾ أمرٌ بالقتال بعد بيان موجبه، والتوبيخ على تركه ﴿ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ وعدٌ لهم إن قاتلوهم بالنصر عليهم، والتمكن من قتلهم وإذلالهم، تشجيعاً لهم، وتثبيتاً لقلوبهم ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني خُزاعة وبطوناً من اليمن وسبأ، قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا فإن الفرج قريب، والظاهر أنه على العموم، لأن كل مؤمن يُسرُّ بقتل الكفار وَهَوَانهم.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكاره والمكايد، وقد أوفى الله بما وعدهم، ووقوع ما أخبر عنه معجزة عظيمة، وفي ذكر الأيدي لتكون البشارة بالتعذيب على الوجه الأتم، الذي يترتب عليه شفاء الصدور، إذْ فرقٌ بين تعذيب العدو بيد عدوه، وتعذيب العدو بيد غيره، فالأول أشفى، وأوقع في النفس ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره، ويتوب الله تعالى عليه، فإن القتال كما تسبّب لتعذيب أناس، تسبَّب لتوبة قوم آخرين، فقد أسلم ناس، وحَسُنَ إسلامهم، منهم أبو سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسهل بن عمرو، وهم كانوا أئمة الكفر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلاَّ على وفق الحكمة والمصلحة، فامتثلوا أمره عز وجل، واغتنموا منافع الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، أي بل أحسبتم وظننتم أيها المؤمنون ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ على ما أنتم عليه، ولا تؤمرون بالجهاد، ولا تمتحنون، ليظهر الصادقُ من الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ علم ظهور ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ أي ولم يتبيَّن الخُلَّص منكم، وهم الذين جاهدوا من غيرهم؟ والمعلوم هو الجهاد، إذ لو وقع جهادهم، علم الله تعالى ذلك لا محالة، ومفاد الآية: هل تظنون يا معشر المؤمنين أن يترككم الله بدون امتحان، يتبيّن فيه الصادق من الكاذب، ولم تجاهدوا أعداءكم فيعلم الله ذلك منكم؟ وهو تعالى يعلم ذلك غيباً، فأراد إظهار ما عِلم ليجازي على العمل. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ الوليجةُ: هي البطانة من غير المسلمين، أي صاحب سر، وهو الذي يطَّلع على ما في ضميرك من الأسرار، والمقصودُ من هذا نهي المؤمنين عن

موالاة المشركين، وأن يفشوا إليهم أسرارهم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم، ولا يخفى عليه شيءٌ منها.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي لا ينبغي لهم، ولا يليق ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام، وهو المراد هنا وإنما جُمع لأنه قبلةُ المساجد وإمامها، فعامره كعامر الجميع ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام، وبإظهار آثار الكفر، من نصب الأوثان حول البيت، ونحو ذلك، فإن ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا أن يقولوا نحن كفارٌ، والغرضُ من هذا نفي صحة الافتخار بالعمارة، والسقاية كما كان الجاهلية يفعلون، رُوي عن الضحاك أنه قال: لمَّا أُسِرَ العباسُ، عَيَّره المسلمون بالشرك، وقطعية الرحم، فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا، وتكتمون محاسننا؟ إنَّا لنعمر المسجد الحرام، ونحجبُ الكعبة، ونَقْري الحجيج، فنزلت الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يدعون عمارة المسجد، مع ما بهم من الكفر ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يفتخرون بها، فصارت هباءً منثوراً بما قارنها من الشرك ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ لعظم ما ارتكبوه من الإجرام.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي إنما يصحُّ ويستقيم أن يعمرها عمارةً يعتدُّ بها ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ على الوجه الذي نطق به الوحي، وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ، لما عُلم أن الإيمان بالله، قرينُه وتمامه الإيمان بالرسول ﷺ لأنه أحد جزئي الشهادة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾

إذْ لا يُتلَّقى ذلك إلاَّ منه ﷺ، أي إنما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية، والعملية، ومِنْ عمارتها تزيينُها بالفرش، وتنويرِها بالسُّرُج، وإدامة العبادات والذِّكر، ودراسة العلوم الدينية فيها، وتنظيفها، وفي الحديث الشريف «الغُدُوُّ والرَّواحُ إلى المسجد، من الجهاد في سبيل الله»[1] وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجِدَ الله﴾[2] الآية» ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لم يرهب أحداً غير الله، غير مبالٍ بلومة لائم، ولا خشية ظالم، وأمَّا الخوفُ الجِبليُّ من الأمور المخوفة، فليس من هذا الباب، ولا مما يدخل في التكليف ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى مباغيهم من الجنة وما فيها، وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات الحسنة في معرض التوقع، لقطع أطماع الكفرة، فإن المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات، إذا كان أمرهم دائراً بين «لعل» و «عسى»، فما بالُ الكفرة، وهم على ما هم عليه من كفرٍ وإجرام؟ وفي الآية لطفٌ بالمؤمنين، وترغيب لهم في ترجيح جانب الخوف، على جانب الرجاء، ومنعٌ لهم أن يغترُّوا بأحوالهم، ويتَّكلوا عليها.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أُمامة مرفوعاً.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٩٢ وابن ماجه رقم ٧٨٦ والحاكم وصححه.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ ﴾ في الفضيلة وعلو الدرجة ﴿ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الخطاب للمشركين واستدل بما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: إنَّ المشركين قالوا: عمارةُ بيتِ الله تعالى، والقيامُ على السقاية، خيرٌ من الإيمان والجهاد، فنزلت الآية، وقيل: إن بعض المؤمنين فضَّلوا السقاية والعمارة على الهجرة والجهاد، واستدل له بما أخرجه مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله تعالى خير مما قلتم، فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، ولكني إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه، وذلك يوم الجمعة، فأنزل الله الآية[1] ومعنى الآية: أجعلتم أهل السقاية والعمارة، في الفضيلة وعلو الدرجة، كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيله؟ ﴿ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لأن عمارة المسجد، والسقاية، إنما توجب الفضيلة، إذا كانت صادرة عن المؤمن، أمَّا إذا كانت صادرة عن الكافر، فلا فائدة فيها البتة لأن الله أحبط أعمالهم ﴿وَمنْ يكفُرْ بالإيمَانِ فقدْ حَبِط عَمَلُهُ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أُريد به المشركون، وبالظلم: الشركُ، ومعاداة الرسول ﷺ، وهذا حكم منه تعالى أنه سبحانه، لا يوفّق هؤلاء الظالمين، إلى معرفة الحق وسبيل الرشاد.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم زيادة في الرد وتكميلاً له، وزيادة الهجرة للإيذان بأن ذلك من لوازم الجهاد، لا أنه اعتبر بطريق التدارك، والظاهر

---

(١) أخرجه مسلم ١٣/٢٦ وذكره الطبري في جامع البيان ١٤/١٦٩ والسيوطي في الدر المنثور ٣/٢١٨.

من السياق أن المفضل عليه أهل السقاية والعمارة من المشركين أو ممن لم تُسْتجمع هذه الصفات فيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنى بالفوز العظيم، أو بالفوز المطلق، كأن فوز ما عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ يخبرهم ربهم بالخبر السارّ في الدنيا على لسان رسوله ﷺ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم وكونه سبحانه هو المبشر ما لا يخفى من اللطافة واللطف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ كبير ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ عالية ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا نفاد لها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ في الجنات ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به، إذ قد يراد به المكث الطويل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره لمن عمل بطاعته، وجاهد في سبيله.

ولمّا وصف تعالى المؤمنين بالإيمان والهجرة والجهاد، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: بالرحمة، والرضوان، والجنة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية على ما روي عن ابن عباس نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وهلكت أموالنا فنزلت، وروي عن أبي

جعفر أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى قريش يخبرهم بخبر رسول الله ﷺ، أي لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان، ويصدونكم عن الطاعة، لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي إن اختاروه وأصرُّوا عليه إصراراً، لا يرجى معه إقلاع أصلاً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ أي واحداً منهم ومن في قوله سبحانه ﴿مِّنكُمْ﴾ للجنس لا للتبعيض ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أي المتولون ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وأمر له ﷺ بأن يثبت المؤمنين، ويقوي عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه، من موالاة الآباء، والأبناء، والإخوان، أي قل يا رسول الله للمؤمنين ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ ولم يذكر الأبناء والأزواج فيما سلف، لأن موالاة الأبناء والأزواج غير معتادة، بل هم تبع، وما هنا في المحبة، وهم أحبُّ إلى كل أحد ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي أقرباؤكم، والعشيرةُ: القبيلة، ولا واحد لها من لفظها ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها، وُصفت الأموال بذلك، لحصولها بكدِّ اليمين، وعَرَقِ الجبين ﴿وَتِجَـٰرَةٌ﴾ أي أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بفوات وقت رواجها في أيام الموسم، والكسادُ: عدم النَّفاق والرَّواج ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ تعجبكم الإقامة فيها، من الدور والبساتين ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ نظم حبَّ الجهاد بحبِّ الله ورسوله، تنويهاً لشأنه، وتنبيهاً على أنه مما يجب أن يُحبَّ فضلاً عن أن يُكره، وإيذاناً بأن محبته راجعة إلى محبتهما ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بعقوبة عاجلة أو آجلة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ لا يرشد ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن الطاعة، الداخلين في موالاة المشركين، وفي الآية الكريمة من الوعيد والتهديد الشديد، ما لا يكاد يتخلص منه، إلاَّ من تداركه لطفٌ من ربه، وإذا وقع التعارض بين مصلحة الدنيا، ومصلحة الدين، وجب على المسلم ترجيح الدين، على أمر الدنيا بهذه الآية.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة ﴿ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ المَواطنُ: جمعُ موطن، وهو المشهد من مشاهد الحرب، وهذا امتنانٌ على المؤمنين بالنصرة على الأعداء، التي يترك لها الغيور أحب الأشياء إليه، والمراد بالمواطن «غزوة بدر، وخيبر، وبني النضير، وبني قريظة» ونحو ذلك ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ أي وفي موطن يوم حُنين ـ وهو واد بين مكة والطائف على ثلاثة أميال من مكة ـ كانت فيه وقعة بين المسلمين وبين هوازن، في شوال سنة ثمان، وكان المسلمون اثني عشر ألفاً، العشرُ الذين حضروا إلى مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، والأعداء كانوا أربعة آلاف، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، وقيل: أول من انهزم الطلقاء، مكراً منهم، وكانوا سبباً للهزيمة، فذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي فلم تنفعكم تلك الكثرة شيئاً من النفع ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي على سَعَتها عليكم، لعدم وجدانِ مكانٍ تستقرُّون به مطمئنين ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم ﴾ إلى الكفار ظهوركم ﴿ مُّدْبِرِينَ ﴾ من الإدبار بمعنى الذهاب إلى خلفه، والمراد الانهزام وقد ظهر منه ﷺ من الشجاعة في تلك الوقعة، ما أبهر العقول، ولم يخطر بباله ﷺ مفارقة القتال، فقال للعباس وكان صَيِّتاً صِحْ بالنَّاس، فناداهم فكرُّوا، ونزلت الملائكة، فالتقوا مع المشركين فانهزموا، وتفصيل القصة في كتب السِّير(١).

---

(١) أخرج البخاري ٨/ ٢١ في المغازي أن رجلاً قال للبراء بن عازب: أكنتم وليَّتم يوم =

وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي طمأنينته ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي أنزل رحمته التي تسكن القلوب، وتطمئن إليها، اطمئناناً بالنصر القريب ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عامة، الذين ثبتوا، والذين انهزموا، وفيه دلالة على أن الكبيرة لا تنافي الإيمان ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم يعني الملائكة، واختلف في عددهم، وكذا اختلفوا في أنهم قاتلوا أم لا؟ والجمهور على أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر، وإنما نزلوا لتقوية قلوب المؤمنين وتأييدهم بذلك ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر ﴿وَذَٰلِكَ﴾ ما فعل بهم ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لكفرهم هذا في الدنيا وفي الآخرة أشد من ذلك.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ أي يوفقه للإسلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التعذيب ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أن يتوب عليه لحكمة تقتضيه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ يتجاوز عما سلف من الكفر والمعاصي ﴿رَّحِيمٌ﴾ يتفضل عليهم، روى البخاري عن المسور بن مخرمة «أن أناساً منهم، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وبايعوا على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنتَ خير الناس، وأبرُّ الناس، وقد سُبِيَ أهلونا وأولادنا، وأُخذتْ أموالنا ـ وقد سُبي يومئذٍ ستة آلاف نفس، وأُخذ من الإبل والغنم ما لا يُحصى ـ فقال ﷺ: اختاروا إمَّا ذراريكم ونساءكم، وإمَّا أموالكم؟ قالوا: ما كنَّا نعدِل بالأحساب شيئاً، فقام النبي ﷺ فقال: إنَّ هؤلاء جاؤونا مسلمين، وإنَّا خيَّرناهم بين الذَّراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده شيءٌ وطابت به نفسه أن يردّه، ومن لا فليعطنا ولْيكن قرضاً علينا فنعطيه مكانه، قالوا: رضينا!! فقال ﷺ: «إنَّا

= حنين عن رسول الله؟ فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولَّى ولكنه خرج شُبَّان من أصحابه حُسَّراً، ليس عليهم كثير سلاح، فلقوا قوماً رماة، لا يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً، ما يكادون يخطئون، فانكشفوا، ولقد رأيت النبي ﷺ على بغلته البيضاء ـ وأبو سفيان آخذ بزمامها ـ، وهو يقول: أنا النبيُّ لا كَذِبْ: أنا ابنُ عبد المطّلب. . اللهمَّ نزّل نصرك!! قال البراء: كنَّا والله إذا احمرَّ البأسُ نتقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع منَّا الذي يحاذي به. أخرجه البخاري ومسلم.

لا ندري لعلَّ فيكم من لا يرضى، فمُروا عُرفَاءكم فليرفعوا ذلك إلينا، فرفعت إليه ﷺ العرفاء أنهم قد رضوا»[1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ وصفوا بالمصدر مبالغةً، كأنهم عينُ النجاسة، لخبث باطنهم، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يجتنبون النجاسة، وعن ابن عباس: أنَّ أعيانهم نجسة كالخنزير، وأكثر الفقهاء على أنَّ أعيانهم طاهرة ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ لنجاستهم وقيل: المرادُ به النهي عن الحج والعمرة، وإليه ذهب أبو حنيفة، وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وعند الشافعي وأحمد يمنعون من المسجد الحرام خاصة، ورُوي عن عطاء أنهم نُهوا عن دخول الحرم كله، فيكون المنع من قرب المسجد الحرام على ظاهره، وبالظاهر أخذ أبو حنيفة إذْ صرف المنعَ عن دخول الحرمِ، إلى المنع من الحج والعمرة، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ وهو عام تسعة من الهجرة، ويدلُّ عليه نداء عليٍّ يوم نادى ببراءة «ألاَّ يحج بعد عامنا هذا مشرك» وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أي فقراً بسبب منعهم، بانقطاع تُجَّارهم عنكم، لما أنهم كانوا يأتون في الموسم بالمتاجر، والعيلةُ: من عَالَ يَعِيلُ عَيْلَةً إذا افتقر، فهو عائل ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي من عطائه أو

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٨/ ٣٣ وأبو داود في الجهاد رقم ٢٦٩٣ والنسائي ٦/ ٢٦٤.

تفضيله بوجه آخر، فقد أرسل الله السماء عليهم مدراراً أغزر بها خيرهم، وأكثر مَيْرهم، وأسلم أهل نجد فحملوا إلى مكة الطعام، وما يعاش به، ثم فتح الله عليهم البلاد، وتوجَّه إليهم الناس من أقطار الدنيا إلى يومنا هذا، فكان إخباره تعالى بهذا معجزة والتقييد بقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾ أي أن يغنيكم، لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبّه على أنه تعالى متفضّل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أمر المؤمنين بقتال أهل الكتاب، إثر أمرهم بقتال المشركين، وإيمانهم الذي يزعمونه ليس على ما ينبغي، فهو كعدم الإيمان لهم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما ثبت بالكتاب والسنة، والمراد بالرسول رسولنا محمد ﷺ والمعنى: إنهم مخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً، لأنهم لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل حرفوها وأتوا بأحكام كثيرة من قِبَل أنفسهم، اتّباعاً لأهوائهم، فيكون المراد لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم، ومجموع الأمرين سبب لقتالهم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ الثابت الناسخ لسائر الأديان، وهو دين الإسلام، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الكتاب جنس يشمل التوراة والإنجيل ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ أي ما يؤخذ من أهل الذمة ﴿عَن يَدٖ﴾ بمعنى منقادين عن قهرٍ وذلة ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء حقيرون، مقهورون بسلطان الإسلام، وعزة المسلمين.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ استئناف سيق لبيان عدم إيمان أهل الكتاب، وانتظامهم في سلك المشركين ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وإنما قالوا ذلك لأن التوراة لم تبق فيهم بعد وقعة «بخت نصَّر» فبعث الله إليهم عزيراً فكتبها من صدره، فطفق يعلمهم التوراة، فقالوا: ما أوتي عزيرٌ هذا، إلاَّ لأنه ابن الله، وبالجملة فإنَّ هذا القول كان شائعاً فيهم، ولا عبرة لإنكارهم، وحكايةُ الله عز وجلَّ أصدق مما قيل، والآية قرئت حين نزولها عليهم، فلم يكذبوها، مع تهالكهم على التكذيب ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه لاستحالة أن يكون ولد بلا أب ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما صدر عنهم من العظيمتين ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ تأكيد لنسبة القولين المذكورين لهم، ونفي التجوز عنها، وللإشعار بأنه قولٌ مجردٌ عن برهان، مماثل للخرافة، من غير أن يكون له في الخارج مصداق ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي يشابه قولهم في الكفر والشناعة ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم، وهم المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله هلك، أو تعجيب من شناعتهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل؟.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماء اليهود، الحَبْرُ: واحد أحبار اليهود أي علماؤهم الكبار، ويقال لابن عباس: حَبْرُ الأمة ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ علماء النصارى، والراهب الذي تمكّنت الرهبة والخشية في قلبه، وظهرت آثارها في وجهه ولباسه، أي اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحلَّ اللهُ، وتحليل ما حرَّم اللهُ، وهذا هو التفسير المأثور، روي عن عديٍّ بن حاتم قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وفي عُنقي صليبٌ من ذهب، فقال: يا عديُّ اطرحْ عنك هذا الوثَنَ، وسمعتُه يقرأ في سورة براءة ﴿اتخَذُوا أَحبَارَهُم وَرُهْبانَهُم أَربَاباً مِن دُونِ الله﴾ الآية، فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم؟ فقال ﷺ:

أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ فقلت: بلى، قال: فذلكَ عبادتهم»[1] ونظير ذلك قولهم: فلانٌ يعبد فلاناً إذا أفرط في طاعته ﴿ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتأخيره في الذكر أشنع من اتخاذهم الرهبان أرباباً، لأنه مختص بالنصارى، ونسبته إلى أمه للإيذان بكمال ركاكة رأيهم، والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أُمروا في الكتب الإلّهية وعلى ألسنة الأنبياء ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ ﴾ أي ليطيعوا ويوحّدوا ﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ وهو الله عزَّ وجلَّ، أمَّا طاعة الرسول، وسائر ما أمر الله تعالى بطاعته، فهو في الحقيقة طاعةٌ لله عزَّ وجلَّ، ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحقّ إلا الله، وهو تقرير للتوحيد ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه له تعالى، عن أن يكون له شريكٌ في العبادة والطاعة، والآية ناعية على كثيرٍ من الفرق الضالة، الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحقُّ أحق بالاتّباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه، وإن أخطأه اجتهاد مقلّده.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ المراد بنور الله حجته النيرّة، الدالة على وحدانيته تعالى، وتنزّهه سبحانه عن الشركاء والأولاد، وشريعته القدسية، والقرآن العظيم، الصادع بالحقّ، وقيل: نبوته ﷺ التي ظهرت صبحاً منيراً، والمراد من الإطفاء: الردُّ والتكذيب، أي يريد أهل الكتاب

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٥٩.

أن يردُّوا دلائل الإيمان والتوحيد التي جاء بها محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها، من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه، وقد قيل: مُثِّلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم، منبث في الآفاق بنفخه ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ أي لا يريد ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ﴾ أي يظهر ﴿نُورَهُۥ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد، وإعزاز دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي يتمُّ نوره ولو كره الكافرون ذلك.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي القرآن، الذي هو هدى للبشرية ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي الثابت وهو دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي يعلي دين الإسلام ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي على سائر الأديان بنسخه إيَّاها، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ وَضْعُ المشركين موضع الكافرين، للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول ﷺ إلى الشرك بالله.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ شروع في بيان حال الأحبار والرهبان في إغوائهم لأتباعهم إثر بيان سوء الأتباع في اتخاذهم لهم أرباباً، وفي ذلك تنبيه للمؤمنين حتى لا يحوموا حول ذلك الحمى ولذا وجه الخطاب إليهم ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يأخذونها بالرشوة في الأحكام، سمي أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه وتقبيحاً لحالهم وتنفيراً للسامعين عنهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي يجمعونها ويحفظونها سواء كان بالدفن أو بوجه آخر، والكنزُ: المال المدفون وقد كنزه من باب ضرب، وفي الحديث: «كل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز[1]» ولا يشترط في الكنز الدفن بل يكفي مطلقَ الجمع والحفظ ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نظموا في ضمن المرتشين، تغليظاً، ودلالةً على كونهم أسوةً لهم، في استحقاق البشارة بالعذاب، وفسَّر غير واحدٍ الإنفاق في سبيل الله: بالزكاة فقد روي عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت هذه الآية، كبر ذلك على المسلمين، فقال عمر: أنا أُفرِّج عنكم، فانطلق فقال يا نبي الله: إنه كَبُر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لم يفرض الزكاة، إلاَّ ليطيِّب ما بقي من أموالكم»[2] وفي الحديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُدِّي زكاتهُ فليس بكنزٍ»[3] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكيُّ بهما.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم القيامة توقد النار، فيحمى على هذه الأموال بالنار اللاهبة المستعرة، حتى تصبح حامية كاوية، وإنما قال ﴿عَلَيْهَا﴾ والمذكور شيئان لأنه ليس المراد بهما مقداراً معيناً منهما، بل المراد الكثير منهما، وقيل: الضمير للأموال ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ أي تُحرق

---

(١) أخرجه البيهقي عن ابن عمر بلفظ «كلُّ ما أَدَّيتْ زكاتُه وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز، وكلُّ ما لا تؤدَّى زكاتُه فهو كنزٌ، ولو كان ظاهراً على وجه الأرض» وروي الحديث مرفوعاً وموقوفاً، والمشهور أنه موقوف على ابن عمر، وقد ذكر البخاري طرفاً منه في ترجمة باب فقال «باب ما أُدِّي زكاته فليس بكنز» فتح الباري ٣/ ٢٧١.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الزكاة رقم ١٦٦٤ وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٣ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) هذا الحديث موقوف على ابن عمر، وقد رواه الطبراني والبيهقي، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢٥/ ٣٦٤ وفي البخاري ٨/ ٣٢٤ عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله ابن عمر، فقال: هذا قبل أن تُنزل الزكاة، فلما أُنزلت جعلها الله طهرة للأموال. ا هـ.

﴿ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ خُصَّت هذه بالذكر، لأن غرض الكانزين من الكنز، أن يكونوا ذوي وجاهة، وأن يتنعموا بالمطاعم الشهية، والملابس البهية، فلوجاهتهم كان الكيُّ بجباههم، ولامتلاء جنوبهم بالطعام، كووا عليها، ولِمَا لبسوا من فاخر الثياب كُويت بها ظهورهم، وقيل: لأنهم كانوا إذا رأوا الفقير أعرضوا عنه، وطَوَوْا كَشْحاً، وولَّوْهم ظهورهم، فلذلك كويت الجباه والبطون والظهور ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ ﴾ على إرادة القول أي يقال لهم: هذا ما كنزتم ﴿ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي لنفعتها، فكان عين مضرتها، وسبب تعذيبها ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي وبال كنزكم الذي ادخرتموه في الدنيا، ولم تسعفوا به الفقراء.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) ﴾.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ أي عددها المعتدُّ بها للسنة ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه وشرعه ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ بالشهور القمرية، إذ عليه يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي في ابتداء إيجاد هذا العالم ﴿ مِنْهَا ﴾ من تلك الشهور ﴿ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ أي محرمة فيها الحرب، واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سَرْدٌ «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم» ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ تحريم الأشهر الحرم ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما، وكانوا يعظمونها حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يهيجه ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ بهتك حرمتها، وارتكاب حرامها، وتخصيصها بالنهي مع أن ارتكاب المعاصي منهي عنه مطلقاً لتعظيمها، ولله سبحانه أن يمّيز بعض الأوقات على بعض، كارتكابها في الحرم، وحال

الإحرام ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ جميعاً وهو حال، فالمعنى: قاتلوا المشركين لا يتخلف منكم أحد عن قتالهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي معكم بالنصر والإمداد، وإنما وضع المظهر، مدحاً لهم بالتقوى، وإيذاناً بأنه المدارُ في النصر، أي فاتقوا لتفوزوا بولايته ونصره سبحانه.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ وهو مصدر نَسَأه إذا أخَّره، أي إنما تأخير حرمة شهر إلى شهرٍ آخر، من معالم الكفر، ومظاهر الضلال، كانوا إذا جاء شهر حرام، وهم محاربون أحلوه، وحرّموا مكانه شهراً آخر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفراً، فإن احتاجوا أيضاً أحلُّوه وحرَّموا ربيع الأول، وربما زادوا في عدد الشهور، بأن جعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهراً، ليتسع لهم الوقت، ولذلك نص تعالى على العدد المعين، وقد يختلف وقت حجهم لذلك، ولذا قال تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ فهو كفر آخر ضمُّوه إلى كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضلالاً زائداً على ضلالهم، أي تخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ النسيء من الأشهر ﴿عَامًا﴾ سنة، ويحرمون مكانه شهراً آخر ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ فيتركونه على حرمته، رُوي عن الضحاك أن «جُنادة الكناني» كان مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم، فينادي بأعلى صوته، إن آلهتكم قد أحلَّت لكم المحرَّم فأحِلُّوه، ثم يقوم في العام القابل فيقول: إن آلهتكم قد حرَّمت عليكم المحرم فحرّموه[1] ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا

(١) حكاه الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٣٧٠ من رواية ابن عباس، وحكى عن مجاهد قال: «كان رجل من بني كنانة يأتي كلَّ عام إلى الموسم ـ يعني موسم الحج ـ على حمار له، فيقول: أيها الناسُ، إني لا أُعاب ولا أُجاب، ولا مردَّ لما أقول، إنَّا قد =

عدة الأربعة المحرمة ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بمواطأة العِدَّة وحدها، من غير مراعاة الوقت، فقد استحلوا ما حرَّم الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ أي زيَّن الشيطان لهم أعمالهم القبيحة، مشتهاة للطبع محبوبة للنفس، وقرىء على البناء للفاعل ﴿زَيَّنَ﴾ وهو الله تعالى والمعنى: خذلهم وأضلَّهم، حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء، حال اختيارهم الثبات على الباطل، ولا يرشدهم إلى طَريق الخير والسعادة، وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم، فتاهوا في تيه الضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ﴾ أي اخرجوا للجهاد، وأصلُ النفر الخروج لأمرٍ واجب ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم ولم تسرعوا، أي مالكم متثاقلين حين قال لكم رسول الله ﷺ انفروا، وقوله سبحانه: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق باثاقلتم أي اثاقلتم مائلين إلى الأرض، والدنيا وشهواتها الفانية، وكرهتم مشاقَّ الجهاد، المستتبعة للراحة الخالدة، وكان ذلك في غزوة تبوك، بعد رجوعهم من الطائف، استنفرهم ﷺ في وقت قحطٍ وقيظ، وقد أدركت

= حرَّمنا المحرَّم، وأخَّرْنا صفر، وفي عام آخر يقول: إنّا قد حرمنا صفر، وأخّرنا المحرم» فذلك هو النسيء الذي جعله الله زيادة في الكفر.

ثمار المدينة، وطابت ظلالها، مع بُعد الشقة وكثرة العدّو، فشقّ عليهم ذلك. وذكر ابن هشام: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا وَرَّى بغيرها، إلا في غزوة تبوك، فإنه ﷺ بيَّن لهم المقصد فيها، ليستعدُّوا لها ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها الدائم؟ ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها وفوائدها ومقاصدها ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر لا يُعبأ به؛ كما جاء في الحديث الشريف: «ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ، فلْينظر بمَ ترجع؟»(١) عاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا، على الراحة في الآخرة، إذْ لا تُنال راحة الآخرة إلا بتعبِ الدنيا!!.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ أي إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله عزَّ وجلَّ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع، كقحطٍ، وظهور عدوّ ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بعد إهلاككم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وصفهم بالمغايرة لهم، لتأكيد الوعيد، والتشديد في التهديد، أي قوماً مطيعين، مؤثرين للآخرة على الدنيا ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي ولا تضرون ربكم شيئاً من الضرر، بتثاقلكم عن الجهاد، ولا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه أصلاً ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه نصر دينه، ونبيه بدونكم، والنصر بدون سبب ولا مدد.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٥٨ باب فناء الدنيا وبيان الحشر، والترمذي في الزهد رقم ٢٣٢٤ وابن ماجه في الزهد أيضاً رقم ٤١٠٨ ومعنى اليمّ: البحر.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله، كما نصره حين أخرجه الذين كفروا أي تسبَّبوا لخروجه حيث أذن له في ذلك، حين همُّوا بقتله، أو حبسه، أو نفيه، في دار الندوة[1]، فخرج بنفسه ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي أحد اثنين، هو واحد والآخر أبو بكر رضي الله عنه، والمعنى: نصره الله تعالى في مثل تلك الحالة، فلا يخذله في غيرها ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ المراد من الغار غار ثور، وهو جبل في الجهة اليمنى لمكة مكثا فيه ثلاثة أيام، يختلف إليهما بالطعام «عامر بن فُهَيرة» وعلي كرم الله وجهه يجهِّزهما، واستأجر لهما دليلاً، فلمَّا كانا في بعض الليل من الليلة الثالثة، أتاهم بالإبل، والدليل، فركبوا وتوجهوا نحو المدينة ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ الرسول ﷺ ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ أي الصديق رضي الله عنه، قالوا: من أنكر صحبة الصدِّيق فقد كفر، لإنكاره كلام الله تعالى الصريح بالصحبة ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ بالعصمة والمعونة، وفيه بيانُ عظيمِ توكُّلِه ﷺ، روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «نظرتُ إلى أقدام المشركين، ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت يا رسول الله: لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما؟»[2] وفيه من الدلالة على علو درجة الصديق، وروي أن المشركين طلعوا فوق الغار، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال ما قال، فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يتردَّدون حول الغار، فلم يروه ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ طمأنينته التي تسكن عندها القلوب ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ الجنود هم الملائكة، أنزلهم الله تعالى ليحرسوه في الغار، ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾ أي جعل كلمة الشرك، سافلة دنيئة حقيرة،

---

(١) انظر قصة مؤامرة المشركين على رسول ﷺ في تفسير سورة الأنفال، الآية ٣٠، من هذا التفسير.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٢٥ ومسلم ٤/ ١٨٥٤ والترمذي ٥/ ٢٦٠.

وردَّ كيدهم في نحورهم، حين تآمروا على قتل رسول الله ﷺ في دار الندوة، حيث نجاه ربُّه، على رغم أنوفهم، وحفظه من كيدهم ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ وهي كلمة التوحيد كما قال ابن عباس، ولا يخفى ما في تغيير الأسلوب من المبالغة، ، لأن الجملة الاسمية، تدلُّ على الدوام والثبات، بخلاف غيرها، ولذلك وُسِّط ضمير الفصل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالب، ويعزُّ بنصره دين الإسلام ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره، وتدبيره، وحكمه، يذلُّ أهل الشرك بحكمته.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱنفِرُواْ﴾ تجديد للأمر بالنَّفْر، بعد التوبيخ على تثاقله وتركه ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي على كل حال، من يُسرٍ أو عُسر، ومن صحةٍ ومرض، وغنى وفقر، وقلة العيال وكثرتهم، وغير ذلك، قيل: لمَّا نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله بقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَىٰ﴾ الآية ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما، والجهاد بالمال: إنفاقُه على السلاح، وتزويد الغزاة، ونحو ذلك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النفير والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ممَّا يُبتغى بتركه من الراحة، والتمتع بالأموال والأولاد ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير فبادروا إليه.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي لو كان غُنْماً سهلَ المأخذ، قريب المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي متوسطاً بين القريب والبعيد ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ في النفير، طمعاً بالفوز بالغنيمة ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تقطع

بمشقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿بِٱللَّهِ﴾ أي سيحلفون بالله قائلين ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ من جهة العُدَّة، ومن جهة الصحة، حسبما عنَّ لهم من التعلل والكذب ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ لما دعوتمونا إليه، وهذا جواب القسَم، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عمَّا وقع قبل وقوعه، فقالوا كما أخبر القرآن ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالحلف الكاذب، لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس، وفي الحديث الشريف: «اليمينُ الفاجرةُ تَدَع الديارَ بلاقعَ»(١) ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في ذلك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج ولم يخرجوا، وهذه الآياتُ نزلت في المنافقين.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أيْ لأيِّ شيءٍ أذنت لهم بالقعود، حين استأذنوك واعتلوا بالأكاذيب؟ وهلاَّ توقَّفتَ؟ وهذا من ألطف الكلام، بتصدير العفو في الخطاب، دون ما يوهم العتاب، لمراعاة جانبه ﷺ، واحتج بعضهم بهذه الآية، على صدور الذنب عن الرسول ﷺ، وقالوا: العفو يستدعي سابقة الذنب، وأجيب بأنه ليست معاتبة، بل هو استفتاح كلام، مثل أصلحَكَ اللهُ! قال القاضي عياض: لم يتقدَّم للنبي ﷺ فيه من الله تعالى نهيٌ فيُعَدُّ معصية، إنما فعل ذلك باجتهاد، وفيه دليل جواز

---

(١) طرف من حديث أخرجه البيهقي، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٦٢٢ ومعنى بلاقع: أي خراباً دماراً، وهذه اليمين تسمى «الغَمُوس» لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم، وهي يمين فاجرة، لا كفارة لها، لأن ذنبها أعظم من أن يُكفَّر.

الاجتهاد، وإذنه ﷺ إنما كان اعتماداً على ظاهر إيمانهم، والخطأ في ذلك، هو ترك الأولى، الذي هو التأني، والتوقف إلى انجلاء الأمر، المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي في ذلك كأنه قيل: لم سارعتَ إلى الإذن لهم، ولم تتوقف حتى ينجلي الأمر؟ وفي الآية وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبت والتأني.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي ليس من شأن المؤمنين وعادتهم، أن يستأذنوك في ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فإن الخُلَّص منهم، يبادرون إليه من غير توقف، وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف، كان ذلك دليلاً على نفاقهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ شهادةٌ لهم بالتقوى، وعدةٌ لهم بالثواب، أي والله عليم بأنهم مؤمنون متقون صادقون.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلف لكراهة الجهاد ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر في الموضعين، للإشعار بأن الباعث على الجهاد الإيمان، وعدم الإيمان بهما، فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه وتوحيده، وهان عليه القتل فيه، لما يرجو في اليوم الآخر من النعيم المقيم، ومن لم يؤمن بمعزل عن ذلك، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكَّتْ قلوبهم في الدين ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ﴾ وشكِّهم المستقر في قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي يتحيرون، فإن التردد ديدن المتحيّرين، كما أن الثبات دَيْدنُ المتبصّرين، والآية نزلت في المنافقين، حين استأذنوا الرسول ﷺ في القعود عن الجهاد بغير عذر، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ ﴾ معك هذا يدل على أن بعضهم قالوا ذلك عند الاعتذار، فقيل تكذيباً لهم: لو أرادوه ﴿ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ ﴾ أي للخروج ﴿ عُدَّةً ﴾ أي أهبةً من الزاد والراحلة والسلاح، وغير ذلك مما لا بد للسفر والجهاد منه ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ يعني نهوضهم للخروج والمعنى: لو أرادوا الخروج لأعدُّوا عُدَّة، لأنهم كانوا مياسير، ولكنْ ما أرادوه، لما أنه تعالى كره انبعاثهم، لما فيه من المفاسد، التي ستتبيَّن ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي حبسهم بالجبن والكسل، فتثبّطوا عنه، ولم يستعدّوا له ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أي اقعدوا مع النساء، والصبيان، والزَّمنىٰ، وهو ذمٌ بليغ لهم[1].

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم ﴾ أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿ مَّا زَادُوكُمْ ﴾ أي ما أورثوكم شيئاً من الأشياء ﴿ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي فساداً وشراً، وعن الضحاك: غدراً ومكراً ﴿ وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ ﴾ أي ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة، والإيضاعُ: سيرُ الإبل: إذا أسرعت، والخِلال أصله الفُرجة استعمل ظرفاً بمعنى «بين» والمعنى: ولسَعَوْا بينكم بالنميمة، وإفساد ذات البين ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الفتنة والخلاف فيما بينكم، وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب، لأن عند حصول الاختلاف في الرأي، يحصل الانهزام ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ ضعفة يستمعون قولهم، ونمّامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم، ولمّا كان انضمام المنافقين القاعدين إليهم مستتبعاً لخلل كلي، كره الله انبعاثهم، ووجه العتاب على الإذن في قعودهم، مع ما قصَّ الله فيهم، أنهم لو قعدوا بغير إذن، لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم علماً محيطاً، فيجازيهم على ذلك.

---

(١) هذه الآية في منتهى الذمّ والتقبيح لهم، على حدِّ قول الشاعر:

دَعِ المكارمَ لا ترحَلْ لِبُغْيَتِها: واقعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ تشتيت أمرك، وتفريق أصحابك عنك ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل غزوة تبوك، في يوم أحد، حين انصرف «عبد الله بنُ أبيّ» بمن معه، وقد تخلَّف بمن معه عن تبوك أيضاً بعد ما خرج ﴿ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾ ودبَّروا لك المكايدَ والحِيَل، ودوَّروا الآراء في إبطال أمرك، وتقليبُهَا مجازٌ عن تدبيرها ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ النصر والتأييد الإلٰهي، الذي وعده الله تعالى لرسوله ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أي غلب دينه وعلا شرعه ﴿ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾ أي علـى رغـمٍ منهـم، والآيتـان لتسليـة الـرسـول ﷺ والمؤمنين، على تخلف المنافقين، وبيان كراهية الله عزَّ وجلَّ لخروجهم.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى ﴾ في القعود ﴿ وَلَا تَفْتِنِّىٓ ﴾ ولا توقعني في الفتنة، أي العصيان والمخالفة، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلفٌ، أُذن له أو لم يُؤذن[1] ﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾ أي في نفسها وعينها، وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف، والجرأة على الاعتذارات الكاذبة ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ وعيد لهم على ما فعلوا، أي جامعة لهم

---

(١) الآية نزلت في «الجدِّ بن قيس» أحد كبار المنافقين، قال للنبي ﷺ لمَّا دعاه لقتال بني الأصفر ـ يعني الروم ـ قال يا رسول الله: «ائذن لي ولا تفتنِّي، فوالله لقد عرف قومي أن لا رجل أشدُّ عُجْباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله وتركه» وانظر قصته في تفسير ابن كثير ٢/٣٧٦.

من كل جانب، والمراد بالكافرين المنافقون، وإيثارُ وضع الظاهر للتسجيل عليهم بالكفر.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض مغازيك ﴿حَسَنَةٌ﴾ من الظفر والغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تلك الحسنة، أي تورثهم مساءَةً، لفرط حَسَدهم وعداوتهم لك ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ من نوع شدة وكرب يفرحوا به ﴿يَقُولُوا﴾ متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ أي تلافينا من الأمر ما يهمُّنا، يعنون به الاعتزال عن المسلمين، والقعود عن الحرب، والمداراة مع الكفرة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إصابة المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ أي يعرضوا عن النبي ﷺ ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما صنعوا من أخذ الأمر بالاحتياط وبما أصابه ﷺ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور.

﴿قُل﴾ تبكيتاً لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي لن يحدث علينا إلاّ ما قدَّره الله لنا، من نصر أو هزيمة، ومن عزّ أو ذل، لا يتغيَّر بموافقتكم ومخالفتكم، فالكَتْبُ بمعنى التقدير، واللام للاختصاص، فتدل الآية على أن الحوادثَ كلَّها بقضاء الله تعالى ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكّلوا على غيره، بأن يفوِّضوا الأمر إليه سبحانه، ولا ينافي في ذلك الأخذ بالأسباب، إذا لم يعتمد عليها فقط، والآية كالتنبيه على أنَّ حال المنافقين بالضِدِّ، وأنهم لا يتوكلون إلاّ على الأسباب الدنيوية.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ إعادة الأمر، لإبراز العناية بشأن المأمور به وأصل ﴿تَرَبَّصُونَ﴾ تَتَربصون حذفت إحدى التائين، أي مما تنتظرون أن يقع بنا ﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ أي إلا إحدى العاقبتين، اللَّتَيْن كلٌّ منهما حسنى العواقب: النصرة، أو الشهادة، فما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة، أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة، كما نطق به الحديث الشريف «تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يخرجه من بيته، إلا الجهاد في سبيل الله، وتصديقٌ بكلماته، أن يُدخله الجنة أو يردَّه إلى مسكنه، بما نال من أجرٍ أو غنيمة»[1] وفي رواية أبي داود ومسلم «من أجرٍ وغنيمة» ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ إحدى العاقبتين الوخيمتين ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ ﴾ بقارعة من السَّماء ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتلُ ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ ﴾ الفاء فصيحة، أي إذا كان الأمر كذلك، فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا، والمراد من الأمر التهديد، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ

(١) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الجهاد ٦/ ١٥٤ ورواه مسلم بلفظ «تضمَّن الله لمن خرج في سبيله» بأوسع من هذا في باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله رقم ١٨٧٦ وفيه زيادة «والذي نفسُ محمد بيده، ما من كَلْمٍ يُكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلم، لونُه لون دم، وريحه ريح مسك. .» الحديث.

العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾[1] ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه، لا نشاهد إلا ما يسوؤكم، ولا تشاهدون إلا ما يسرنا.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أمر في معنى الخبر، أي لن تُتقبل منكم نفقاتكم، أنفقتم طوعاً أو كرهاً، كأنهم أمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم أو لا؟ وقوله: ﴿طَوعاً﴾ أي من غير إلزام، و ﴿كَرهاً﴾ أي ملزمين، سمي الإلزام إكراهاً، لأنهم منافقون فكان الإلزام شاقاً عليهم كالإكراه، وقوله سبحانه ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليلٌ له، وما بعده بيان وتقرير له؛ والمراد بالفسقِ: العتوُّ والتمرُّدُ في الكفر.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ ما منعهم أن تقبل نفقاتهم شيء من الأشياء إلاَّ كفرهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة في حال من الأحوال ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ إلا حال كونهم متثاقلين، جمع كسلان ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً، ولا يخافون على تركهما عقاباً، وهاتان جملتان داخلتان في حيز التعليل، وإنما جيء بهما لمجرد الذم، وإلاَّ فالكفر وحده كافٍ لعدم قبول الأعمال.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا يروقك شيء من ذلك، فإنه استدراج لهم، ووبال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يعذبهم بسبب ما يكابدون لجمعها، وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها

---

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

من الشدائد والمصائب، فالمال والأولاد عذاب للكافرين[(١)]، دون المؤمنين، لأنهم يثابون بمتاعبهما في الدنيا والآخرة، وليس عند الكافرين من الاعتقاد بثواب الله تعالى ما يهوّن عليهم ما يجدونه ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ وتخرج أرواحهم بشدة وعنف ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين، والجملة في موضع الحال أي حال كونهم كافرين، واستدل بتعليق الموت على الكفر، على أن كفر الكافر، بإرادته سبحانه، وفي ذلك ردٌّ على المعتزلة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي يحلفون أنهم مؤمنون مثلكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية، ويؤيّدون كلامهم بالأيمان الفاجرة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[(٢)] يُقال: فَرِقَ فَرَقاً أي خاف.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حصناً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ سراديب يخفون فيها أنفسهم ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ موضعاً يدخلونه ﴿لَّوَلَّوْا۟﴾ أي لصرفوا وجوههم وأقبلوا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى أحد ما ذُكر ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يُسرعون

---

(١) معنى الآية الكريمة: لا تستحسن أيها السامع العاقل، ولا تفتتن بما أوتي هؤلاء من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله عز وجل استدارجهم ليعذبهم بها في الدنيا، فالله يهلكهم بأموالهم بهذه المخترعات الجهنمية التي يخترعونها، من أنواع الأسلحة الفتاكة، فهم يُدمَّرون ويهلكون بأموالهم، وليس أدل على ذلك من الحرب العالمية الأولى والثانية.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤.

إسراعاً في دخوله، لا يرّدهم شيء، يقال: فرس جموح، وهو الذي لا يثنيه اللِّجام، وفيه إشعار بكمال عتوهم، وظلمة قلوبهم.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي يعيبك في شأنها ويطعن عليك، نزلت في أبي الجوَّاظ المنافق، قال: ألا ترون إلى صاحبكم، إنما يقسم صدقاتكم في رعاء الغنم، ويزعم أنه يعدل؟ وروي عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فجاءه رجل من المنافقين فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل!! فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: ائذن لي أضربْ عنقه؟ قال ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..»[1] الحديث ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا ﴾ بيان لفساد دينهم، وحرصهم على حطام الدنيا، أي إن أُعطوا منها قدر ما يريدون ﴿ رَضُواْ ﴾ بما وقع من القسمة واستحسنوها ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ ﴾ ذلك المقدار ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ يفاجئون السخط، يعني أن رضاءهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين والحق، غَايَر سبحانه بين الجملتين إشارة إلى أن سخطهم ثابت لا يزول، بخلاف رضاهم، وعن الضحاك كان النبي ﷺ يقسم ما آتاه الله من المال، قليله وكثيره، وكان المؤمنون يرضون بما أُعطوا ويحمدون الله عليه، وأمَّا المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا، وإن أُعطوا قليلاً سخطوا.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ما أعطاهم الرسول ﷺ من

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/ ٢٣٠ ومسلم ٧/ ١٦٥ وله تتمة انظرها في الصحيحين.

الغنيمة أو الصدقة، وذكر الله للتعظيم، والتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره تعالى ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كفانا فضله وما قسم لنا ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي سيرزقنا الله صدقةً أو غنيمة أخرى، فيؤتينا أكثر مما آتانا اليوم، حسبما نرجو ونأمل ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يغنينا بفضله، والجواب محذوف بناءً على ظهوره أي لكان خيراً لهم وأعود عليهم بالنفع، ثم بين تعالى مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ، لإصلاح الدين وأهله، لا لأغراض نفسانية كأغراضهم، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي الزكاة لهؤلاء المعدودين، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم، والفقير الذي له شيء لا يكفيه، والمسكين الذي لا شيء له، فهو أسوأ حالاً من الفقير، لقوله سبحانه: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الساعين في تحصيلها وجمعها، وهم الذين يبعثهم الإمام، والساعي هو الذي يسعى في القبائل ليأخذ صدقات المواشي في أماكنها، ويُعْطَى العامل ما يكفيه بالوسط ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثة أصناف: صنفٌ كان يؤدي لهم رسول الله ﷺ ليسلموا، وصنفٌ أسلموا لكن على ضعف، كعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وصنف كانوا يُعطون لدفع شرهم، وفي الهداية أن المؤلفة قد سقط وانعقد إجماع الصحابة على ذلك في خلافة الصدِّيق، وصحَّ أنه ﷺ كان يعطيهم من خمس الخمس، الذي كان خاصَّ ماله ﷺ ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون

المكاتب، وقيل: يباع الرق فيعتق، وبه قال مالك وأحمد، والاحتياط في سهم الرقاب دفعه إلى السيد بإذن المكاتب، وكذا القول في الغارمين يصرف المال إلى قضاء ديونهم ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الذين تداينوا لأنفسهم في غير معصية، إذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم، والغارم في اللغة من عليه دين ولا يجد قضاءه، والفقر شرط في الأصناف كلها إلا العامل ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الفقراء الغزاة، وقيل: صرف سهمهم إلى جميع وجوه الخير، من بناء المدارس، وعمارة المساجد، ونحو ذلك، والقول الأول هو الصحيح لإجماع الجمهور عليه ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي المسافر المنقطع عن ماله، والاستقراضُ له خيرٌ من قبول الصَّدقة، وفي فتح القدير: أنه لا يحلُّ له أن يأخذ أكثر من حاجته، وهذه مصارفُ الصدقات، فللمتصدّق أن يدفع زكاة ماله إلى كل واحد منهم، وأن يقتصر على صنفٍ منهم، لأن اللام لبيان أنهم مصارف، لا لإثبات الاستحقاق، وقد روي ذلك عن عمر، وابن عباس، وحذيفة، وهذا مذهبنا، وعند الشافعي لا يجوز إلاّ أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف، ولنا قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1] وأنه ﷺ أتاه مال من الصدقة فجعله للمؤلفة، ثم أتاه مال آخر فجعله في الغارمين، فدل ذلك على أنه يجوز الاقتصار على صنفٍ واحد ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لما دلَّتْ عليه الآية، أي فرض الله لهم الصدقات فريضة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، وبأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، من الأمور الحسنة، وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين، حسماً لأطماعهم.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدقه، سمي بالجارحة للمبالغة، كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، نزلت في فرقة من المنافقين، قالوه في حقه ﷺ بأنه يسمع كل ما قيل، من غير أن يتدبر فيه، ويميِّز بين ما يليق بالقبول، وبين ما لا يليق به، وإنما قالوه لأنه ﷺ كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا، ويصفح عنهم حِلماً وكَرَماً، فحملوه على سلامة القلب، وقالوا ما قالوا، سوَّد الله وجوههم، وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ تصديق لهم بأنه أُذُنٌ، ولكنْ لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ يُصدِّق بالله، وبما جاء من عنده من الآيات البينات، وذلك خير لكم وللعالمين ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويصدِّقهم لما علم من خلوصهم، واللام مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور، وبين التسليم والتصديق، والإيمان بالله هو نقيض الكفر، فلا يتعدى إلا بالباء، وتصديق المؤمنين فيما يقولونه، فلا يقال إلا باللام، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ وهو تعريض بأن المنافقين أُذُن شرٍّ، يسمعون آيات الله، ولا ينتفعون بها، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي وهو ﷺ رحمةٌ وأيُّ رحمة!! بطريق إطلاق المصدر على الفاعل مبالغةً ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ أي لمن أظهر الإيمان، حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ﷺ ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحماً عليكم ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ بأي نوع من الإيذاء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذاب شديد موجع بسبب ذلك الإيذاء، وهو خبر من الله عزَّ وجل على

نهج الوعيد لغاية التعظيم لمقامه الشريف ﷺ والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى الله تعالى، موجبةٌ لكمال السَّخط والغضب.

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الخطاب للمؤمنين، لقد كان المنافقون يتكلمون بما لا يليق، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكّدون معاذيرهم بالأيمان الكاذبة ليَرْضوا عنهم ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ أي أحق بالإرضاء، بالطاعة والوفاق، ولا يتسنى ذلك إلا بالصدق والمتابعة وتعظيم أمره ﷺ، والابتعاد عن الكذب والأيمان الفاجرة، والمراد ذمهم بالاشتغال فيما لا يعنيهم، والإعراض عما يهمُّهم ويُجديهم ﴿ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ جوابه محذوف تعويلاً على دلالة ما سبق، أي إن كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً، في الظاهر والباطن، فلْيرضوا الله ورسوله، فإنهما أَحقُّ بالإرضاء.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ ﴾ أولئك المنافقون الذين سبق ذكرهم، والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من الجريمة العظيمة، مع علمهم بما سمعوا من الرسول ﷺ وخامة عاقبتها من فنون الإنذارات، وألم تعلم؟ خطَابٌ لمن حاول الإنسان تعليمه مدة، ثم إنه لم يعلم، فيقول له: ألم تعلم؟ وإنما حسن ذلك، لأنه ﷺ طال مكثُه بينهم وكثر ترغيبه وترهيبه وتحذيره لهم، ولذا قيل: ألم يعلموا؟ ﴿ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي من يجاوز الحدَّ في المخالفة لأمر الله ورسوله، والمحادَّةُ: من الحدِّ بمعنى الجهة والجانب، كالمشاقَّة من الشق، والمعاداة من العداوة بمعناه، فإن كلَّ واحد في جانبٍ غير ما عليه صاحبه ﴿ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أي فقد حقَّ أنَّ له نار جهنم ﴿ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ﴾ أي العذاب الخالد ﴿ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي

الذل المقارن للفضيحة، حيث يفتضحون على رؤوس الأشهاد، وهي ثمرات نفاقهم.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين في شأن المنافقين، أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عمّا في قلوبهم من النفاق ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والأسرار الخفيّة، فضلاً عما كانوا يُظهرونه فيما بينهم، من أقاويل الكفر والنفاق، ومعنى «تنبئهم» أي أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم، فتنتشر بين الناس، فيسمعونها من أفواه الرجال، فكأنها تخبرهم بها ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي افعلوا الاستهزاء، وهو أمر تهديد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ ﴾ أي مظهر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي ما تحذرونه من مخازيكم، المستكنة في قلوبكم، على ملأ الناس، والمراد مظهر كل ما تحذرون ظهوره من القبائح.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ عما قالوه ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ روي أن ركباً من المنافقين، مرُّوا بين يدي رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام، هيهات، هيهات، فأخبر الله تعالى نبيه فدعاهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك، وأمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما

يخوض الركب، لنقطع الطريق بحديثنا!! فلمَّا أخبرهم الرسول ﷺ خافوا واعترفوا بأنهم قالوا ذلك على وجه الخوض واللعب، فنزلت الآية ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾؟ أي قل لهم توبيخاً على استهزائهم: أتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ فكيف تزعمون الإيمان وأنتم تهزؤون من دين الرحمٰن؟.

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ﴾ أي لا تشتغلوا باعتذاراتكم، فإنها معلومةُ الكذب، لا تنفعكم بعد ظهوره ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم الكفر بإزاء الرسول ﷺ والطَّعنِ فيه ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ بعد إظهاركم الإيمان، وهذا وما قبله، لأن القوم منافقون، فالكفر في باطنهم، ولا إيمان في نفس الأمر لهم ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم عن عقوبة الدنيا العاجلة ﴿ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مصرّين على النفاق ومباشرين على الإيذاء والاستهزاء، واستدل بعضهم بالآية، على أن الجدَّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ أي متشابهة قلوبهم في النفاق والبعد عن الإيمان، كأبعاض الشيء الواحد، والمراد الاتحاد في الحقيقة والصورة، والآية متصلة بجميع ما ذُكر من قبائحهم وقولُه تعالى: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ الخ كالدليل، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين، أي يأمرون بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ عن

الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن المبرَّات والإنفاق في سبيل الله، وقبضُ اليد: كنايةٌ عن الشُّحِّ والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجود والسخاء، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أغْفَلوا ذكر الله، وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من فضله ولطفه، والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة(١) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والخروج عن دائرة الخير.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ والتعبير بالوعد للتهكم، نحو قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليم﴾ ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ أي المجاهدين ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ مخلدين ﴿فِيهَا﴾ في النار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاءً، وفيه دليل على عظم عقابها، فإنه إذا قيل للمعذَّب: كفى لك هذا، دلَّ على أنه بلغ غاية النكاية ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم وفي إظهار الاسم الجليل إيذانٌ بشدة السَّخَط ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ لا ينقطع أبداً، ولا ينفك عنهم، وهو ما يقاسونه من مرض النفاق، الذي هم منه في بلية دائمة، لا يأمنون ساعة من خوف الفضيحة، ونزول العذاب.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ التفات من الغَيْبة إلى الخطاب للتشديد، أي أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة، فعلتم مثل ما فعل الظالمون من قبلكم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ تفسير وبيان

---

(١) المشاكلة معناها الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، والمراد من الآية أنهم تركوا طاعة الله، فتركهم من هدايته وتوفيقه ورحمته، والله جلَّ وعلا لا يضل ولا ينسى، فالنسيان منهم على ظاهره، والنسيان من الله بمعنى الترك.

لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم، وفيه إيذانٌ بأن المخاطبين أولى وأحقُّ، بأن يصيبهم ما أصابهم ﴿ فَٱسْتَمْتَعُواْ ﴾ أي تمتعوا من الدنيا ﴿ بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة، من الشهوات الفانية، والتهائهم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية، تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم، واقتفاء أثرهم ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ أي دخلتم في الباطل، والكذب، والاستهزاء ﴿ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ أي كالذين خاضوا فحذف نونه تخفيفاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي ضاعت وبطلت ولم يترتب عليها أثر ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أما في الآخرة فظاهر، وأما في الدنيا، فلأنَّ ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك، ليس على طريق المثوبة والكرامة، بل بطريق الاستدراج ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بحبوط الأعمال ﴿ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الكاملون في الخسران، وفي الحديث الشريف: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ من كان قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لتبعتموهم، قلنا يا رسول الله: اليهودُ والنصارى؟ قال: فمن»[1] يعني فمن يراد ممن كان قبلكم غير اليهود والنصارى؟ وفيه معجزة للنبي ﷺ حيث كان كما أخبر.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾؟ أي المنافقين ﴿ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي خبرهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/ ٢٥٥ ومسلم في العلم رقم ٢٦٦٩ باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

الذي له شأنٌ، وهو ما فَعَلوا وما فُعِل بهم، والاستفهام للتقرير والتحذير أي قد أتاهم خبر ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أُغرقوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ أُهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ أُهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلك رئيسهم نمرود ببعوض وأبيدوا بعده لكن لا بسبب سماوي ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ أُهلكوا بالنار يوم الظُلَّة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ الائتكاف: هو الانقلاب، بجعل أعلى الشيء أسفل، المراد بها مدائن قوم لوط ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الدالة على صدقهم فكذَّبوهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن يعذبهم بغير ذنب، والفاء للعطف على مقدَّر، أي فكذَّبوهم فأهلكهم الله عزَّ وجل، فما ظلمهم بذلك، وإيثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة في تنزيه ساحة الربّ عن الظلم، أي وما صحَّ وما استقام له تعالى أن يظلمهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب الذنوب، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار ظلمهم، حيث لم يزالوا يُعرِّضونها للعقاب، بالكفر والتكذيب.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ بيانٌ لحسن حال المؤمنين والمؤمنات، حالاً ومآلاً إثر بيان قبح حال أضدادهم، عاجلاً وآجلاً، أي هم إخوة في الدين، يتناصرون ويتعاونون ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي يدعون إلى فعل الخير، وينهون عن الشر والمنكر، على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة «نسوا الله» ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ بمقابلة «ويقبضون أيديهم» ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أمر ونهي وهو في مقابلة وصف المنافقين بالفسق، فهذه الأمور الخمسة، التي بها يتميز

المؤمنون من المنافقين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ لا محالة، يفيض عليهم آثار رحمته، من التأييد والنصرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء عن إنجاز وعده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضع شيئاً إلا في محله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هذا في مقابلة الوعيد السابق للمنافقين ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي وعدهم وعداً شاملاً لكل أحد منهم، على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل كيفاً وكماً، فإن كل أحد منهم فائز بها ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ تستطيبها النفوس ويطيب فيها العيش ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ العَدْنُ في الأصل: الاستقرارُ والثباتُ، يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام فيه، والمراد به الإقامة على وجه الخلود والدوام، كما قال سبحانه: ﴿خَالِدِينَ فيها لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ وجنة عدن هي أبهى أماكن الجنات وأسناها ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي قدرٌ يسيرٌ من رضوانه سبحانه ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم من ذلك كله، أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»(١) وفيه دلالة على أن السعادات الروحية، أفضل من السعادات

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٣٦٣ ومسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٩ والترمذي رقم ٢٥٥٨.

الجسمانية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرضوان ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي يستحقر دونه الدنيا وما فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي المجاهرين منهم بالسيف ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وهم غير المظهرين للكفر باللسان، وذلك بنحو الوعظ، وإلزام الحجة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ أي على الفريقين في الجهاد بقسميه، ولا ترفق بهم، وعن عطاء نَسَخَتْ هذه الآية كل شيء من العفو والصفح، وكل من وُقِفَ منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه، يُجاهد في الحجة، وتستعمل معه الغلظة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾ أي مسكنهم ودار إقامتهم نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مصيرهم.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ أي المنافقون ﴿بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ بيان ما صدر عنهم من الجرائم، الموجبة لما مرَّ من الأمر بالجهاد، والغلظة عليهم، والمفسرون ذكروا فيه سبباً للنزول فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: «عبد الله بن أبيّ» ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ فنقلها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قاله فنزلت الآية، وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: جاء رجلٌ فدعاه ﷺ فقال: عَلَامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق وجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله تعالى الآية ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هي ما حكي من قولهم ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي وأظهروا ما في قلوبهم من

الكفر، بعد إظهار إسلامهم، وكفرهم كان ثابتاً، والإسلام الحقيقي لا وجود له ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ من الفتك برسول الله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك، أخرج البيهقي عن حذيفة بن اليمان، قال: «كنت آخذاً بخِطَام ناقة رسول الله ﷺ أقودُ به، وعمَّار يسوقه، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها، فأنبهتُ رسولَ الله ﷺ، فصرخ بهم، فولَّوْا مدبرين، فقال ﷺ: «هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا، كانوا متلثِّمين، قال: هؤلاء المنافقون»[1] ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أي وما كرهوا وما عابوا شيئاً ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج، في ضَنْكٍ من العيش، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ أثْرَوْا بالمغانم، ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ عما هم عليه من القبائح ﴿يَكُ﴾ أي التوبة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ بالإصرار على النفاق، ويُعْرِضوا عن التوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر في هذه الدنيا، بأن يسلّط الله عليهم المؤمنين ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بالنار وغيرها من أفانين العذاب ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في الدنيا مع سعتها وكثرة أهلها، والمراد بذلك التعميم ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب، بالمدافعة، ولا بالشفاعة، وخُصَّ ذلك في الدنيا، لأنه لا ولي ولا نصير لهم في الآخرة قطعاً، فلا حاجة لنفيه.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

(١) الحديث أخرجه البيهقي في كتاب دلائل النبوة، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٢/٣٨٦.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ نزل في «ثعلبة» أتى رسول الله ﷺ وقال: أُدْعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال ﷺ: يا ثعلبة قليلٌ تؤدّي شكره، خير من كثيرٍ لا تُطيقه!! فراجعه، فقال: والذي بعثك بالحقِّ لئن رزقني الله مالاً لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنَمَتْ حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع تدريجاً عن الجماعة والجمعة، فسأل ﷺ عنه، فحُكي له، فبعث ﷺ مصدِّقين في أخذ الصدقة، فقال: ما هذا إلاَّ جزيةٌ فارجعا حتى أرى رأيي»، فنزلت[1]، والمقصود تحذير المسلمين أن يعتادوا مثل هذه الخصال الذميمة.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي منعوا حقَّ الله منه ﴿ وَتَوَلَّوا۟ ﴾ أعرضوا عن طاعة الله سبحانه ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها، والمراد تولوا بإجرامهم وهم معرضون بقلوبهم.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ كلُّ شيءٍ جاء بعد شيءٍ، فقد عَاقَبه وعَقَّبه، أي فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ﴿ نِفَاقًا ﴾ سوء اعتقاد وكفراً مضمراً ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ متمكناً في قلوبهم ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ أي يلقون الله ويلقون جزاء عملهم، وهو يوم القيامة ﴿ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ أي يلقون جزاء عملهم، بسبب إخلافهم ما وعدوه تعالى من التصدق والصلاح، وبسبب كونهم مستمرّين على الكذب، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع، للإيذان بالاستمرار، وفي الحديث الشريف: «أربعٌ من كنَّ فيه

---

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٠/ ١٩٢ وتفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٨ وقد نقل هذا عن ابن عباس والحسن البصري. أقول: وهذا غير ثعلبة بن حاطب الصحابي المشهور، فهذا مسلم بدريٌّ، وذاك رجل منافق بنص القرآن الكريم: ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ أي ومن المنافقين من عاهد الله، وقد اشتبه على البعض الأمر، فأنكر القصة وكذَّب الرواية، مع أنها مرويةٌ في أكثر كتب التفسير، وبالتمييز بين الاثنين ينتهي أمر الشك والتكذيب، وانظر تفسير القرطبي ٨/ ٢١٠.

كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ، كانت فيه خصلةٌ من النفاق، حتَّى يَدَعَها: إذا اؤتمن خَانَ، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا عَاهَد غَدَر، وإذا خَاصَم فَجَر»[1] أي مال عن الحق، وليس الغرض الحصر، بل كلُّ من أبطن خلاف ما أظهر، فهو من المنافقين، واستُشْكل ذلك بأن هذه الخصال، قد توجد في المسلم، بل في بعض علمائنا اليوم؟ أُجيب بأن المعنى: أن هذه الخصالَ خصالُ النفاق، وصاحبُها يشبه المنافقين في التخلق بها، ويجب على المؤمن أن يجتنب عنها، فإنها في غاية القبح والشناعة.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾؟ أي المنافقون الذين عاهدوا الله تعالى، والهمزة للإنكار والتوبيخ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ أي ما أسرُّوه في أنفسهم من النفاق، والعزم على الإخلاف وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، وتقديمُ السرِّ لأن العلم به أعظم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، حتى ما اجترؤوا عليه من العظائم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ اللمز: العيبُ، أي هم الذين يعيبون ﴿ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ أي المتطوعين المتبرّعين ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي في الإنفاق من أموالهم، عن أبي مسعود البدري قال: لمَّا نزلت آية الصدقة كنَّا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدَّق بشيء كثير، فقالوا

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإيمان باب علامات المنافق ١/ ٨٤، ومسلم رقم ٥٨ في الإيمان أيضاً، وأبو داود رقم ٤٦٨٨ في السنَّة.

مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إنَّ الله لغنيٌّ عن صاع هذا، فنزلت هذه الآية[1]، وحثَّ النبي ﷺ الناسَ على الإنفاق، فقال: يا أيها الناس تصدَّقوا، فقام عبد الرحمٰن بن عوف، فقال: عندي ثمانية آلاف تركت منها أربعةً لعيالي، وجئت بأربعة أقدمها إلى الله تعالى، ثم قام عاصم بن عدي الأنصاري فقال: يا رسول الله: عندي سبعون وسقاً من تمرٍ، فطعن المنافقون وقالوا: إنما جاءا بهذا للرياء والسمعة، ثم قام رجل يكنى «أبا عقيل» فقال: يا رسول الله ما لي من مال، غير أنّي آجرتُ نفسي على صاعين من تمر، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع أقربه إلى الله تعالى، فلمزه المنافقون وقالوا: كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحبَّ أن يُذْكر، ويُعطى من الصدقات، فنزلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلاَّ طاقتهم، وهم الفقراء ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي يستهزئون بهم ويقولون: إنه محتاج إليه، فكيف يتصدق به؟ والمنافقون لا يعلمون أن هذا من موجبات الفضيلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم، والتعبير عنها بذلك للمشاكلة[2] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم موجع، فالجملة معطوفة على ما قبلها، وإنما اختلفتا فعلية، واسمية، لأن السخرية في الدنيا وهي متجددة، والعذاب في الآخرة وهو دائم، والتنوينُ في العذاب للتهويلِ والتفخيم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٣٠، ومسلم في الزكاة رقم ١٠١٨، وذكره الطبري بنحوه في جامع البيان ١٠/ ١٩٥.

(٢) قال النحاس في معاني القرآن ٣/ ٢٣٦: ومعنى ﴿سَخِر اللهُ منهم﴾ أي جازاهم على سخريتهم، فسمَّى الثاني باسم الأول على الازدواج. اهـ أي على سبيل المقابلة لسخريتهم وهذا ما يسمى بالمشاكلة أو المقابلة وهي الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى.

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يا رسول الله ﴿ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ إخبار باستواء الأمرين، في استحالة المغفرة، وتصويره بصورة الأمر للمبالغة، قال المفسرون: لما نزلت الآية المتقدمة في المنافقين، وظهر نفاقهم للمؤمنين، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويقولون: استغفر لنا!! فنزلتْ ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ المراد من السبعين التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ امتناع المغفرة لهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فليس عدم قبول استغفارك، لبخلٍ منَّا، ولا لقصور فيك، بل لعدم قابليتهم، بسبب الكفر الصارف عنه، لأنهم كفروا كفراً متجاوزاً للحد، كما يشير إليه وصفهم بالفسق، في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فإن الفسق عبارة عن التمرد، والتجاوز عن حدود الشرع.

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ أي المتخلفون عن غزوة تبوك، الذين خلَّفهم كسلُهم ونفاقهم عن الغزو ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ مصدر ميمي بمعنى القعود، أي فرحوا بقعودهم عن الغزو ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي بعد خروجه ﷺ مخالفةً له حين سَار وأقاموا فلم يخرجوا معه، أي فرحوا لأجل مخالفته ﷺ ﴿ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إيثاراً للدَّعة والراحة، لِمَا في قلوبهم

من الكفر والنفاق، وإنما أُوثر ما عليه النظمُ الكريم، على أن يقول: وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو، إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله، مع كونه من أجلِّ الرغائب، قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح، الذي هو القعودُ خلاف رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض تثبيطاً: لا تخرجوا إلى الغزو في الحر، فإنه لا تُستطاع شدَّتُه ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ردّاً عليهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا من أهل الفطانة والفقه، لعرفوا أنها كذلك.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ في الآخرة، إخبارٌ عما يؤول إليه حالهم، أي وسيبكون بكاء كثيراً حين يلقون في الآخرة جزاءهم[1] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من فنون المعاصي، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على الاستمرار التجددي.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فإن ردَّك الله إلى المدينة، وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم، والرجع إشارة إلى أن ذلك السفر، لما فيه من الخطر فيحتاج الرجوع منه، ولذا أوثر إن على إذ ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوةٍ أخرى بعد تبوك، التي ردَّك الله منها بتأييده عزيزاً ﴿فَقُل﴾ لهم إهانةً ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ ما دمتُ ودمتم ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ

(١) معنى الآية: أمرُ الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ماشاؤوا، فإنهم سيبكون في النار بكاءً لا ينقطع، جزاءً بما اجترحوه من الآثام، وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه ابن عباس، والحسن، وقتادة، وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا، طبعة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٨ هـ.

﴿عَدُوًّا﴾ من الأعداء، وهو إخبارٌ في معنى النهي للمبالغة، وإبعاد لهم من محافل الصحابة، عقوبة لهم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ﴾ عن الخروج معي وفرحتم به ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي في غزوة تبوك، والجملةُ في موضع التعليل لما سلف، أي لأنكم رضيتم بالقعود في أول مرة ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي المتخلفين كالنساء والصبيان، والعاجزين من الرجال كالمرضى والزمنى، والجمع المذكر للتغليب، وتفسيرُ الخالف بالمتخلف هو المأثور عن السلف، وفي الآية دليل على أنَّ الرجل إذا ظهر منه مكرٌ، وخِداع، وبدعة يجب الانقطاع عنه، وترك مصاحبتِه.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ وإنما جيء بصيغة الماضي، تنبيهاً على تحقق الوقوع لا محالة، قوله: ﴿أبداً﴾ متعلق بالنهي أي لا تدع لهم، ولا تصلِّ عليهم أبداً، وقد روي في سبب النزول ما أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لمَّا مات عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول، دُعي له ﷺ ليصلي عليه، فلمَّا قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، وثبتُ إليه، فقلت يا رسول الله: أتصلي على ابنِ أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا، أعدِّد عليه، فتبسم ﷺ وقال: أَخِّرْ عني يا عمر، فصلَّى ثم انصرف، فلم يمكث إلاَّ يسيراً حتى نزلت الآية»[1] وأخرجه الترمذي وزاد فيه «فما صلي بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله»[2] ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ أي ولا تقف عند قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء، وفي زيارة قبور الكفار خلافٌ، وكثير من القائلين بعدم الجواز،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٣٣٨ فتح الباري.
(٢) انظر سنن الترمذي كتاب التفسير رقم ٣٠٩٩.

حَمَل القيامَ على ما يعمُّ الزيارة، ومن أجازها استدل بقوله ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، ألاَ فزوروها، فإنها تذكّركم الآخرة»[1] والاحتياطُ عدم زيارة قبور الكفار ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ تعليل للنهي على معنى إن الصلاة على الميت والاحتفال به، إنما يكون لحرمته، وهم بمعزل عن ذلك، لأنهم استمروا على الكفر مدة حياتهم ﴿ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي متمردون في الكفر، خارجون عن حدود الله.

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

وتقدمت مثل هذه الآية، والحكمة في تجدد النزول، إرادة أن يكون المخاطب، على تيقظٍ وانتباهٍ، فيما يجب أن يُحذر منه، وهو التعجبُ، والتفاخرُ بالأموال والأولاد، فالتكريرُ هنا للمبالغة في التحذير، ويجوز أن يكون هذا في فريق غير الفريق الأول، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين في أوقات مختلفة، لم يكن ذكره مع بعضهم مغنياً عن ذكره مع الآخر.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٩٧٧ في الأضاحي، والترمذي في الأشربة رقم ١٨٧٠ وأبو داود رقم ٣٦٩٨ في الأشربة أيضاً.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ ﴾ من القرآن فيها الإيمان والجهاد ﴿ أَنۡ ءَامِنُواْ ﴾ بأن آمنوا ﴿ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، والخطاب للمنافقين والمراد أخلصوا الإيمان بالله، وإنما قدم الإيمان لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً ﴿ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ ﴾ أي طلب الإذن منك، وفيه التفات ﴿ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾ أي ذوو الغنى والسَّعَة من المنافقين، وهم من له قدرة مالية، وخُصّوا بالذكر لأنهم الملومون ﴿ وَقَالُواْ ذَرۡنَا ﴾ أي دعنا ﴿ نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ الذين قعدوا لعذر، كالمرضى، والزمنى، وكالنساء، والصبيان.

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ ﴾ مع النساء، والمرضى، والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ ما ينفعهم وما يضرهم في الدارين.

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ ﴾ أي إنْ تخلَّف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، نية واعتقاداً وعملاً، فهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِين﴾[1] وفي الآية تعريضٌ، بأن القوم ليسوا من الإيمان بالله تعالى في شيء ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿ لَهُمُ ﴾ بواسطة

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٩.

ذلك ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ منافع الدارين، الظفر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة، وقيل: الخيراتُ: الحورُ، لقوله تعالى: ﴿فيهنَّ خيرات حسان﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب، كرَّر اسم الإشارة تنويهاً بشأنهم.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية، عدا الفلاح والرضوان، فقد أعدَّ الله لهم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، وهذه هي السعادة الكبرى.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ أي المعتذرون ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ شروعٌ في بيان أحوال منافقي الأعراب، إِثْر بيان أحوال منافقي المدينة، والمعذِّر من عذَّر في الأمر إذا قصَّر فيه وتَوانى، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل، ولا عذر له، عذرتُه فيما صَنَع: رفعتُ عنه اللَّومَ، فهو معذورٌ، أي غير ملوم، والاسم العُذْرُ، والمَعْذِرةُ، واعتذر طلب قبول معذرته، والأعراب صيغة جمع لا واحد له وليست جمعاً للعرب، يقال رجل أعرابي إذا كان بدويّاً يسكن البادية، فمن استوطن القرى والمدن فهو من العرب خلاف العجم، والأعراب: أهل البدو وهم أسد، وغطفان، وقيل: نفر من بني غفار ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد، وكثرة العيال ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعذرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة.

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ
أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا
يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ بيان في الأعذار الحقيقية والضعفاء كالهرمى والزمنى ومن فيه نحافة خلقية لا يقوى على الخروج معها ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ كالعمى ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ كجهينة ومزينة ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي إثم وأصله الضيق ﴿ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية، بأن يتعهدوا أمورهم، وأمور أهلهم، وإرادة الخير لهم، وبالاحتراز عن الأراجيف، وإثارة الفتنة ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم جناحٌ، ولا على معاتبتهم سبيلٌ، وإنما وضع «المحسنين» موضع الضمير، للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين، وهو من بليغ الكلام، لأن معناه لا سبيل لعاتبٍ عليهم، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيه إشارة إلى أن كل أحد، محتاجٌ للمغفرة والرحمة، إذ الإنسان لا يخلو من تفريط، فلا يقال: إنه نفى عنهم الإثم، فما الاحتياج إلى المغفرة؟.

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ هم البكّاؤون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: نذرنا الخروج معك، فاحملنا على الخفاف والدواب لنغزو معك، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم يبكون ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ وفي إيثار ﴿لا أَجِدُ﴾ على ليس عندي، من تلطيف الكلام، كأنه ﷺ يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا

يجده ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب إذا، أي انصرفوا، والظاهر أنه لم يخرج منهم أحد، للغزو مع الرسول ﷺ ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي دمعها، وهو أبلغ من يفيض دمعُها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فيَّاضاً ﴿حَزَنًا﴾ أي يفيض دمعها للحزن ﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾ أي لئلا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في شراء ما يحتاجون إليه للخروج معك.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ واجدون للأهبة والمركب للغزو، مع سلامتهم، قادرون على الخروج معك ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا لأنفسهم أن يبقوا مع العجزة والنساء والصبيان، المتخلفين عن الغزو، والسبب هو رضاؤهم بالدناءة، والانتظام في جملة الخوالف إيثاراً للدَّعة ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ خذَلهم الله حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غائلة ما رضوا به، وما يستتبعه عاجلاً وآجلاً.

﴿۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف عن الخروج للجهاد في سبيل الله، وقيل الخطاب للنبي ﷺ والجمع للتعظيم، والأولى أن يكون له ولأصحابه ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي من الغزو ومنتهين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وإنما لم يقل إلى المدينة، إيذاناً بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم، لا الرجوع إلى المدينة

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله، وتخصيصُه ﷺ لما أن الجواب وظيفته ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدِّقكم في ذلك ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ جمع ضمير المتكلم في الموضعين لحسم أطماعهم من التصديق، وللإيذان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة، فلن يصدِّقهم أحد منهم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه؟ فكأنه استتابة، وإمهال للتوبة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بالبعث يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي إليه تعالى، ووضع الظاهر موضع الضمير، للدلالة على أنه تعالى مطلع على سِرِّهم وعَلنهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عند ورودكم إليه تعالى ووقوفكم بين يديه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمراد من التنبيه المجازاة عليها، وإيثارها عليها للإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم، وإنما يعلمونها حينئذ.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة والسين للتأكيد والمحلوف عليه هو ما اعتذروا به، والجملة بدل من يعتذرون ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إذا رجعتم من تبوك، ومعنى الانقلاب: هو الرجوعُ والانصرافُ ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ بترك المعاتبة، وتصفحوا عما فَرَط منهم، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿لترضوا عنهم﴾ ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ إعراض اجتناب، وعن ابن عباسٍ يريد ترك الكلام والسلام، كما ينبىء التعليل بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ قذر لخبث باطنهم، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الاعراض، وترك المعاتبة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار، لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة ﴿جَزَآءًۢ﴾ أي يُجزون جزاء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من فنون السيئات.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يحلفون بالله لكم على ما اعتذروا ﴿لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم، لينفعهم ذلك في دنياهم فقط ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ حسبما راموا وقبلتم عذرهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضاءكم يستلزم رضاء الله، ورضاؤكم وحده لا ينفعهم، إذا كانوا في سخط الله، والمراد به نهي المؤمنين عن مصاحبتهم، والبعد عنهم، كما يجب الاجتناب عن الأرجاس الجسمانية والآية نزلت ـ على ما روي عن ابن عباس ـ في جَدّ بن قيس، ومعتّب بن قُشير، وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، أمر النبي ﷺ المؤمنين ألاّ يجالسوهم، ولا يكلموهم، فامتثلوا.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل المدن لغلظة طبائعهم، وقسوة قلوبهم، وتوحشهم، ونشأتهم في معزل عن العلم والعلماء، وما كانوا تحت سياسة سائس، ولا تأديب مؤدب، فنشأوا كما شاؤوا، فهم أشبه شيء بالبهائم، روي عن ابن عباس أنه قال: من سكن البادية جفا، ومن اتَّبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتُتن ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي أحق وهو مأخوذ من جَذْر الحائط بسكون الدال، وهو أصله وأساسه ويتعدى بالباء ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾ بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الأحكام والشرائع لبعدهم عن مجلسه ﷺ، وحرمانهم من مشاهدات أنوار النبوة والمعجزات ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم أحوال أهل الوبر والمدر ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يثيب به مسيئهم ومحسنهم، عقاباً وثواباً.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي يَعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ الغرم ذهاب المال بغير عوض، وغرم في تجارته خسر، أي

يعدّ ما يعطيه في سبيل الله مغرماً، لأنهم لا ينفقونه رجاء ثواب الله تعالى ليكون لهم مغنما، وإنما ينفقونه تقية ورئاء الناس ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي دوائر الزمان ومصائبه، لينقلب الأمر عليكم، فيتخلص من الإنفاق، ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين، كقوله تعالى ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بعد قول اليهود ما قالوا ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ على الوجه المأمور به ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ أي يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار ﴿مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سبب قربات، جمع قربة بمعنى التقرب إلى الله بالعمل الصالح ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدّق حين أخذ صدقته بالخير والبركة، فالمراد بالصلاة الدعاء، لكن ليس له أن يصلي عليه ويسلم، فلا يفرد به غير الأنبياء والملائكة، قال النووي: علّةُ منع الصلاة والسلام، لأن ذلك شعار أهل البدع، وأنه مخصوص في لسان السلف بالأنبياء والملائكة، كما أن قولنا عزَّ وجل مخصوص بالله تعالى، فلا يقال: محمد عزَّ وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٌ لَّهُمۡۚ﴾ شهادة من الله تعالى بصحة معتقدهم، وتصديقٌ لرجائهم، والضمير لنفقتهم، أي ألا إن هذا الإنفاق، قربة عظيمة تقرّبهم من رضوان ربهم، و «ألآ» أداة استفتاح للتنبيه، والدلالة على الاعتناء بالأمر ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ وعدٌ لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين للتحقيق، وهي في الإثبات في مقابلة «لن» في النفي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تقرير لما تقدم كالدليل عليه والآية نزلت في أسلم، وغفار، وجُهينة، روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «قريشٌ، والأنصار، وجُهينة، ومُزينة، وأسلم، وأشجع، وغِفار مواليّ، ليس لهم مولىً دون الله ورسوله»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٩٥ ومسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٥٢٠.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة الأبرار، وهو بيان لِفضائل أشراف المسلمين، والمراد منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي سلكوا طريقهم واتبعوهم بالإيمان والطاعة، إلى يوم القيامة، والمراد بالإحسان كل خصلة حسنة، رُوي عن حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ، فيما كان بينهم من الفتن؟ فقال: إن الله تعالى قد غفر لجميعهم، وأوجب لجميعهم الجنة في كتابه العزيز، محسنهم ومسيئهم! فقلت له: في أيِّ موضع؟ فقال: سبحانَ الله، ألاَ تقرأ ﴿والسابِقونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحسانٍ رضي الله عنهم ورضُوا عنه﴾؟ ثم قال تعالى:

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم، وارتضاء أعمالهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما نالوه من النعمة الدينية والدنيوية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ يا أهل المدينة ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، من بعض قبائل العرب ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي لجُوا واستمرُّوا وَمَهروا فيه، كابن سلول، والجلاس، وأبي

عامر الراهب، يُقال: مرد فلان على عمله إذا استمرَّ ودأب وقَهَر فيه، غير أن مَرَد لا يكاد يستعمل إلا في الشر، ومرد إذا عتا فهو مارد أي ثبتوا في النفاق، ولم يتوبوا عنه، وقوله عز وجل ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعرفهم بأعيانهم لمهارتهم في النفاق، بحيث يخفى أمرهم على كثير، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم، قال قتادة: ما بال أقوام يتكلفون ويقولون: فلانٌ في الجنة، وفلان في النار، وإذا سألت عن نفسه، قال: لا أدري أنت أعلم بنفسك، وقد تكلفت شيئاً ما تكلف به نبيٌّ، قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وقال الله تعالى للرسول ﷺ: ﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ﴾!!.

وهذه الآية أقوى دليل في الرد على من يزعم الكشف، والاطلاع على المغيبات، بمجرد صفاء القلب، وتجرد النفس عن الشواغل ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ وعيد لهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد، أي سنعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر واتفقوا على أن العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب النار في الآخرة، فالمنافقون يُعذَّبون ثلاث مرات: مرةً في الدنيا، ومرة في القبر، ومرة في النار، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق، والإغراق فيه حتى صار لهم بمنزلة الطبع.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي ومن أهل المدينة قوم آخرون، لم يكونوا من المنافقين ﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أقرُّوا بذنوبهم، التي هي تخلفهم عن الغزو، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة، قال ابن عباس: هم عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما حضر رجوعه ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان في ممر النبي ﷺ فلما رآهم قال من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء

أبو لبابة وأصحابه، تخلَّفوا عنك، وقد أقسموا أن لا يُطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم، فأنزل الله الآية فأرسل ﷺ فأطلقهم[1]، والاعتراف: الإقرار بالشيء عن معرفة ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هو إظهار الندم، والاعتراف بالذنب، والخروج إلى المغازي السابقة وغيرها ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ هو التخلف عن الغزو ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي أن يقبل توبتهم، وهو المدلول عليها بقوله ﴿اعتَرَفُوا بِذُنُوبِهم﴾ ولأن قبول التوبة يقتضي صدور التوبة عنهم؛ وكلمة عسى للإطماع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي إنَّ الله تعالى كثير المغفرة والرحمة، يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه، وعن أبي عثمان النهدي قال: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهّرهم بها من الذنوب والأوضار، قال ابن عباس: إنهم لما أطلقوا جاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله: هذه أموالنا التي خُلِّفنا عنك بسببها، فتصدَّقْ بها عنَّا، واستغفرْ لنا فقال ﷺ: ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت الآية، ثم أخذ ﷺ منها الثلث كما جاء في بعض الروايات، فليس المراد من الصدقة الزكاة، لكونها مأموراً بها، وإنما هي كفارة لذنوبهم، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلف، وقيل: المراد بها الزكاة، والأمر بأخذها دفعاً لتوهم إلحاقهم ببعض المنافقين ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمّي بها حسناتهم،

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤٠٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعترافهم والدعاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم وبما تقتضيه حكمته تعالى.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾؟ الاستفهام للتقرير، أي ألم يعلم أولئك التائبون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي أن الله هو الذي يقبل التوبة عن عباده المخلصين ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يتقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تأكيد لما عطف عليه، وزيادة تقرير، أي ألم يعلموا أنه تعالى هو وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة، وذلك شأن من شؤونه عز وجل، وعاداته المستمرة؟.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ ما شئتم من الأعمال فظاهره تخيير، وباطنه ترغيبٌ وترهيبٌ ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ أي أعمالكم لا تخفى على الله خيراً كانت أو شراً ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها، آخرون غير المعترفين المذكورين ﴿مُرْجَوْنَ﴾ أي مؤخَّرون وموقوف أمرهم ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لحكم الله فيهم، والمراد بهم كما في الصحيحين «هلالُ بنُ أُميّة» و «كعبُ بن مالك» و «مُرارةُ بنُ الربيع» وهم قد تخلفوا كسلاً مع الهمِّ باللحاق، فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، ـ وحاشاهم ـ

فقد كانوا من المخلصين، وقد وُقف أمرهم خمسين ليلةً، لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم[(١)] ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ والمقصود تفويض ذلك إلى إرادة الله تعالى، إذ لا يجب على الله سبحانه شيء لا تعذيب العاصي، ولا مغفرة التائب، وقد أمر ﷺ أصحابه ألاّ يسلموا عليهم، ولا يكلموهم، وإنما شُدّد عليهم مع إخلاصهم، لأن الجهاد كان على الأنصار فرض عين خاصة، لأنهم بايعوا النبي ﷺ عليه وسلم في الخندق.

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وهؤلاء من أَجِلّتهم، فكان تخلفهم كبيرة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه بهم، فلما رأوا أن أصحاب رسول الله لا تكلمهم أخلصوا نياتهم، وفوضوا أمرهم إلى الله عز وجل، فرحم الله حالهم وقبل توبتهم رضي الله عنهم جميعاً.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾ إلى جنب مسجد قباء ﴿ضِرَارًا﴾ أي مضارة لأهل مسجد قباء، أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن جماعة من المنافقين، قال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً وهيئوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهبٌ إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحبُّ أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فنزلت الآية، وكشف الله أمرهم وفضحهم، وعصم نبيَّه من الصلاةِ فيه، فلما نزلت الآية دعا ﷺ «مالك بن دخشم» و «معن بن عدي» فقال: انطلقا إلى هذا

---

(١) انظر تمام قصة الثلاثة الذين تخلفوا في صحيح البخاري ٦/ ٨٨.

المسجد الظالم أهله، فاهدماه وأحرقاه، فخرجا سريعين حتى دخلاه وفيه أهله، فأحرقاه وتفرّق أهله عنه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي ليكفروا فيه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء، فأرادوا أن يتفرقوا وتَختلف كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقباً وانتظاراً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الراهب، وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصَّر، وقال للرسول ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاَّ قاتلت معهم، فلم يزل كذلك إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن ولّى هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين يحثهم إلى بناء مسجد، فبنوه منتظرين قدومه، فهدم ومات أبو عامر بقنسرين وحيداً، وبقي ما أضمروه حسرة في قلوبهم ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي ما أردنا ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي ما أردنا ببنائه إلاَّ الخصلة الحسنى، وهي الصلاةُ والذكر، والتوسعة على المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم هذا، وكلُّ مسجدٍ بُني مباهاةً أو رياءً سوى ابتغاء وجه الله، فهو لاحقٌ بمسجد الضرار، وقال عطاء: لما فتح اللهُ على عمر بن الخطاب الأمصار، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أن لا يبنوا في موضعٍ واحدٍ مسجدَيْن، يضارُّ أحدهُما الآخر.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ في مسجد الضرار ﴿أَبَدًا﴾ عن ابن عباس تفسير ﴿لا تقم﴾ أي لا تصلِّ، على أن القيام مجازٌ عن الصلاة، كما في قولهم: فلانٌ يقوم الليل، أي لا تصلِّ في ذلك المسجد أصلاً حسبما دَعوْك إليه ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ أي بُني أساسُه ﴿عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ أي تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ متعلق بأُسّس أي منذ أول يوم ابتدىء ببنائه ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وأحق أفعل تفضيل، أي أحقُ وأولى بأن تصلي فيه، واختلف فيه، فقيل: إنه مسجد قباء، لما جاء في الحديث الشريف، عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا...﴾[1] الآية،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٦٢ وأخرجه أيضاً أبو داود في الطهارة رقم ٤٤.

وهكذا في رواية عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير وسعيد بن جبير، ويدل عليه سياق الآية ولحاقه، وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، قاله عمر، وزيد بن ثابت، ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه، عن ذلك فقال ﷺ: «هو مسجدي هذا»(١) ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ أي في هذا المسجد رجال مؤمنون أتقياء وهم الأنصار رضوان الله عليهم. ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ روى ابنُ خزيمة في صحيحه أنه ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إنَّ الله تعالى قد أحسن الثناء عليكم بالطهور، فما هذا؟! قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أننا نُتْبع الحجارةَ بالماء، فقال هو ذاك»(٢) ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى، إدناء المحب لحبيبه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ التأسيس وضع الأساس، وهو أصل البناء وأوله، ويُستعمل بمعنى الإحكام أي أفمن أسَّس بنيان دينه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي على قاعدة محكمة هي التقوى، والخوف من الله، وطلب مرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الجُرُفُ: ما

---

(١) أخرجه مسلم ٢/ ١٠١٥ وأحمد في المسند ٥/ ٣٣١.

(٢) أخرجه ابن خزيمة، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٧٨ بنحوه، وذكره الحافظ ابن كثير ٢/ ٤٠٣.

جرفه السيلُ من الأرض، واحتفر ما تحته يريد الانهدام، والهارُ: المتصدّع المشرف على السقوط والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه، على قاعدة محكمة، هي التقوى، وطلب الرضاء بالطاعة، خير أم من أسس بنيانه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها، فأدى به ذلك إلى السقوط في النار، كما قال تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي فسقط به البناء وتهدَّم، وهوى في نار جهنم، شبَّه الباطل والنفاق في ذهابه واضمحلاله، ببناءٍ بني على حافة هوّة سحيقة، فهوى البناء لعدم وجود أساس، ولكونه على حافة الحفرة، وهلك بمن فيه، وهو تشبيه بديع، وتمثيل رائع. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ أي بناؤهم الذي بنوه وهو مسجد الضرار ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً ونفاقاً، والمعنى: إن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم، وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لمَّا هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم، لِمَا غاظهم من ذلك وعظم عليهم أمره، والريبة اسم من الريب بمعنى الشك، وجعل بنيانهم نفس الريبة للمبالغة في كونها سبباً لها، والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يزال بنيانهم ريبة في كل الأوقات، إلاَّ وقت تقطّع قلوبهم، فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ما داموا أحياء ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وتشريعه.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة، على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فضله، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن وأبلغ، مما في هذه الآية، لأنه أبرزه في صورة عقدٍ، عاقدُه ربُّ العزة جل جلاله، وثمنُه الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعلِ المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل كونهم قاتلين أيضاً ﴿فَيَقتُلُون ويُقتَلُون﴾ لإعلاء كلمته، وجعله مسجّلاً في الكتب السماوية، ولم يقل بالجنة مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم، واختصاصه بهم، كأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بيان للبيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل: كيف يبيعونَ أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيل الله، وقولُه تعالى: ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ بيان لكون القتال بذلاً للنفس، وإن كانت سالمة وغانمة، فمن قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، يعني أن القتل في سبيل الله، والموت فيها سواءٌ في الأجر، وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُج مِنْ بَيْتِهِ مهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أي وعداً ثابتا ﴿ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ يعني هذا الوعد الذي وعده الله للمجاهدين، قد أثبته في التوراة، والإنجيل، كما أثبته في القرآن ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾؟ مبالغة في الإنجاز، وتقرير لكونه حقاً، أي لا أحد أوفى من الله جلَّ وعلا بوعده وعهده!! لأن إخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق، فكيف بجانب الخلاق العالم جل جلاله؟ ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ أي فافرحوا به غاية الفرح، فإنه بيع الفاني بالغالي، قال الحسن البصري: بايَعهم والله فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله! أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بالثمن وهو الجنة، وإنها والله لصفقة رابحة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي البيع ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ نعت للمؤمنين، والمراد بهم المؤمنون المذكورون ﴿ ٱلۡعَٰبِدُونَ ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له تعالى، قال الحسن: أما واللهِ ما هو بشهر، ولا بسنة، ولكنْ كما قال العبدُ الصالح: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[1] ﴿ ٱلۡحَٰمِدُونَ ﴾ لنعمائه، ولما نالهم في السراء والضراء على كل حال ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ أي الصائمون لقوله ﷺ «سياحةُ أمتي الصوم»[2] وإليه ذهب جلة من الصحابة والتابعين، شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية، يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، فشبه الاطلاع عليها بالاطلاع على البلدان، أو المراد السائحون للجهاد، أو لطلب العلم ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ في الصلاة المفروضة، وقيل هما عبارة عن الصلاة ﴿ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ عن الشرك والمعاصي، الجامعون بين الوصفين: الأوامر، والنواهي ﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾ المراد بحدود الله ما بيَّنه وعيَّنه من الحقائق والشرائع ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الموصوفين بتلك الفضائل، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشَّر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشِّرهم بما يجلُّ عن إحاطة الأفهام، وتعبير الكلام.

---

(١) سورة مريم، آية ١٩.

(٢) أخرجه ابن جرير عن عائشة موقوفاً، ورواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٤٨٦ بلفظ «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وانظر جامع الأصول ٩/ ٤٨٥.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ﴾ أي المشركون ﴿ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ أي ذوي قرابة لهم ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ أي للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ بأن ماتوا على الكفر، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان، والآية نزلت في «أبي طالب» فقد أخرج البخاري ومسلم أنه: «لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أميَّة، فقال النبي ﷺ: أيْ عمّ، قل: لا إله إلاَّ الله، أحاجُّ لك بها عند الله!!» فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: «لا إله إلاَّ الله» فقال ﷺ: «لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنْه عنك»[1] فنزلت، والآية على هذا دليل على أن أبا طالب مات كافراً، وهو المعروف من مذهب أهل السنة والجماعة، والشيعة الذاهبون إلى موته مؤمناً، أخبارهم عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت، نعم لا ينبغي للمؤمن الخوض به كالخوض في سائر كفار قريش، فإن له مزية عليهم بما كان يصنعه مع رسول الله ﷺ من محاسن الأفعال.

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ آزر بقوله: ﴿واغفر لأبي﴾ بأن

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٢٥٨ في التفسير، ومسلم رقم ٢٤ في الإيمان، والترمذي رقم ٣١٠٠ في التفسير.

توفقه للإيمان، عن عمرو بن دينار قال: لما مات أبو طالب قال له ﷺ: لأستغفرنَّ لك، فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، فقالوا: قد استغفر إبراهيم لأبيه، فأنزل سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾ إبراهيم ﴿إِيَّاهُ﴾ بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ رجاء أن يُسلم، لعدم تبين أمره، وإلاَّ لما وعدها إياه كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم بأن أوحي إليه ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي أنَّ أباه ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ أي مستمر على عداوته تعالى، وعدم الإيمان به ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ عن الاستغفار له ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ يكثر التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه، ورأفة قلبه، تأوه مثل توجَّع وزناً ومعنى، وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأوّاه؟ قال: الخاشعُ المتضرع ﴿حَلِيمٌ﴾ صبورٌ على الأذى صفوح عن الجناية.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ وليس من عادته سبحانه أن يضلَّ قوماً عن طريق الحق ويجري عليهم أحكامه، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ بالوحي صريحاً أو دلالة ﴿مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ أي ما يجب اتقاؤه من المحظورات، فلا ينزجروا عما نهوا عنه، وأمَّا قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالاً، ولا يؤاخذون به، فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل البيان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى عليم بجميع الأشياء فيبين لهم ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ من غير شريك له فيه ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ﴾

﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من غيره ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعكم من الضرر، بيَّن تعالى أنه مالك كل موجود، ومتولي أمره والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولايةٌ ولا نصرةٌ إلاَّ منه تعالى، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا عما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصود سواه عز وجل.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء بذكر النبي ﷺ تشريفاً لهم، وقيل: إن توبة الله على النبي ﷺ فُسِّر ـ كما روي عن ابن عباس ـ بالإذن للمنافقين في التخلف، وأما توبة الله على المهاجرين والأنصار، فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود، لأنَّ الغزوة كانت في وقت شديد، والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة، حتى النبي والمهاجرون والأنصار، لقوله تعالى: ﴿وتُوبُوا إلَى اللهِ جَمِيعاً أيها المؤمنون﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي في وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة، وكانوا في شدة من الظهر، يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي شدة من الزاد تزودوا التمر المسوس، وبلغت بهم الشدة أن قسم التمرة اثنان، وفي شدة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدة زمان من حُمَّارة القيظ ومن الجدب والقحط، ومن هنا قيل لتلك الغزوة «غزوة العسرة» ولجيشها جيش العسرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ بيان لتناهي الشدائد وبلوغها إلى ما لا غاية وراءها، وهو إشراف بعضهم إلى أن يميلوا إلى التخلف ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ﴾ تكرير

للتأكيد، وفيه تنبيه على أن توبته سبحانه بمقابلة ما قاسوه من الشدائد ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين، ومن أجل ذلك تاب عليهم.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ أي وتاب على الثلاثة ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ أي تخلفوا عن الغزو، وهم «كعب، وهلال و مُرارة» ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها وسعتها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، بأمر الرسول ﷺ، وهو مثل لشدة الحيرة، فلا يجد مكاناً يؤمن فيه، كأنه لا يستقر به قرار، ولا تطمئن به دار ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس وسرور، وفي هذا ترقٍ من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم في أنفسهم وهو في غاية البلاغة ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي وعلموا وأيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ إلى استغفاره، وإلى الرجوع والإنابة إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة بعد خمسين يوماً أو أكثر ﴿لِيَتُوبُوٓا۟﴾ أي ليستقيموا على توبتهم، ويستمرُّوا عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي تواب لمن تاب وأناب، ولو عاد في اليوم مائة مرة، الرحيم المتفضل على عباده بأنواع النعم، مع استحقاقهم لأفانين العقاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه وراقبوه في كل ما تأتون وما تذرون ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، نية، وقولاً، وعملاً.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ والأعراب عام لكل سُكَّان البوادي ﴿ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ إذا دعاهم عند توجهه إلى الغزو معه، عبَّر عن النهي بصيغة النفي للمبالغة ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي ولا يصونوا أنفسهم عما لم يصن نفسه عنه، ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب، وظاهر الآية وجوب النفير إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو بنفسه، واستدل بها أن الجهاد كان فرض عين في عهده ﷺ، وبه قال ابن بطَّال، وعلله بأنهم بايعوه ﷺ عليه، ولا يخفى ما في الآية من التعريض بالمتخلفين رغبة باللذائذ والشهوات، غير مكترثين، بما كابده ﷺ، وجاء أن ناساً من المسلمين تخلَّفوا ثم إن منهم من ندم، فلحق برسول الله ﷺ كأبي خيثمة، فقد روي أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، فرشَتْ له في الظلِّ، وبسطت له الحصير، وقرَّبت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظللٌّ ظليلٌ، ورُطَب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسولُ الله ﷺ في الضحِّ أي ـ الشمس والحر ـ والريح، ما هذا بخير، فقام فرحَّل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومرَّ كالريح فمدَّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب وراء السَّراب، فقال ﷺ: كن أبا خيثمة، فكان، ففرح به ﷺ واستغفر له ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما دل عليه من الكلام من وجوب المشايعة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ شيءٌ من العطش، ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أي مجاعةٌ، خَمُصَ الشخص خمصاً فهو خميص: إذا جاع ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي

في سبيل إعلاء كلمة الله، وفي طاعته سبحانه ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم، والوطءُ: الدَّوسُ بالأقدام ونحوها ﴿يَغِيظُ﴾ يغضب ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ يغضبهم وطؤه ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ أي لا يأخذون ﴿مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ شيئاً من الأخذ كالقتل، والأسر، والسَّلب ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ أي ثواب عظيم، بحكم الوعد والثواب الجميل، والتنوين للتفخيم، دلت هذه الآية على أن من قصد طاعةً، كان قيامه وقعوده، وحركته وسكونه، كلها حسنات مكتوبة عند الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل وتنبيه على أن الجهاد إحسانٌ، أمَّا في حق الكفار، فلأنه سعيٌ في تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب الطبيب للمريض الجاهل، وأمَّا في المؤمنين فلأنه صيانة لهم من سطوة الكفار واستيلائهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ مثل ما أنفق عثمان في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم وهو كل منفرج في الجبال والآكام ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ أي أثبت لهم ذلك الذي فعلوه، من الإنفاق، والقطع ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء.

﴿۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾.

﴿ ۞وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ أي وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو وجهاد، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإن خروجهم كافة يخلُّ بأمر المعاش، روي عن ابن عباس أنه تعالى لمَّا شدَّد على المتخلفين، قالوا لا يتخلف أحد منا عن جيش وسرية، ففعلوا ذلك، وبقي ﷺ وحده، فنزل ﴿وَمَا كَانَ﴾ الآية ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ لولا هنا تحضيضية وهي مع الماضي تُفيد التوبيخ على ترك الفعل، ومع المضارع تفيد طلبه والأمر به، لكنَّ اللوم على الترك فيما يمكن تلافيه ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ جماعة كثيرة كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي جماعة قليلة، وحملُ الفرقة والطائفة على ذلك مأخوذ من السياق ومن البعضية، وإلاَّ فالجوهري لم يفرّق بينهما ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه، فهو لا يحصل بدون جد وجهد ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه، أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس، كما هو ديدن أبناء الزمان، والله المستعان ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي لعلهم يحذرون عقاب الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وذهب كثير من الناس إلى أن المراد من النفر: الخروج لطلب العلم، فالآية ليست متعلقة بما قبلها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ أُمروا بقتال الأقرب منهم، لأنه من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الكفار في زمان واحد، فكان من قَرُب أولى، وهذا إرشاد إلى طريق تحصيله على الوجه الأصلح، ومن هنا قاتل ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل إلى سائر العرب واليهود، وجرى أصحابه على سنته ﷺ إلى أن وصلت سراياهم إلى ما شاء الله،

ولأن الأقرب أحق بالشفقة والإستصلاح، ولذا أُمر ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدةً وصبراً على القتال، ومجاهدة لهم بشتى أنواع الجهاد، والغلظة هنا بمعنى الشجاعة والشدة، والعنف في القتل والأسر، حتى نُقلّم أظافر الكفر، والفائدة فيها أنها أقوى تأثيراً في الزجر عن القبيح، وهذه هي صفة المؤمن، أنه رفيق بأخوانه المؤمنين، شديد على الكافرين، كما قال سبحانه في وصف أصحاب الرسول ﷺ: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وكقوله: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وفي الحديث الشريف «أنا الضَّحوكُ القتال»(١) يعني أنه ضحوك في وجه وليّه، قتّال لهام عدوه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعصمة والنصرة، وفيه دلالة على أن إقدامهم على الجهاد، بسبب تقوى الله، لإعلاء كلمة الله تعالى، لا بسبب المال والجاه.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن ﴿فَمِنْهُم﴾ أي فمن المنافقين كما روي عن قتادة وغيره ﴿مَّن يَقُولُ﴾ استهزاء لإخوانهم المنافقين ليثبتهم على النفاق ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ﴾ أي السورة ﴿إِيمَانًا﴾؟ أي تصديقاً ويقيناً؟ وهذا في مقابلة قول الله عن المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾(٢) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ جواب من جهة الله تعالى، أي فأمّا الذين آمنوا بالله، وبما جاء من عنده

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤١٧ ولم أعثر على من خرّجه.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢.

﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ لتصديقهم بها، وانضمام إيمانهم فيها بإيمانهم السابق ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بنزولها لأنها سببٌ لزيادة كمالهم، وارتفاع درجاتهم.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ كفر، وسوء عقيدة ونفاق ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها، وسمي الكفر رجساً، لأنه أقبح الأشياء ﴿ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي استحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه، وهذا يدل على أن الروح لها مرض، فمرضها الكفر والأخلاق الذميمة، وصحتها العلم والأخلاق الفاضلة.

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ يعني المنافقين، الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المنافقين ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يبتلون بأصناف البليّات بالقحط والمرض وغيرها، ويُفضحون بكشف أسرارهم ﴿ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ والمراد من المرة أو مرتين التكثير لا العدد، فالفتنة بمعنى البلية والعذاب ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾ عما هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ولا يتعظون بتلك الفتنة الموجبة للتذكر، ولا ينتهون بالتوبة.

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ وهم في محفل تبليغ الوحي ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ تغامزوا بالعيون، إنكاراً لها وسخريةً، وتلفتوا كراهة سماعها، يتشاورون في إنتهاز الفرصة، في تدبير الخروج، قائلين إشارة ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؟ من المسلمين إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرهم أحد قاموا، وإن رآهم أقاموا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾ عن حضرته ﷺ

مخافة الفضيحة، أي انصرفوا جميعاً لعدم تحملهم سماع ذلك، لشدة كراهتهم ولغيظهم ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان، وهو يحتمل الإخبار والدعاء، والدعاء من الله وعيدٌ لهم، وإعلام بلحوق العذاب بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً فيه نفعهم، لسوء فهمهم، أو لعدم تدبرهم.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ الخطاب للعرب ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، وقيل الخطاب للبشر على الإطلاق، ومعنى كونه من أنفسهم أنه من جنس البشر، كما في قوله تعالى: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ وقرأ ابن عباس والزهري ﴿أَنْفَسِكُم﴾ بفتح الفاء من النفاسة، فالمراد من أشرف العرب ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد وشاق عليه، من عزَّ عليه، بمعنى صَعُب وشقَّ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ العنتُ: المشقةُ، أي صعب عليه ما يوقعكم في المكروه والمشقة، وهذا من شدة رأفته ورحمته بالأمة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم وصلاح حالكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قدَّم الأبلغ منهما وهو الرأفة، التي هي عبارة عن شدة الرحمة للفواصل، وهو أمرٌ مرعي في القرآن، وصحح أن الرأفة الشفقة، والرحمة الإحسان، فيكون فيها وصفه ﷺ بدفع الضرر عنهم، وجلب المصلحة لهم، ولم يجمع هذان الاسمان لغيره ﷺ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له ﷺ تسلية له، أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك، والتصديق بما جئت ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ فإنه يكفيك

ويعينك عليهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه، وهو كالدليل عليه، لأن المتوحد بالألوهية هو الكافي، وهو المعين ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلاَّ منه سبحانه ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، والمقصود من ذكره تعظيم جلال الله عزَّ وجلَّ، وختم سبحانه هذه السورة بما ذُكر، لأنه تعالى ذكر فيها التكاليف الشاقة، فأراد أن يسهّل عليهم ذلك، ويشجع النبي ﷺ على تبليغه، وقد ورد عن أبي الدرداء موقوفاً «من قال حين يصبح وحين يمسي ﴿حَسبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ﴾ لم يصبه في ذلك اليوم، ولا تلك الليلة كربٌ ولا نكبة» وهذه الآية وِرْدي منذ سنين، وقد جاءت هذه الخاتمة لهذه السورة في غاية الحسن والإبداع، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد عبده، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التوبة»

* * *



مكية وهي مائة وتسع آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ
رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ
ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ (٢) ﴾ .

﴿الٓرۚ﴾ وقد تقدَّم الكلام في الحروف المقطَّعة ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات البينات ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي القرآن المعجز في تشريعه وبيانه ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ صفةٌ للكتاب، ووصف بذلك لاشتماله على الحِكَم البالغة، فيراد بالحكيم ذو الحكمة، والقرآن أيضاً حاكم يميز الحق والباطل، ويفصل الحلال والحرام، ويقضي بالعدل والإحسان.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي العرب ﴿عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار تعجبهم، وتعجيب السامعين منه، لكونه في غير محله، وإنما قال ﴿لِلنَّاسِ﴾ لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ بتقدير حرف الجر، أي لأن أوحينا ﴿إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ من أعقل رجالهم، دون عظيم من

عظمائهم، وقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً، يرسله إلى الناس، إلاَّ «يتيم أبي طالب» وهذا من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة، هذا وإنه ﷺ لم يكن يقصر عن عظائمهم فيما يعتبرونه، إلا في المال وخفة الحال، وما ذكروه من أنه يتيم إن أرادوا أن أصل اليتيم مانع من الإيحاء إليه، فهو أظهر بطلاناً، وما ألطف ما قيل إن أنفس الدُرِّ «اليتيمة» وقيل للحسن: لِمَ جَعَل الله النبيَّ ﷺ يتيماً؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه مِنَّة، فإن الله سبحانه هو الذي آواه، وأدَّبه وربَّاه، وأمَّا التقدم بكثرة المال فلا دخل له في ذلك قطعاً، بل إن الوحي تابع للاستعداد الأزلي، والسبق في إحراز الفضائل، جِبِلَّةً واكتساباً، ولا ريب أن النبي ﷺ في ذلك الشأن، في الغايات القاصية، وما أحسن ما قيل:

وأَحْسَنُ منْكَ لَمْ تَرَ قطُّ عَيْني ... وَمِثْلُكَ قَطُّ لَمْ تلدِ النِّسَاءُ
خُلِقتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبِ ... كَأنَّكَ قَدْ خُلِقتَ كَمَا تَشَاءُ

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أن هي المفسّرة، أي أوحينا إليك بأن أنذر الناس كافة، وخوّفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي بشِّرهم برحمة الله ورضوانه لصدقهم وإيمانهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي أجراً حسناً بما قدَّموا من الأعمال الصالحة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إذ بالقدم يحصل السبقُ، والوصولُ إلى المنازل الرفيعة، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها، وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه هو صدقُهم، وأصلُ القدم: العضوُ المخصوصُ، وأُطلقت على السبق مجازاً، لكونها سببه وآلته، وأريد من السبق: الفضلُ والشرف، والتقدم المعنوي، فيعبّر بالصدق عن كل فعل فاضل، ويُضاف إليه، كمقعد صدق، ومدخل صدق، إلى غير ذلك، وفسَّره ابن عباس بالأجر الحسن، وابن مسعود بالعمل الصالح، وقال الزجاج: ﴿قدم صدق﴾ أي منزلة رفيعة، والكل متقارب ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم المتعجبون، وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر

للتقبيح والتحقير، وترك العطف لجريانه مجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الإنكار ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما أوحي إليه ﷺ في الكتاب المنطوي على الإنذار والتبشير ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّنٌ وظاهر، وهذا اعترافٌ من حيث لا يشعرون، بأن ما عاينوه من الرسول ﷺ خارج عن طوق البشر، ولكنَّهم سموه ساحراً تمادياً في الغيِّ والعناد، كما هو ديدن المكابر اللجوج، وإذا كان في الناس من لا يؤمن بالقرآن، فهذا ليس تقصيراً في هداية القرآن، وإنما العيب فيهم، لأن هدايته كسائر الهداية الطبيعية التي أعرض الناس وعموا عنها، كهداية العقل والبصر ونحوهما، وقد يوقن الرجل أن في عمله مضرة تلحق به، ومع ذلك يعدل عن حكمه، انتهازاً للذة ينالها حسُّه أو وهمه، كما هو في مدمن الخمر والمسكرات، فهو كرجل يغمض عينيه ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة، وتتكسَّر عظامه، هل يُنقص ذلك من قدر بصره؟

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كلام مستأنف سيق لبطلان تعجبهم المذكور، بالتنبيه على بعض ما يدلُّ عليها من شؤون الخلق، وأحوال التكوين والتدبير، أي إن ربكم ومالك أمركم، الذي تتعجبون من أن يرسل إليكم رجلاً منكم، هو الله الذي خلق السموات والأرض.. الآية ثم علا فوق العرش علواً يليق بجلاله ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها، لتجيء محمودة العاقبة، والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم، والمراد من الأمر أمر ملكوت السماوات والأرض وغير ذلك، أي يقدّر أمر الكائنات، والذي تعجبوا منه

من البعث، والوحي والنبوة والرسالة وقوله سبحانه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ الاستثناء مفرَّغ من أعم الأوقات أي ما من شفيع يشفع لأحد، في وقتٍ من الأوقات، إلا بعد إذنه تعالى، وذلك عند كون الشفيع من المصطفيْن الأخيار، والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة وهو المؤمن ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات الجليلة، المقتضية للألوهية والربوبية ﴿رَبُّكُمۡ﴾ لا غيره إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ وحّدوه بالعبادة، وأخلصوا له الطاعة، ولا تشركوا به شيئاً، من مَلَكٍ أو نبيّ، فضلاً عن جمادٍ لا يبصر، ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر، فينبهكم على أنه هو المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه؟ وإيثارُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على تفكَّرون، للإيذان بظهور الأمر، وأنه كالمعلوم، الذي لا يفتقر إلى تفكر، بل إلى مجرد إخطار على الذهن.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤﴾.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ أي إليه رجوعكم بالبعث والنشور، لا إلى غيره، فاستعدُّوا للقائه، والجملة كالتعليل لوجوب العبادة ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، أي وعد الله بذلك عباده وعداً محققاً من الله ﴿حَقًّاۚ﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي يحيي الخلائق ثم يميتهم، ثم يحييهم ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي بعدله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ أي ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء حار، قد انتهى حرُّه، وعذاب أليم، بسبب كفرهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على مواظبتهم على الكفر.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ أي خلقها ذات ضياء، والشمس هي أعظم الكواكب السيارة، كما تدل الآثار، ويشهد له الحسُّ، وفي هذا تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى، ووحدته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، بآثار صنعه في النيِّرين، بعد التنبيه على الاستدلال بما مرَّ من إبداع السماوات والأرض، وإرشاد إلى أنه سبحانه حين دبَّر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع، فلأن يدبِّر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أولى وأحرى، أي خلقها الله سبحانه حال كونها ذات ضياء ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي ذا نور، وسمي نوراً للمبالغة، والضياءُ أقوى من النور، فلذا جعله الله للشمس، وقد نبه سبحانه بذلك، على أنه خلق الشمس نيّرة في ذاتها، والقمر نيّراً بِعَرض لمقابلته الشمس، والاكتساب منها ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ من حيث سيره، وتخصيصُه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علَّل بقوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة قدَّرها الله سبحانه، ليعلم العباد عدد السنين والشهور والأيام، لإقامة المصالح الدينية والدنيوية، والمراد من الحساب، حساب الأوقات من الأشهر والأيام وغير ذلك مما يتعلق بالمصالح المذكورة ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الشمس، والقمر، على ما حكى من الأحوال ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ما خلق ذلك ملتبساً بشيءٍ من الأشياء، إلا ملتبساً بالحق، مراعياً لمقتضى الحكمة البالغة ﴿ يُفَصِّلُ

﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيه المذكورات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بها، فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جلّ وعلا، ويعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في تعاقبهما بطلوع الشمس وغروبها وكذلك طلوع القمر وأفوله، وقد يراد اختلافهما بحسب الأمكنة، في الطول والقصر، فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول، ولياليها أقصر من أيام البلاد البعيدة منه، وكروية الأرض تقتضي أن تكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً، وفي مقابله نهاراً ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والرياح، والأمطار ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الجبال، والبحار، والأنهار، والحيوانات، والنباتات، والأشجار ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ كثيرة دالة على وجود الخالق ووحدته، وكمال علمه وقدرته، وحكمته التي من جملتها ما أنكروه، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والبعث بعد الموت ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصهم لأن الداعي إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله والحذر من العاقبة، فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات لوجود الخالق دون غيرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث، وذهولهم بالمحسوسات عمّا وراءها، والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقاً أي لا

يعتقدون بلقاء الله[1] ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ قاصرين هممهم على لذائذها وزخارفها، وجُوّز أن يُراد من الرجاء الأمل، أي لا يؤمّلون حسن اللقاء بالبعث، والحياة بالحياة الأبدية العالية، ورضوا منها بالحياة الفانية الدنية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ تاركون النظر ولا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يصدهم عنها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ مسكنهم ومقرهم ﴿النَّارُ﴾ لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما واظبوا عليه من الأعمال القبيحة، وأصناف المعاصي والمنكرات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي فعلوا الإيمان، وآمنوا بكل ما يجب أن يؤمن به من الملائكة والكتب والرسل ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الأعمال الصالحة في نفسها اللائقة بالإيمان ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يرشدهم ﴿رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك السبيل المؤدي إلى الجنة، وإنما لم يُذكر أنَّ مأواهم الجنة، تعويلاً على ظهورها، بملاحظة ما سبق، من بيان مأوى الكفرة، وفي النظم الكريم إشعار بأن مجرد الإيمان، والعمل الصالح، لا يكفي في الوصول إلى الجنة، بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية بأن يجعل الله لهم نوراً يهتدون به يوم القيامة والمراد بهذا الإيمان؛ الإيمان الخاص المشفوع بالعمل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ﴾ أي تجري من بين أيديهم

(١) لقاءُ اللهِ كنايةٌ عن البعث والنشور، أي لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

وهم على سرر مرفوعة، وأرائك مصفوفة ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ منازلهم في الجنة.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ دعاؤهم فيها ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي ننزّهك يا ألله عن صفات النقص، ونسبّحك تسبيحاً، يقولونه تقديساً لمقامه تعالى، عن شوائب العجز والنقصان، وتلذذاً بذكره، لا عبادةً ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ فيما بينهم ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أو تحية الملائكة إياهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[1] أو تحية الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[2] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي خاتمة دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي دعاؤهم منحصر فيما ذُكِر، أول كلامهم التسبيح، وآخره التحميد، ويتكلمون بما أرادوا.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يرجون لقاء الله، أُشير إلى بعض عظائم معاصيهم، وهو استعجالهم بما وُعدوا به من العذاب، تكذيباً واستهزاءً، وجيء بلفظ الناس تفظيعاً للأمر ﴿ٱلشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به، فإنهم كانوا يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾[3] ونحو ذلك، ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أي لو يعجل الله للناس الشرَّ إذ استعجلوه، استعجالهم بالخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأُميتوا وأُهلكوا بالمرَّة، وما أُمهلوا طرفة عين، لكن الإنسان خُلق عجولاً، والله

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.
(٢) سورة يس، آية: ٥٨.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

تعالى صبور حليم، يؤخر للمصالح الجمة، التي لا يهتدي إليها عقل البشر، ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ كأنه قيل: ولا نعجل لهم العذاب، بل نتركهم إمهالاً واستدراجاً ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ في تمردهم وعتوهم في إنكار البعث والجزاء ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحيرون.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي أصابه الضر، من مرضٍ، أو فقر، أو قحط وغير ذلك من الشدائد، إصابةً يسيرة ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي دعانا لإزالته مخلصاً فيه، واللامُ تفيد اختصاص حدوثه واستقراره للجنب، ففيه مبالغةٌ زائدة ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي في جميع الأحوال، لعدم خلو الإنسان عنها عادةً ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ أي أزلنا ما نزل به من الضر ﴿مَرَّ﴾ مضى على طريقته، ونسي حال الجهد والبلاء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ كأنه لم يدعنا ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ إلى كشف ضر ﴿مَّسَّهُۥ﴾ ذاقه قبل ذلك، وهذا وصفٌ للجنس ممن هو متصف بهذه الصفات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زُيّن له الإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي للمشركين المجاوزين الحدَّ في الكفر والطغيان ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات، والإعراض عن الطاعات، والإسرافُ: مجاوزة الحدِّ، وسُمُّوا أولئك مسرفين، لما أن الله تعالى، إنما أعطاهم القوى والمشاعر، ليصرفوها إلى مصارفها، من العلوم والأعمال الصالحة، وهم قد صرفوها إلى ما لا ينبغي، مع أنها رأس مالهم، ووجه الانتظام مع الآية الأولى، أنه سبحانه أشار في الأولى أن الكفرة يستعجلون نزول العذاب، وبيَّن جلَّ شأنه هنا أنهم يكذبون في ذلك، فلو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه، وفي حديث للترمذي عن أبي هريرة: «من سرَّه أن يستجيب الله

له عند الشدائد والكُرَب، فَلْيكثر الدعاء في الرخاء»[1] والآثار في ذلك كثيرة.

﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ﴾ الأمم الخالية مثل قوم نوح، وهود، وعاد، وأضرابهم ﴿ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ حين ظلموا بالتكذيب، والتمادي في الغي والطغيان، ﴿ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم ﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ ﴾ أي وما استقام لهم أن يؤمنوا، لفساد استعدادهم، وخذلان الله لهم، وعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع، الذي هو عذاب الاستئصال بالمرة ﴿ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أي كل طائفة مجرمة، وفيه وعيد شديد لكفار مكة، لأنهم مشتركون فيما يقتضي الإهلاك.

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ والمعنى ثم أخلفناكم في الأرض بعد أولئك القرون ﴿ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾؟ أي أيَّ عمل تعملون من الأعمال الحسنة، كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحسَنُ عَمَلاً﴾ ففيه إشعار

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٧٩ في الدعوات، ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٤ من حديث سلمان الفارسي مرفوعاً وقال: صحيح الإسناد.

بأن المراد من الاستخلاف إنما هو ظهور الأعمال الحسنة، وأما الأعمال السيئة فبمعزل عن ذلك.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ التفات من خطابهم إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، وتوجيهاً إلى الرسول ﷺ، بتحديد جناياتهم المضادة لما أُريد منهم بالاستخلاف، والمراد من الآيات الآيات الدالة على التوحيد، وبطلان الشرك، والإضافة لتشريف المضاف، والترغيب للإيمان بها والترهيب عن تكذيبها ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني المشركين وضع الموصول موضع الضمير ذماً لهم بذلك، أي قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله ﷺ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ بكتاب آخر نقرؤه، ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان الآيات المشتملة على ذلك آيات أخرى ولعلهم قالوا ذلك كيداً، ليتوسلوا به إلى الاستهزاء به ﷺ، وليس مرادهم أنه لو جاءهم آمنوا ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لهم ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ أي ما يصحُّ ولا يستقيم أصلاً تبديله ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي من قبل نفسي وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل احتقاراً لهم، لاستلزام امتناعه، امتناع الإتيان بقرآن آخر بطريق الأولى ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي ما أتّبع في شيء مما آتي به ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من غير تغيير له في شيء أصلاً، فكأنه قيل: ما أفعل إلاّ اتباع ما يُوحى إليّ، وهو تعليل لصدر الكلام، ولما عرَّضوا به بهذا السؤال أن القرآن كلامه ﷺ، ولذلك قيد التبديل في الجواب بقوله: ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ وسماه عصياناً عظيماً مستتبعاً لعذاب عظيم، بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتبديل والتحريف ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة، وفيه إشعار بأنهم استوجبوه، بهذا الاقتراح الموحي بالسخرية والاستهزاء.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ تحقيق لحقية القرآن، وكونه من عند الله تعالى، والمعنى: إن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيء قط، ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم، بأن لم ينزله عليَّ، ولم يأمرني بتلاوته ما تلوته عليكم ﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ أي ولا أعلمتكم به بلساني ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ مقدار مدة أربعين سنة، بطريق الاستشهاد عليه بما شاهدوا منه ﷺ، في تلك المدة الطويلة، من الأمور الدالة على استحالة ذلك من جهته ﷺ، والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم دهراً مديداً، تحفظون أحوالي طُرّاً ﴿ مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أي من قبل نزول القرآن الكريم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تلاحظون ذلك، فلا تعقلون امتناع صدوره من مثلي، فإنَّ ذلك غير خافٍ، على من له عقل سليم، بل إنَّ من كان له أدنى مُسْكَةٍ من عقلٍ، إذا تأمل في أمره ﷺ، وأنه نشأ بينهم في مدة طويلة، من غير مصاحبة العلماء، في شأن من الشؤون، ولا مراجعةٍ إليهم في فن من الفنون، ولا مخالطة للبلغاء في المحاورة والمفاوضة، ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخطب والمعارضة، ثم أتى بكتاب بهرتْ فصاحتُه كلَّ ذي أدب، وحيَّرت بلاغتُه مصاقع العرب، واحتوى على بدائع أصناف العلوم، ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم، لا يبقى عنده شائبة اشتباه، في أنه وحي منزلٌ من عند الله عزَّ وجل.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ استفهام إنكاري معناه النفيُ، أي لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كلاماً، فقال هذا من عند الله، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ فكفر بها كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ ضمير الشأن، وفائدته الإيذان بفخامة مضمون الكلام، وتقريره في الذهن، لأن الضمير لا يفهم من أول الأمر،

فيبقى الذهنُ مترقباً لما يعقبه، فيتمكن عند وروده فضل تمكُّنٍ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا ينجون من محذور، ولا يظفرون بمطلوب.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ حكاية لجناية أخرى وهي من عطف القصة على القصة، أي يعبدون متجاوزين الله أحجاراً وأصناماً لا تضرُّ ولا تنفع، لأنها جماد لا يقدر على نفع ولا ضر، والمعبود الحقُّ ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً، حتى تكون عبادته بجلب نفع أو دفع ضر ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشفع لنا في الآخرة، إن يكن بعث، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد، الضار النافع، إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع، على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده سبحانه، ونظيره في هذا الزمان، اشتغال كثير من الخلق، بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم، فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي أتخبرون الله بما لا وجود له أصلاً، إذ لو كان لَعَلِمهُ علاّم الغيوب، وفيه توبيخ لهم وتهكم بهم لما يدعونه من المحال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي بما لا يعلمه كائناً في السماوات ولا في الأرض ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم، وعن الشركاء الذين يشركونهم به.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ بيانٌ بأن التوحيد والإسلام ملة قديمة، اجتمعت عليها الخلائق قاطبة، فطرةً وتشريعاً، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغُواة، أي وما كان الناس كافة من أول الأمر، إلاَّ متفقين على الحق والتوحيد، من غير اختلاف، رُوي هذا عن ابن عباس، ومجاهد، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «إلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الهُدَى»[1] وذلك من عهد آدم إلى زمن نوح ﴿ فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ بأن كفر بعضهم، وثبت آخرون على ما هم عليه، فخالف كل من الفريقين الآخر ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بإبقاء المحق، وإهلاك المبطل.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم، والقائلون أهل مكة ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ من الآيات التي اقترحوها، كآية موسى وعيسى، كأنهم لفرط العتو والفساد، لم يعدُّوا المعجزات البينات التي ظهرت على يديه ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات المتكاثرة، لا سيما القرآن العظيم، الباقي إعجازه على وجه الدهر، إلى يوم القيامة، ولو أنصفوا لاستغنوا عن كل آية غيره ﷺ، فإنه الآية الكبرى، ومن رآه وسَبَر أحواله، لم يكد يشكُّ أنه رسول الله ﷺ ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم في الجواب ﴿ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة، مفاسد تصرف عن إنزالها، وكأنه يقول: إن ما طلبوه من أمور الغيب الخفية، التي لا يعرفون عواقبها، وأمرُ الغيب مختصٌّ بالله تعالى وهو الذي يعلم ما به

---

(١) هذه القراءة محمولة على التفسير، لا على أنها قراءة من القراءات المتواترة، فتنبَّهْ والله يرعاك.

الصلاح، لا أنتم ولا غيركم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ هذا وعيد وتهديد، أي فانتظروا نزول العذاب بكم، إني معكم من المنتظرين لما يفعل الله بكم، بجحودكم الآيات العظام واقتراحكم غيرها.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي صحةً وسعةً ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ كقحطٍ ومرض ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ أي نزلت بهم حتى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم، وإسنادُ المسِّ إلى الضراء، وإسنادُ الإذاقة إلى ضمير الجلالة، من الآداب القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ والمرادُ بالناس: كفارُ مكة، لما رُوي أن الله تعالى، سلّط عليهم القحط سنين، حتى كادوا يهلكون، فطلبوا منه ﷺ أن يدعوَ لهم، ووعدوه بالإيمان، فلمّا دعا لهم، ورحمهم الله، فأخصبت البلاد وكثرت الخيرات، طفقوا يطعنون في آياته تعالى، ويعاندون رسوله ﷺ ويكيدونه ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالطعن فيها والتكذيب بأنها من عند الله، وسُمِّي الاستهزاء والتكذيب مكراً، لأنه نوع من الكيد الخبيث لإطفاء نور الله، قال مجاهد ﴿مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ استهزاء وتكذيب، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي قل لهم: اللهُ أعجل عقوبةً، وعذابه أسرع وصولاً إليكم، وتسميةُ العقوبة بالمكر، لوقوعها في مقابلة مكرهم ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون أعمالكم ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة، فضلاً على أن يخفى على الله تعالى، وكيفية كتابة ذلك، مما لا يلزم العلم به، وهي تعليل لأسرعية مكره سبحانه: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[1].

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن التي تسير فوق سطح الماء، ويجعلكم قادرين على قطع المسافة ﴿فِي البَرِّ﴾ مشاة أو ركباناً ﴿وَالبَحرِ﴾ بالفُلْك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي في السفن فوق سطح الماء وفي لُجَّة البحر ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ بمن فيها عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه يذكره لغيرهم، ليتعجب من حالهم، وينكر عليهم ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي ليّنة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ بتلك الريح لطيبها ﴿ جَآءَتْهَا ﴾ جواب إذا، أي فاجأتها واستولت عليها ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ذات عصفٍ، شديدة الهبوب، تكسر كل شيء، يقال: عصفت الريحُ عصوفاً أي اشتدت، وأصل العصف: السرعةُ، والعاصفُ من باب النسب، كاللابن، والتَّامِر، يستوي فيه المذكر والمؤنث، ولذا لم يقل عاصفة، مع أن الريح مؤنث ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ ﴾ وهو ما علا وارتفع من اضطراب الماء ﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من جميع أمكنة مجيء الموج عادة ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي أيقنوا أنهم أُهلكوا وسُدَّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدوُّ ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي أخلصوا الدعاء لله، واستغاثوا به وحده ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ من غير إشراك به لعودتهم للفطرة، وزوال المعارض من شدة الخوف ﴿ لَئِنْ ﴾ اللام موطئة للقسم، أي يقولون: والله لئن ﴿ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ الورطة والأهوال ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ بعد ذلك أبداً ﴿ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الموحِّدين، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك، وشاكرين لنعمتك، وإنما ورد اللفظ بصيغة اسم الفاعل ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ ولم يقولوا: لنشكرنك، للمبالغة والدلالة على الاستمرار في الشكر والثبوت عليه.

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ ﴾ بإجابة دعائهم ممَّا غشيهم من الكربة، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فاجؤوا الفساد في الأرض، وسارعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ مبطلين فيه، وهو احترازٌ عن الإفساد بحق، كتخريب قلاع الكفرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ توجيهُ الخطاب إلى أولئك الباغين، للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ ﴾ الذي تتعاطونه ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ فإن وباله يرجع إليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ﴿ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ منفعة الحياة الدنيا، وهي فانية لا تبقى، ويبقى عقابها، وفيه بيان لكون ما فيها من المنفعة العاجلة شيئاً غير معتد به سريع الزوال ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ في القيامة، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا ﴿ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالجزاء عليه، وهو وعيد كقول الرجل لمن توعَّده: سأخبرك بما فعلتَ، وفي الآية الزجر عن الفساد والبغي، عن أنسٍ قال: قال ﷺ: «ثلاثٌ هُنَّ رواجعُ على أهلها: المكرُ، والنكثُ، والبغيُ، ثمَّ تلا ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ ﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾»[1] قال ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجِّلَ اللهُ لصاحبه العقوبة، من البغي، وقطيعة الرحم»[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم والديلمي.

(٢) أخرجه البيهقي من حديث أبي بكرة مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٤٢٨.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كلام مستأنف، مسوقٌ لبيان شأن الحياة الدنيا، وقصر مدة التمتع فيها، وقرب زمان الرجوع الموعود، شبّه حالها العجيبة، في سرعة تقضِّيها، وانصرام نعيمها، غِبَّ إقبالها، واغترار الناس بها، بحال ما على الأرض من أنواع النباتات، في زوال رونقها ونضارتها، وذهابها حُطاماً، بعدما كانت غضَّةً طريَّة، قد التفَّ بعضها على بعض، وازَّينتْ الأرض بألوانها، بحيث طمع الناس، وظنوا أنها سلمت من الجوائح ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كمثل مطرٍ نزل من السماء ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ ﴾ أي كثر بسببه واختلط به ﴿ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فاشتبك حتى خالط بعضُه بعضاً ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ ﴾ كالبُرِّ، والبقل والثمار ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ كالكلأ والحشيش ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي بهجتها وحسنها من النبات، والتزخرفُ عبارة عن كمال حسن الشيء ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ أي تزينت بأصناف النباتات، وأشكالها، وألوانها المختلفة، كعروسٍ أخذت من ألوان الثياب، والزينة، وتحلَّتْ بها ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ ﴾ أي أهل الأرض ﴿ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أي متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا ﴾ أي نزل بها ما قدَّرناه من العذاب، وهو هلاك زرعها بما يستأصله من الآفات كالبرد، والجراد، والسموم وغير ذلك ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ فيه الإشارة إلى أنه لا فرق في إتيان العذاب، بين زمن غفلتهم، وزمن يقظتهم ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا ﴾ أي زرعها وسائر ما على الأرض من النبات ﴿ حَصِيدًا ﴾ أي كالمحصود من أصله ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ ﴾ أي كأن لم ينبت زرعُها، من غَنِيَ بالمكان إذا أقام فيه ﴿ بِٱلْأَمْسِ ﴾ فيما قبله، وهوَ مَثَلٌ في الوقت القريب، والممثَّل به هو زوال خضرة النبات فجأة، وذهابه حطاماً بعدما كان غضَّاً طريّاً، وزيَّن الأرض حتى

طمع أهلها فيه، وظنُّوا أنه قد سلم من الجوائح ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي الآيات القرآنية، نوضِّحها ونبيِّنها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ما في تضاعيفها من العبر، وتخصيص تفصيلها بهم، لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الأخروية الباقية، أي يدعو الناس إلى الجنة، حيث يأمرهم بما يفضي إليها، وسميت الجنة ﴿دَارِ السَّلامِ﴾ لسلامة أهلها عن كل ألم وآفة، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى طريق مستقيم هو الإسلامُ، والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة، وتخصيص الهداية بالمشيئة، دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المصرَّ على الضلالة لم يرد الله رشده، فالكافر مأمور، وليس بموفَّق، ومشيئته تعالى تابعة للحكمة، فمن علم أنه لا ينفع فيه اللطف لم يوفقه، لأنه يكون عبثاً، والحكمة منافية للعبث، فهو جلَّ وعلا يهدي من ينفعه اللطف.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أي العملَ، بأن فعلوا المأمور به، واجتنبوا المنهيَّ عنه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبةُ الحسنىٰ، وهي الجنةُ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه ربهم الكريم جلَّ جلاله، وهو التفسير المأثور عن أبي بكر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وروي مرفوعاً إلى رسول ﷺ من طرق شتى، روى مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقول تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألم تُبيضْ

وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم»[1] وفيه إثبات رؤية الله للمؤمنين، أكرمنا الله في الجنة بسعادة لقائه ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ أي لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غَبَرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوانٌ، والتنكير للتحقير، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار من حزن وسوء، والجملةُ لبيان أمنهم من المكاره، إثْرَ بيان فوزهم بالمطالب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المذكورون باعتبار اتصافهم بما تقدم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها، ولا انقراض لنعيمها.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧) ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لما شرح الله سبحانه أحوال المسلمين، وما أعدَّ لهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من أقدم على السيئات، والمراد من السيئات: الشركُ والعصيان ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي وجزاء الذين كسبوا السيئات، جزاءُ سيئة بمثلها، أي يجازى سيئة بسيئة مثلها، لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي هوانٌ عظيم، فالتنوينُ هنا للتفخيم ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ من مانع يعصمهم من عذابه ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ غُطِّيت ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿مُظْلِمًا﴾ أي كأنما أُلبست وجوههم سواداً من الليل المظلم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الدائمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ١٨١ وزاد في رواية أخرى: «ثم تلا ﷺ هذه الآية ﴿للذين أَحْسَنُوا الحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وأخرجه الترمذي برقم ٢٥٥٥.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ الضمير في ﴿نَحشُرُهُم﴾ لكلا الفريقين، لأنه المتبادر من قوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ ومن أفراد الفريق الثاني، في قوله تعالى ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي نقول للمشركين من بينهم، والإخبار بحشر الكل في تهويل اليوم أدخل، وتوبيخُهم على رؤوس الأشهاد أفظع ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أي الزموا مكانكم، والمراد انتظروا حتى تنظروا ما يفعل بكم، وهي كلمة مختصة بالتهديد والوعيد ﴿أَنتُمْ﴾ توكيد للضمير ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ المراد بها: الأصنامُ ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي ففرقنا بينهم، وقطعنا الوُصَل التي كانت بينهم، وهو من زلتُ الشيء من مكانه أزيله أي أزلته، والتضعيف للتكثير لا للتعدية ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ أي من عبدوهم من دون الله، من الأوثان والأصنام، فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها، وهم المعنيُّون بأكثر هذه الآيات، ونسبةُ القول لها غيرُ بعيد من قدرته سبحانه، فينطقها الله الذي أنطق كل شيء، في ذلك الموقف المهيب، فتقول لهم: ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي نتبرأ من عبادتكم لنا، واعتقادكم بألوهيتنا، وإنما تبرؤوا منهم، لأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم، لأنها الآمرة لهم بالإشراك بالله تعالى.

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه العليم الخبير، العالم بكُنْهِ الحال، قال شركاؤهم عند قول المشركين والله إياكم نعبد، فقال الشركاء: فكفى بالله شهيداً ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ أي ماكنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل.

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام المدهش، وهو مقام الحشر وفي ذلك الوقت ﴿تَبْلُوا﴾ تُختبر وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرة، سعيدةً أو شقية ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ ما قدّمتْ من العمل، مستتبعاً لآثاره، من نفع أو ضر، وخير أو شر ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وردُّوا إلى الله المتولي جزاءهم ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ ربهم الجليل المتولي لأمرهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ المتحقق في ربوبيته لا ما اتخذوه رباً باطلاً، فإن قلت: قد قال الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ قلنا: المولى في اللغة يُطلق على المالك، وعلى الناصر، فمعناه هنا المالك، وهناك الناصر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع وذهب عنهم وظهر ضلالُه ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يدعون أنها آلهة، وضمير الجمع للنفوس المدلول عليها بكل نفس، والعدول إلى الماضي ﴿ضَلَّ﴾ للدلالة على التحقق والثبوت.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لأولئك المشركين ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أي منهما جميعاً، من ينزل لكم الغيث والقطر من السماء، ويخرج لكم الزروع والثمار من الأرض؟ الأول بمنزلة الفاعل، والثانية بمنزلة القابل، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية، ومواد أرضية ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ؟ أي من يستطيع خلقهما على هذه الفطرة العجيبة؟ ومن وقف على تشريحهما، وقف على ما يبهر العقول ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي ومن ينشىء الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة؟ وقيل: المراد بالحيّ والميت، المؤمن والكافر، وعلى هذا القول يكون اللفظ من باب الاستعارة، والأول أولى ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؟ أي ومن يلي

تدبير أمر العالم جميعاً؟ وهو تعميم بعد تخصيص، وفيه إشارة إلى أن الكل منه سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تَلَعْثُم ولا تأخير ﴿ٱللَّهُ﴾ إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه، والاسم الجليل مبتدأ والخبر محذوف، أي اللهُ يفعل ما ذُكر من الأفاعيل لا غيره، وهذه الآية صفعةٌ لوجوه القدرية، الزاعمين أن الحرام غير رزقٍ لله، بل العبد يرزق نفسه منه، وتلفَحُ وجوه أناس يزعمون أن الذي يدبر الأمر في كل عصر قطبُه، وهذا ذهاب إلى القول بوحدة الوجود، وهذا ضلال مبين عند المتكلمين، وأهل الصوفية الحقة ﴿فَقُلْ﴾ عند ذلك يا رسول الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ الهمزة لإنكار الواقع، أي أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه، بإشراككم به سبحانه؟.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ أي ذلكم الذي اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ مالككم ومتولي أموركم على الإطلاق ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته، والمتحقق ألوهيته، لأنه هو الذي أنشأكم، ورزقكم، ودبَّر أموركم ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؟ فمن تخطَّى الحقَّ الذي هو عبادة الله، وقع في الضلال، لأنه لا واسطة بين الحق والضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ أي فكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال، مع قيام البرهان؟ استفهام إنكاري للإيذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال، ممَّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلاَّ الضلال كذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه العادل ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ أي على الذين تمرّدوا في الكفر، وخرجوا عن حدِّ الاستصلاح ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي حقت على أولئك المتمردين كلمة العذاب لأنهم لا يؤمنون.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ احتجاج آخر على أحقية التوحيد، وبطلان الإشرك، والسؤالُ للتبكيت والإلزام، أي هل يوجد من الأوثان والأصنام ﴿مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي من ينشىء الخلق من العدم، ثم يُفنيه، ثم يعيده ويحييه؟ ولما كانوا مفحمين لا يستطيعون الجواب، أُمر ﷺ أن يكشف لهم باطلهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي الله يبدأ ويعيد لا غيره من الشركاء، وفُهِم الحصر بدلالة الفحوى ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ الإفكُ الصرف عن الشيء، أي كيف تُقلبون من الحقّ إلى الباطل؟ وتُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ احتجاج آخر على ما ذُكر، جيء به إلزاماً لهم على ضلالهم في عبادة غير الله، والمعنى: هل من يهدي إلى الحق، بإعطاء العقل، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق إلى التدبر بما نصب في الآفاق، والأنفس، هل هو الله سبحانه أم الشركاء؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي الله يهدي له دون غيره، أي قل لهم: إن عجزت آلهتكم عن ذلك، فالله وحده هو القادر على هداية الضال، وإنارة السبيل، وبيان الحق الساطع ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ فالمقصود به التعميم وإن كان الفاعل في الواقع الله عزَّ وجل، والتقدير أفمن يهدي غيره إلى الحق ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، وأصله لا يهتدي أي لا يهتدي بنفسه فضلاً عن هداية غيره ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي إلاَّ أن يهديه الله سبحانه ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ لكم، في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله

سبحانه، والاستفهام للإنكار التوبيخي، وفيه تعجيبٌ من حالهم ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل ببطلانه.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى، لبيان عدم فهمهم للبرهان النيّر، أي ما يتَّبع أكثرهم في معتقداتهم إلاَّ ظناً واهياً، من غير مستندٍ من دليل أو برهان، بل مجرد ظنون وأوهام، وخرافات فاسدة يتبعون بها آباءهم، ووجه تخصيص هذه الاتباع لأكثرهم، للإشعار بأن بعضهم قد يقفون على حقِّية التوحيد، وبطلان الشرك، لكنْ لا يقبلونه مكابرة وعناداً، وقيل: المراد بالأكثرِ الجميعُ ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ عن العلم واعتقاد الحق ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، وفيه دلالة على وجوب العلم في الأصول الاعتقادية، وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد، وأن إيمان المقلّد غير صحيح ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازي عليها، وعيد لهم على أفعالهم القبيحة.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع، التي من جملتها الحجج البينة بحقية التوحيد وبطلان الشرك، أي ما كان هذا القرآن لأن يُفترى من الخلق، وأن يكون صادراً من غير الله تعالى ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكن اللهُ أنزل هذا القرآن، مصدّقاً لما تقدمه من الكتب الإلٓهية، كالتوراة والإنجيل، ولا يكون كذباً بحال من الأحوال، كيف وهو شاهد على صحتها، وتصديق الكتب له، بأن ما فيه من العقائد الحقة،

مطابق لما فيها، وهو مشتمل على قصص الأولين، حسبما ذكر فيها، وهو معجز دونها فهو الصالح لأن يكون حجةً وبرهاناً لغيره، لا العكس ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ما كتب وأُثبت من الحقائق والشرائع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك أنه كلام الله منتفياً منه الريب ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وتصديق من رب العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨)﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أم منقطعة وهي مقدرة ببل والهمزة لإنكار الواقع، أي بل أيقولون افتراه النبي ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم، إظهاراً لبطلان مقالتهم: إنْ كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغة، وحسن النظم، وقوة المعنى، فإنكم مثله في العربية والفصاحة، أي فأتوا من عند أنفسكم، أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب، كامرىء القيس، وزهير، وأمثالهما، بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة، فحيث عجزتم عن ذلك، دلَّ على أنه ليس من كلام البشر، بل هو من كلام خالق الكون، رب العزة والجلال ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمعاونة والمظاهرة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءه والاستعانة به، من آلهتكم التي تزعمون أنها ممدة لكم في المهمات، وممن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي سوى الله تعالى، فإنه وحده قادرٌ على ذلك، ولا يقدر عليه أحد من خلقه، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه اختلقه، فإنَّ ذلك مستلزم لإمكان الإتيان بمثله.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩)﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي كذبوا القرآن، وسارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد، الدالة على كونه كلام رب العالمين، والتعبير عنه بهذا العنوان، دون أن يقال: بل كذَّبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه، للإيذان بكمال جهلهم به، وأنهم لم يعلموه ولم يدركوا ما فيه من وجوه الإبداع والإعجاز، وأنَّ تكذيبهم به، إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي ولم يقفوا بعد على معانيه المنبئة عن علو شأنه، وسطوع برهانه، ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه، من الإخبار بالغيوب، حتى يظهر أنه صدق أم كذب، والمعنى: إن القرآن معجز من جهة النظم، والمعنى، ومن جهة الإخبار بالغيب، وهم فاجؤوا تكذيبه، قبل أن يتدبروا نظمه، ويتفكروا في معناه، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل تكذيبهم من غير تدبر وتأمل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم في معجزاتهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خطاب لسيد الرسل أو لكل من يصلح له، والمراد بالظالمين الذين كذبوا الرسل من السابقين واللاحقين، أي انظر كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك، بسبب ظلمهم وبغيهم؟ فكما أهلك الله أولئك الطغاة، يهلك هؤلاء المكذبين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي منهم سيؤمن به ويتوب عن الكفر ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي لا يصدّق به في نفسه، لفرط غباوته ولسخافة عقله، وعجزه عن التخلص من الشكوك والأوهام التي أَلِفَها، فيموت على كفره، معانداً أو شاكاً ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي بكلا الفريقين، من المعاندين، والشاكين، لاشتراكهما في أصل الإفساد.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) ﴾.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ وإن أصرُّوا على تكذيبك، بعد إلزام الحجة، وأُوِّل بذلك، لأن أصل التكذيب حاصل، فلا يصح فيه الاستقبال ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ فتبرأ منهم، فقد أعذرتَ، والمعنى قل لهم: لي جزاءُ عملي، ولكم جزاءُ عملكم ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تؤاخذون بعملي، ولا أؤاخذ بعملكم، ومعنى الآية الزجر والردع.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي ومن المكذبين أناس، يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، ولكنْ لا يقبلونه، كالأصمّ الذي لا يسمع أصلاً، لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، بحيث لا سبيل إلى إيمانهم ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ أي هل أنت تقدر على إسماعهم؟ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ولو انضمَّ إلى صممهم عدمُ تعقلهم، والأصم العاقل، ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه دويٌّ، أمَّا إذا اجتمع فقدانُ السمع، والعقل، فقد تمَّ الأمر، وفيه تنبيه على أن استماع الكلام، لفهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا يوصف به البهائم، وهو لا يأتي إلاَّ باستعمال العقل السليم، في تدبره وتفكره، وعقولُهم لمَّا كانت عليلة، بمعارضة الوهم، ومشايعة الألف والتقليد، تعذَّر فهمهم الحِكَم والمعاني الدقيقة، فلم ينتفعوا بمجرد الألفاظ إلاَّ كما تنتفع البهائم من كلام الناعق.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ بأبصارهم الظاهرة، ويعاين دلائل نبوتك، ولكنْ لا يصدِّقونك، ولا يهتدون بها كالأعمى ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ ﴾؟ أي

هل تقدر على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾؟ أي وإن انضمَّ إلى عدم البصر، عدمُ البصيرة؟ والمقصودُ من الإبصار هو الاعتبار، والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك قد يتفطّن الأعمى المستبصر، لما لا يدركه البصير الأحمق، فحيث اجتمع فيهم الحُمْقُ والعَمَىٰ، فقد انسدَّت عليهم أبواب الهداية، إلى طريق الرحمة والجنة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم، ولا يعاقب أحداً بدون ذنب، بل تكفَّل بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فضلاً منه جلَّ شأنه وكَرَماً ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليها، كما ظلموا أنفسهم باقترافهم الكفر، حيث عبدوا جماداً وهم أحياء.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكرْ لهم يوم حشرهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أي كأنهم لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي شيئاً قليلاً منه، فالساعةُ مَثَلٌ في غاية القلة، يستقصرون مدة لبثهم، لهول ما يرون من الكرب والعذاب ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلاَّ قليلاً، وهذا تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني!! وليس تعارف محبة ومودة. ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون، الذين كذبوا بالبعث والنشور، والآية شهادة على خسرانهم، والتعجيب منه، والمراد بلقاء الله الحسابُ والجزاء ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك، وإلاَّ فالعذاب ينتظرهم، والرؤية بصرية، أي إمَّا نرينك بعينك ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل أن ننتقم منهم ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ جواب للشرط، والمعنى: إنَّ عذابهم في الآخرة مقرَّرٌ، عُذّبوا في الدنيا أولا ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفعال السيئة التي حُكيت عنهم، فيجازيهم عليها.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الخالية ﴿ رَّسُولٌ ﴾ بُعث إليهم ليدعوهم إلى الحقِّ، بشريعةٍ خاصة مناسبة لأحوالهم، ويؤكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] ﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾ بالبينات فبلَّغهم فكذَّبوه ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ بالعدل، فأُنجيَ الرسولُ، وأهلك الله المكذبين ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ في ذلك القضاء، يُجازى كل أحد على قدر عمله، وقيل معنى الآية: لكل أمةٍ رسولٌ يوم القيامة، فإذا جاء رسولهم الموقف، ليشهد عليهم بالإيمان أو الكفر، قضي بينهم بإنجاء المؤمن، وعقاب الكافر، لقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[2] وهذا ممَّا رواه ابن جرير وغيرُه عن مجاهد.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾؟ أي متى هذا العذاب الذي تعدنا به؟ يريدون به العذاب الدنيوي، ويقولون ذلك استبعاداً له واستهزاءً به، لا طلباً لوقت مجيئه ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعيد.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٤.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٩.

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا ﴾ فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم، ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ الاستثناء منقطع، أي لكنْ ما شاء الله لي فإنه يحصل بتقديره تعالى، دون أن يكون لي دخل فيه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الذين أصرُّوا على التكذيب ﴿ أَجَلٌۚ ﴾ لعذابهم يحلُّ بهم عند حلوله ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ ﴾ أي أجلُ هلاكهم ﴿ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةٗ ﴾ شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ عليه، فلا تستعجلوا العذاب، فسيجيء وقتُكم، وينجز وعدكم.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ قُلۡ ﴾ يا رسول الله لهم، بعد ما بيَّنتَ لهم كيفية حالك، وجريان سنة الله تعالى فيما بين الأمم، ونبَّهتهم على أن عذابهم أمر مقرَّر، لا يتوقف إلا على مجيء أجله المعلوم ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ ﴾ الذي حدَّده لهلاككم، والذي تستعجلونه لجهلكم وحماقتكم، إذا جاءكم هذا العذاب ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي وقت بيات في الليل ﴿ أَوۡ نَهَارٗا ﴾ أي عند اشتغالكم بمشاغلكم، وإنما لم يقل «ليلاً ونهاراً» ليظهر التقابل، لأن المراد الإشعار بالنوم، والغفلة، والبياتُ يفيد ذلك، لأنه الوقت الذي يُبيّت فيه العدو، ويوقع فيه، ويغتنم فرصة غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ﴿ مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾؟ أيَّ شيء من العذاب يستعجلونه؟ وكلُّه مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وكان ينبغي أن يفزعوا من العذاب، فضلاً عن أن يستعجلوه.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ﴾ زيادة التنديم

والتجهيل، أي أبعد ما وقع العذابُ، وحلَّ بكم حقيقةً آمنتم به، حين لا ينفعكم الإيمان وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم به؟ إنكاراً للتأخير، وتوبيخاً عليه ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ ثُمَّ قِيلَ ﴾ لتوكيد التوبيخ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للهلاك ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي المؤلم على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي ما تجزون اليوم ﴿ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي إلا جزاء ما اقترفتموه من أنواع الكفر والمعاصي.

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ ﴾ أي يستخبرونك فيقولون على طريق الاستهزاء والإنكار ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي العذاب الموعود ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي قل لهم غير مكترث باستهزائهم: نعم إن ذلك العذاب ثابت لا محالة، أقسمُ لكم بربي، و«إي» بمعنى نعم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي وما أنتم بمعجزين ربكم بهرب أو امتناع من العذاب، لأنكم في قبضته وسلطانه[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ بالشرك والتعدي على الغير، كما قال سبحانه: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ﴿ مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها

(١) وذهب الطبري إلى أن المعنى: لستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة.

ومنافعها قاطبة مع كثرتها ﴿ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه أي لافتدت نفسها به ﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس، والاسرار: الإخفاءُ أي أخفَوا ﴿ ٱلنَّدَامَةَ ﴾ أي الغمَّ والأسف على ما فعلوا من الظلم ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ عند معاينتهم للعذاب، رأوا ما فيه من فظاعة الحال وشدة الأهوال ﴿ وَقُضِيَ ﴾ أي حُكم وفُصل ﴿ بَيۡنَهُم ﴾ أي بين النفوس الظالمة ﴿ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ أصلاً، لأنه لا يُفعل بهم إلاَّ ما يقتضيه جزاء أعمالهم، وقيل: ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ للظالمين والمظلومين، والمعنى: وقُضيت الحكومةُ بين الظالمين والمظلومين.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٥٦ ﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب، أي إن له سبحانه لا لغيره تعالى، ما وُجد فيهما، فإنَّ من يملك جميع الكائنات، وله التصرف فيها، قادرٌ على ما ذُكر ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب، كائن لا خلف فيه، أي جميع ما وعد به كائناً ما كان، فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ ﴾ لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم ﴿ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في الأخرى، لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت، قابلة لهما أبداً ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ بالموت إلى حسابه وجزائه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق، غُبَّ تحذيرهم من غوائل الضلال، وإيذان بأن جميع ذلك مسوقٌ لمصالحهم ومنافعهم وهذا وجه الربط بما تقدم. والقرآن واعظٌ بما فيه من الترهيب والترغيب، كاشف عن الأعمال حسناتها وسيئاتها، ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل، والشرك، والشكوك، والنفاق، وسوء الاعتقاد وغيرها. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والقرآن هاد إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الإيمان والإيقان، وتخلصوا من دركات النيران إلى درجات الجنان.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه إلى رسول الله ﷺ ﴿ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ أي بإنزال القرآن الكريم، وهو المراد بالفضل، وبرحمته المراد بها الإسلام، وهذا هو المروي عن ابن عباس قال: فضل الله القرآنُ، ورحمته الإسلام، وروي عن مجاهد أن المراد بالفضل والرحمة القرآن، ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ أي إن فرحوا بشيء، فبذلك فليفرحوا، لا بشيء آخر، فإنه أولى ما يفرحون به لا بالمال الزائل ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حطام الدنيا من الأموال، والحرث، والأنعام، فإنها صائرة إلى الزوال، والسعادات الروحية أفضل من السعادات الجسمية.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله لكفار مكة ﴿ أَرَءَيْتُم ﴾ أي أخبروني ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ أي ما قُدّر لانتفاعكم من الرزق الحلال ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ أي قسمتموه إلى حرام وحلال، وقلتم افتراءً على الله ﴿ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ

وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ وقلتم أيضاً كذباً وبهتاناً ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ إلى غير ذلك مع كونه كله حلالاً ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحليل والتحريم فتقولون ذلك بحكمه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟ في نسبة ذلك إليه، والاستفهام للتقرير والتبكيت كأنه قيل: أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه، والآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الأحكام وباعثة على الاحتياط فيه وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان، وإلا فهو مفتر على الله.

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ كلام مسوقٌ من قِبَلِهِ تعالى لبيان ما سيلقونه، أي ما ظن هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب، فيحلون ويحرّمون من تلقاء أنفسهم؟ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف للظن أي أيُّ شيء ظنهم في ذلك اليوم؟ أيحسبون ألَّن يعاقبوا ولن يُجازَوا عليه؟ والمراد تهويل ما يُصنع بهم يومئذ، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإمهالهم والإنعام عليهم بالعقل، وهدايتهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب حيث أرشدهم إلى ما يهمهم، من أمر المعاش والمعاد، وبيّن لهم ما لا تستقل عقولهم بإدراكه، ورغَّبهم ورهَّبهم، وشرح لهم الأحوال، وما يلقاه الحائر عن الرشاد من الأهوال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعم الجليلة، فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خُلقتْ له.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ما نافية، والخطابُ للنبي ﷺ، والشأنُ: الأمرُ والحال في أمر هام يُعتنى به ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً أنزله الله عليك ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ مجيد أوحاه الله إليك ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه، يتناول الجليل والحقير، أيْ أيَّ عمل كان، فعبّر في مقام الخصوص بالشأن، لأن عمل العظيم عظيم، وفي الثاني بالعمل العام لأنه يشمل جميع الأعمال ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي إلا كنَّا شاهدين رقباء عليكم، نحصي عليكم أعمالكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي حين تخوضون وتشرعون فيه، وأصل الإفاضة: الاندفاعُ بكثرة أو قوة، يعني أن الله سبحانه شاهد عليكم، حين تخوضون في ذلك العمل ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي، أي ما يغرب عنه ما يساوي مقدار وزن ذرة، وهي مَثَلٌ لأقصى الشيء في القلة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في دائرة الوجود والإمكان، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه سبحانه، وفيه تسليةٌ للمطيعين، وتخويف للمذنبين ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ من الذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ منها ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مقرر لما قبله والمراد بالكتاب اللوحُ المحفوظُ، وقيل: علمه تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، بيانٌ على وجه التبشير والوعد، لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، في كل ما يأتون وما يذرون، أي الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، لا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولا هم يحزنون بفوات مأمول والآية كمجمل يفسّره قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى بامتثال أمره ونهيه، والمراد أنهم جمعوا بين الإيمان، والتقوى، المفضيَيْن إلى كل خير، المنجِيَيْن عن كل شر، فمِلاكُ أمر الولاية هو «التقوى» المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وبه يحصل الشهود والحضور، والقرب، فأولياء الله عزَّ وجل هم المؤمنون المتقون، أخرج أحمد وجماعة عن أبي مالك الأشعري قال: قال ﷺ: «إنَّ للهِ عباداً، ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يَغْبِطهم النبيون والشهداء، على قُربهم من الله تعالى، قال أعرابي يا رسول الله: انعتهم لنا، قال: أُناس تحابُّوا في الله...»[1] الحديث، وقد أورده ﷺ حسبما يقتضيه مقام الإرشاد، ترغيباً للحاضرين، وأريد بقوله ﷺ: «يغبطهم النبيون» الإشارة إلى راحتهم مما يعتري الأنبياء، من الاشتغال بأممهم، وقال بعض المحققين: إنَّ ذلك تصويرٌ على طريقة التمثيل، وأياً ما كان، فلا دليل فيه أن الولاية أفضل من النبوة، وقد كفر معتقد ذلك.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما بَشَّر به المتقين، في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، البشرى في الأصل الخبر بما يظهر السرور في بشرة الوجه، وورد أن البشرى في الحياة الدنيا هي: «الرؤيا الصالحة» فقد أخرج أحمد والترمذي، وابن ماجه عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وأورده الطبري وابن كثير، وتتمته «تحابوا في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﷺ: ﴿ألا إن أولياء الله..﴾ الآية».

عن قوله سبحانه: ﴿لَهُمُ البُشرَىٰ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»[1] وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يَبْقَ بعدي من النبوَّة إلاَّ المبشِّرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترى له»[2] والراجح أن البشرى في الدنيا هي أن تأتيهم الملائكة عند الموت تُبشِّرهم بالرحمة والرضوان، قال الله تعالى: ﴿تتنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ ألاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ﴾ وقيل المراد بالمبشرات العاجلة نحو النصر، والفتح، والغنيمة، والثناء الحسن، والذكر الجميل، ونحو ذلك، روى مسلم عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: «أرأيتَ الرجلَ يعمل من الخير، ويحمده الناسُ عليه!! قال: تلك عاجلُ بُشرى المؤمن»[3] ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشّرين بالفوز والكرامة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده قطعياً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ عما كان يلقاه من جهة الأعداء، من الأذية الناشئة من مقالاتهم الرديئة، وتبشير له ﷺ بالنصر والعز، إثر بيان أن له ولأتباعه أمناً من كل محذور، وفوزاً بكل مطلوب، فهو متصل بقوله سبحانه: ﴿ألا إن أولياء الله﴾ الآية ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ تعليلٌ للنهي، أي القوةُ، والنصرةُ، والغلبةُ

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٢٧٤ في كتاب الرؤيا، وأحمد في المسند.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه مسلم.

﴿لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ لا يملك أحد شيئاً منها، فهو يقهرهم ويعصمك منهم، وقد كان كذلك ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون في حقك، ويعلم ما يعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ خلْقاً، ومِلْكاً، وعبيداً ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ أي العقلاء من الملائكة والثقلين، وتخصيصُهم بالذكر لبيان أنهم مع شرفهم، إذا كانوا عبيداً له تعالى، فما عداهم من الموجودات أولى بذلك ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من غير الله ﴿شُرَكَآءَۚ﴾ أي ما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة وإن سموها كذلك ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون يقيناً شيئاً ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي لا يتبعون إلا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دُونِهِ إلاّ أَسْمَاءً سميتموها﴾ ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ وما هم أي ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي إلا يكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ لتتحركوا فيه لمصالحكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في جعل كلٍّ منهما كما وصف ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلالات على توحيد الله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبُّرٍ واعتبار، وتخصيص هؤلاء بالذكر لأنهم المنتفعون بها.

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ ﴾ شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيل المشركين، ممن زعم أن الملائكة بنات الله، وكذلك اليهود والنصارى قال الله تعالى لهم ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ﴾ تنزيهاً وتقديساً له عما نسبوه إليه، وتعجيباً من كلمتهم الحمقاء ﴿ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ۖ﴾ عن كل شيء في كل شيء علةٌ لتنزهه تعالى، وإيذانٌ بأن اتخاذ الولد، مسبّب عن الحاجة، وهو سبحانه الغني عن كل شيء ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ۚ﴾ أي من العقلاء وغيرهم، وهو تقرير لغناه وتحقيق لما عليه لكل ما سواه ﴿ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ ﴾ أي حجة ﴿ بِهَٰذَآ ﴾ بما ذكر من القول الباطل، والالتفات إلى الخطاب، لمزيد المبالغة في التقريع والتوبيخ على جهلهم ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون، فتنسبون إليه الشريك والولد؟ وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهي جهالة، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعي، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به.

﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ قُلۡ ﴾ تلوين للخطاب ليبين سوء مغبتهم، ووخامة عاقبتهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه سبحانه ﴿ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ أي لا ينجون من مكروه، ولا يفوزون بمطلوب.

﴿ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي يتمتعون مدة حياتهم، كأنه قيل: كيف لا

يفلحون وهم في غبطة ونعيم؟ فقيل: ذلك متاع حقير، وقليل في الدنيا، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت والبعث ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ فيبقون في العذاب المؤبّد، بسبب كفرهم المستمر، فأين لهم من الفلاح؟ ولمَّا ذكر الله تعالى في هذه السورة، أحوال كفار قريش، شَرَعَ في بيان قصص بعض الأنبياء عليهم السلام، تسلية للرسول ﷺ، وعبرة لغيره.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١)﴾.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المشركين ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خبره الذي له شأن عظيم، مع قومه الذين هم أمثال قومك، لينزجروا بسماع ذلك عما هم عليه من الكفر والعناد ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ اللام للتبليغ ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي عَظُم وشقَّ، لأن من أَلِفَ ديناً، يثقل عليه أن يدعى إلى خلافه، ويُذكر له ركاكتُه ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ أي لبثي فيكم، ومكثي بين ظهرانيكم ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على الوحدانية، المبطلة لما أنتم عليه من الشرك، وإنما شقّ عليهم الوعظُ، لأن الطباع المشغوفة بالدنيا، الحريصة على طلب اللذَّات العاجلة، تكون شديدة النفرة على الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جواب للشرط أي فوضت أمري إليه لا على غيره، وهو عبارة عن إظهار عدم مبالاته عليه السلام باستثقالهم ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ أجمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال: أَجمعْ أمركَ ولا تدعْه منتشراً أي اعزموا على أمرٍ تفعلونه بي ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الواو بمعنى مع أي مع شركائكم، التي زعمتم أنها شركاء لله سبحانه، وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريق التهكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستوراً، من غمَّه إذا ستره بل مكشوفاً ومشهوداً، تجاهرونني به، وإنما خاطبهم بذلك، إظهاراً لعدم

المبالاة بهم، وثقةً به سبحانه، بما وعده من عصمته ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي امضوا فيَّ ما أردتموني ولا تمهلوني، فإني لستُ مبالياً بكم.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ في مقابلة وعظي وتذكيري ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ تؤدونه إليَّ حتى يدعو ذلك إلى توليتكم، لثقله عليكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ تأكيد لما قبله، أي ما أجري وثوابي على العظة والتذكير، إلا على الله تعالى، يثيبني به آمنتم أو توليتم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي أمرت لأن أكون من المنقادين لحكمه تعالى، فلا أخالف أمره، ولا أرجو غيره، أرشدهم عليه السلام إلى ما فيه سعادتهم وفلاحهم، وبلغ الغاية في التوكل على الله سبحانه، وبرَّأ ساحته عن السؤال منهم شيئاً من الأجر، ولكن القوم بلغوا الغاية في الكفر والتمرد والعناد.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب، بعدما ألزمهم الحجة، فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي فأغرقنا القوم وأنجيناه من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من المؤمنين به، وكانوا في المشهور أربعين رجلاً، وأربعين امرأة ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي السفينة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي من معه ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في الأرض يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم الباقون من قوم نوح، وتأخير ذكر الإغراق عن الإنجاء، لتعجيل المسرة للسامعين ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ المخوفين بعذاب

الله تعالى، والمراد بهم المكذبين، والتعبير عنهم بذلك، للإشارة إلى إصرارهم على التكذيب، حيث لم ينجع الإنذار فيهم، وقد جرت العادة أن لا يهلك الله القوم إلا بعد الإنذار، فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة قوم، كذَّبوا الرسل عليهم السلام، وكذبوا آيات الله تعالى؟.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ أي أرسلنا ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد نوح ﴿ رُسُلًا ﴾ التنوين للتفخيم ذاتاً وصفة أي رسلاً كثيراً، كراماً، منهم: هود، وصالح، وإبراهيم، وغيرهم ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ كلٌّ رسول إلى قومه خاصة ﴿ فَجَآءُوهُم ﴾ أي فأتى كل رسول قومه المخصوص به ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالحجج الواضحات المثبتة لدعواهم ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي فما صح لقوم من أولئك الأقوام، أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر والعناد ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ وما موصولة والمراد بها جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول، بعد تواتر البينات التي تضطرهم إلى القبول، لو كانوا من أهل العقول ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الطبع المحكم ﴿ نَطْبَعُ ﴾ نختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي المتجاوزين الحدَّ في الكفر والعناد، لانهماكهم في الغي والضلال.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ من بعد أولئك الرسل ﴿ مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ خُصَّتْ بعثتهما بالذكر، إيذاناً بخطر شأن القصة، وعظم وقعها كما في قصة نوح ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ أي قومه من استعمال الخاص في العام ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ أي تكبروا عن قبولها، وتعظّموا عن الاتباع، الفاء فصيحة، أي فأتياهم فبلّغاهم الرسالة فاستكبروا

﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي كانوا معتادين، لارتكاب الذنوب العظام، فلذلك اجترؤوا على ما اجترؤوا عليه، من الاستهانة والتكذيب.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي فلمّا جاءهم موسى بالمعجزات الواضحة من اليد، والعصا، وسائر المعجزات البيّنات ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ من فرط عتوهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر كونه سحرا.

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ لهم على سبيل الاستفهام التوبيخي ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ الذي هو أبعد شيء من السحر ﴿ لَمَّا جَآءَكُمْ ﴾ أي حين مجيئه إياكم، من غير تأمل وتدبر لما تقولون، من أنه سحر مبين؟ ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾؟ تكذيب لقولهم وتجهيل لهم، أيْ أيَّ سحر هذا الذي أمره واضح، لاترتاب فيه عين مبصرة ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ تأكيد للإنكار السابق، أي أتقولون إنه سحر، والحال أنه لا يفلح فاعله، وأنا قد أفلحتُ وظفرتُ بالحجة؟.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ بعد أن ألقمهم الحجر، فانقطعوا عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد، الذي هو دأب كل عاجز محجوج ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي لتصرفنا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام وعبادة فرعون ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ أي الملك والعظمة والتكبر على الناس باستتباعهم ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين فيما جئتما به وأرادوا بقولهم هذا، إغاظة موسى عليه السلام، وإقناطه عن الإيمان بما جاء به.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أسند الفعل إليه وحده، لأن الأمر من وظائفه، أي قال لملئه وجماعته ﴿ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ في فن السحر ماهر فيه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ عطف على مقدر أي فأتوا فلمَّا جاء السحرة ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ ﴾ بعدما قالوا له ﴿إمَّا أَنْ تُلْقِي وإمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ﴾؟ ﴿ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي ما استقر رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف السحر ولا يخفى ما في الإبهام من التحقير، والإشعار بعدم المبالاة.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ ﴾ ما ألقوا من العصي والحبال، واسترهبوا الناس وجاؤوا بسحر عظيم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَىٰ ﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمَّاه فرعون من آيات الله سحراً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ أي إن الله تعالى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة والسين للتأكيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى في الأرض بالفساد.

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ ﴾ أي يثبته ويظهره ويقويه بالحجج والبراهين ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ بوعده الكريم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك والمراد بهم كل من اتصف بإجرام من السحرة وغيرهم.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في الآية حذفٌ، أي فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون.. الخ وإنما لم يذكره إيثاراً للإيجاز، أي فما آمن لموسى بمشاهدة تلك الآيات في مبدأ أمره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ طائفة ونفر قليل ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ من بني إسرائيل حيث لم يؤمنوا خوفاً من فرعون ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ التنوينُ للتعظيم، أي كائنين على خوفٍ عظيم من فرعون وملئه، وضميرُ الجمع ﴿وملئهم﴾ يرجع إلى الذرية، والجمعُ باعتبار المعنى، ويؤول إلى أنهم آمنوا على خوف من فرعون، ومن أشراف قومهم ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي يعذبهم، وإسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي متكبر وغالب في أرض مصر، واستعمالُ العلو في الغلبة مجاز ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية، وفي الظلم والفساد بالقتل والعتوّ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي صدقتم بالله وآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ وبه ثقوا، ولا تخافوا أحداً غيره، فإنه كافيكم كلَّ شر وضُرٍّ ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله، مخلصين له.

﴿فَقَالُوا۟﴾ أي قوم موسى مجيبين له من غير تلعثم في ذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ عليه اعتمدنا لا على غيره، ويؤخذ من هذا أنهم كانوا مخلصين، ثم دعوا قائلين ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي موضع فتنة، أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا.

﴿وَنَجِّنَا﴾ أي خلصنا ﴿بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي من أيديهم

وكيدهم، دعاء للإنجاء من سوء جوارهم، وسوء صنيعهم بعد الإنجاء من ظلمهم ولذا عبّر عنهم بالكفر، بعدما وصفوا بالظلم.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا ﴾ أي اتخذا منزلاً ووطناً ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ترجعون إليها للصلاة والعبادة ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ ﴾ أنتما وقومكما، ففيه تغليب المخاطب على غيره ﴿ بُيُوتَكُمْ ﴾ تلك فالإضافة للعهد ﴿ قِبْلَةً ﴾ مصلّى، وقيل: مساجد نحو القبلة يعني الكعبة، فإن موسى كان يصلّي إليها، وكانوا في أول الأمر يصلّون في بيوتهم خُفية، كما كان المسلمون في أول الإسلام بمكة ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي حافظوا على الصلاة فيها حتى تأمنوا، والصلاة في المساجد أفضل، وأرجى للتضرع ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والجنة.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ هو ما يتزين به من لباسٍ، وحليّ، وفرش وأثاث ومراكب ونحوها ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ أنواعاً كثيرة من المال، كما يشعر به الجمع والتنوينُ ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ عن دينك، والكلام إخبار من موسى، بأن الله تعالى إنما أمدّهم بالزينة والأموال، استدراجاً ليزدادوا إثماً، وذكر قوله تمهيداً للتخلص إلى الدعاء عليهم، أي إنك أوليتهم هذه النعمة، ليعبدوك وليشكروك، فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً، ليضلوا عن سبيلك، والمقصودُ عرض ضلالهم

وكفرانهم، فقدَّمه للدعاء عليهم ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الطمسُ: المحقُ أي أهلكها وبدّدها كما قالهُ مجاهد فالمراد بالطمس إتلافها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعلها قاسية، واطبعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان، وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء، ولولا ذلك لما حَسُن من موسى هذا ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جواب للدعاء ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي إلى أن يروا العذاب الموجع المؤلم، وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وعن ابن عباس تفسير العذاب الأليم بالغرق، وهذا يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر، لا يكون كفراً، إذا لم يكن على وجه الاستحسان، بل على وجه التمني لينتقم الله منه أشد انتقام.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي قد استجبت دعوتكما على فرعون وقومه، وظاهر الآية يدل على أن هارون كان يؤمِّن على دعاء أخيه، والتأمينُ دعاء، ولهذا قال تعالى: ﴿قد أُجِيبَتْ دَعوَتُكُما﴾، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه، من الدعوة وإلزام الحجة، فلا تستعجلان، فإن ما طلبتما كائن في وقته لا محالة، أخرج أبن المنذر عن ابن عباس أنه قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ﴾ أي طريق الجهلة الذين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بعادات الله تعالى في تعليق الأمور بالحِكَم والمصالح، أو سبيل الجهلة في الاستعجال، وعدم الوثوق بوعد الله تعالى.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾.

﴿ ۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ هو من جاوز المكان إذا تخطّاه، أي جعلناهم مجاوزين ﴿ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ بأن جعلناه يَبَساً، حتى بلغوا الشطَّ، وفيه إشعارٌ بانفصالهم عن البحر، وبمقارنة العناية الإلّهية لهم عند الجواز ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ ﴾ أي أدركهم ولحقهم ﴿ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ حتى تراءت الفئتان، وكاد يجتمع الجمعان ﴿ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ ﴾ أي للبغي والعدوان، وذلك أن موسى عليه السلام، خرج ببني إسرائيل، على حين غفلة من فرعون، فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم، ووصل إلى الساحل، وهم قد خرجوا من البحر، ومسلكهم باق على حاله، فسلكه بجنوده أجمعين، فلما دخل آخرهم، غشيَهم من اليم ما غشِيَهُم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ أي لحقه وألجمه وقيل: قارب إدراكه لأن حقيقة اللحوق تمنعه من القول ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ ﴾ أي بأنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ولم يقل كما قال السحرة ﴿آمنا برب العالمين﴾ للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، طمعاً في القبول، والانتظام معهم في سلك النجاة ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ الذين أسلموا نفوسهم للهِ تعالى، كرر المعنى الواحد حرصاً على النجاة، وهيهات فالإيمان لا ينفعه قبل اليأس.

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٩١) ﴾.

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ أي فقيل له: آلآن تؤمن؟ أي أتؤمن في حال اليأس، حين أدركك الغرق، وأيقنت بالممات؟ والقائل هو جبريل، فقد روي عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حَالِ البحر ـ أي طين ووحل البحر ـ فأدسُّه في في فرعون، مخافةَ أن تدركه الرحمة»(١) ﴿ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ ﴾ أي وقد عصيتَ الله قبل نزول نقمته بك، والفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ على تأخير الإيمان إلى هذا الآن،

(١) أخرجه البيهقي والحاكم والترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٦٨ وقال: حديث حسن.

ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمل والتدبر بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وقد كنت من المفسدين، الموغلين في الضلال والإضلال!!.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نخرجك من البحر، وفي التعبير عنه بالتنجية تهكمٌ به ﴿بِبَدَنِكَ﴾ جسدك الذي لا روح فيه، وهو تخييبٌ له ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عبرة، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك، وفي تعليل تنجيته بما ذُكر، إيذان بأنها ليست لإعزازه، بل لكمال استهانته وتفضيحه، كمن يُقتل ثم يُجرُّ جسده في الأسواق، وقد قرر فحوى الكلام بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنف لبيان النعم الفائضة عليهم، وإخلالهم بشكرها، أي أسكنَّاهم بعدما أنجيناهم ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزل كرامة، صالحاً مرضياً للسكنى ﴿صِدْقٍ﴾ وهو أرض الشام، بعد العمالقة وتمكنوا في نواحيها، والمراد من بني إسرائيل ذريتهم، لأنهم ما دخلوا في حياة موسى الشام، وإنما دخلها أبناؤهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي اللذائذ ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أمر دينهم، بل كانوا متبعين رسولهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي إلا بعد ما جاءتهم التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذم لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدين يجمع ولا يفرِّق، وقيل: فما اختلفوا في أمر محمد ﷺ، إلا بعد ما علموا صدق نبوته، بنعوته المذكورة في

كتابهم، وتظاهر معجزاته، وهو ظاهر إذا كان المراد من المبوئين ذريتهم، أما الذين كانوا في عصر موسى، فإنهم لم يختلفوا في أمر نبينا ﷺ لينسب إليهم ذلك الاختلاف[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز بين المحق والمبطل، بالإثابة والتعذيب.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ هذا محمولٌ على الفرض والتقدير، كقوله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كَانَ للرحمن وَلَدٌ فأنا أَوَّلُ العَابدينَ﴾ ومحالٌ أن يكون لله ولد، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ممن يسمع، أي إن كنت أيها السامع، في شكّ مما أنزلنا على لسان نبينا ﴿مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص التي من جملتها قصة فرعون، وأخبار بني إسرائيل ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ هو التوراة، فإنَّ ذلك محقَّق عندهم، ثابتٌ في كتبهم وروي أنه ﷺ قال: «لا أشكُّ ولا أسأل»[2] ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أي ثبت عندك وأتاك البيانُ الحق، الذي لا ريب في حقيته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وظهر ذلك بالمعجزات القاطعة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكِّين فيه المرتابين، والامتراء: الشكُّ والتردد.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) هذا القول ذهب إليه الطبري ١١/١٦٧ حيث قال: كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضُهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم.

(٢) هذا حديث موقوف على قتادة قال: «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل» انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٠٧.

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بشيء منها ﴿ فَتَكُونَ ﴾ بذلك ﴿ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ نفساً وعملاً وهذا كله من باب التَّهييج والتثبيت، وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: المراد ممن عنده شك وارتياب، وقد كان الناس في أول عصر النبي ﷺ على ثلاثة فرق: مصدّقون، ومنكرون، ومتوقفون، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب، وإنما وحَّد الضمير لأنه خطاب لجنس الإنسان، وفيه تنبيهٌ على أنه من خالجته شبهة في الدين، ينبغي أن يسارع إلى حلّها، بالرجوع إلى أهل العلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ثبتت عليهم ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر، ويخلدون في النار ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً نافعاً عند معاينة العذاب، مثل فرعون والطغاة من كفار مكة.

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ واضحة المدلول، مقبولة لدى العقول، لأن سبب إيمانهم مفقود، لكنَّ فقدانه ليس لمنع منه سبحانه وتعالى، بل لسوء اختيارهم ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي عند اليأس كدأب آل فرعون، والذي عليه أهل السنة أنَّ أفعال العباد بأسرها، معلومةٌ له تعالى، ومرادة، ولا يكون إلاَّ ما أراد الله سبحانه، ولا يريد إلا ما عَلِم، ولا جبر هناك ولا تفويض، ولكنَّ الأمر بين الأمرين، وإنْ أردت تحصيل الإيقان، فعليك رسالة المولى الكوراني في هذا الشأن.

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ أي فهلاّ كانت قرية من القرى المهلكة ﴿ ءَامَنَتْ ﴾ قبل معاينة العذاب، ﴿ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ بأن يقبل الله تعالى إيمانهم، فيكشف بسببه العذاب عنهم ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكنْ قوم يونس ﴿ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب، ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بعدما أظلَّهم وكاد يحلُّ بهم ﴿ وَمَتَّعْنَٰهُمْ ﴾ بمتاع الدنيا ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ مقدَّر لهم في علم الله تعالى، وكان من قصة هؤلاء القوم، على ما روي عن غير واحد، أن يونس عليه السلام، بُعِث إلى أهل «نينوا» من أرض الموصل، وكانوا أهل شرك، فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده، فأبوا وكذَّبوه، فأخبرهم أن العذاب مصبِّحهم إلى ثلاث، فلما كانت الليلة الثالثة، ذهب عنهم من جوف الليل، فلما أصبحوا غامت السماء، غيماً أسود هائلاً، حتى غشيت مدينتهم، فقالوا: إنا لم نجرّب عليه كذباً قطُّ، فانظروا فإن بات فيكم الليلة، فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبّحكم، فطلبوه فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وأظهروا الإيمان والتوبة، وتضرّعوا إلى الله تعالى، وأخلصوا النية، وقالوا في دعائهم: اللهمَّ إنَّ ذنوبنا قد عَظُمتْ، وجلَّتْ، وأنت أعظم منها وأجلُّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم، وكشف الضر عنهم، والفرق بين إيمانهم وإيمان فرعون، أن فرعون آمن في العذاب، وهم آمنوا قبله، وظاهر الآية أنهم شاهدوا العذاب، وعادة الله عز وجل حينئذ إهلاكهم من غير إمهال، وقبولُ إيمانهم من خصوصيّاتهم.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي لو شاء سبحانه إيمان من في الأرض من الثقلين، لآمن كلهم مجتمعين على الإيمان، لكنه

لم يشأه لكونه مخالفاً لأساس التكوين والتشريع ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أربك لا يشاء ذلك، فأنت تكرههم؟ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس لَكَ مشيئة الإكراه، والجبر على الإيمان، لأن الإيمان فعل العبد، وفعله لا يتحقق بدون الاختيار، والآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، وترويح لقلبه الشريف مما كان يحرص عليه من إيمانهم[1].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقام لنفسٍ من النفوس البشرية ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إلاَّ بإرادته وبتسهيله ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي الكفر بقرينة ما قبله، عبَّر عنه بالرجس لكونه عَلَماً في القبح ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يستعملون عقولهم، بالنظر في الحجج والآيات ولا يعقلونها.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿قُلِ﴾ يا أيها الرسول لأهل مكة، حثّاً لهم على التدبر في ملكوت السماوات والأرض، وما فيهما من تعاجيب الآيات، ليتضح لك أنهم لا يعقلون ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ أي تفكروا ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أيْ أيَّ شيءٍ

---

(١) قال ابن عباس: كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلاَّ من سبقت له السعادة في الذكر الأول ـ أي اللوح المحفوظ ـ ولا يضلُّ إلاَّ من سبقت عليه الشقاوة في الذكر الأول. تفسير القرطبي ٨/ ٣٨٥.

بديع فيهما، من عجائب صنعه الدالة على وحدته وقدرته؟ ﴿وَمَا تُغْنِى﴾ وما تنفع ﴿ٱلْآيَٰتُ﴾ وهي التي عبر عنها ماذا في السماوات والأرض ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ بمعنىٰ الإنذارات، أي لا تنفع الآيات والإنذارات ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي عن قوم سبق لهم من الله الشقاء لأنهم لا يعقلون.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي فما ينتظر مشركو مكة وأضرابهم ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي إلاَّ مثل أيام أسلافهم الطغاة ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من مشركي الأمم الماضية، ونزول عذاب الله بهم ﴿قُلْ﴾ تهديداً لهم ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ما هو عاقبتكم ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك، وحاصله أن الأنبياء كانوا يتوعدون كفار زمانهم بأنواع العذاب، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية، وكذلك الكفار في زمنه ﷺ يستعجلونها استهزاءً، فقيل لهم فانتظروا ما يحلُّ بكم، وأنا منتظر لنزول ذلك العذاب، لأن وعد الله لا يُخلف!.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ عطف على مقدَّر، كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم ننجي رسلنا المرسلة إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي نجيناهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي حقَّ ذلك حقاً علينا ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من كل شدة وعذاب، وفيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان بالله وقوله ﴿حقاً علينا﴾ أي إنه كائن لا محالة، كأنه كالواجب عليه تعالى تفضلاً منه وكرماً.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أوثر الخطابُ باسم الجنس، إظهاراً لكمال العناية بشأن ما بُلغ إليهم ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ أي إن كنتم في شك من حقيقة ديني الذي أدعوكم إليه، والتعبيرُ بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة، للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل هو الشكُّ، وأما القطعُ بعدم الصحة فلا سبيل إليه ﴿ فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ في وقت من الأوقات، لأن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تليق لأخس الأشياء من الأصنام، بل تليق بمن في يده الإيجادُ والإعدام، فانظروا بعين الإنصاف، لتعلموا أنه حق لا ريب فيه ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ أي يقبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم، وبيده وحده محياكم ومماتكم، فلا ينبغي لكم أن تشكّوا في ديني، وإنما الشكُّ في عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأما إلهي فبيده النفع والضُر. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما دل عليه العقل، ونطق به الوحي، وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد، ليس إلا بالوحي السماوي والتوفيق الإلهي، وقيل لي:

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق وهو الإسلام، وإقامة الوجه للدين، كنايةٌ عن توجيه النفس بالكلية، إلى عبادته تعالى، والإعراض عمن سواه ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ أي لا تكوننَّ منهم، لا اعتقاداً ولا عملاً.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تدع من دون الله استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن عبدته أو دعوته، بدفع مكروه، أو جلب محبوب ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن لم تعبده بإيقاع المكروه ﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾ أي ما نُهيت عنه، كنَّى به تنويهاً لشأنه ﷺ على رفعة مكانه، من أن يُنسب إليه عبادةُ غير الله تعالى ﴿ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ جزاء للشرط، وهذا الخطابُ وإن كان في الظاهر للرسول ﷺ، فالمراد به غيره، أي تكون ممن ظلم نفسه لأنك عرّضتها لعذاب الله.

﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ كفقرٍ ومرض، أو شدةٍ وبلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ عنك كائناً من كان ﴿إِلَّا هُوَۖ﴾ وحده، فيثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهاني فإن رفع المكروه أدنى مراتب النفع ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ أي إن يرد أن يصيبك بخيرٍ ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ الذي أرادك به وفيه إيذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل، من غير استحقاق عليه ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير بفضله ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ وهو يدل على عموم الفضل ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية، قرر سبحانه في هذه الآية، أن جميع الأشياء مستندة إلى الله تعالى، ومحتاجة إليه، والرحمةُ والجودُ فائضٌ منه عزَّ وجلَّ.

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿ قُلۡ﴾ يا أيها الرسول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ وهو القرآن الكريم المنزل من عند رب العالمين ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ بالإيمان

والمتابعة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال ضلاله عليها، والمراد تنزيه ساحة الرسالة، عن شائبة غرض عائد عليه ﷺ، من جلب نفع، أو دفع ضر ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكولٍ إليَّ أمركم، إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ اعتقاداً وعملاً وتبليغاً ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من ربك من الحق المذكور ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وأذاهم وعلى ما يعتريك من مشاق التبليغ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ فيهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعه على السرائر والظواهر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد ﷺ وآله وأصحابه أجمعين.

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة يونس»

* * *



سورة هود

مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾.

﴿الٓر﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة[1]، واختار غير واحد من المتأخرين كونها اسماً للسورة، أي هذه السورة مسماةٌ بـ: الٓر ﴿كِتَٰبٌ﴾ التنوين فيه للتعظيم، أي هذا كتاب عظيم الشأن، جليلُ القدر، من لدن حكيم خبير ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نظمت نظماً محكماً، لا يعتريه خَلَلٌ من جهة اللفظ والمعنى، كالبناءِ المحكم، مصون عن الذلل ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنت بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، وفُصِّل فيها ما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند الله عزَّ وجلَّ.

(١) للمفسرين آراء عديدة في الحروف المقطعة، والأظهر والأرجح منها أنها إشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية التي يتكلمون بها، وانظر الجزء الأول من تفسير سورة البقرة.

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ في موضع العلة، أي لتتركوا عبادة غيره، وتتمحضوا لعبادته سبحانه ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي أنذركم من عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم، وقدَّم الإنذار هنا لأنه هو الأهمُّ.

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ ثم توصَّلوا إلى مطلوبكم بالتوبة، والمرادُ بالتوبة: الإخلاصُ فيها، والاستقرار عليها، وأصل الاستغفار طلب الغفر أي الستر، ومعنى التوبة: الرجوعُ، ويُطلق الأول ـ الاستغفارُ ـ على طلب ستر الذنب، والثاني ـ التوبة ـ الندم عليه مع العزم على عدم العود، فلا اتحاد بينهما ﴿ يُمَتِّعْكُم ﴾ في الدنيا ﴿ مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ بطيب عيش، وسعة رزق، في أمن وسرور ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو آخر أعماركم المقدرة لكم ﴿ وَيُؤْتِ ﴾ أي يعطي ﴿ كُلَّ ذِى فَضْلٍ ﴾ في دينه أي زيادةً في العمل الصالح ﴿ فَضْلَهُۥ ﴾ أي جزاء فضله أي عمله الصالح في الآخرة، وهو وعد للموحد التائب بخير الدارين. ومسألةُ إطالة أعمار بعض الناس دون بعض، ليس من الجود الخاص، كتفضيل الأنبياء عليهم السلام بعضهم على بعض، بل هي جاريةٌ على السُّنَن العامة، ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر، فهو كمسألة الرزق في سعته وضيقه، قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1] ثم شرع في الإنذار فقال: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ وإن تتولوا أي تعرضوا عما أمرتم به من التوحيد، والاستغفار، والتوبة وتستمروا على الإعراض ﴿ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٠.

بموجب الشفقة أو أتوقع ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ كَبِيرٍ﴾ شاق هو يوم القيامة، وفي إضافة العذاب إلى اليوم الكبير تهويلٌ وتفظيع له، وأخَّر الإنذار عن التبشير، جرياً على سَنَن[1] تقدم الرحمة على الغضب.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ رجوعكم إلى الله جلَّ وعلا بالموت ثم بالبعث للجزاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبهم أشدَّ العذاب.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

﴿أَلَآ﴾ أي تنبهوا أيها المؤمنون ﴿إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ ضمير «إنهم» للمشركين، أي يثنونها عن الحق، وينحرفون عنه، ويعطفونها على الكفر، وعداوة النبي ﷺ ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ أي ليطلبوا الخفاء من الله تعالى، وذكر أبو حيان أن الآية نزلت في بعض الكفار، الذين كانوا إذا لقيهم الرسولُ ﷺ، ثَنَوْا صدورهم، وردُّوا إليه ظهورهم، وغشَّوْا وجوهَهم بثيابهم، كراهةً للقائه، ويظنون أنه يخفى عليه ﷺ ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي ألا حين يأوون إلى فراشهم، ويتغطَّوْن بثيابهم أي يلتحفون بما يلتحف به النائم، وهو وقت كثيراً ما يقع فيه حديث النفس عادة ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ بأفواههم، يستوي في علمه تعالى سرُّهم وعلنُهم، فكيف يخفى عليه تعالى ما يظهرونه؟ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي إنه تعالى مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس في

---

(١) سَنَن: السَّنَنُ: الطريقةُ والمثال، يُقال بنَوْا بيوتهم على سَنَن واحد، أي على طريقة واحدة، وانظر المعجم الوسيط.

صدورهم، والتعبير بالجملة الإسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالماً بذلك، وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصولها وحملاً على التوكل فيه، والمراد من الدابة هنا المعنى اللغوي باتفاق المفسرين، أي وما من حيوان يدبُّ على الأرض، إلا على الله تعالى رزقه، ولا يمنع من التوكل مباشرةُ الأسباب، مع العلم بأنه سبحانه المسبِّب لها، ففي الخبر «اعقلْ وتوكَّل» وجاء في الحديث الشريف: «إن روح القدس نفث في روعي، أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأَجَلها، فاتقوا الله تعالى، وأجملوا في الطلب»[1] ولا ينبغي أن يُعتقد أنه لا يحصل الرزقُ بدون مباشرة السبب، فإنه سبحانه يرزق الكثير، من دون مباشرة سببٍ أصلاً كما في قصة مريم ﴿ وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا ﴾ محل قرارها في الأصلاب، أو مسكنها في الدنيا ﴿ وَمُسۡتَوۡدَعَهَا ﴾ موضعها في الأرحام أو القبر[2] ﴿ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ، أي كل واحد من الدواب، رزقُها، ومستقرُّها، ومستودُعها مثبت في اللوح المحفوظ المبين، وهذا تحقيق للعلم، كأنه لما ذكر أنه يعلم ما يسرون، أردفه بما يدلُّ على عموم علمه جلَّ وعلا، ثم أتى سبحانه بما يدل على عظيم قدرته من قوله.

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/٢٧ وابن حبان، والحاكم، وانظر جامع الأصول ١٠/١١٧.

(٢) قال ابن عباس: مستقرّها حيث تسكن في الدنيا، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن، وقال مجاهد: مستقرُّها في الرحم، ومستودعها في الصلب، وقد جمع المؤلف بين القولين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾ من أيام الدنيا ليعلِّم العباد التأنّي ﴿ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ قبل خلقهما، ليس تحت العرش غير الماء كما ورد في الحديث الشريف: «كان الله ولم يكن معه شيء، وكان عرشه على الماء»(١) وفي الآية دلالة على أن العرش والماء خُلقا قبل السماوات والأرض ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ ﴾ أي خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات، ورتَّب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ليعاملكم معاملة من يبتليكم أي يختبركم ﴿ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ ﴾ فيجازيكم بالثواب والعقاب، والعمل غير مختص بعمل الجوارح، فإن لكلٍّ من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به، فكما أن الأول أشرف من الثاني، فكذا الحال في عمله، كيف لا، ولا عمل بدون معرفة الله عزَّ وجل ﴿ وَلَئِن قُلۡتَ ﴾ يا رسول الله ﴿ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ للحساب والجزاء، على ما يوجبه قضية الابتلاء، بظهور مراتب الأعمال ﴿ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي ليقولن الكافرون منهم ﴿ إِنۡ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ تمادياً منهم في العناد، أي إنه مثل السحر في الخديعة والبطلان، وإنما نسبوا السحر إلى القرآن، لأنه أخبر عن البعث والنشور، وأتى بالقول الفصل في ضرورة حدوثه.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ٦/ ٢٨٦ في قصة وفد اليمن، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، جئنا نسألك عن هذا الأمر!! قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كل شيء..» الحديث الخ.

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ الموعود في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ والظاهر العذاب الشامل للكفرة ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أي طائفة من الأيام قليلة ﴿ لَّيَقُولُنَّ ﴾ استهزاء ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾؟ أيْ أيَّ شيء يمنعه من المجيء؟ ومرادهم إنكار المجيء، والسخرية والاستهزاء بمن يعدهم بالعذاب، قال الله تعالى: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ ذلك العذاب ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا ﴾ مدفوعاً ﴿ عَنْهُمْ ﴾ على معنى لا يرفعه رافع، ولا يدفعه دافع ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ أي ولئن أعطيناه نعمةً بحيث يجد لذتها في نفسه، والمراد من الرحمة: النعمةُ من صحةٍ، وَسَعَةٍ، وأمنٍ، ونحو ذلك ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه، وإيرادُ النزع للإشعار عن شدة تعلقه بها، وحرصه عليها ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ ﴾ أي قاطعٌ رجاءه من فضل الله تعالى، لقلة صبره، وعدم ثقته به تعالى ﴿ كَفُورٌ ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ كصحةٍ بعد سقَم، وغنىً بعد

فقر، وفَرَج بعد شدة، وأمنٍ بعد خوف، وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق، وعن ملابسة الضراء بالمسِّ، المشعر بكونها في أدنى الأمور والمصائب اليسيرة، مما يدل على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير، وأنه يريد بعباده اليسر دون العسر، والتعبير بالمسِّ كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي ذهبت عني المصائب التي تسوؤني ولم يتوقع زوالها، ولا يشكر عليها كما هو شأن أولئك الأشرار ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ بَطِرٌ وأشِر، بالنعم مغتر بها، وأكثرُ ما ورد «الفرحُ» في القرآن للذم، فإذا قُصِد المدح قُيِّد، كقوله سبحانه: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾. ﴿فَخُورٌ﴾ متعظِّمٌ على الناس بما أُوتي من النعم، مشغول بذلك عن القيام بحقها، وحاصله أنَّ الغافلين عند البلاء، لا يكونون من الصابرين، وعند الفوز بالنعماء، لا يكونون من الشاكرين.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ لكن الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء، واستسلموا لقضاء الله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكراً على آلائه السالفة، ولمَّا تضمن اليأس عدمَ الصبر، والكفرانُ عدمَ الشكر، كان المستثنى من ذلك ضده، كأنه قيل: إلاَّ الذين صبروا وشكروا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٞ﴾ أقله الجنة، وُصِفَ بذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، ورفع التكاليف، والأمن من العذاب، ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن، من حيث إن إذاقة النعماء، ومساس الضراء، نوع من باب الابتلاء، وواقع موقع التفصيل من الإجمال، جاء قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فالمعنى ليعاملكم معاملة من يختبر البشر.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ أي لعلك تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك، مخافة استهزائهم به والمقصودُ من ذلك تحريضه ﷺ وتهييجه لأداء الرسالة، وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ أي وعارضٌ لك أحياناً ضيقُ صدرك من تبليغه، خشية التكذيب ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ أي لأن يقولوا تعامياً عن تلك البراهين الساطعة، وتمادياً على العناد على وجه الاقتراح ﴿ لَوۡلَآ ﴾ أي هلاَّ ﴿ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ ﴾ أي مالٌ كثير من السماء يستعين به في أموره كالملوك ﴿ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ﴾ يصدِّقه ويشهد بنبوته، كما قال طغاة مكة: اجعل لنا جبال مكة ذهباً، وقال آخرون منهم: ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك، قال تعالى محدِّداً مهمته: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ ﴾ أي ليس عليك إلا البلاغ بما أوحي إليك، غير مبالٍ بما صدر عنهم، من الردّ والتكذيب ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ أي حفيظ يحفظ أحوالك وأحوالهم، فتوكل عليه في جميع أمورك، فإنه تعالى فاعل بهم ما يليق بحالهم.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾ أي بل يقولون إنه ليس من عند الله تعالى ﴿ قُلۡ ﴾ إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فَأۡتُواْ ﴾ أنتم أيضاً ﴿ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ في البلاغة، والفصاحة، والجزالة، وحسن النظم، وقوة المعنى ﴿ مُفۡتَرَيَٰتٖ ﴾ أي فأتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة، مختلقاتٍ من عند أنفسكم، إن صحَّ أني اختلقته من عند نفسي، فإنكم عرب، فصحاء،

بلغاء، تمارسون الخطابة والأشعار، وفيكم ملوك الفصاحة، وأساطين البيان، وهذا التحدي وقع أولاً، فلما عجزوا، تحداهم بسورة مثله، كما نطقت به سورة البقرة، ويونس ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ للمعاونة ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ أي استعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به، من آلهتكم التي تزعمون أنها تنفعكم، والكهنة الذين تلجؤون إلى آرائهم في الملمات، ليساعدوكم في ذلك ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي متجاوزين الله تعالى، فإنه لا يقدر على الإتيان بمثله إلا الله ربُّ العزة والجلال ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أني افتريته على الله.

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي فإن لم يستجب هؤلاء المشركون لكم، إلى ما دعوتموهم إليه من المعارضة، وتبيَّن عجزهم عنه بعد التحدي لهم ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي ملتبساً بالوحي بما لا يعلمه إلا الله، ولا يقدر عليه سواه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ واعلموا أن لا معبود في الوجود إلا الله، وأنه سبحانه لا شريك له في الألوهية ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فهل أنتم داخلون في الإسلام، بعد قيام الحجة البالغة؟ المراد بما لا يعلمه غيره، من الكيفيات والمزايا التي بها الإعجاز للبشر.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بإحسانه وبره وأعماله الصالحة ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي يريد نعيم الدنيا فقط، وما يزيِّنها ويحسنها من الصحة، والأمن، والسعة في الرزق، وغير ذلك ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جزاء ما

عملوه من خير، كصدقة، وصلة ﴿فِيهَا﴾ في الدنيا من الصحة، والرياسة، وسعة الرزق، وكثرة الأولاد، وليس المراد بأعمالهم كلها، فإنه لا يجد كل متمنٍّ ما يتمناه، فإن ذلك منوط بالمشيئة، الجارية على قضية الحكمة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾(1) ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي لا ينقصون من أجورهم شيئاً وإنما عبر عن ذلك بالبخس، الذي هو نقص الحق، مبالغةً في نفي النقص، فلا يدخل تحت الوقوع عن الكريم أصلاً، أمَّا في الآخرة فهم في الحرمان المطلق، كما ينطق به قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المريدون للحياة الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا، لأن هممهم كانت مصروفة إلى الدنيا، وقد اجتنوا ثمراتها، ولم يريدوا بها شيئاً آخر، فلا جرم لم يكن لهم في الآخرة إلاّ النار، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْته مِنْهَا وَمَا لَهُ في الآخِرةِ مِنْ نَصِيب﴾(2) ﴿وَحَبِطَ﴾ بطل ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي ظهر في الآخرة ضياع ما صنعوه من أعمال الخير، إذْ شرطُ الاعتداد بها الإخلاص، ولم يريدوا وجه الله تعالى ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ في نفسه ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لعدم شرط الصحة، والظاهر أن الآية في مطلق الكفرة، الذين يعملون البر على الوجه الذي لا ينبغي، ومن هنا اشتهر أن الكافر، يُعَجَّل له ثوابُ أعماله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب،

---

(1) سورة الإسراء، آية: 18.
(2) سورة الشورى، آية: 20.

لكنْ ذهب جماعة إلى أنه يُخفَّف بها عنه من عذاب الآخرة، ويشهد له قصة أبي طالب، الذي أخبر رسول الله ﷺ عنه أنه في ضحضاحٍ من نار، وقال: لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ برهان يدله على الحق والصواب، وهو القرآن، لأنه بينة باقية على وجه الدهر ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ أي ويتبعه ﴿ شَاهِدٌ ﴾ والتنوين في «بيِّنة» و«شاهد» للتفخيم، أي شاهد عظيم يشهد بكونه من عند الله تعالى، وهو الإعجاز في نظمه، في كل مقدار سورة منه ومعنى كون ذلك تابعاً له، أنه وصفٌ له لا ينفك عنه، فلا يستطيع أحد من الخلق، جيلاً بعد جيل معارضته ﴿ مِّنْهُ ﴾ من القرآن، أو من جهة الله تعالى(١) فالمعنى: هل من كان يريد الحياة الدنيا، كمن كان على بينة من ربه، ويشهد له شاهد؟ ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة أيضاً يتلوه في التصديق، وتخصيص كتاب موسى بالذكر، لأن اليهود والنصارى مجتمعان على أنه من عند الله، بخلاف الإنجيل ﴿ إِمَامًا ﴾ أي كتاباً مؤتماً به في الدين، ومقتدى به ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ على المنزل عليهم، لأنها الطريق إلى الفوز بخير الدارين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة

---

(١) هذا ما اختاره المصنف، وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية الكريمة: أفمن كان على نور واضح وبرهان ساطع من الله عزَّ وجل، وهو النبي ﷺ وأتباعه المؤمنون، وجوابه محذوف تقديره: كمن كان همه الحياة الدنيا؟ لا يستوون عند الله، ويتبعه شاهد من الله بصدقه وهو جبريل، ولعل هذا القول أظهر والله أعلم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يصدِّقون بالقرآن حقَّ التصديق، دون شك أو ارتياب ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومن تحزّب معهم على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يرِدُها لا محالة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن وكونه من عند الله ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي الحقُّ الثابت المقطوع بصدقه المنزَّل من عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك لقصور أنظارهم، واختلال أفكارهم، ولعنادهم واستكبارهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن نسب إليه ما لا يليق، كقولهم: الملائكة بنات الله، وقولهم لآلهتهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والمراد من الآية ذم أولئك الكفرة، بأنهم مع كفرهم بآيات الله، مفترون عليه سبحانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالظلم البالغ وهو الافتراء ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي مالكهم الحق فيفتضحون على رؤوس الخلائق ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ عند العرض، وهو جمع شاهد أو شهيد، والمراد بهم الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الدنيا بالافتراء عليه، كأنَّ ذلك أمر واضح غنيٌّ عن الشهادة، وإنما المحتاج تعيين من صدر عنه ذلك، والغرضُ فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الأشهاد، والتشهير بهم خزياً ونكالاً ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالافتراء المذكور، وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم، والظاهرُ أن هذا من كلام الأشهاد، ويؤيده ما أخرجه الشيخان عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يُدني المؤمن، حتى يَضعَ كَنَفه عليه ـ بمعنى سِتْره ـ ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول:

نعم، حتى إذا رأى في نفسه أنه هلك، قال الله له: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلاءِ الَّذينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلى الظَّالِمِينَ﴾[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ ﴾ يمنعون الناس عن الإيمان واتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصل إلى الله ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوجّة، أي دين الله منحرفاً عن الحق والصواب، منسجماً مع أهوائهم ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي هم جاحدون بالآخرة، منكرون للبعث والنشور، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

﴿ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي هؤلاء الفجار ليسوا مفلتين من عذاب الله، بل هم تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم ويمنعهم من العقاب، أو ينجيهم من عذاب السعير ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي يضاعف الله لهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿ مَا كَانُوا۟

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٥٣ فتح الباري، ومسلم في التوبة رقم ٢٧٦٨.

﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ أي سبب مضاعفة العذاب وتشديد العقاب، أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، ولكنهم كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن إبصار نور الهدى، بكماً عن النطق بكلمة التوحيد، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من الحواس، فكانوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة، باشتراء الضلالة بالهدى، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم المؤبدة، ويا له من خسرانٍ مبين!! وشقاء واضحَ!! ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة، وبطل ما كانوا يؤملونه من النجاة من عذاب الجحيم، كما قال سبحانه عنه: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ ونتيجة لهذا الطغيان فقد حكم الله عليهم بالشقاء فقال:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر البشر، وأشقى البشر، ولا ترى أحداً أوضح خسراناً منهم، لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران[1].

وبعد أن وضّح حال أولئك الأشقياء المجرمين، شرع في شرح أضدادهم وهم المؤمنون، وبيان ما لهم من العواقب الحميدة، ليظهر ما بينهما من التباين العجيب، والمصير المنتظر، حالاً ومآلاً، فقال سبحانه:

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى عن مآلهم بأنهم أخسر الناس في الآخرة، لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان، بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي صدَّقوا بكل ما يجب التصديق به، من القرآن وغيره ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي الأعمال الصالحات ﴿ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له، وأصل الإخباتِ: نزولُ الخبت وهو المنخفض من الأرض، ثم أُطلق على الاطمئنان والخشوع، فقوله سبحانه: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إشارة إلى جميع أفعال الجوارح ﴿وَأَخبَتُوا إِلَىٰ رَبِهِّم﴾ إشارة إلى أعمال القلوب ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ دائمون أبداً، لا يخرجون منها.

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ المؤمن والكافر أي حالهما العجيبة التي تشبه المثل في الغرابة ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ ﴾ هذا مثل الكافر ﴿ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ وهذا مثل المؤمن، وفيه تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، كما فيه من المحسنات البديعية ما يسمى باللفّ والنشر، حيث عاد السميع على الأصم، والبصير على الأعمى، ثمَّ الطباق بين الأعمى والبصير ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ هل يستوي الفريقان تمثيلاً وصفة؟ والاستفهام إنكاري معناه لا يستويان مثلاً، فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه، كحال من يتخبط في ظلمات الضلالة، ولا يعرف طريق النور والهداية ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفلا تتذكرون بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل؟

ثم إنه تعالى شرع في ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وبيان حالهم مع أممهم، ليزداد ﷺ تحملاً لما يقاسيه من المعاندين، فقال عز من قائل:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ على إرادة القول أي فقال لهم: إني لكم نذيرٌ مبين، أي مخوِّف من عذاب الله، والاقتصارُ على ذكر كونه نذيراً، لأنهم لم يغتنموا مغانم بشارته، بل جابهوه بالتكذيب ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي موضح لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه.

﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله وفي هذا تبيين لوجه الخلاص، وهو عبادة الله تعالى ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ المراد به يوم القيامة، أو يوم الطوفان، وصف العذاب بالأليم أي المؤلم للمبالغة، فكأن العذاب نفسه يتألم من شدته.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ وصفهم بالكفر لذمهم، لا لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة، بل كلهم كفار فجار، كما قال عنهم: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1] ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أي لا مزية لك علينا تخصك

(١) سورة نوح، آية: ٢٧.

بالنبوة، ووجوب الطاعة ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أرادوا بقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ظاهره، وهو ما يكون من غير تعمق، وإنما استرذلوهم مع كونهم من أولي الألباب الراجحة، لفقرهم، وقلة جاههم، فإنهم لمَّا لم يعلموا إلاّ ظاهر الحياة الدنيا، كان الأشرف عندهم الأكثر مالاً وجاهاً، كما ترى بعض المتسمَّيْنَ بالإسلام، يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة، والرفعة لا تكون بالمال والمناصب، والحسب بل بمتابعة الرسل، ومتانة الدين والأخلاق ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ أي لك ولمتبعيك ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة من المال والجاه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أدرجوا قومهم معه في الخطاب، أي بل نظن إياك في دعوى النبوة، وإياهم في دعوى العلم بصدقك، نظنكم كاذبين، تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبباً للرياسة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي حجة شاهدة بصحة دعواي ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء النبوة، جيء بها إيذاناً بأنها مع كونها بينة من عند الله تعالى، رحمة ونعمة عظيمة من عنده ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم، من العمى ضد البصر، والمراد به هنا الخفاء مجازاً، يقال: حجةٌ عمياء كما يقال: حجة مبصرة، للواضحة الجليّة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنكرهكم على الاهتداء بها؟ ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي لا تختارونها ولا تتأملون فيها؟ ومحصول الجواب أخبروني إن كنت على حجة، ظاهرة الدلالة على صحة دعواي، إلاّ أنها خافيةٌ عليكم، أيمكننا أن نكرهكم على قبولها، وأنتم معرضون عنها؟ أي لا يكون ذلك أبداً.

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ، وإن لم يذكر فمعلومٌ ممَّا ذُكر ﴿ مَالًا ﴾ تؤدونه إليَّ بعد إيمانكم، فيكون ذلك أجراً لي في مقابلة اهتدائكم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي ما أطلب ثوابي وجزائي إلا من الله ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ جواب عما لوَّحوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ والمرويُّ عن ابن جريج أنهم قالوا له: يا نوح إن أحببتَ أن نتبعك، فاطرد هؤلاء، وذلك كما قالت قريش للنبي ﷺ في فقراء الصحابة وهو جواب عما لم يذكر في النظم الكريم، لكن فيه نوع إشارة إليه ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ أي إنهم مؤمنون يلاقون ربهم ويفوزون بقربه، فكيف أطردهم؟ ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ بأقدارهم، وفي التماس طردهم، وتجهلون بكل ما ينبغي أن يعلم، ويدخل فيه جهلهم بمنزلتهم عند الله تعالى.

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ﴾ عذاب ﴿ ٱللَّهِ ﴾ أي من يصونني ويدفع عني حلول سخطه؟ والاستفهام للإنكار أي لا ينصرني أحد من ذلك ﴿ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ وهم بتلك الكرامة والزلفى ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي أفلا تتعظون فلا تتذكرون بما ذكر من حالهم، حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب؟!.

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ خزائن رزقه حتى جحدتم فضلي ﴿ وَلَآ

﴿أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي لا أدعي في قولي: ﴿إِنِّي نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ علم الغيب حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد، وما ذكرت من دعوى الإنذار بالعذاب، إنما هو بوحي وإعلام من الله تعالى ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلاَّ بشراً، فإن البشرية ليست من موانع النبوة، يعني إنكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبي، والحالُ أنّي لا أدَّعي شيئاً من ذلك ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ ولا أقولُ في شأن من استرذلتموهم لفقرهم، وأصل الازدراء الإعابة، يقال: ازدراه إذا عابه ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ فإنَّ ما أعدَّ الله لهم في الآخرة، خير مما آتاكم في الدنيا، فعسى الله أن يؤتيهم خير الدارين ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ من الإيمان وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباعه مع الفقر إلى النفاق، وإنما اقتصر على القول المذكور، مع أنه جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين، جرياً على الإنصاف، وإرشاداً لهم إلى سلك الهداية بأن اللائق لكل أحد، أن لا يبتَّ القول إلا فيما يعلمه يقيناً، ويبني أموره على الشواهد الظاهرة ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ إذا قلت ذلك ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم بحط مرتبتهم، وفيه تعريض بأنهم ظالمون بازدرائهم.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ خاصمتنا ونازعتنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي حاججتنا فأطلته، أو أتيت بأنواعه، وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل حرفة الأنبياء، والتقليد والجهل، والإصرار على الباطل، حرفة الكفار، ولمَّا حجهم عليه السلام، وأبرز لهم بينات واضحة الدلالة، بردِّ شبههم الباطلة، ضاقت عليهم الحِيَلُ فقالوا عند ذلك ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب المعجل ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك لا تؤثّر فينا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فإن أمره إليه سبحانه لا إليَّ يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، والجملة دليل جواب قوله سبحانه ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ والتقدير إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم، لا ينفعكم نصحي، وهذا الكلام صدر عنه إظهاراً للعجز، عن إلزامهم بالحجج والبينات، لتماديهم في العناد، وإيذاناً بأنَّ ما سبق منه ليس بطريق الجدل، بل بطريق النصيحة لهم، والشفقة عليهم، ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقول قوم نوح، إنَّ نوحاً افترى ما جاء به مسنداً له إلى الله تعالى؟ ﴿قُلْ﴾ يا نوح ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ بالفرض البحت ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي عقوبة إثمي، وإن كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي من إجرامكم في إسناد الافتراء إليَّ، وقوله: ﴿إِنِ افتَرَيْتُهُ﴾ لا يدل على أنه شاكٌّ، لأنه قول يُقال على وجه الإنكار، عند اليأس من القبول.

وما يقتضيه كلام ابن عباس أن الآية الكريمة، من تتمة قصة نوح وهو الظاهر، وعن مقاتل أنها في شأن النبي ﷺ مع مشركي مكة.

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ ﴾ المصرِّين على الكفر، وهو إقناط له من إيمانهم وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه ﴿ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ أي من استمر على الإيمان، وللدوام حكم الحدوث ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن حزن بائس ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء، والايذاء في هذه المدة الطويلة، قيل: إن نوحاً عليه السلام لشدة محبته إلى إيمانهم كان يسأل إيمانهم، فأعلمه ربُّه أنه لا يؤمن أحد منهم فقد حان وقت الانتقام منهم.

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منَّا وحفظنا، والأعين حقيقة في الجارحة، وهي جارية مجرى التمثيل، حيث مثّل للحفظ والرعاية بمن يرقب بعينه صنع الشيء بدقة، والمراد: اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا فهو كناية عن الرعاية والحفظ كما يقال للمسافر: صحبتك عين الله ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إليك كيف تصنعها، قال مجاهد: أي اصنعها كما نأمرك ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، فلا سبيل إلى كفّه، وفي هذا حكم قاطع لقوم نوح بالهلاك.

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ تقديره وأخذ يصنع الفلك، فهي حكاية حالة

ماضية، لاستحضارها في الذهن، كأنَّ الإنسان يشاهد نوحاً عليه السلام وهو يصنع السفينة الآن ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برية بعيدة من الماء، أو لأنهم ما كانوا يعرفونها، فكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرتَ نجَّاراً بعد ما كنتَ نبياً؟!.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا وإطلاق السخرية للمشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لا في الكيفية، التي لا تليق بشأن النبي وبمنصب النبوة، وقيل: إنها لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح، قال بعضهم: إن في الآية دليلاً على جواز مقابلة نحو الجاهل والأحمق، بمثل فعله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وفيها إشارة إلى أنه بعد أن يئس من إيمانهم، لم يبال بإغضابهم، فلذا هددهم بقوله:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يُهينه، ويُذلُّه، ويُهلكه وهو عذاب الغرق ﴿وَيَحِلُّ﴾ أي ينزل ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم وهو عذاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ حتى هي التي يبتدأ بها الكلام، وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الفُلْكَ﴾ والأمرُ: واحد الأمور وهو الشأن، أعني نزول العذاب بهم ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها، وفي ذلك عجيب القدرة، ولا تنافي بين هذا وقوله

سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾ إذ يمكن التفجير وهو غير الفوران، فخصَّ الفوران للتنور، والتفجير وهو للأرض، والتنُّور تنور الخبز وهو قول الجمهور، وعن ابن عباس وعكرمه التنور هنا: وجه الأرض ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي من كل نوع من الحيوانات المنتفع بها، لينتفع به الذين ينجون من الغرق وذراريهم بعد ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو تثنية زوج، والمراد به الواحد المزدوج بآخر من جنسه ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى، وحاصل المعنى: احمل ذكراً وأنثى، من كل نوع من الحيوانات، وعن وهب بن منبه قال: «لمَّا أَمر الله نوحاً بالحمل، قال: كيف أصنع بالأسد والبقرة، وبين الشَّاة والذئب، وبين الحمام والهرة؟ فقال الله تعالى: من ألقى بينهم العداوة؟ قال أنت يارب، قال: فإني أؤلف بينهم»[1] والذي يميل القلب إليه أن الطوفان لم يكن عاماً، وأنه لم يؤمر بحمل الحشرات والسباع، بل أُمر بحمل ما يحتاج إليه إذا نجا المؤمنون من الغرق ﴿وَأَهْلَكَ﴾ والمراد بأهله: امرأته المسلمة، وبنوه منها وهم: «سام» أبو العرب، و «حام» أبو السودان، «ويافث» أبو الترك، وأزواجهم ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنه «كنعان» وأمه واعلة فإنهما كانا كافرَيْن وذلك في قوله سبحانه ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي في الذينَ ظَلَمُوا﴾ وجيء بعلى لكونِ السابقِ ضاراً لهم، كما جيء باللام فيما هو نافع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي والمؤمنين من غيرهم ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل تسعة وسبعون، وقيل: ثلاث وثمانون.

﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٦١ ففيه روايات كثيرة.

﴿ ۞وَقَالَ ﴾ نوح ﴿ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا ﴾ أي اركبوا في السفينة ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ ﴾ أي اركبوا فيها قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسالها روي عن الضحاك قال: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: ﴿بِسمِ اللَّهِ﴾ فتجري، وإذا أراد أن ترسو أي تقف قال: ﴿بِسمِ اللَّهِ﴾ فترسو؛ فهذا تعليم من الله عزَّ وجلَّ لعباده ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ ﴾ للذنوب والخطايا ﴿ رَّحِيمٞ ﴾ لعباده، ولولا مغفرته ورحمته لما نجاكم من هذه الطامة.

﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ ﴾ أي فركبوا وهي تجري بهم وهم فيها ﴿ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ ﴾ أي في موج من الطوفان، كل موجة منها كالجبال، في تراكمها وارتفاعها، والأمواج العظيمة تحدث عند حصول الرياح الشديدة، فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياحٌ عاصفة، وهذا الجريان إنما كان قبل أن يتفاقم الخطب، كما يدل عليه قوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ ﴾ واسمه كنعان، فإنَّ ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والأرض ﴿ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ ﴾ أي في مكان منقطع عن أبيه وعن السفينة ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾ في السفينة، يا بني بالتصغير من باب التحنن والرأفة، وكثيراً ما ينادي الوالد ولده كذلك ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ في المكان فتهلك مثلهم.

﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ ﴾.

﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ ﴾ أي سأنضم ﴿ إِلَىٰ جَبَلٖ ﴾ من الجبال ﴿ يَعۡصِمُنِي ﴾ يحفظني بارتفاعه ﴿ مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ فلا يصل إليَّ زعماً منه أن ذلك كسائر المياه، وأن الماء لن يصل إلى رؤوس الجبال ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أي قال له أبوه نوح عليه السلام: لا ناجي ولا معصوم اليوم من عذاب الله، إلا من رحمه الله، زاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام، وعبّر عن الماء (بأمر الله) أي عذابه الذي أشير إليه بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ أَمۡرُنَا﴾

تفخيماً لشأنه، فإن أمر الله لا يُغالب، وعذابه لا يُردُّ، كأنه قيل: لا عاصم من أمر الله تعالى إلا هو، وإنما قيل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ تفخيماً لشأنه الجليل، كلُّ ذلك لكمال عنايته بتحقيق ما يتوخاه، من نجاة ابنه، ولذا عدل عما يقتضيه الظاهر من الجواب، بقوله لا يعصمك الجبل ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ أي فكان من غير مهلة من المغرقين، فانقطع ما بينهما من المجادلة، وفيه دلالة على غرق سائر الكفرة، والحكمة في كفر أرحام الرسل، ككفر والد إبراهيم، وولد نوح، هو تقرير أصل التوحيد، بالفصل بين ما هو لله، وما هو لرسله، وما عليهم إلاَّ البلاغ، لا يملكون لأحدٍ ضراً ولا نفعاً.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ أي بعد تناهي الطوفان ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ أي انشقي وابتلعي ماءك، استعير له من ازدراء الحيوان ما يأكله، للدلالة على أن ذلك ليس كالنشفان المعتاد التدريجي، وتخصيص البلع بما يُؤكل هو المشهور عند اللغويين، فإن البلع حقيقة إدخال الطعام في الحلق، وهو هنا استعارة لغور الماء في الأرض ﴿مَآءَكِ﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفان، دون المياه المعتادة فيها من العيون، والآبار، والأنهار، وعبَّر عنه بالماء، بعد ما عبَّر عنه بأمر الله، لأن المقام هنا مقام النقص والتقليل، لا مقام التفخيم والتهويل ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر، يقال: أقلعت السماء إذا انقطع مطرها ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص وذهب في أغوار الأرض، قال الجوهري: غاض الماء إذا قلَّ، وتفسيره بالنقص مرويٌّ عن مجاهد ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أُنجز الموعود من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة بعد أن طافت ستة أشهر ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ جبل بالموصل وقيل: بالشام، والمشهور الأول، روي أنه ركب السفينة عاشر

رجب، ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم وصار سنة ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكاً لهم، يقال: بَعُدَ بُعْداً، وبعيداً: إذا بَعُد بحيث لا يُرجى عوده، ثم استعير للهلاك، وخُصَّ بدعاء السوء.

واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وقد ألَّف شيخنا علاء الدين رسالة في هذه الآية، جمع فيها بدائع، وأظهر من مزاياها الكثير[1].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وقد وعدتني إنجاءهم ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإن كل وعدٍ تعِدُه حقٌّ، لا يتطرق إليه الخُلْفُ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، وهذا النداء منه يقطر منه الاستعطافُ، وجميلُ التوسل إلى من عهده منعماً ومتفضلاً، في شأنه أولاً وآخراً، وهو على طريقة دعاء أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىَ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

---

(١) هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وقد اهتمَّ بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان في البحر المحيط ٢٤٧/٥ حيث قال طيَّب الله ثراه: «في هذه الآية أحد وعشرون نوعاً من البديع: المناسبة بين قوله: ﴿أقلعي وابلعي﴾ والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في ﴿سماء﴾ المراد به مطر السماء والاستعارة في ﴿ابلعي﴾ والإشارة في قوله: ﴿وغيض الماء﴾ فهو إشارة إلى معان كثيرة، والتمثيل في قوله ﴿وقُضي الأمر﴾ عبَّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في ﴿على الجودي﴾ قصداً للمبالغة في التمكن، والاحتراس في ﴿بُعداً للقوم الظالمين﴾ وهو أيضاً ذم لهم، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمة» ثم ذكر بقية الوجوه فارجع إليها في تفسيره البحر المحيط، وقد قال ابن المقفَّع وهو من أساطين الأدباء والفصحاء: أشهد أن مثل هذا الكلام لا يستطيع أن يأتي به بشر.

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ ﴾ ولما كان دعاؤه بتذكير وعده مبنياً على كون كنعان من أهله، نفى تعالى أولاً كونه منهم، بقوله ﴿إِنَّهُ لَيسَ مِن أَهلِكَ﴾ أي من أهل دينك، لأن مدار الأهل هو القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين المسلم والكافر، ثم علَّل عدم كونه منهم بقوله سبحانه ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾ أصله إنه ذو عمل غير صالح، فحذف «ذو» للمبالغة، بجعله عين عمله للمداومة عليه، ثم لما كان دعاؤه مبنياً على كون «كنعان» من أهله، ونفى ذلك عنه وحقق ببيان علته، وهو أن عمله سيِّء غير صالح، فلهذا أعقبه بقوله ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ ﴾ أي إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني ﴿ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴾ ما لا تعلم، أصواب هو أم ليس بصواب؟ عُوتب عليه السلام بأنَّ مثله في معرض الإرشاد، لا ينبغي أن يشتبه عليه أمر ولده الكافر، فيطلب من ربه نجاته ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ أي إني أنبهك وأنصحك، خشية أن تكون من الجاهلين، وليس في ذلك وصف له بالجهل، بل فيه تذكير وتحذير، ولذلك استعاذ نوح عليه السلام بالله أن يطلب ما لا يحقُّ له، وأن يقع منه ما نُهي عنه، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ ﴾ أي يا رب إني أعوذ بك أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ولا أنه صواب، وهذه توبة منه عليه السلام ﴿ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي ﴾ أي وإن لم تغفر لي ما فَرَط مني من السؤال ﴿ وَتَرۡحَمۡنِيٓ ﴾ بقبول توبتي، وبالفضل عليَّ ﴿ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ أي أكون

خاسراً بسبب ذلك، فإن الذهول عن شكر الله تعالى، لا سيما عند وصول هذه النعمة، التي هي النجاة، وهلاك الأعداء، خسران مبين، وهذا التضرع منه مثل تضرع آدم عليه السلام، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[1].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ﴾ أي قال الله سبحانه لنوح ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي انزل من السفينة سالماً من المكاره من جهتنا، وبسلام وتحية منا عليك، كما قال الله تعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ في العالمين﴾ ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك في نسلك، وما يقوم به معاشك، وهذا منه تعالى إعلامٌ وبشارة بقبول توبته، وخلاصه من الخسران ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ أي وعلى أمم هم الذين معك، سُمُّوا أمماً لتشعب الأمم منهم، فالناس كلهم من نسل نوح ومن هنا سمي نوح آدم الثاني، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَتَهُ هُمُ البَاقِينَ﴾ ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة والمراد بهم الكفار من ذرية من معه، وعن محمد القرظي قال: «دخل في ذلك السَّلامِ والبركاتِ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة»[2] وعن الحسن أنه قال: «ما زال الله تعالى يأخذ لنا بسهمنا، كلَّما هلكت أمةٌ خَلقنا في أصلاب من ينجو بلطفه، حتى جعلنا في خير أمة أُخرجت للناس»[3] وهٰهنا لطيفة وهي أنه

---

(١) الأعراف، آية ٢٣.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ١٢/ ٦٤.

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن البصري.

قد تكرَّر في هذه الآية حرف واحد وهو الميم مرات(١)، مع غاية الخفة، ولم تكرر الراء مثله، في قوله:

وقبرُ حرب بمكان قفرُ   وليس قرب قبر حرب قبر

وهذا مع ما ترى فيه من غاية الثقل، وعسر النطق.

فللهِ تعالى شأن التنزيل ما أكثر لطائفه.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ﴿ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ أي من بعض الأخبار الغيبية التي لم تشهدها ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ نوحيها إليك بواسطة الوحي، والغرضُ من ذكر كونها موحاة، هو لإلجاء قومه للتصديق بنبوته، وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ أي مجهولة عندك وعند قومك، من قبل إيحائنا إليك، وفي ذكرهم تنبيه على أنه ﷺ لم يتعلمه، إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوه فكيف بواحد منهم؟ ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على مشاقِّ الرسالة، وأذيَّة القوم كما صبر نوح ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ ﴾ بالظفر في الدنيا، وبالفوز في الآخرة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما شاهدته في نوح عليه السلام، فهي تسلية للنبي ﷺ وتعليل للأمر بالصبر، فكأنه قيل: فاصبر فإن العاقبة للصابرين.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) تكررت الميم في هذه الآية خمس عشرة مرة، وبقيت في جمالها ورونقها من غير ثقل، وهذا سرٌّ من أسرار دقائق الإعجاز البياني.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ ﴾ معطوف على قوله سبحانه ﴿أرسَلْنَا﴾ في قصة نوح ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي واحداً منهم في النسب، كقولهم يا أخا العرب ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لأخاهم، هو هود عليه السلام أرسل إليهم منهم، ليكون ذلك أدعى إلى اتّباعه، والمراد استمالة قوم النبي ﷺ، لأنهم يستبعدون أن واحداً منهم، يكون رسولاً إليهم، فذكر الله أن هوداً كان واحداً من قومه عاد، وأن صالحاً كان واحداً من ثمود، لإزالة ذلك الاستبعاد ﴿ قَالَ﴾ هود ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي خصُّوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئاً، وكانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم باتخاذكم الأصنام ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي تكذبون على الله تعالى، فليس له سبحانه نظير ولا شريك.

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي ما أجري ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ أي خلقني، فهو خالقي وهو رازقي، وإيراد اسم الموصول للتفخيم، وفيه إشارة إلى أنه عليه السلام غني عن أجرهم ومالهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي ألا تستعملون عقولكم، فتعرفوا المحقَّ من المبطل، والصواب من الخطأ؟.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ من الشرك والعصيان ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والإنابة ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي يرسل المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نَـزَلَ السَّمَـاءُ بـأرضِ قَـوْمٍ ‏ رَعَيْنَـاه وإنْ كـانُـوا غِضَـابـاً

﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدر، متتابعاً من غير إضرار، فمفعال للمبالغة ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ منضمة ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي مع قوتكم، وإنما رغَّبهم بكثرة المطر، وزيادة القوة، لأنهم كانوا أصحاب زروع وثمار، وقيل حبس الله عنهم القطر ثلاث سنين، فوعدهم عليه السلام كثرة الأمطار على الإيمان والتوبة ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ أي مصرِّين على إجرامكم.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجةٍ تدل على صحة دعواك، وهذا لفرط عنادهم، وعدم اعتدادهم بما جاءهم به من المعجزات ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ أي بتاركي عبادتها ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي لقولك اعبدوا الله وحده ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناطٌ له من الإجابة والتصديق، وقد بالغوا في الإباء، فأنكروا الدليل، ثم قالوا مؤكدين لذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ ثم كرروا عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مبالغة في الضلال.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥)﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ أي ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك، يُقال: عراه إذا أصابه ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أرادوا به قاتلهم الله تعالى الجنون، أي أنه جُنَّ بسبب إصابة الأصنام له بالأذى، والتنكيرُ في ﴿بسوءٍ﴾ للتقليل، كأنهم لم يبالغوا في السوء، كما ينبيء عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتهم دون كلها، ومعنى هذا أنه أفسد عقلك، بعضُ آلهتنا لسبِّك إيَّاها، وصدِّك

عن عبادتها، وحطّك لها عن رتبة الألوهية ﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام مجيباً لهم: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾ على نفسي ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ من هذه الأوثان والأصنام.

﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾ أي واشهدوا أنتم بأنني بريء مما أنتم تجعلونه شريكاً لله، وهو سبحانه لم يُنزل به سلطاناً، وقد أجاب عليه السلام بهذا على مقالتهم الشنيعة، المبنيَّة على اعتقاد كون آلهتهم تضرُّ وتنفع، وصرَّح بالحقِّ، وصَدَع به، حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدَّرة بـ ﴿إني﴾. وأكد ذلك بأُشهد الله، وأمرهم بأن يشهدوا أنفسهم به ثم أمرهم بالاجتماع مع آلهتهم جميعاً في إيصال الأذى إليه ونهاهم عن الانتظار والإمهال فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ إن صح كون آلهتكم مما تقدر على إضرار من يصد عن عبادتها، فإني بريء منها، فكونوا أنتم معها جميعاً وباشروا كيدي، ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك، فهذا من أعظم المعجزات، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً، بين الجمّ الغفير، من العتاة الغلاظ الشداد، وقد خاطبهم وحقَّرهم وآلهتهم، وحثَّهم، وهيَّجهم على التصدّي لأسباب المعاداة، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم ظهوراً بيناً، كيف لا وقد التجأ إلى ركنٍ منيع رفيع، واعتصم بحبل متين، حيث قال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ أي لا أهابكم لاعتمادي على الله، والمعنى: إنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضروني، فإني متوكل على الله، واثق بكلاءته، وهو مالكي ومالككم، ثم أقام البرهان بقوله ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمةٍ تدبُّ على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي إلا هو مالك لها، قادر عليها، أن يصرّفها على ما يريد، والأخذ بالنواصي تمثيلٌ لذلك

والناصية منبتُ الشعر في مقدم الرأس، وسمي الشعر الذي عليه «ناصية» للمجاورة، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذل والخضوع لآخر، قالوا ناصيةُ فلانٍ في يد فلان، أي إنه مطيع له منقاد إليه كالعبد الذليل، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مندرج في البرهان، وهو تمثيل لأنه تعالى مطلع على أمور العباد، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كاف لمن اعتصم به، كمن وقف على الجادة، فحفظها ودفع ضرر قُطّاع الطريق عنها، فالمعنى إنه سبحانه على الحق والعدل، لا يضيع عنده معتصم، ولا يفوته ظالم.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ فإن تتولوا والمراد فإن تستمروا على ما كنتم عليه من التولي والإعراض ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾ فقد أديت ما عليَّ من الإبلاغ وإلزام الحجة، فلا تفريط مني، ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ وعيد لهم بأن الله يهلكهم، ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تضرونه بهلاككم شيئاً، لا ينقص ملكه، ولا يختل أمره ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب على كل شيء، فلا تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ أمرنا بالعذاب، وهو الذي نزل فيهم من الريح العقيم، وهي السموم التي تدخل في مناخرهم، وتخرج من أدبارهم، وتصرعهم على الأرض، حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية، عذَّبهم الله سبحانه بها سبع ليال، وثمانية أيام متتابعة ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ ﴾

وكانوا أربعة آلاف، ولا ينافي ما تقدم من أنه كان وحده، ولذا عُدَّت مواجهته للجم الغفير معجزة له، والظاهر أن ما كان من المقاولة، إنما هو في ابتداء الدعوة، ومجيء الأمر كان بعده بكثير، وإيمان من آمن كان في البين ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَّا﴾ وهي الإيمان الذي أنعمنا به عليهم ورُوي هذا عن ابن عباس والحسن، والجار والمجرور متعلق بنجينا، وهو الظاهر الذي عليه كثير من المفسرين ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو السموم المذكور، والغليظ صفة الريح وهو ضد الرقة، وفيه مناسبة لحال الكفرة، فإنهم كانوا غلاظاً شداداً، روي أن هوداً لما أحسَّ العذاب، اعتزل بالمؤمنين في حظيرة، فكانت الريح تمر بهم ليّنةً باردة، والتي تمر تصيب القوم شديدة مهلكة، وهذه من معجزاته.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أنثَ اسم الإشارة باعتبار القبيلة، والخطاب لأمة الرسول ﷺ، كأنه قال: سيروا فانظروا إليها، والمقصود الحث على الاعتبار والاتعاظ بأحوالهم ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها، وهي الآيات التي أيد تعالى بها رسله، أو آيات وجوده وتوحيده في الأنفس والآفاق ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي عصوا رسولهم، ومن عصى رسولاً فكأنما عصى الكل، لأنهم اتفقوا على التوحيد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ يعني كبرائهم الطاغين. قال الزجاج: الجبّارُ هو الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿عَنِيدٍ﴾ أي طاغ إذا ركب الخلاف والعصيان، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان، وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي جعلت اللعنة لازمة لهم، وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مذهب، بل تدور معهم حسبما داروا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ أي أُتبعوا يوم القيامة أيضاً لعنة، حُذفت لدلالة الأولى عليها ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ ﴾ كفروا نعمه ولم يشكروها بالإيمان ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، مع أنهم هالكون، تسجيلاً عليهم ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطف بيان لعاد، وفائدته الإيماء إلى استحقاقهم للبعد، بما جرى بينهم وبين هود.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو جل وعلا كوَّنكم منها لا غيره، فإنه خلق آدم من التراب، والنطف تتولد من الدم، وهي من الأغذية، وهي حاصلة من الأرض ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ عمَّركم فيها واستبقاكم مدة الحياة ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ ﴾ قريب الرحمة، كقوله سبحانه ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ دعاء المحتاجين بفضله.

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا ﴾ فاضلاً خيِّراً نقدّمك على جميعنا، ونأمل أن تكون سيداً مطاعاً ﴿ قَبْلَ هَٰذَآ ۖ ﴾ أي الذي باشرته من الدعوة إلى التوحيد، وترك عبادة الآلهة، فلما سمعنا هذا القول منك، انقطع رجاؤنا عنك ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ من الأوثان على جهة التوعد ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى

﴿شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع في الشك والريبة، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة، وهذا مبالغة منهم في تزييف كلامه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ في الحقيقة ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة ظاهرة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ أي مالكي ومتولي أمري ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ﴾ أي من جهته ﴿رَحْمَةً﴾ أي نبوة، وهذه الأمور وإن كانت متحققة، لكنها صُدِّرت بكلمة الشك، اعتباراً لحال المخاطبين، لاستنزالهم عن المكابرة ﴿فَمَن يَنصُرُنِى﴾ فمن ينجيني ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ أي إن عصيت أمره في تبليغ الرسالة، والمنع عن الشرك به تعالى ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ أي لا تفيدونني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي، فدعوها تأكل وتشرب في أرض الله، ولا تنالوها بأذى فيأخذكم عذاب عاجل، قريب النزول إن عقرتموها.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي قتلوها ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ عيشوا ﴿فِى

دَارِكُمْ﴾ في منازلكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء، والخميس، والجمعة، ثم يصحبكم العذاب فتهلكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أربعة آلاف ﴿مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بسببها ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من ذلة ذلك اليوم، وهو الهلاك بالصيحة، وإنما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزياً لأنها فضيحة باقية يعتبر بها الأجيال ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي خامدين ميتين لا يتحركون.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾ أي كأنهم لم يقيموا ﴿فِيهَآ﴾ في دارهم ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟﴾ وضع موضع المضمر لزيادة البيان ﴿كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلوماً مما سبق تقبيحاً لحالهم، وتعليلاً لاستحقاقهم لقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي هلاكاً لهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة أي جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط، جاؤوا إلى إبراهيم بالبشارة، وإنما أسند المجيء دون الإرسال، لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه، بل إلى قوم لوط، وإنما جاؤوه لداعية البشرى ﴿ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ أي بالبشارة بالولد من سارة بإسحق، ويعقوب من بعده، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ أي سلَّمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ أي سَلام عليكم، وهو أكمل من السلام عليكم، لأن التنكير يفيد الكمال والمبالغة، كأنه قال: سلام كاملٌ تام عليكم[1] ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فما أبطأ إبراهيم عليه السلام عن مجيئه بالطعام وهو عجل مشوي، قيل: مكث إبراهيم عليه السلام خمسة عشر يوماً لا يأتيه ضيف، فاغتمَّ لذلك، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافاً على صورة الغلمان، في غاية الحسن والجمال، لم ير مثلهم، وكان من دأبه إكرام الضيف، ولذا عجَّل القِرَى، وهو العجل ولد البقرة، والحنيذ المشوي في أخدود، وفي مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه، دليل على أنه من الأدب أن يُحضر الإنسان للضيف أكثر مما يأكل، وهل كان مهيأً قبل مجيئهم، أو أنه هيىء بعد أن جاؤوا؟ قيل بالأول لدلالة السرعة بالإتيان، والظاهر أنه هيأه لهم بعد مجيئهم، لأنه أزيد في العناية، وأبلغ في الإكرام.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ أي لا يمدُّون إليه أيديهم للأكل

(١) ردَّ التحية عليهم بأحسن من تحيتهم، لأنه جاء بها جملة اسمية، وهي تدل على الثبوت والاستمرار.

﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي أنكر ذلك منهم، وخاف أن يريدوا به مكروهاً، لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف، ولم يأكل من طعامهم، ظنُّوا أنه لم يجىء بخيرٍ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾ أي أحسَّ من جهتهم الخوف والفزع، أو أضمر في نفسه ﴿خِيفَةً﴾ أي خوفاً ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي قالت الملائكة: لا تخف فنحن ملائكة ربك، أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط المجرمين وما قالوه بمجرد ما رأوا منه مخايل الخوف، بل بعد إظهاره لهم، كما في سورة الحِجْر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ ولم يُذكر ههنا اكتفاءً بذلك.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ سارة بنت هاران وهي بنت عمه ﴿قَائِمَةٌ﴾ وراء السِّتر، تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة وهو مرويٌّ عن مجاهد، وكانت نساؤهم لا تحتجب، لا سيَّما العجائز ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بهلاك أهل الفساد ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ أي عقَّبنا سرورها بسرور أتم منه، على ألسنة رسلنا، لأن النساء أعظم سروراً للولد من الرجال ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي بشَّروها بإسحاق ولداً منها، ومن بعده مولود يسمى يعقوب، من ولدها إسحق، تعيش إلى أن تراه، وتوجيهُ البشارة إليها مع أن الأصل في ذلك إبراهيم، لكونها كانت عقيمة حريصة على الولد، وكانت قد تمنته حينما وُلد لهاجر إسماعيل، وهي كانت محرومة الولد بسبب العقم والشيخوخة.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾ أي يا عجبا ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾؟ بنت تسع وتسعين سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ أي زوجي ﴿شَيْخًا﴾ أي شيخ هرِمٌ ابن مائة وعشرين سنة؟

أي كيف ألد وكلانا على حالة منافية لذلك؟ أنا امرأة عقيم مسنة، وزوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً، وإنما قدمت بيان حالها، لأنها أعجب وأغرب، إذ ربما يولد للشيوخ، وأما العجائز فداؤهنَّ العقام ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما ذكر من حصول الولد من هرمين ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر غريب بالنسبة إلى سنة الله، المسلوكة بين عباده، ومقصدُها استعظام نعمةِ الله عليها في ضمن الاستعجاب، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، فإنها مؤمنة زوجة خليل الرحمن.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؟ أي أتتعجبين من قدرته، وحكمته، وتكوينه؟ أنكروا عليها تعجبها لأنها ناشئة في بيت النبوة، ومهبط الوحي ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾ أي رحمكم الله برحمته الجليلة، التي وسعت كل شيء ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ أي خيراته النامية الدائمة ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي عليكم يا أهل بيت النبوة «بيت إبراهيم» عليه السلام، واستدل بالآية على دخول الزوجة في أهل البيت، واستدل بالآية على كراهة الزيادة في التحية على «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ أي إنه سبحانه محمود ممجَّد، يفعل ما يستوجب الحمد من عباده، فعيل بمعنى مفعول أي محمود ﴿مَّجِيدٌ﴾ أي كثير الخير والإحسان.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي ذهب عنه الخوف، واطمأن قلبه بعرفانهم وسبب مجيئهم، والرَّوعُ: الفَزَعُ والخوفُ ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد، وجواب لمَّا محذوفٌ تقديره أقْبَلَ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي يجادل

رسلنا في شأنهم، ومجادلته إياهم قوله ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ كما قصه الله سبحانه في سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وعُدَّ قولهُ مجادلة، لأن مآله كيف تُهلك قرية فيها من هو مؤمنٌ، غير مستحق للعذاب؟ ولذا أجابوه بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ وكان لوط على شريعة إبراهيم، وقومُه مكلَّفون بها.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ أي غير عجول على الانتقام، كثير التأسف على الناس، راجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والمقصود من ذلك، بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه، وفرط ترحمه، رجاء أن يدفع الله عنهم العذاب، ويُمهلوا لعلهم يُحدثون التوبة، فقالت الملائكة

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي أعرض عن هذا الجدال، فقد جاء أمر ربك بإيصال هذا العذاب، فلا سبيل إلى دفعه ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي لا يُرفع لا بجدال، ولا بدعاء، ولا بغيرهما.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ودخلوا عليه في صُوَر غلمانٍ مُرْدٍ، حِسان الوجوه، فلذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيئهم، لأنهم جاؤوا في صورة شبَّان، فظن أنهم من البشر، فخاف عليهم أن يقصدهم قومه بسوء، فيعجز عن مدافعتهم، روي أنهم أتوا لوطاً نصف النهار، وهو يعمل في أرضٍ له، فاستضافوه فانطلق بهم، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما

أمرهم؟ قال: أشهد بالله أنها شرُّ قرية في الأرض، فمضوا معه حتى دخلوا منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت به قومها، وقالت إن في بيت لوطٍ رجالاً، ما رأيت أحسن وجهاً، ولا أنظف ثياباً، ولا أطيب رائحة منهم، فأسرعوا نحوهم يطلبون الفجور بهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي طاقةً وجهداً، فالمعنى: ضاق صدره بمجيئهم خوفاً عليهم، وهو كناية عن شدة الانقباض، للعجز عن مدافعة المكروه عنهم، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، من عَصَبه إذا شدَّه أي يومٌ شديد الهول والمكروه.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ أي لوطاً لما علموا بهم وهو في بيته مع أضيافه ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون لطلب الفاحشة بالضيوف، كأن بعضهم يدفع بعضاً ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي من قبل وقت مجيئهم، ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فاحشة اللواطة، جهروا بها، ولم يستحيوا منها، حتى جاؤوا مسرعين لها مجاهرين، والمراد من السيئات إتيان الذكور، إلا أنها جُمعت باعتبار تكررها، أو باعتبار فاعلها ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فدى بهنَّ أضيافه كرماً وحمية، والمعنى: هؤلاء بناتي تزوجوهن، وكانوا يطلبوهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم، وعدم كفاءتهم، وقيل: المراد بالبنات نساؤهم، فإن كل نبي أبٌ لأمته، من حيث الشفقة والتربية، فكان كالأب لهن، وهذا القول هو الصحيح، وأشبه بالصواب(١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي لا تفضحوني ﴿فِي ضَيْفِي﴾ أي في أضيافي، فإنَّ إخزاء ضيف

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، اهـ.

الرجل إخزاءٌ له، والضيفُ مصدر، ولذا وُصف به المثنى والجمعُ ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟ أي أليس فيكم رجل عاقل، يهتدي إلى الحق ويرعوي عن الباطل القبيح!؟.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ معرضين عمَّا نصحهم به، من الأمر بتقوى الله، والنهي عن إخزائه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي لا حاجة لنا ولا غرض في بناتك، وعَنَوْا به النكاح وقضاء الشهوة، أي لا رغبة لنا في نكاحهن، وإنما رغبتنا في نكاح الشبان ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يعنون اللواطة وإتيان الرجال، ولما يئس من ارعوائهم عما هم عليه من الغيِّ والضلال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لو قويتُ بنفسي على دفعكم، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، أي لفعلت بكم ما فعلتُ ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي أو أويتُ إلى ناصرٍ عزيز، أتمنع به عنكم، شبَّهه بركن الجبل في شدته، والركن في الأصل الناحيةُ من البيت أو الجبل، وفي الحديث عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «رحم اللهُ تعالى أخي لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1] يعني ﷺ به اللهَ عزَّ وجل، فإنه لا ركن أشد منه. وجاء في الخبر أنه سبحانه لم يبعث بعد لوط نبياً إلاَّ في مَنَعة من عشيرته، وروي أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه، وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوَّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/ ٤١١ في الأنبياء، ومسلم رقم ١٥١ في الإيمان.

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾ بضرر ولا مكروه، فافتح لهم الباب ودعنا وإياهم، فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام وجوههم، فطمس بذلك أعينهم وأعماهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[1] الآية ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ ﴾ سريتُ الليلَ إذا قطعته، وأسريت لغة الحجاز، وقد جاء سرى وأسرى وهما بمعنى واحد، ولا يقال في النهار إلاَّ سار، والمعنى: سرْ ليلاً بأهلك ﴿ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ بطائفة من الليل والقطعةُ: الطائفة من الشيء والجمع القطع مثل سدرة وسدر ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ ﴾ ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه، وإنما نهوا عن ذلك، لئلا يروا ما ينزل بقومهم فيرقُّوا لهم ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ استثناء من قوله سبحانه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ ﴾ من العذاب فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا ﴿ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾؟ تأكيد للتعليل، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع، للتباعد عن موقع العذاب، وإنما جُعل ميقاتُ عذابهم الصبحُ، لأنه وقتُ الدَّعَة والراحة، فيكون حلول العذاب حينئذٍ أفظع وأنسب، بكونه عبرةً للناظرين.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾.

---

(١) سورة القمر، آية: ٣٧.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي وقت عذابنا وموعده ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ضمير عاليها وسافلها لمدائن قوم لوط، المعلومة من السياق، وهي المؤتفكات وهي خمس مدائن، أعظمها سدوم وهي القرية التي كان فيها لوط عليه السلام، روي أن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض، حتى وصل إلى إبراهيم عليه السلام، ثم إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن فرفعها، ثم قلبها بمن فيها، وما أعظم حكمة الله تعالى في هذا القلب، الذي هو أشبه شيء بما كانوا عليه من إتيان الأعجاز، والإعراض عما تقتضيه الطباع السليمة، وإسناد الجعل إلى الله تعالى إسنادٌ مجازي، والنكتة في ذلك تعظيم الأمر وتهويله، ويقوّي ذلك ضمير العظمة ﴿جَعَلْنَا﴾ وعلى هذا الطراز قوله سبحانه ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي على المدائن وعلى أهلها المجرمين ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر، لقوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾[1] ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي متتابع في النزول نُضِد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً، كقطر الأمطار.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلّمة للعذاب باسم صاحبها باسم من يُرمى بها ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه التي لا يملكها غيره سبحانه، وعن مقاتل المعنى: أنها جاءت من عند ربك ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي الحجارة الموصوفة ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من كل ظالم ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بسبب الظلم مستحقون لها، وفيه وعيد لأهل الظلم كافة، وعن ابن عباس أن المعنى: وما عقوبتهم ممن يعمل عملهم ببعيد، وذهب أبو حيان إلى أن المراد من الظالمين ظالمو مكة، وكانت قريبة إليهم يمرون عليها في أسفارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنكُمْ لَتَمُرُّوْنَ عَلَيهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[2]؟.

---

(١) أشار إلى قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾.
(٢) سورة الصافات آية ١٣٨.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين ﴿ أَخَاهُمۡ ﴾ من النَّسب ﴿ شُعَيۡبٗاۚ ﴾ عليه السلام معطوفة، على قوله سبحانه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً، ثم قال: ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ ﴾ أي المكيل بالمكيال ﴿ وَٱلۡمِيزَانَۖ ﴾ أي الموزون بالميزان، قدَّم أمر التوحيد، على النهي عما اعتادوه من البخس، المنافي للعدل، لأن أمر التوحيد مِلاكُ الأمر، والنقصُ على وجهين: أحدهما: أن يكون الإيفاء من قِبَلهم فينقصون من قدره، والآخر: أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ ﴾ بسَعَةٍ تغنيكم عن نقص الكيل والميزان[1] ﴿ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾ لا يَخْلُصُ منه أحد منكم، والمراد به عذابُ الاستئصال، أو عذاب يوم القيامة، وتوصيف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب، تدلُّ على إحاطة كل ما فيه من العذاب، فهو أبلغ من إحاطة العذاب.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ صرَّح بالأمر بالإيفاء،

---

(١) قال القرطبي ٩/ ٨٥: ﴿إني أراكم بخير﴾ أي في سعةٍ من الرزق، وكثرةٍ من النِّعَم ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلكٍ، لا يُفلت منه أحد، والمراد به عذاب يوم القيامة.

بعد النهي عن ضده مبالغةً، وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكفُّ، بل يلزمهم السعيُ في الإيفاء بالقسط والعدل، والتسوية من غير زيادة ونقصان ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فإن العثوَّ يعمُّ تنقيص الحقوق، وغيره من أنواع الفساد، والتصريح بهذا النهي بعدما عُلم في ضمن النهي، للاهتمام بشأنه، والترغيب لإيفاء الحقوق لأصحابها.

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ ما أبقاه الله لكم من الحلال، بعد التنزه عما حرم عليكم ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيف، فإن ذلك هباءٌ منثور، بل شر محض، وإن زعمتم أنَّ فيه خيراً، لأن الناس إذا عرفوا إنساناً بالصدق والأمانة، اعتمدوا عليه، ورجعوا إليه، فيُفتح له بابُ الرزق، وإذا عرفوه بالخيانة، انصرفوا عنه، فتضيق أبواب الرزق عليه ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بشرط أن تؤمنوا، فإن خيريتها مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم بها، وإنما أنا ناصح مبلّغ، وقد أعذرت حين أنذرت.

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾؟ من الأصنام، أجابوا بذلك لأنه عليه السلام أمرهم بعبادة الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام وغرضهم منه إنكار الوحي، ولكنهم بالغوا في ذلك، وزعموا أن ذلك من الوسوسة والجنون، وقالوا بطريق الاستهزاء ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾

وقد كان عليه السلام كثير الصلاة، وكانوا إذا رأوه يصلي، يتغامزون ويتضاحكون، وغرضهم من ذلك التعريضُ بركاكة رأيه ـ وحاشاه ـ والاستهزاء به وبآرائه ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ أي وأن نترك فعل ما نشاء في أموالنا؟ أجابوا به أمره بإيفاء الحقوق، وكلمة (أو) بمعنى الواو ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشاد؟ وهذا أسلوب تهكم وسخرية، كأنهم يقولون: ما أحلمك وأرشدك!! كقول خزنة النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾[1] وكقول الساخر المتهكم بالبخيل الشحيح: لو أبصرك حاتم لتعلَّم منك الجود والكرم!!.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة واضحة، ويقين ثابت، بما أعطاني اللهُ من النبوة والعلم ﴿مِّن رَّبِّي﴾ من مالك أمري، قاله رداً على مقالتهم، في أنَّ أمره ونهيه غير مستند إلى سند ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ من لدنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي وأعطاني الله المالَ الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهل يسع لي مع هذا الإنعام أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟ ولم يتعرض عليه السلام صريحاً لرد قولهم، المتضمن لرميه ـ وحاشاه ـ بالوسوسة، والجنون، والسفه، إيذاناً بأن ذلك مما لا يستحق جواباً، لظهور بطلانه ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بمنعي إياكم عما أنهاكم عنه، من البخس والتطفيف ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه، لأستبد به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته، ولم أُعرض عنه فضلاً عن

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

أن أنهى عنه، ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ أي ما أريد بما أباشره من الأمر والنهي ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ أي إلاّ أن أصلحكم، بأمري بالمعروف، ونهيي عن المنكر ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي مقدار ما استطعته من الإصلاح، وفيه تنبيه على أن العاقل، يجب أن يراعي في كل ما يأتيه، أحد حقوق ثلاثة: أعلاها حقوق الله، وثانيها: حق النفس، وثالثها: حقُّ الناس ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهداية الله ومعونته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء، وما عداه عاجز في حد ذاته، بل ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر، وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق من الله تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره، والإقبال عليه بكليته، وحسم أطماع الكفار، وإظهار عدم المبالاة بمعاداتهم، وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يُكسبنكم ﴿شِقَاقِىٓ﴾ أي معاداتي أي لا يكسبنكم معاداتكم إياي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الرجفة والصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان بعيد، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم، فاعتبروا بهم، وإنما غيَّر أسلوب التحذير، ولم يصرح بما أصابهم، بل اكتفى بذكر قربهم، إيذاناً بأن ذلك مغنٍ عن ذكره لشهرته، ولمَّا أنذرهم عاقبة صنيعهم، عقبه بالحمل على الاستغفار، والتوبة طمعاً في ارعوائهم فقال:

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿وَدُودٌ﴾ أي يعامل باللُّطف والإحسان، والودودُ: البليغ المودة بمن يحبُّه، وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة، وحثٌّ عليهما، فمن كان رحيماً بالعباد، يحنو عليهم ويعطف، ويعاملهم باللطف والإحسان، وجب عليهم حبُّه وطاعته.

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ أي ما نفهم ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد، والاعتماد على الله، والخوف من عذابه، قالوه استهزاءً بكلامه واحتقاراً به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول؟ وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق، على أحسن وجه، وضاقت عليهم الحيل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً، سوى الصدود عن منهاج الحق، والسلوك إلى سبيل الشقاوة، كما هو دَيْدنُ المحجوج، فجعلوا كلامه المشتمل على الحِكَم والمواعظ، من قِبَل ما لا يُفهم، وإلاَّ فكيف لا يفهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، ثم هو خطيب الأنبياء[1]، كما ورد في الحديث الشريف ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك فتمتنع منا، إن أردنا بك سوءاً ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ قومك وعزتهم عندنا، ورهطُ الرجل: قبيلته الأقربون، والظاهر أن مرادهم لولا مراعاة جانب عشيرتك ﴿لَرَجَمْنَـٰكَ﴾ أي لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي ولست عندنا بمحترم ولا مكرّم، فتمنعنا عزتك عن الرجم، وإنما نكفُّ عن الرجم، للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير نقلاً عن الثوري ٢/ ٤٧٢ قال: كان يقال له خطيب الأنبياء.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ في جوابهم ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؟ أي أقومي أَهْيبُ عندكم من الله عزَّ وجل؟ أي أتتركوني لأجل قومي، ومراعاة لجانبهم، ولا تتركونني إعظاماً لجانب الربِّ تبارك وتعالى؟ وهو تكرير للتوبيخ والتقريع ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ ﴾ أي جعلتموه، والضميرُ عائد إلى الله تعالى، وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين ﴿ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ ﴾ أي جعلتم اللهَ كالمنسّي المنبوذ وراء الظهر، بإشراككم به، والاستهانة برسوله، لا تطيعونه ولا تعظِّمونه؟ ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ أي بما تعملون من الأعمال السيئة، التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه تعالى، وهو تهديدٌ عظيم لأولئك الكفرة الفجرة.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ﴾ ولمّا رأى إصرارهم على الكفر، قال على طريق التهديد لهم: ﴿ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ على استطاعتكم ﴿ إِنِّي عَٰمِلٞۖ ﴾ على مكانتي ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ يُخْزِيهِ ﴾ وَصَفَ العذابَ بالإخزاء تعريضاً بما أوعدوه به من الرجم، فإنه مع كونه عذاباً فيه خزي وإهانة ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٞۖ ﴾ عطف على من يأتيه والمراد القصد إلى الرد على القوم في العزم على تعذيبه، والتصميم على تكذيبه، فكأنه قيل: سيظهر لكم من المعذَّب أنتم أم نحن؟ ومن الكاذب في دعواه أنا أم أنتم؟ ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ ﴾ أي انتظروا ما أقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٞ ﴾ أي منتظر ما يحلُّ بكم من العذاب!.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب بإهلاكهم، نجينا شعيباً والمؤمنين معه، بسبب رحمة عظيمة منا لهم، وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب، فأصبحوا هلكى خامدين لا حراك بهم، ألا بعداً لهم كما بعدت ثمود، والعدول عن الإضمار، ليكون أدل على طغيانهم، وليكون أنسب بمن شبَّه هلاكهم بهلاكهم، لأنهما أهلكتا بنوعٍ من العذاب وهو الصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم، وصيحة مدين كانت من فوقهم(١)، رواه الكلبي عن ابن عباس.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بالمعجزات الواضحات، وهي الآيات التسع ﴿ وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴾ هي العصا، والإفراد بالذكر، لإظهار شرفها، لكونها أبهرها وأشهرها.

﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ تخصيص الملأ بالذكر، مع عموم رسالة

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٤٧٤: ذكر تعالى في هذه الآية أنهم أتتهم الصيحة، وفي الأعراف الرجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظُّلَّة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النِّقم كلُّها، وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبه. وهذه من الأسرار الدقيقة، ولله الحمد والمِنَّة.

موسى عليه السلام للقوم كافة، لأصالتهم في تدبير الأمور، واتباع الغير لهم ﴿فَاتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتّبعوا أمره بالكفر بموسى، وعصوا أمر الله ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي بذي رشد، وإنما هو غيٌّ محض، وضلالٌ صريح أي وما أمر فرعون بصالح حميد العاقبة.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿يَقْدُمُ﴾ كينصُرُ بمعنى يتقدّم ﴿قَوْمَهُۥ﴾ جميعاً من الملأ وغيرهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كما كان قدوةً لهم في الضلال والإضلال، يتقدمهم إلى النار ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي يوردهم، وإيثار صيغة الماضي، للدلالة على تحقق الوقوع، شبّه فرعون بالفارط أي الوارد الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وأتباعه بالواردة، والنار بالماء الذي يردونه، ثم قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي بئس المورد الذي وردوه، فإنه يراد لتبريد الأكباد، وتسكين العطش، والنار بالضدِّ، والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإن هذه عاقبة من لم يكن في أمره رشد.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا۟﴾ أي الملأ الذين اتّبعوا أمر فرعون ﴿فِى هَـٰذِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أيضاً يلعنهم أهل الموقف قاطبة، فهي تابعة لهم حيثما ساروا ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ بئس العونُ المُعَانُ، وأصل الرفد ما يضاف إلى غيره ليمدَّه،[1]

---

(١) قال الزجّاجُ: كلُّ شيء جعلته عوناً لشيءٍ ومَدَداً له فقد رفدتَه، والمعنى: بئس العون المعان رفدهم وهو اللعنة في الدارين، وذلك أن اللعنة في الدنيا مدَدٌ للعذاب ورِفدٌ له، وقد رُفدت باللعنة في الآخرة، فكانت عوناً ومدداً. اهـ.

والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ، أي رفدهم وهو اللعنة الدائمة في الدارين ويكون الرفد بمعنى العطية، كما يكون بمعنى العون، وفسره هنا غير واحد بالعطاء، وجاء تفسيره بالعون في صحيح البخاري، وتسميةُ اللعنة عَوْناً من باب الاستعارة التهكمية، وأما كونها معاناً، فلأنها أُرفدت في الآخرة بلعنةٍ أخرىٰ.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قصَّ تعالى من أنباء الأمم، والخطاب لرسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ المهلكة بما جنته أيدي أهلها ﴿ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك عنها بطريق الوحي ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من تلك القرى ﴿ قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي عامرٌ باق كالزرع القائم، ومنها خراب دمار مندثر كالزرع المحصود، شبَّه ما بقي منها آثاره كالحيطان بلا سقوف، بالزرع القائم، وما عفا ومُحي أثره وبطل، بالحصيد الذي قُطع ودُرِس.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بأن أهلكناهم ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ فما نفعتهم، ولا قدرت أن تدفع عنهم ﴿ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي حين مجيء عذابه ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي غير إهلاك وتخسير، فإنهم إنما هلكوا بسبب عبادتهم لها، والتَّتْبِيبُ: الإهلاكُ، وفي القاموس التَّبابُ، والتتبيبُ: النقصُ والخسار.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي مثل ذلك الأخذ الأليم، والإهلاك الشديد، الذي مرَّ بيانه عقاب ربك ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي إذا أهلك أهلها وإنما أسند إليها للإشعار بسريان أثرها إليها، ولتكون عبرة لكل ظالم ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حالٌ من القرى، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا لظلمهم، وإنذار كل ظالم، ظلم نفسه أو غيره، من وخامة العاقبة ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ﴾ وجيع ﴿شَدِيدٌ﴾ لا يرجى منه الخلاص، وهو مبالغة في التهديد والتحذير، عن أبي موسى الأشعري قال: قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلتْه، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية»(1).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في أخذه تعالى للأمم المهلكة أو قصصهم ﴿لَءَايَةً﴾ أي لعبرةً وموعظة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعتبر بها العاقل لعلمه بأن ما حاق بهم، أنموذج مما أعدَّ الله للمجرمين، فإن من أنكر الآخرة، جعل تلك الوقائع لأسباب فلكية، لا لذنوب المهلكين ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القيامة وعذاب الآخرة، دلَّ عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يُجمع له الناس للحساب والجزاء، والتعبير للدلالة على ثبات الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالة، وأن الناس لا ينفكون عنه ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ مشهودٍ فيه، يشهده أهل السماوات والأرضين، لا يغيب عنه أحد، ولم يذكر المشهود تهويلاً وتعظيماً.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي اليوم الموعود بالجمع والشهود ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية، هي مدة انتهاء الدنيا.

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/٣٥٤ ومسلم رقم ٢٥٨٣ في البر والآداب والترمذي رقم ٣١٠٩ في التفسير.

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ أي حين يأتي ذلك اليوم الموعود ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ أي لا تتكلم نفس بما ينفع وينجي، من جواب أو شفاعة ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي إلاَّ بإذن الله، كقوله تعالى: ﴿لاَيَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الضمير لأهل الموقف، وإن لم يذكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ ﴿شَقِىٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ أي سبقت لهم الشقاوة وهم الكفار الفُجّار ﴿ فَفِى ٱلنَّارِ ﴾ مستقرون فيها ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ الزفير إخراج النفس، والشهيق ردُّه، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم، وتشبيه صراخهم بأصوات الحمير(١).

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ لابثين فيها ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي ماكثين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السماوات والأرضُ، والنصوصُ دالة على تأبيد دوامهم، والآية للتعبير عن التأبيد، والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه، على منهاج قول العرب ما لاح كوكب، وما اختلف الليل

---

(١) المراد تشبيه أصوات أهل النار بأصوات الحمير، فكما أن الحمير لها أصوات منكرة ﴿إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير﴾ كذلك الأشقياء لهم أصوات منكرة في جهنم، يحصل منها الزفيرُ والشهيق، الذي يشبه أصوات البغال والحمير.

والنهار، وغير ذلك، وقيل المراد سماوات الجحيم وأرضها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ استثناء من الخلود في النار، لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها، كما نطقت به الأخبار، وقيل: المعنى أنهم مستقرون في النار في جميع الأزمنة إلا زمان مشيئته تعالى لعدم قرارهم فيها، وفائدة الاستثناء دفع توهم كون الخلود أمراً واجباً عليه تعالى، كما ذهب إليه المعتزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي إن ربك يا محمد يفعل ما يريد، من تخليد البعض كالكفار، وإخراج البعض كالفُسّاق، من غير اعتراض عليه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وجاءت صيغة فعَّال للمبالغة.

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾ أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة، ماكثون فيها على الدوام، ما دامت سماوات الجنة وأرض الجنة، حسب مشيئته تعالى، وقد شاء تبارك وتعالى لهم الخلود والدوام، وأعدَّ لعباده المؤمنين الصالحين، من النعيم الروحاني، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال عقيبه ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع، فيعلم منه أن الاستثناء ليس للدلالة على الانقطاع، بل للدلالة على ترادف نعيمٍ ورضوان من الله تعالى.

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ﴾ أي هم

وآباؤهم سواء في الشرك والضلال، فهم على الباطل والتقليد الأعمى للآباء ومعنى ﴿كَمَا يَعْبُدُ﴾ كما كان يعبد، فحذف لدلالة ما قبله عليه، وفيه الإشارة إلى أن ذلك عادة مستمرة لهم ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾ يعني هؤلاء الكفرة ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ أي حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه، وفي هذا من الإشارة إلى مزيد فضل الله وكرمه ما لا يخفى، حيث لم يقطع رزقهم مع ما هم فيه من عبادة غيره، وتفسيرُ النصيب بالعذاب مروي عن ابن زيد، وبالرزق عن أبي العالية، وعن ابن عباس ما قُدِّر لهم من خيرٍ أو شرٍّ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مؤكدة من النصيب، أي وافياً كاملاً من غير زيادة ولا نقصان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ﴾ في التوراة، وكونه من عند الله، فآمن به قوم، وكفر به آخرون، كما اختلف هؤلاء في القرآن، فلا تبال باختلاف قومك فيه، واصبر على تكذيبهم كما صبر موسى على تكذيب قومه، حتى يأتي وعد الله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي كلمة القضاء بإنظارهم إلى الأجل المعلوم، على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطلون من العذاب ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي وإن كفار قومك ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع لهم في الريبة، لا يدرون أحقٌّ هو أم باطل؟.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوين عوض من المضاف، أي وإن كل المختلفين فيه، المؤمنين منهم والكافرين ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ﴾ أي أجزية أعمالهم خيراً أو شراً، ولام ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ واقعة في جواب القسم، أي والله

ليوفينهم، وفيها أنواع التأكيدات ١ ـ (إنَّ) ٢ ـ (كُلًّا) ٣ ـ (اللام) الداخلة على خبر إنَّ ٤ ـ حرف (ما) ٥ ـ (القسم المضمر) ٦ ـ (اللام) الداخلة على جواب القسم ٧ ـ (نون التأكيد) وذلك للمبالغة في وعد الطائعين، ووعيد العاصين، ثم أردفه بقوله عز وجل ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي بما يعملونه من الخير والشر ﴿خَبِيرٌ﴾ بحيث لا يخفى عليه شيء.

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ لمَّا بيَّن المختلفين في التوحيد والنبوة، أمر رسوله ﷺ بالاستقامة وهذا أمر للتأكيد، لأن النبي ﷺ كان على الاستقامة ولم يزل عليها، وهو كقولك للقائم: قم حتى آتيك، أي دم على ما أنت عليه، وهي شاملة للاستقامة في العقائد، والأعمال، ومحاسن الأخلاق، قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشدُّ من هذه الآية، ولا أشقُّ، ولهذا قال ﷺ: «شيَّبتني هودٌ وأخواتها» وفي رواية أخرى «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات»(١) ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي ومن تاب من الشرك، وآمن معك من المؤمنين الصادقين ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ أي لا تنحرفوا عما حُدَّ لكم بإفراط، أو تفريط، سمي طغياناً وهو مجاوزة الحد، تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله ﷺ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيجازيكم على ذلك، وهو تعليل للأمر والنهي، وفي الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه، من غير انحرافٍ بمجرد الرأي، وإعمال العقل الصرف، فإن ذلك طغيان وضلال.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير وحسَّنه ٥/٣٧٥ رقم ٣٢٩٧، ورواه الحاكم وصححه عن ابن عباس، ولفظُ الترمذي قال: قال أبو بكر: «يا رسول الله قد شِبْتَ!!، قال شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، ﴿وعمَّ يتساءلون﴾ و ﴿إذا الشمسُ كوِّرت﴾!!».

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ ﴾ أي ولا تميلوا أدنى ميل، فإنَّ الركونَ: الميل اليسير، كالتَّزَيِّيْ بزيّهم، وتعظيم ذكرهم، ومجالستهم من غير داعٍ شرعي، والقيام لهم ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ والمراد بهم المشركون كما رويَ عن ابن عباس ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وُجد منه اليسير من الظلم، موجباً لدخول نار السعير، فما ظنُّك بالركون إلى الظالمين، ثم بالميل إليهم كل الميل، ويبتهج بالتزيّي بزِيّهم، والمشاركة لهم في غيهم، ويمدُّ عينيه إلى ما مُتِّعوا به من زهرة الدنيا؟ وينبغي أن يُعدَّ ذلك من الذين ظلموا، لا من الراكنين إليهم، بناءً على ما روي أن رجلاً قال لسفيان: إني أخيط للظلمة فهل أعدُّ من أعوانهم؟ فقال له: بل أنت منهم، والذي يبيعك الإبرة من أعوانهم!! وما أحسن ما كتبه بعض الناصحين للزهري حين خالط السلاطين، حيث جاء في نصيحته قوله: «عافانا الله تعالى وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله تعالى، أصبحتَ شيخا كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله تعالى، فهَّمك أسرار كتابه، وعلَّمك من سنة رسوله ﷺ واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخفَّ ما احتملت، أنك آنست وحشة الظالم، وسهَّلت سبيل الغي، اتَّخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرُون عليك إلى بلائهم، وسُلَّماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك، من جنب ما خربوا عليك، فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام»[1] ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ من

(١) الإمام الزهري من كبار المحدّثين، وهو على جانب عظيم من الاستقامة والورع، وكان يدخل على الأمراء والسلاطين، فينصحهم ويعظهم ولا يهاب أحداً منهم، ومع =

أنصار يمنعون العذاب عنكم ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ من جهته سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذِّبكم بركونكم إليهم.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي المكتوبة ﴿ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ غُدْوة وعَشيَّة، والمراد بصلاة الغدوة صلاة الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر، لأن ما بعد الزوال العشي ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، الزُّلْفةُ: القربة، والمراد بها المغرب والعشاء ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ يكفِّرنها ويمنعن من اقترافها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وقيل: يمحُونَها من دفتر الأعمال، ويشهد له بعض الآثار، والمراد من الحسنات ما يعمُّ الصلاة المفروضة وغيرها من الطاعات والمراد من السيئات عند الأكثر الصغائر، لأن الكبائر لا تُكفَّر إلا بالتوبة، واستدلوا على ذلك بما رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان، مكفراتٌ لما بينهنَّ ـ أي من الصغائر ـ إذا اجتنبت الكبائر»(١) اختلف العلماء في أمر تكفير الصغائر بالعبادات، هل هو مشروط باجتناب الكبائر على قولين؟ أحدهما: نعم، وهو ظاهر قوله ﷺ، وإليه ذهب الجمهور، وقال بعضهم: لا يُشترط، والشرطُ في الحديث بمعنى الاستثناء، والتقدير مكفراتٌ لما بينهنَّ إلا الكبائر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الاستقامة ﴿فاستقم كما أمرت﴾

= ذلك فقد خاف عليه بعض أحبائه، فنصحه بتلك النصيحة الغالية، التي تفيض بالرهبة والخوف عليه من الركون إلى الأمراء والسلاطين، فكيف نقول ببعض علماء عصرنا الذين انخرطوا مع الظلمة إلى الأذقان، أجارنا الله من فتنة السلطان!!.

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٣٣ والترمذي رقم ٢١٤ في كتاب الصلاة.

﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي عظة للمتعظين، وخصَّهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها، دون غيرهم من عُمْي القلوب.

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١١٥﴾.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على مشاق ما أمرت به، وهو الصبر على طاعة الله تعالى والانتهاء عن محارمه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ عدل عن المضمر، ليكون كالبرهان على المقصود، ودليلاً على أن الصبر والصلاة إحسان، ولا يعتدُّ بهما دون الإخلاص، ومعنى الآية: يوفيهم أجرهم من غير بخس، وهو تعليل للأمر بالصبر، وفسَّر مقاتل الإحسان بالإخلاص، وعن ابن عباس المحسنون المصلُّون، وكأنه نظر إلى سياق الكلام، ومن الأسرار العجيبة في البلاغة القرآنية، أن الأوامر بأفعال الخير، أُفردت للنبي ﷺ كقوله: ﴿وأقِم الصلاة﴾ ﴿ادعُ إلى سَبيلِ رَبّكَ بالحِكمةِ﴾ وإن كانت عامة في المعنى، والمناهي جُمعت للأمة كقوله سبحانه ﴿وَلاَ تركَنُوا إلى الّذينَ ظَلمُوا﴾ وقوله ﴿وَلاَ تَطْغَوا﴾ وما أعظم شأن الرسول ﷺ عند ربه جلَّ جلاله، حيث دفع عنه ما يوهم البغي والطغيان!!.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ۝١١٦﴾.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ﴾ تحضيض فيه معنى التفجع أي فهلَّا كان ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ التي أهلكناهم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ أي ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل، وذوو فضل، يقال: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم، ومنه قولهم «في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا» ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الواقع فيما بينهم من الكفر، والمعاصي ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ استثناء منقطع، أي لكنْ قليلاً منهم أنجيناهم، لكونهم ينهون عن

الفساد ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بمباشرة الفساد وترك النهي عنه ﴿مَآ أُتۡرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي ما نُعِّموا فيه من الشهوات، وجمع الثروات، والرياسة، وسائر أسباب العيش، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصل الترف التوسع في النعمة، وقيل: ﴿أُتۡرِفُوا۟﴾ أي طغوا، من أترفتهم النعمة ﴿وَكَانُوا۟ مُجۡرِمِينَ﴾ أي مصرّين على الإجرام، وهو بيان لبيان استئصال الأمم المهلكة، وهو فشوُّ الظلم، واتباع الهوى، وترك النهي عن القبائح والمنكرات.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي ما صحَّ وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك الله القرى التي أهلكها ﴿بِظُلۡمٍ﴾ التنكيرُ للتفخيم، وللإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم، والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية، بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه، وإلا فلا ظلم فيما فعله الله بعباده كائناً ما كان، لما تقرر من قاعدة أهل السنة (يفعل ما يشاء) و (يحكم ما يريد) ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ الباءُ للسببية أي لا يهلك الله القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون، أي يتعاطون الحق فيما بينهم وذلك لفرط رحمته، ومسامحته في حقوقه تعالى، وهذه الآية وما في معناها، من قواعد علم الاجتماع البشري، وهو العلم بسُنَنِ الله عز وجل، في قوّة الأمم وضعفها، وبدأ ابن خلدون فجعله عِلْماً مدوَّناً، ولكنْ استفاد غيرُ المسلمين مما كتبه في ذلك، ووسَّعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين، الذين لم يستفيدوا من هداية القرآن العظيم، في إقامة أمر ملكهم وحضارتهم، ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية، على شدة حاجتهم إليها، بعضهم يعزّي نفسه عن ضعف أمته، ويعتذر عن تقصيرها بالقدَر، ويسليها بأن هذا من علامات السَّاعة، وارتكس بعضُهم في حمأة جهله بالإسلام، حتى ارتدُّوا سراً أو جهراً، زاعمين أن تعاليمه

هي التي أضعفتهم، والتمسوا هداية غير هدايته، ليقيموا بها دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسرانُ المبين.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي مسلمين كلهم، مجتمعين على الحق عن اختيار، بحيث لا يكاد يختلف فيه، ولكن لم يشأ ذلك ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾(١).

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ أي إلاَّ أناساً هداهم الله تعالى من فضله، فاتفقوا على أصول الدين الحق، ولم يختلفوا فيه كالمسلمين أئمة أهل الحق والهدى ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ الإشارة كما روي عن الحسن وعطاء إلى المصدر المفهوم من مختلفين، كأنه قيل: وللاختلاف خلق الناس، فحاصل المعنى: أن الله سبحانه خلق أهل الحقِّ، وجعلهم متفقين، وخلق أهل الباطل، وجعلهم مختلفين ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ نَفذ قضاؤه، وورد وعيده بأن يملأ جهنم من الجِنِّ والإنس ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي من عصاتهما والكفرة، والجِنَّةُ والجنُّ بمعنى واحد، والآية تقتضي بظاهرها دخول جميع الفريقين في جهنم، والمعلوم من الآيات والإخبار خلافه، فالمراد عصاتهما بالقرينة الشرعية والعقلية، لما عُلم من الشرع أنَّ العذاب مخصوص بهم، ولذا قيل: المرادُ من الجِنة والناس: أتباعُ إبليس، لقوله سبحانه في سورة صَ: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والقرآن الكريم يُفسِّر بعضُه بعضاً.

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَكُلًّا ﴾ أي وكل نبأ فالتنوين للتعويض عن المضاف إليه ﴿ نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك به ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي من أخبار الرسل السابقين مع أممهم ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أي ما نشدُّ به قلبك حتى يزيد يقينك، وفائدتُه التنبيهُ على المقصود من قصص المرسلين، وهو لزيادة يقينه ﷺ، وثبات نفسه على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار، بالوقوف على أحوال الأمم السالفة، في تماديهم في الضلال، وما لقي الرسلُ من جهتهم، من مكابدة المشاق، ولهذا يقال: المصيبةُ إذا عَمَّتْ خفَّتْ ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ﴾ الأنباء المقتصة عليك ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ أي الثابت المطابق للواقع، والخبر الصادق ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما هو عظة وعبرة للمؤمنين الصادقين، وخص المؤمنين بالذكر، لأنهم المنتفعون بمواعظ القرآن، وأما الكفار فكالبهائم والأنعام.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به ﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ على طريقتكم ومنهجكم في عدم الإيمان ﴿ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ على حالنا ومنهجنا، وهو الإيمان به، والاتعاظ والتذكر بآياته ومواعظه.

﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ ﴾ بنا الدوائر ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة، فالأمرُ وعيدٌ وتهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فيرجع أمرك وأمرهم إليه لا محالة ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك، وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل، تنبيه على أنه لا ينفع دونها، أي امتثل ما أُمرت به، ودم على العبادة، وتبليغ الدعوة، وتوكل عليه في ذلك، ولا تبال بالذين لا يؤمنون ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي أنت وهم، فيجازي كلاً من الفريقين بما يستحقه، من الثواب أو العقاب، والله تعالى وليُّ التوفيق لا ربَّ غيره، ولا يرجى إلاَّ خيره، ونسأله سبحانه أن ييسر لنا إتمام ما قصدناه، ويوفقنا لفهم معاني كلامه، على ما يحب ويرضاه، والحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده، وعلى آله وصحبه، وجنده وحزبه.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة هود»

* * *



مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

سورة يوسف عليه السلام وهي مائة وإحدى عشرة آية مكية. سبب نزولها على ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه على أصحابه زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو قصصتَ علينا فنزلت، وقيل: هو تسليةُ الرسول عما يفعله به قومه، بما فعلت إخوة يوسف، وقد جاء عن ابن عباس وجابر بن زيد أن يونس نزلت، ثم هود، ثم يوسف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب المعجز ﴿ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى، المبين لما فيه من الأحكام والشرائع، وخفايا الملك والملكوت.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب المنعوت بهذه الأوصاف الجليلة ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً، مؤلفاً من هذه الأحرف العربية

التي تعرفونها وتنطقون بها، واستدل جماعة منهم الشافعي وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر، بأن وصف القرآن بكونه عربياً، على أنه لا معرَّب فيه، وقالوا: من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، وقال غيرهم: كان للعرب بعض مخالطة، لأهل سائر الألسنة في أسفار لهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح، وعلى هذا الحدِّ نزل القرآن، فأصولها وإن كانت أعجمية، لكنها اختلطت بكلام العرب فصارت عربية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا معانيه، وتحيطوا بما فيه من البدائع، فتعلموا على أنه خارج عن طوق البشر.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نخبرك ونحدثك من قص أثره إذا اتبعه ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي قصصاً هي أحسن القصص، والمراد مضمون هذه السورة، ووجه أحسنيتها اشتمالها على حال حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وخصب وجدب، وفراق ووصال، وسقم وصحة، وذل وعز، وقد أفادت أن لا دافع لقضاء الله تعالى من قدره، وأن الحسد سبب الخذلان، وأن الصبر مفتاح الفرج وفيه مع بيان الواقع، إيهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من الخلل، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في التوراة مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ أي هذا القرآن المعجز، الذي من ضمنه هذه السورة ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي عن هذه القصة، لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك، وهو تعليل لكونه موحى.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ شروع في القصة، ويوسف اسم عبري هو ابن يعقوب، وجده الأعلى إبراهيم، أخرج البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكريمُ ابنُ الكريم، ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم»(١) وقد اجتمع في يوسف مع ما ذكر من النبوة، حسن الصورة، وعلم الرؤيا، ورياسة الدنيا، وحياطة الرعايا في القحط والبلاء ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ أصله يا أبي حذفت الياء فعوض عن الياء تاء التأنيث، وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ولذلك لا يجتمعان ولا يقال يا أبتي ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾ أي في المنام، من الرؤيا لا من الرؤية لقوله تعالى: ﴿لا تقصص رؤياك﴾ فالرؤيا في المنام، والرؤية بالعين، والرأيُ بالقلب ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ قيل الشمس والقمر أبواه والكواكب أخوته، وتخصيص الشمس والقمر لاختصاصهما بالشرف، وتأخيرهما لأن سجودهما أبلغ وأعلى ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ استئناف كأن سائلاً قال: كيف رأيتهم فأجاب بذلك، وإنما أجري مجرى العقلاء في الضمير، لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود، وعبرت الشمس بأبيه، والقمر بأمه، روي ذلك عن قتادة.

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ يعقوب، ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ صغَّره للشفقة لصغر سنه، لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة ولما عرف يعقوب من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٦١.

تعالى مبلغاً جليلاً، وينعم عليه بشرف الدارين، خاف عليه حسد الإخوة، فقال له صيانة ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ وحقيقتها أن الله سبحانه، يخلق في قلب النائم اعتقادات، كما يخلقها في قلب اليقظان، وقد جعل سبحانه تلك الاعتقادات، عَلَماً على أمور أخر، يخلقها في ثاني الحال، وقيل: هي أحاديث المَلَك الموكَّل بالأرواح إن كانت صادقة، ووسوسةُ الشيطانِ والنفسِ إن كانت كاذبة، ونُسب هذا إلى المحدثين، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبُّها، فإنها من الله تعالى، فليحمد الله، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله تعالى من شرِّها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره»[1] ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ الذين يخشى غوائلهم، يريد إخوته من أبيه، أما «بنيامين» الذي هو شقيق يوسف، فليس بداخل تحت هذا النهي ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ أي فيفعلوا ﴿لَكَ﴾ فيحتالوا لإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ متيناً لا تقدر على ردِّه، ولا تستطيع دفعه، وليس ذلك من الغيبة المحظورة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ أي لهذا النوع ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك، وحملهم على ما لا خير فيه، من إثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد، والذي عليه الأكثر سَلَفاً وخلفاً، أنهم لم يكونوا أنبياء أصلاً. وذكر ابن تيمية أنّ الذي يدل عليه القرآن، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ، بل ولا عن أحد من الصحابة خبرٌ بأنَّ الله نبّأهم، ولمَّا نبَّهه على أن لرؤياه شأناً عظيماً، وحذَّره مما حذَّره، شرع في تعبيرها على وجه إجمالي، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرؤيا ١٢/٣٦٩ والترمذي رقم ٣٤٤٩.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثاره في عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية لك وعلى وفقه ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يختارك لجناب كبريائه، ويصطفيك للنعمة والملك، ومراده عليه السلام إطاعة أبويه وإخوته له، لكنه لم يصرح به حذراً من إذاعته ﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ وهو يعلمك ﴿ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ تعبير الرؤيا إذ هي إخبارات غيبية يخلقها الله تعالى في قلب النائم، أو أحاديث المَلَك، إن كانت صادقة، أو النفس والشيطان إن لم تكن كذلك، أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف من تعبير الرؤيا، وإنما عرف يعقوب ذلك بطريق الفراسة ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ بأن يضم النبوة إلى الملك، ويجعله تتمة لها، وفي تعليم التأويل إشارة إلى استنبائه لأن ذلك لا يكون إلا بالوحي، وحاصل المعنى: كما أكرمك بهذه الرؤيا المبشّرة الدالة على سجود إخوتك لك، يكرمك بالنبوة والعلم، الذي تعرف به أمثال ما رأيت، وإتمام نعمته عليك ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ وهم أهله من بنيه وغيرهم، إتمام النعمة على يوسف بالنبوة وعلى آل يعقوب باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ التعبير عنهما بالأب مع كونهما من أجداده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام، وإتمامُ النعمة لإبراهيم بالنبوة، وباتخاذه خليلاً، وبإنجائه من النار وعلى إسحق بالنبوة كذلك، وبإخراج يعقوب من صلبه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يفعل ما ذُكر لأنه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء، فيعلم من يستحق الاجتباء، كما قال الله تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فاعل لكل شيء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فيفعل على سنن علمه وحكمته.

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ﴾ أي في قصتهم ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ أي علاماتٌ دالة على قدرته تعالى وحكمته ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لكل من سأل قصتهم أو للطالبين للآيات المعتبرين بها.

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أي شقيقه «بنيامين» ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ وإنما قالوا هذا حسداً منهم ليوسف، لمَّا رأوا ميل يعقوب إليه، وكثرة شفقته عليه، ولم يُثَنَّ مع أن المخبر عنه به اثنان، لأن أفعل التفضيل لا يُفرِّقُ فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكّر وما يقابله، وجيء بلام الابتداء، لتحقيق مضمون الجملة وتأكيده، أي كثرةُ حبِّه لهما، أمرٌ ثابتٌ لا شبهة فيه ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي والحال أنَّا جماعة، قادرون على الحل والعقد، أحقَّاء بالمحبة من الصغيرين، والعصبة والعِصَابةُ: العشرةُ فما زاد، سُمُّوا بذلك لأن الأمور تتعصَّب بهم أي تُشدُّ فتقوى ﴿ إِنَّ أَبَانَا ﴾ في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي خطأ في الرأي[1]، وذهاب عن طريق العدل ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر الحال واضح، وإنما أحبه عليه السلام أكثر منهم، لما رأى عليه من مخايل الخير ما لم يرَ فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا، ولا لوم على الوالد، في تفضيله بعض ولده على بعضٍ في المحبة، لمثل ذلك، وأن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر، ظنَّ أبناؤه أنَّ ما كان منه عن اجتهاد، وأنه قد أخطأ في ذلك، والمجتهد يخطيء ويصيب.

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) لم يريدوا الضلال في الدين، الذي يقابل الهدى والإيمان، إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ واضح لإيثاره يوسف وأخاه عليهم في المحبة، فتنبه والله يرعاك.

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ قال بعضهم مخاطباً للباقين: اقتلوا يوسف، ويُروى أن القائل شمعون، والباقون كانوا راضين ﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ التنكير للإبهام، أي أرضاً مجهولةً بعيدة عن العمران ﴿يَخۡلُ﴾ يخلص ﴿لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ فيقبل عليكم بكليته، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد قتله وطرحه ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ بالتوبة عما جنيتم به من الذنب.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ وإنما لم يُذكر أحدٌ منهم باسمه، ستراً على المسيء، وكلٌّ منهم لم يخل عن الإساءة، وإن تفاوتت مراتبها، أظهره في مقام الإضمار، استجلاباً لشفقتهم عليه، واستعظاماً لقتله ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ أي في قعره وغوره، وغيابة الجب: قعره ﴿يَلۡتَقِطۡهُ﴾ يأخذه ﴿بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي بعض الذين يسيرون في الأرض، قال الهروي: الغيابة في الجب شبه كهف في البئر فوق الماء، يغيب ما فيه عن العيون ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ بمشورتي لم يبتَّ القول تأليفاً لقلوبهم، وتوجيهاً لهم إلى رأيه.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ خاطبوه بذلك تذكيراً لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسف، ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه، في حفظه منهم، حين أحسَّ منهم بأمارات الحسد ﴿مَا لَكَ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ لك ﴿لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾؟ أي لا تجعلنا أمناء ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنك أبونا، ونحن بنوك، وهو أخونا ﴿وَإِنَّا

﴿لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ مريدون له الخير، ومشفقون عليه، ليس فينا ما يخلُّ بذلك، والاستفهامُ «بِمَالَكَ» فيه معنى التعجب، والكلام ظاهر في أنه تقدم منهم سؤال أن يخرج يوسف معهم، فلم يرض أبوهم بذلك.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذِّ، قال الراغب: إن الرتع حقيقةٌ في أكل البهائم، ويُستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما، وإنما قالوا ذلك، لتحقيق ما راموا من استصحاب يوسف، بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه، أكَّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد، من إيراد الجملة اسمية، وتحليتها بإنَّ واللام، وإسناد الحفظ لكلِّهم وتقديم «له» على الخبر، احتيالاً في تحصيل مقصدهم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي يحزنني ذهابكم به لشدة مفارقته عليَّ، وقلة صبري عنه، ومع ذلك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وقد لقَّنهم العلة، وكما قيل: «إن البلاء موكَّل بالمنطق»[1] ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) هذا من الأمثال العربية المشهورة، يعني أن نطق الإنسان يكون سبباً لوقوعه في المصيبة والكرب فكأن يعقوب عليه السلام لقنَّهم حجة في الكيد ليوسف.

﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أنّا جماعةٌ أقوياء أشداء، جديرة بأن تعصَّب بنا الأمور العظام ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ أي لهالكون ضعفاً، مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار، وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب من أكل الذئب، لأنه هو السبب القوي في المنع وكانوا يشوّقون يوسف لأن يذهب معهم، فرجا هو أيضاً أباه ليذهب معهم، وقد كان يعقوب يحب تطييب قلب يوسف، فاغترَّ بقولهم وأرسله معهم.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ ﴾ أي عزموا عزماً مصمماً على ﴿ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ هي بئر بين مصر ومدين فأتوا إلى البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه لما عزموا تلطيخه بالدم احتيالاً لأبيه فدلوه فيها ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي أعلمناه عند ذلك، تبشيراً له بما يؤول إليه أمره، وإزالةً لوحشته، وتسليةً له، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالإلهام ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا ﴾ أي لتتخلصنَّ مما أنت فيه من سوء الحال، ولتحدثنَّ إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بأنك يوسف لتباين حالك هذا، وحالك يومئذ، بعلو شأنك، وكبرياء سلطانك.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً ﴾ آخر النهار، من بعد صلاة المغرب إلى العشاء ﴿ يَبْكُونَ ﴾ متباكين بالكذب، يذرفون الدموع الكاذبة(١)، ولمَّا سمع بكاءهم فزع يعقوب، وقال: ما لكم يا بَنيَّ وأين يوسف؟.

---

(١) هذه دموع التماسيح، دبَّروا مكيدة لأخيهم يوسف المسكين، ثم جاؤوا في المساء يذرفون عليه الدموع، وهي دموع كاذبة، واختاروا المساء لأن الليل أخفى للويل كما =

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٖ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي متسابقين في العدو والرمي ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أي ما نتمتع من الثياب والأزواد وغيرهما مما يلزم للرعاة ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ ﴾ أي فافترسه الذئب، عقيب ذلك، فكأنهم قالوا: لم نقتصر في المحافظة عليه، بل تركناه في مأمن عند متاعنا، وما فارقناه إلاَّ ساعة يسيرة، فكان ما كان ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٖ لَّنَا ﴾ بمصدِّق لنا في هذه المقالة، الدالة على عدم تقصيرنا في أمره ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أي ولو كنا عندك وفي اعتقادك موصوفين بالصدق والثقة، لاتهامنا في يوسف لشدة محبتك إياه.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرٗاۖ فَصَبْرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ ﴾ أي جاؤوا فوق قميصه بدم ﴿ كَذِبٖۚ ﴾ أي كاذب، وُصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب. والمعنى: أتوا بدم كذب فوق قميصه، وكان ذلك الدم دم سخلة ذبحوها، ولطخوا بدمها القميص، كما روي عن ابن عباس ومجاهد، وعن قتادة أنهم أخذوا ظبيةً فذبحوها، فلطخوا بدمه القميص، ولما جاؤوا به ألقاه على وجهه وبكى، وقال: تالله ما رأيتُ كاليوم ذئباً أرحم من هذا، أكل ابني ولم يمزِّق عليه

= يقال في الأمثال، روي أن امرأةً تحاكمت إلى شريح القاضي فجاءت تبكي بدموع سخية، فقال الشعبي: أما تراها يا أبا أمية تبكي؟ فقال له شُريح: لقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً يبكون وهم ظلمة كَذَبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحقِّ، ولا يتأثر ببكاء الباكين!!.

قميصه!! فلما علم كذبهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أي زينت وسهّلت لكم ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور منكراً، لا يوصف ولا يُعرف، وأصل التسويل كما قال الراغب: هو تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن، وفي الكلام حذفٌ أي لم يأكله الذئبُ، بل سوَّلت وزيَّنتْ الخ، وعِلمُه بكذبهم حصل من سلامة القميص، وإنما حزن لما خشي عليه من المكروه، والشدائد غير الموت، وقيل إنما حزن لفراقه وفراقُ الأحبة مما لا يُطاق ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبرٌ جميل، والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي المطلوب منه العون على الصبر على هذه المصيبة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ الوصف ذكر الشيء بنعته، وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمراد به هنا الثاني، كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] بل قيل: إن الصيغة قد غلبت في ذلك، والصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى الجزع، وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر، فما لم تحصل إعانة الله تعالى، لم تحصل الغلبة، فإن قيل: لمَّا ظهر له كذبُهم، فلماذا صبر، ولم يبالغ في التفتيش؟ أجيب: إمَّا مَنَعه سبحانه عن التفتيش تشديداً للمحنة، وإمَّا عرف بالقرائن أنه لو بالغ في البحث لأقدموا على إيذائه وقتله، فلمَّا وقع في هذه البلية، رأى أن الأصوب الصبر والسكوت، وتفويض الأمر بالكلية إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَاءَتْ﴾ التعبير بالمجيء، وإيثاره على المرور والإتيان ونحوهما، إيماء كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر ﴿سَيَّارَةٌ﴾ أي

(١) سورة الصافات، آية: ١٨٠.

رفقة مسافرون يَسيرون من جهة مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الجبِّ، وكان في طريق سيرهم المعتاد، وقيل إنه كان في قفرة بعيدة من العمران، فأخطؤوا الطريق فأصابوه ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء ويستسقي لهم ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي أرسلها في الجب ليملأها، وفي الكلام حذفٌ، أي فأدلى دلوه فتعلَّق بها يوسف فخرج ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ نادى البشرى بشارةً لنفسه ورفقته، كأنه نادى البشرى وقال تعالَي فهذا أوانك، حيث فاز بنعمة عظيمة، والتنوين في غلام للتفخيم لأنه كان من أحسن الغلمان، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الناس، ليبيعوه بمصر متاعاً كالبضاعة وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يدلُّ على أن المراد أنهم أخفوه لأجل البضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد وأصحابه، لا بأخوة يوسف كما زعمه البعضُ ﴿بِضَاعَةً﴾ أي أخفوه بضاعة أي متاعاً للتجارة، والبضاعة قطعة من المال تعدُّ للتجارة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه إسرارهم، وصرَّح غير واحد أن هذا وعيد لأخوة يوسف، على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم، وجعلهم عرضة للابتلاء والابتذال، بالبيع والشراء، حين احتاجوا إلى السفر لمصر من أجل الميرة.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ الضمير المرفوع للسيَّارة، بمعنى باعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي نقص، وهو مصدر أُريد به اسم المفعول، أي منقوص، وقيل: حرام لأنه ثمن الحر ﴿دَرَٰهِمَ﴾ أي لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، وكنَّى بالعدِّ عن القلة، قيل كانت عشرين درهماً ﴿وَكَانُوا۟﴾ أي البائعون ﴿فِيهِ﴾ في بيع يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ من الراغبين عنه لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي فيه، يُقال: زَهِد في الشيء زهداً وزهادَةً تركه، وأعرض عنه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ ﴾ فهذا الشراء غير الشراء السابق الذي كان بثمن بخس، والذي اشتراه العزيز كان على خزائن مصر واسمه «قطفير» ﴿ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ ﴾ راعيل وهو المروي عن مجاهد، وقال السدي: زليخا وقيل اسمها راعيل ولقبها زليخا ﴿ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ ﴾ أي اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً، وأحسني تعهده. يُقال: ثوى بالمكان أقام فيه، والمثوى: المنزلُ، وهذا كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ أي لعله يكفينا بعض المهمات في ضياعنا وأموالنا ﴿ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾ أي نتبناه، وكان العزيز عقيماً، وتفرَّس في يوسف مخايل الرشد والنجابة، فأراد أن يقيمه مقام الولد، قال ابن مسعود: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرَّس في يوسف، فقال لامرأته أكرمي مثواه، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها «يا أبت استأجره» وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما» ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً، يقال: مكَّنه فيه أي أثبته فيه، ومكَّن له فيه أي جعل له مكاناً فيه، ويستعمل كل منهما في مقام الآخر، والمراد بالمكان هنا المكانة، والمعنى: كما جعلنا له فيها مثوى كريماً، جعلنا له مكانةً عاليةً في قلب العزيز، حتى أَمَر امرأته بالإحسان إليه، أو جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾ لا يردُّه شيء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أن الأمر كلَّه لله، وبيده لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ أي منتهى اشتداد جسمه وقوته، وهو سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا ﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعلم ﴿ وَعِلۡمٗاۚ ﴾ أي علم تأويل الأحاديث، وفسر بعضهم الحكمة بالنبوة، والعلم بالتفقه في الدين، وقيل: أراد بالحكمة الحكم بين الناس، وبالعلم العلم بوجوه المصالح، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز، أمره بأن يحكم بينهم، لما رأى من عقله وإصابته في الرأي ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فإنه تعالى إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنا في أعماله، متقناً في عنفوان أمره، قال الحسن: من أحسنَ عبادة الله سبحانه في شبابه، آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز، بعدما أمر امراته بإكرام مثواه، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾ إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجاً للقصة، ليعلم السامع من أول الأمر، أن مالقيه من الفتن والمحن، له غاية جميلة، وأنه محسن في جميع أعماله، لم يصدر منه في حالتي السراء والضراء ما يخلُّ بنزاهته، والمراودةُ: المطالبةُ برفق، من رَادَ يَرُودُ: إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد لطلب الماء والكلأ، وهي مفاعلة من واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين، الفعل، ومن الآخر سببه، فإن هذه الأفعال وقد كانت صادرة من أحد الجانبين، لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر، جعلت كأنها صادرة عنهما، لأن سبب الشيء يقوم مقامه، فكان جماله عليه السلام سبباً

لمراودتها له، ثم كونها في بيتها مما يدعو إلى ذلك، قيل لواحد: ما حَمَلك على ما أنت مما لا خير فيه؟ قال: قُربُ الوِساد، وطول السَّواد ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي طلبت من يوسف أن يواقعها، والعدولُ عن التصريح باسمها، للمحافظة على السرِّ، وللاستهجان بذكرها، وإضافة البيت إليها ﴿التي هو في بيتها﴾ لما أن العرب تضيف البيوت إلى النساء، باعتبار أنهن القائمات بمصالحه، أو الملازمات له ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ قيل: كانت سبعة، ولذلك جاء الفعلُ بصيغة التفعيل، وقيل: للمبالغة في الإيثاق ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي أقبِلْ وبادِرْ، فقد تهيأتُ لك، وقال الكسائي: تعال، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً، مما تدعيني إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى أنه منكر، يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لأنه قد شاهد بما أراه الله تعالى من البرهان النير، ما هو عليه في حدِّ ذاته من غاية القبح، ونهاية السوء ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي هو ربي، أي سيدي العزيز أحسن تعهدي، حيث أمرك بإكرامي، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز، بألطف وجه. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل للامتناع والمراد بالظالمين كل من ظلم، وقيل: الزناة، وقيل: الخائنون.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ بمخالطته، أي قصدتها عزماً جازماً، بعدما باشرت مباديها من المراودة، وتغليق الأبواب، ودعوته إلى نفسها بطريق القسر، ولعلها قصدت أفعالاً أخر، من بسط يدها إليه، وقصد المعانقة، وغير ذلك مما يضطره إلى الهرب نحو الباب ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمخالطتها، أي مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب، ميلاً جبليّاً لا يكاد يدخل

تحت التكليف، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً، لأنه بريء من ارتكاب الفاحشة، وكذلك بريء من الهمِّ المحرَّم، وإنما عبر عنه بالهمِّ، لمجرد وقوعه في صحبة همِّها، بالذكر بطريق المشاكلة، لا لشبهه به كما قيل، وقد أشير إلى تباينهما حيث لم يقترنا بلفظ واحد من التعبير، بأن قيل: ولقد همَّا بالمخالطة، أو همَّ كل واحد منهما بالآخر، وصُدِّر الأول بما يقرِّر وجوده من التوكيد القسمي ﴿وَلَقَدْ﴾ وعقَّب الثاني بما يعفو أثره، من قوله عز وجل ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي الحجة الباهرة الدالة على قبح الزنا، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، وقيل، التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، لكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ[1]، وما ذكره البعض من أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه، زالت الشهوة عنه، أو أنه حلَّ الهميان يريد فعل الفاحشة، ورووا روايات شتى، كلُّها من الأباطيل، تردُّها العقول، ويل لمن لاكها أو سمعها وصدَّقها.

وقال **الشيخ أبو منصور الماتريدي**: لو كان همُّه كهمِّها لما مدحه الله، بأنه من عباده المخلصين، ولأنه لو وجد منه أدنى ميل لذُكرت توبته، كما كان لآدم، ونوح، وذي النون، وداود عليهم السلام، فعلم بالقطع أنه ثبت في هذا المقام، وجاهد مجاهدة أولي العزم، ذاكراً دلائل التحريم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبصير، ومثل ذلك التثبت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ

(١) إلى هذا القول ذهب أبو حيان في تفسيره البحر المحيط ٥/ ٢٩٥ حيث قال ما نصُّه: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لأحد الفُسَّاق، والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ البتَّة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: «قارفتَ الذنب لولا أن عصمك الله، وكقول العرب: أنت ظالم إن فعلت هذا، وتقديره: إن فعلت هذا فأنت ظالم، كذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ» اهـ أقول: وهذا هو الحق، وقد أشبعنا البحث تحقيقاً في كتابنا «صفوة التفاسير» وفي كتابنا «قبس من نور القرآن».

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانة السيد، ومقدمات الزنا، من المسِّ بشهوة، والقُبلة ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي الزنا، لأنه مفرط في القبح، وفيه حجةٌ قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية، ولا توجَّه إليه قطُّ، وإلا لقيل: لنصرفه عن السوء والفحشاء، وإنما توجَّه إليه ذلك من خارج، فصرفه الله تعالى عنه، بما فيه من موجبات العفة والعصمة ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللاّم أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته أي اجتباه، وقرأ ابن كثير وأبو عمر بالكسر، أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، فهو منتظم في سلكهم، بقضية الجملة الاسمية، فانحسم مادة احتمال صدور الهمِّ بالسوء منه بالكلية.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ اعتراض جيء به تقريراً لنزاهته عليه السلام، والمعنى ولقد همَّت به وأبى هو، واستبقا الباب، أي تسابقا إلى الباب الخارجي الذي هو المخرج من الدار، ولذلك وُحِّد بعد الجمع، في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ لأن إغلاق الأبواب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق الجميع، أمَّا هربه منها فلا يكون إلا إلى باب واحد، فرَّ منها ليخرج، وأسرعت هي وراءه لتمنعه عن الخروج، فتعلقت بقميصه من خلفه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من ورائه فانقدَّ قميصُه، والقدُّ: الشقُّ طولاً أي انشق طولاً نصفين ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي زوجها وكانت المرأة تقول لزوجها: سيدي، ولذا لم يقل: سيِّدهما ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ وحين رأته المرأة خافت التهمة، فسبقت بالقول ﴿قَالَتْ﴾ لزوجها ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ من الزنا ونحوه، أي ليس جزاؤه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إيهاماً بأنها فرَّتْ منه، تبرئةً لساحتها عند زوجها، وإغراءه بيوسف انتقاماً منه، والمراد بـ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: الضرب بالسوط، وعن ابن عباس القيدُ، وإنما بدأت بالسجن لأن المحبَّ لا يشتهي إيلام المحبوب، إنما أرادت أن يُسجن عندها يوماً أو أقل، لا الحبس الدائم، فإنه لا يُعبَّر بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يُجعل من المسجونين، كما قال فرعون لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجونين﴾[1] وقيل: إنها جمعت فيها غرضيها: وهما تبرئة ساحتها، واستنزال يوسف عن رأيه، في استعصائه عليها بإلقاء الرعب في قلبه.

﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ يوسف ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ ﴾ أي طالبتني بالجماع لا أني أردت بها سوءاً كما زعمتْ، وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أُسند إليه من الخيانة، ودفع ما عرضته من السجن أو العذاب، ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها، وفي التعبير عنها بضمير الغَيْبة دون الخطاب، مراعاة لحسن الأدب، مع الإيماء إلى الإعراض عنها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قيل: هو ابن عمها، وقيل: كان ابن خالها، وإنما ألقى الله سبحانه الشهادة، إلى من هو من أهلها، ليكون أدلَّ على نزاهته وأنفى للتهمة عنه، وكان طفلاً في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام، وقد ورد عنه ﷺ: «تكلم أربعةٌ في المهد وهم صغار: ابنُ ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحبُ جريج، وعيسى ابن مريم»[2] ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أي من قدّام ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ في قولها أنه يريد بها

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في المسند وابن حبان، والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٧.

الفاحشة، وهي ممانعة تدافع عن نفسها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها شقت قميصه من قُدَّامه، بالدفع عن نفسها.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فشقته من خلف، وشهادة الطفل الذي أنطقه الله كافية في بيان صدقه، لأنها كانت بتأييد من الله عزَّ وجل، حيث سخَّر له هذا الطفل وهو في المهد، ليشهد بعفته وصدقه بالحجة الدامغة، وهناك دلائل أخرى كثيرة تشير على صدقه، منها أنه كان مملوكاً، والمملوك لا يتجاسر أن يتسلط على سيدته، ومنها أنهم شاهدوا يوسف يعْدُو هارباً، ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت ولبست أجمل حُليِّها، ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة، فلم يروا عليه حالةً تناسب إقدامه على مثل هذه الجريمة، وغير ذلك، فلما حصلت هذه الأمارات، الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة من المرأة، استحى الزوج وسكت، وعلم صدق يوسف، وكان بليد الحسِّ، عديم الغيرة.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ أي السيد عزيز مصر ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي ثوبه قد شُقَّ من خلف، تنبَّه وعلم حقيقة الحال ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي هذا الأمر وهو المراودة وشق الثوب من وراء ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي من احتيالكنَّ أيتها النساء ومكركنَّ، وهذا تكذيب لها وتصديق له عليه السلام، وتعميم الخطاب للتنبيه على أن الكيد خُلُقٌ لهنَّ عريق ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنه ألطفُ، وأعلق بالقلب، وأشدُّ تأثيراً في النفس، قال بعض الصالحين: إني أخاف من النساء، ما لا أخاف من الشيطان، فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ

الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ وقال عن النساء ﴿إِنَّ كَيدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ولأن الشيطان يوسوس سرقةً وخفية، وهنَّ يواجهن به الرجال علناً.

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ يُوسُفُ ﴾ أي يا يوسف، حُذف حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ أي هذا الأمر، واكتمه ولا تحدَّثْ به أحداً، فقد ظهر صدقك، ثم التفت إلى المرأة فقال لها: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ الذي صدر منك، وثبت عليك ﴿ إِنَّكِ كُنتِ ﴾ بسبب ذلك ﴿ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ من جملة القوم المتعمِّدين للذنب، يقال خطىء إذا أذنب عمداً فهو خاطىء، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، والظاهر أن قائل ذلك هو «العزيز» قيل كان رجلاً حليماً، والأصوب أنه كان قليل الغيرة، فلذلك أراد طيَّ بساط الخيانة، فاقتصر على هذا القول، لإخفاء الجريمة، وطمس معالمها.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ أي جماعة من النساء، روي عن مقاتل أنهن خَمس: امرأة الخباز، وامرأة الساقي، وامرأة البواب، وامرأة السجّان، وامرأة صاحب الدواب ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أي أشعن الأمرَ وأشهرنه في مصر، إغاظةً لها، وتشهيراً بعملها القبيح، حيث عشقت خادماً، وعبداً مملوكاً لها ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ﴾ أريد به «قطفير» لأنه كان على خزائن الملك، وإضافتهن لها إليه بهذا العنوان، دون أن يصرِّحن باسمها أو اسمه، ليظهر كونها من ذوات الجاه والسلطان، فيكون عوناً على إشاعة الخبر، بحكم أن النفوس

إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميل ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ أي تطلب مواقعته إياها، لتنال شهوتها منه، وإيثارهن صيغة المضارع، ﴿تُراوِدُ﴾ للدلالة على دوام المراودة، وتعبيرهن بفتاها - يعني عبدها - للهوان، والإشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء، قبيح منها مراودة الخدم، فكيف بمن هي سيدة في القصر، وزوجة لعزيز مصر، فمراودتها لغيره لا سيما لعبدها، وتماديها في ذلك، غاية الغيِّ ونهاية الضلال، والفتى من الناس الطريُّ من الشُّبَّان، ويطلق على المملوك والخادم، وأطلق على يوسف هنا، لأنه كان يخدمها، فهو مملوكها، وكلُّ ذلك للمبالغة في اللوم ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي شقَّ حبُّه شَغَاف قلبها وهو حجابُه فالمعنى: وصل حبُّه إلى سويداء قلبها فكاد يحترق ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي لنعلمها علماً، فالرؤية قلبية، واستعمالها بمعنى العلم حقيقة، كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ عن الرشد، وبعدٍ عن الصواب ﴿مُّبِينٖ﴾ أي واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ باغتيابهنَّ وسوء مقالتهنَّ، وتسميته مكراً لكونه خفيةً منها، كمكر الماكر، ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ تدعوهن إلى زيارتها في قصرها ﴿وَأَعۡتَدَتۡ﴾ أي هيأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق، ورتبت لهن مجلس طعام، وشراب، ومن طريقة القوم، أنهم يتكئون للطعام والشراب والحديث، كعادة المترفين ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه من اللحوم والفواكه ونحوها، وهن متكئات، وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف وهنَّ مشغولات بمعالجة السكاكين، وإعمالها فيما بأيديهن من الفواكه،

وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ أي ابرز لهن، والظاهر أنها لم تأمره بالخروج، إلا لمجرد أن يرينه فيحصل مرامها، وقيل أمرته بالخروج للخدمة ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ﴾ أي فخرج عليهن فرأينه، ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي أعظمنه، ودهشن عند رؤيته لأنهن رأين الجمال العظيم، بتلك الهيئة الملكية بنور النبوة، فتعجبن ووقعت المهابة في قلوبهن، فنسين أنفسهن ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ بما في أيديهن من السكاكين، وفي التعبير عن الجرح بالقطع، ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جراحهنَّ، ومع ذلك لم يشعرن بذلك ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله سبحانه، عن صفات العجز، وتعجباً من قدرته جل وعلا على مثل ذلك الصنع البديعُ، ﴿حَٰشَ﴾ أصله حاشا فحذف ألفه الأخير تخفيفاً، وهو اسم بمعنى التنزيه ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال والكمال غير معهود للبشر، نفين عنه البشرية لما شاهدن من جماله ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة، من خواص الملائكة، وغرضهن من هذا وصفه بأنه في أقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ﴾ الخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف، فوضع «ذلك» موضع «هذا» رفعاً لمنزلة المشار إليه، والمعنى: إن كان الأمر كما قلتنَّ، فذلكنَّ المَلَك الكريم الخارج في الحسن عن البشرية هو ﴿ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ أي عيّرتنَّني في الافتتان فيه، فهو ذلكن العبد الكنعاني، فالآن قد علمتن من هو؟ وما قولكن فينا؟ ولما أقامت عليهن الحجة وأوضحتْ لديهنَّ عذرها، كشفت لهن بقية سرِّها فقالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ حسبما قلتنَّ وسمعتنَّ ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ امتنع طالباً للعصمة، وهو يدل على الامتناع البليغ، وفيه برهان نيّر على أنه لم يصدر عنه شيء مخل باعتصامه من الهمِّ

وغيره، والاستعصام بناءُ مبالغة، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، ثم إنها بعد أن اعترفت لهن بما سمعته، وأظهرت من إعراضه عنها واستعصامه، ذكرت أنها مستمرة على ما كانت عليه فقالت ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي آمر به من مطاوعتي ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ آثرت بناء المفعول جرياً على رسم الملوك، وعبَّرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالمخففة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي الأذلاء في السجن، وإنما بالغت في ذلك، بمحضر من تلك النسوة، لمزيد غيظها لإصراره على عدم بلِّ غليلها، ولتعلم يوسف أنها ليست في أمرها على خيفة ولا خفية من أحد، لينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ مناجياً لربه عز وجل ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ الذي أوعَدَتْني بالإلقاء فيه ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي آثر وأفضل عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ من مواتاتها التي تؤدي إلى الشقاء، والعذاب الأليم، وهذا الكلام منه مبنيٌّ على ما مرَّ من انكشاف الحقائق لديه، وصيغة التفضيل ليست على بابها، إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه، وإنما هو والسجنُ شرَّان، أهونُهما السجن، وإنما أسند الدعوة إليهنَّ جميعاً، لأن النسوة رغَّبنه في مطاوعتها، وخوَّفنه من مخالفتها، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي وإن لم تدفع ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليَّ وتحسينه لديَّ، بأن تثبتني على العصمة والعفة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أملْ إلى إجابتهن، بحكم الغريزة والقوة الشهوية، وهذا فَزَعٌ منه إلى ألطاف الله سبحانه، جرياً على سنن الأنبياء والصالحين، في قصر نيل الخيرات، والنجاة من الشرور، على الله تعالى ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون، فالجهل بمعنى السفاهة ضد الحكمة، لا بمعنى عدم العلم.

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ دعاءه على أبلغ وجه، وفي إسناد الاستجابة إلى الرب جلَّ وعلا، ما لا يخفى من إظهار اللطف به ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ حسب دعائه، بأن ثبَّته على العصمة والعفَّة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم، وما انطوت عليه نياتهم.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ أي ظهر للعزيز وأصحابه ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾ وهي الشواهد الدالة على براءة يوسف من التهمة ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ لإرخاء الستر على القيل والقال، وزوجته هي التي أشارت عليه بذلك، وكان مطواعاً لها، زمامه في يدها، تقوده حيث شاءت، روي أنها لما يئست من يوسف عليه السلام، قالت للعزيز: إنَّ هذا الغلام قد فضحني في الناس، يخبرهم بأني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فأرى أن تحبسه لينقطع عن الناس ذكر هذا الحديث، فحبسه إرضاء لها ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى حين انقطاع كلام الناس، خدعت زوجها وحملته على سجنه، حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناسُ أنه المجرم، فلبث في السجن سبع سنين.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ﴾ أي اتفق أنه أُدخل حينئذ ﴿ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ من فتيان الملك، أحدهما ساقيه، والآخر خبازه، روي أن جماعةً من أهل مصر،

ضمنوا لهما مالاً ليسمَّا الملك، في طعامه وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثم إنَّ الساقي نكل عن ذلك، ومضى عليه الخباز فسمَّ الخبز، فلما حضر الطعام قال الساقي لا تأكل فإن الخبز مسموم، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشربه فشربه فلم يضره، وقال للخباز كله فأبى، فجربه بدابة فهلكت، فأمر بحبسهما، فاتفق أن أدخلا مع يوسف السجن، والظاهر أن دخولهما مصاحبين له، وأنهم سُجنوا في ساعة واحدة ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ ﴾ وهو السَّاقي ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ ﴾ أي رأيتني في المنام ﴿ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾ أي عنباً، سماه بما يؤول إليه، لأن الخمر لا تعصر ﴿ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ ﴾ وهو الخباز ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ ﴾ أي تنهش منه ﴿ نَبِّئۡنَا ﴾ أخبرنا ﴿ بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ ﴾ أي بتأويل ما ذكرنا من الرؤيا ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ ﴾ أي إنا نعتقدك ﴿ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ من الذين يجيدون تعبير الرؤيا، لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه، وفضله أو من المحسنين لأهل السجن، فقد كان إذا مرض منهم رجل قام عليه، وإذا ضاق مكانه أوسع له، وقال لأهل السجن: اصبروا تؤجروا، فقالوا له بارك الله عليك، ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك!؟.

﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ ﴾.

﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ ﴾ في مقامكما هذا حسب عادتكما ﴿ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ ﴾ أي لا يأتيكما طعام إلاَّ بيَّنتُ لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ﴾ أي قبل أن يصل إليكما، وكان يقول لهما: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيتَ، فيجدانه كذلك، وإنما لم يكتف بتأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله، لأنه أراد أن يخرج عما في عهدته من دعوة الخلق إلى الحق، فمهَّد قبل الخوض في ذلك مقدمة،

تزيدهما علماً بعظم شأنه، وثقة بأمره، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه، وأورد عليهما ما دلَّ على كونه رسولاً من عند الله، واجتهد في أن يدخلهما في الإسلام، ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والمنجمين، بل هو فضلٌ إلٓهي يؤتيه من يشاء، ممن يصطفيه للنبوة فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي ذلك التأويل والإخبار عن المغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالوحي والإلهام، ثم بين أن نيل الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه وامتناعه عن الشرك فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال، فكأنه قيل: لماذا علمك ربك؟ فقيل: لأني تركت ملة الكفرة، والمراد بتركها الامتناع عنها رأساً، لا تركها بعد ملابستها، عبَّر به عن ذلك استجلاباً لهما، لأن يتركا تلك الملّة التي هم عليها ﴿وَهُم﴾ أهل مصر ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي على الخصوص دون غيرهم من الكنعانيين الذين هم على ملة إبراهيم.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ يعني أنه إنما حاز هذه الكمالات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام، وهي الملة الحنيفة وإنما قال ذلك ترغيباً لصاحبيه بالإيمان والتوحيد، وتمهيداً للدعوة، ولذا أظهر أنه من بيت النبوة، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿لَنَآ﴾ معاشر الأنبياء ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ﴾ أيّ شيءٍ كان، من مَلَك أو جن، أو إنس، فضلاً عن الجماد، ولا أن نشرك به شيئاً من الإشراك ولو قليلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التوحيد والإيمان ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي والنبوة، وترشيحه لنا لقيادة الأمة وهدايتهم إلى الحق، وذلك مع كونه فضلاً عظيماً علينا بالذات ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافة بواسطتنا ﴿وَلَٰكِنَّ

﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يوحِّدون، عبَّر عن عدم التوحيد بعدم الشكر، لأن التوحيد شكرٌ لله عزَّ وجل على تلك النعمة، حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد، وقد أعطى سائر الناس مثلنا ولكنَّ أكثرهم لا يستعملون تلك القوى فيما خُلقت له.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن، ناداهما بعنوان الصحبة التي فيها تصفو المودة، وتخلص النصيحة، ليُقبلا عليه، ويَقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلاً، يتَّضح به الحق عندهما ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ لا ارتباط بينهم، مختلفة في الكبر والصغر، واللون والشكل لأن الناحت يجعلها على تلك الصورة ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ أم عبادة الله المعبود بالحق ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتفرد بالألوهية ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد؟.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله شيئاً ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ فارغة لا حقيقة لها في الخارج، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ جعلتموها آلهة ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمحض الجهل والضلال ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة تدل على صحتها، وكانوا يقولون: إن الله تعالى أمرنا بهذه التسمية، فرد الله عليهم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في أمر العبادة ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزَّ وجل إذ هو الواجب بالذات،

الموجد للكل، والمالك لأمره، ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ﴾ على ألسنة أنبيائه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج، وتقتضي به قضية العقل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين عقلاً ونقلاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين فيعبدون أسماءً سمَّوْها من عند أنفسهم، معرضين عما يقتضيه العقل والنقل.

وبعد تحقيق الحقِّ، ودعوتهما إليه، شرع في تعبير ما استفسراه فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقي وإنما لم يعيّنه، ثقةً بدلالة التعبير، وحذراً مما يسوؤه ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ أي سيده ﴿خَمْرًا﴾ كما كان يسقي من قبلٍ ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ أي الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ أي فيقتل ويعلّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، ولمَّا فسَّر لهما الرؤيا جحدا وقالا: ما رأينا شيئاً، قال عليه السلام ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وفُرغ منه وهو ما يؤول إليه أمركما، والمشهور إن الرؤيا تقع كما تُعبَّر، ولذا قيل: المنام على طائر إذا قُصَّ وقع.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ أوثر على صيغة المضارع مبالغة

في الدلالة على تحقيق النجاة، وهو السرُّ في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذي ظنه ناجياً ﴿مِّنْهُمَا﴾ أي من صاحبيه، وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيداً لمناط التوصية بالذكر عند الملك ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سيدك، وصفْني له بصفتي التي شاهدتها ﴿فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي أنسى ذلك الناجي بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً يذهل بها عن التذكر، ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي ذكر يوسفَ عند الملك بتقدير المضاف أي ذكر أخبار ربه ﴿فَلَبِثَ﴾ أي فمكث يوسف بسبب ذلك النسيان ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضعُ: ما بين الثلاث إلى السبع، كما روي عن مجاهد، وقال أبو عبيدة: من الواحد إلى العشرة، والمراد به هنا في أكثر الأقاويل سبع سنين، وهي مدة لبثه كلها فيما صحَّحه البعض، وعن النبي ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن ما لبث»[1] والاستعانةُ بالعباد في كشف الشدائد مما لا بأس به، فقد قال سبحانه: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ فلا يُعاتب عليه السلام في ذلك، إلا أنه اللائق بمناصب الأنبياء ترك ذلك، والذي جربته من أول عمري إلى الآن الذي بلغتُه فيه إلى السابع والخمسين أن الإنسان كلَّما عوّل في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة، وإذا عوّل على الله حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، وإذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه، ولما دنا خروج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، وهي كما قصها القرآن.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ ۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(١) أخرجه ابن حرير الطبري عن ابن عباس مرفوعاً، وذكره ابن كثير ٢/٤٩٧ وقال: هذا الحديث ضعيف جداً.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ وهو الريان وكان كافراً، ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على جواز تسمية الكافر ملكاً ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ أي رأيتُ، وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ ممتلئات لحماً وشحماً ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي أكلهنَّ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي سبع بقرات مهزولة جداً، عَجِفَ الفرسُ ضَعُف، فهو أعجف، وجمع الأعجف عجافٌ، روي أنه رأى سبع بقرات سمانٍ، خرجن من نهر يابس، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف، فابتلعت السِّمان، ولم يتبيَّن عليها منهنَّ شيءٌ ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها ﴿وَأُخَرَ﴾ أي وسبعاً أخر ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ قد أدركت ولتوت على الخضر حتى غلبتها، ولم يبق من خضرتها شيء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطاب للأشراف من أهل العلم، يروى أنه جمع السحرة والكهنة والمعبرين فقال يا أيها الملأ ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ هذه أي عبّروها أو بيِّنوا ما تؤول إليه من العاقبة ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي تعلمون علم التعبير، وهي الانتقال من الصورة المشاهدة في المنام إلى ما هي صورة لها من الأمور الآفاقية والأنفسية الواقعة في الخارج، من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي قال الملأ للملك هي ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أضغاث جمع ضغث، وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النباتات، ثم استعير للرؤيا الكاذبة، واحتلم رأى في منامه رؤيا، والرؤيا، والحُلم عبارةٌ عما يراه النائم مطلقاً، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحُلم على خلافه، وفي الحديث الشريف: «الرؤيا من الله، والحُلم من الشيطان»(١) وإنما قالوا أضغاث أحلام بالجمع مع أن الرؤيا ما كانت

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٠/٢٠٨ في الطب، ومسلم رقم ٢٢٦٢ في الرؤيا، =

إلا واحدة، للمبالغة في وصف ذلك بالبطلان، كما يقال فلان يركب الخيل ويلبس العمائم، ولا يخفى حسن موقع الأضغاث مع السنابل، فللّهِ دَرُّ شأن التنزيل، ما أبدع رياض بلاغته!! ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة وهذا اعتراف منهم بقصور علمهم، مع أن لها تأويلاً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبَيْ يوسف في السجن، وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال وأصله إذْتكر، أُبدلت التاء دالاً وأدغمت، والمعنى: تذكر ما سبق له مع يوسف عليه السلام ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي طائفة من الزمان ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي أخبركم به بالتلقي عمن عنده علمه، لا من تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها، وعقّبه بقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى من عنده علمه في السجن، والخطاب للملك والملأ، وكان السجن على ماروي عن ابن عباس في غير مدينة الملك، فأرسل إليه فأتاه فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي يا يوسف ووصفه بالصدّيقية وهي المبالغة في الصدق، حسبما شاهده وجرَّب أحواله، ولكونه بصدد اغتنام آثاره فهو

= وللحديث تتمة، وهي «فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه، فينفث حين يستيقظ ثلاث مرات، ويتعوّذ من شرّها، فإنها لا تضرُّه».

من براعة استهلال ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك، أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك، ونعم ما فعل، فإن تعبير الرؤيا يختلف باختلاف اللفظ، أي بيِّن لنا تفسير هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أي أعود إلى الملك ومن عنده فأنبئهم بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون فضلك فيطلبوك ويخلصوك من محنتك، وإنما لم يبت القول بل قال لعلي مجاراة معه عليه السلام على نهج الأدب، واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقين إما لعدم علمهم أو لعدم اعتمادهم.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على عاداتكم المستمرة، والدأب العادة المستمرة، وقد أوّل عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، فأخبرهم بأنهم يواظبون على الزراعة سبع سنين ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب، فالجملة خبرٌ لفظاً أمرٌ معنى، ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ في كل سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ كيلا يأكله السوس، فإن إبقاء الحبة في سنبلها يوجب بقاءها على الصلاح ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي اتركوا ذلك في السنبل، إلاَّ ما لا غنى عنه، من القليل الذي تأكلونه في تلك السنين، وفيه إرشاد لهم إلى التقليل في الأكل، وبعد إتمام ما أمرهم به، شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد السنين السبع المذكورات ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ الشدادُ: الصِّعابُ التي تشدُّ على الناس، أي صعاب على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ من الحبوب المتروكة في سنابلها، وفيه تنبيه على أن أمره بذلك كان لوقت الضرورة، وفيه تلويح بأنه تأويل لأكلِ العجافِ السِّمانَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون لبذور الزراعة من الحصن وهو الحرز والملجأ.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿عَامٌ﴾ لم يعبر عنه بالسنة تحاشياً عن المدلول الأصلي لها من عام القحط، وتنبيهاً من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق والعامُ كالسَّنة لكن كثيراً ما يستعمل فيما فيه الرخاء والخصب، والسَّنةُ فيما فيه الشدَّةُ والجدبُ ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الغيث أي يمطرون، غاث الله البلاد غيثاً أنزل بها المطر أو من الغوث أغاثَهم الله: كشفَ شدتهم، والأول قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي ما من شأنه أن يعصر من العنب، والقصب، والزيتون، ونحوها لكثرتها، وقيل: معنى ﴿يَعصِرُونَ﴾ يحلبون الضروع، وأحكام هذا العام المبارك غير مستنبطة من رؤيا الملك، وإنما تلقاها من جهة الوحي فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا، وأمرهم بالتدبير اللائق، إبانة لعلو كعبه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعدما جاء السفير بالتعبير، وسمع منه ما سمع واستحسنه، وعرف علمه وفضله ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ حتى أبصره ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ

﴿ٱلرَّسُولُ﴾ وقال له إن الملك يريد أن تخرج إليه، فأبى أن يخرج حتى تظهر براءته، ويُعلم أنه سُجن ظلماً ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي سيدك وهو الملك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي فاسأله أن يبحث عن شأنهن وحالهن، وإنما لم يقل: فاسأله أن يفتش عن ذلك، حثاً للملك على الجدِّ في التفتيش، لتتبين عفته وبراءته، فإن السؤال عن الشيء مما يهيج الإنسان للبحث، لأنه يأنف من الجهل، وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز، تأدباً وتكرماً، وأما النسوة فقد كان يطمع بشهادتهن عليها، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي، ولم يصرح بمراودتهن له، وقولهن «أطع مولاتك» واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ أراد بهذا أنَّ كيدهنَّ عظيم، لا يعلمه إلا الله، أو استشهد بعلم الله تعالى على أنهن كدنه، الاجتهاد في نفي التهم واجب، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنَّ مواقف التهم» فلعله خشي أن يخرج غير متَّضح براءة ساحته ممَّا سُجن فيه، حتى لا يتسلَّق الحاسدون إلى تقبيح أمره ويجعلونه سُلَّماً إلى حط قدره، طلب السؤال عن حاله، ولمَّا رجع الرسول إلى الملك بهذه الرسالة جمع النسوة وامرأة العزيز معهن.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾.

﴿قَالَ﴾ لهن ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ ما شأنكنَّ؟ والخطبُ أمر يحق أن يخاطب فيه صاحبه، وأصله الأمر العظيم الذي يحق لعظمته أن يكثر فيه التخاطب ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ وخادعتنه ﴿عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أي هل وجدتن من يوسف ميلاً إليكن شيئاً من سوء وريبة؟ ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له تعالى وتعجيب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ من ذنب بالغن في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾

أي ثبت واستقر الحقُّ وظهر وتبين بعد خفاء ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لا أنه راودني عن نفسي، قيل: أقبلت النسوة عليها يقررنها تأكيداً لنزاهته وكذا قولها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ فتأمل أيها المنصف!! هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة، حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها!! «والفضلُ ما شهدت به الأعداء» ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز فقال يوسف.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك التثبيت المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ أي العزيز ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ في حرمته كما زعمته ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بظهر الغيب أي لم أخنه وهو غائب عني، فالمقصود كمال نزاهته عليه السلام عن الخيانة واجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي وليعلم أن الله تعالى ﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أي لا ينفذه، ولا يسدده بل يبطله، فهدايةُ الكيد مجازٌ عن تنفيذه.

ثم إنه عليه السلام أراد أن يتواضع لله تعالى، ويهضم نفسه لئلا يكون مزكياً لها، وليبين أن هذا بتوفيق الله وعصمته فقال:

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أي لا أنزِّهها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها، من غير توفيق من الله تعالى، بل إنه بتوفيقه جل شأنه، قاله عليه السلام إبرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ البشرية التي من جملتها نفسي ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾ لكثيرة الأمر ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي بجنسه، مائلة إلى الشهوات مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها في

كل الأوقات والنفس الواحدة الإنسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة، فإذا مالت إلى العالم الإلٓهي، كانت نفساً مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب، كانت أمّارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ الجمهور على أن الاستثناء منقطع، أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عني السوء، ولعل الأولى أن يكون الاستثناء من النفس، أي كلُّ نفسٍ أمارةٌ بالسوء، إلاَّ التي رحمها الله عزَّ وجل، وعصمها عن ذلك كنفسي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة ومبالغ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجب ذلك، وكون تأنّيه في الخروج من السجن، لعدم رضاه بملاقاة الملك، وأمره غامض، ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته عليه السلام، وأنه سُجن بظلم، ليتلقاه الملك بما يليق به، من الإعظام والإجلال، وقد وقع.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ﴾ أي أجعله خالصاً لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ في الكلام إيجاز، أي فأتوا به، فحذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأنه لم يكن بين الأمر بإحضاره، وبين الخطاب معه زمان أصلاً، والضمير في ﴿كَلَّمَهُۥ﴾ ليوسف عليه السلام أي فلما كلَّم المِلكُ يوسفَ، وشاهد منه ما شاهد، من الدهاء وحسن منطقه، بما صدَّق الخبر، وعظيم حسن أدبه، وصبره وثباته، فلذلك رغب أن يتخذه خالصاً لنفسه ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ أي ذو مكانة، ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء في المملكة.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)﴾.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي أرض مصر، والمعنى: ولِّني على أمرها، من الإيراد والصرف ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أي مبالغ في المحافظة على

منفعة البلاد ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف فيها، وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الكافر، والجائر، وفيه أيضاً دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق، إذا جُهل أمره، وما في الصحيحين عن عبد الله ابن سمرة قال: قال ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنتَ عليها»[1] واردٌ في غير ما ذُكر، وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده، ولعلَّ إيثاره عليه السلام لتلك الولاية، إنما كان للقيام بما هو أهم من أمور السلطنة إذْ ذاك، من تدبير أمر السنين، حسبما فُصِّل في التأويل.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جعلنا له مكاناً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والتعبير بالتمكين في الأرض، مسنداً إلى ضميره تعالى، من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته، أي مكنّا له الأمور، فجلس على سرير الملك، ودانت له البلاد والعباد، وفوض الملِكُ أمره، وأقام العدل في مصر، وأحبّه الرجال والنساء ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ ينزل من قطاعها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها، ودخولها تحت مملكته وسلطانه، فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا، من الملك والغنى وغيرهما ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفيهم أجورهم عاجلاً وآجلاً، ولدفع توهُّم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ١٣/ ١٢٤ ومسلم رقم ١٦٥٢ في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة.

انحصار ثمرات الإحسان فيما ذُكر، من الأجر العاجل، قال على سبيل التأكيد:

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي أجرهم في الآخرة الذي أعدَّه الله لهم، وهو النعيم المقيم الذي لا نفاد له ﴿خَيْرٌ﴾ لهم أي للمحسنين المذكورين ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ نبَّه تعالى على أن المراد بالإحسان، هو الإيمانُ والثبات على التقوى، المستفاد من جمع صيغتي الماضي والمستقبل، وفي الآية إشارة إلى أن ما أعد الله ليوسف في الآخرة، أفضل مما أعطاه في الدنيا.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ولما اشتد القحط، وعمَّ ذلك جميع البلاد، ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، قال يعقوب عليه السلام لبنيه، بلغني أن بمصر مَلِكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا له واقصدوه، لتشتروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام، فخرجوا جميعاً غير «بنيامين» وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته وأبويه، وصدق ما أخبره الله تعالى عنه في رؤياه، وكان ابتلاء يوسف في الرؤيا، وكان سبب نجاته رؤيا الملك، أي فجاؤوا ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ وهو في مجلس ولايته، وفي زي ملوك مصر ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوة فهمه، وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ، ولكون همته معقودة بمعرفة أحوالهم، لا سيما في زمن القحط، وكان مترقباً لمجيئهم، لما يعرف من تأويل رؤياه ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي والحال أنهم منكرون له لطول عهدهم، وتباين ما بين حاليه في نفسه وزيه، ولاعتقادهم أنه هلك، وحيث كان إنكارهم مستمراً أخبر عنهم بالجملة الاسمية، بخلاف عرفانه إياهم فقد كان محققاً، ولذلك أتى بالجملة الفعلية.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أصلحهم بعدتهم من الأمتعة، وأوفر ركابهم بما جاؤوا لأجله من المؤنة والطعام، وأصل الجهاز ما يُعدُّ من الأمتعة للنقلة كعدة السفر، وما تُزفُّ به المرأة إلى زوجها ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم، كأنه لا يدري من هو؟ وإنما قاله لمَّا سألوا حملاً زائداً لبنيامين فأعطاهم ذلك، واشترط عليهم أن يأتوا به ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتمه لكم، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؟ أي والحال أني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وكان الأمر كذلك ولم يقله لهم بطريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به، والاقتصار على الكيل لأن معاملته معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم وأما الضيافة فليس للناس فيه حق فخصهم لذلك.

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ من بعدُ، فضلاً عن إيفائه ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي لا تقربوني بدخول بلادي، وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة أخرى، والظاهر أن ما فعله معهم كان بوحي، وإلا فالبرُّ يقتضي أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله سبحانه أراد تكميل أجر يعقوب عليه السلام في محنته، وهو الفعَّال لما يريد في خليقته.

﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنخادعه ونستميله برفق، ونجتهد في

ذلك، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا محالة ولا نفرط فيه ولا نتوانى.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيالين ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ والمراد بها البضاعة التي اشتروا بها الطعام، والرَّحْلُ: كل شيء يُعدُّ للرحيل من وعاء للمتاع، وجمعه رحال، كالسهم والسهام، أي اجعلوها في أوعيتهم، وإنما فعل ذلك تفضلاً عليهم، وليرجعوا لرد الأمانة، وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه، كما يؤذن به قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي يعرفون حق ردها ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ أي رجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ فإن معرفتهم لها سبب لعودتهم إلى مصر، لأنهم منزهون عن أكل الحرام، على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بأخيهم حسبما أمرتهم به.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ قالوه قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع، أي حكم بمنعه بعد اليوم، إن لم نذهب بأخينا بنيامين، حيث قال لنا الملك: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر ﴿نَكْتَلْ﴾ بسببه من الطعام ما نشاء ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يصيبه مكروه، فلما قالوا ذلك.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم في حقه أيضاً ما قلتم، ثم فعلتم ما فعلتم، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أفوّض الأمر إلى الله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ يعني حفظُ الله تعالى خير من حفظكم له ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليَّ مصيبتين، وهذا ميل منه إلى الإذن والإرسال، لما رأى من المصلحة، ولم يشاهد فيما بينهم وبينه من الحسد، وفيه أيضاً من التوكل على الله تعالى.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ﴾ أي أوعية طعامهم ﴿وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي كانوا أعطوها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ تفضلاً وقد علموا ذلك من دلالة الحال ﴿قَالُوا۟﴾ لأبيهم ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾؟ أي ماذا نبتغي ونطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا؟ الداعي إلى امتثال أمره؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي هذه بضاعتنا ردَّها إلينا، بعدما منَّ علينا من المنن العظام، ولو كان رجلاً من آل يعقوب لما أكرمنا إكرامه، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب الميرة والطعام من عند الملك لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ حسبما وعدناك ﴿وَنَزْدَادُ﴾ أي بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي وسق بعير زائداً على ما أعطيناه سابقاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما يحمل أباعرنا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيلٌ قليلٌ، إشارة إلى ما كيل لهم أولاً، فكأنهم قالوا إن ما جئنا به غير كافٍ بنا، فلا بدَّ من الرجوع مرة أخرى، ولا يكون ذلك إلا باستصحاب أخينا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ ﴾ بعدما عاينت منكم ما عاينت، ممَّا أجرى المدامع ﴿ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي عهداً موثوقاً من الله تعالى، أراد به أن يحلفوا بالله ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا به ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أي عهدهم من الله تعالى حسبما أراد يعقوب ﴿ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ ﴾ من طلب المواثقة ﴿ وَكِيلٌ ﴾ مطَّلعٌ ورقيبٌ على ما نقول، يريد به حثهم على مراعاة ميثاقهم، وتحذيرهم من الغدر، بمعنى أنه موكول إليه تعالى، فإن وفيتم جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات.

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ﴾ ناصحاً لهم لمَّا عزم على إرسالهم جميعاً ﴿ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ ﴾ مصر ﴿ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ ﴾ نهاهم عن ذلك، حَذَراً من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة عند الملك، فكانوا مظنة لأن يصابوا بالعين إذا دخلوا كوكبةً واحدة، وحيث كانوا مجهولين بين الناس، لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ بيان لما هو المراد بالنهي، وإنما لم يكتف بهذا الأمر، إظهاراً لكمال العناية به، وإصابة العين حقٌّ، أثبتها أهل السنة، وهي إنما تكون بتقدير العزيز الحكيم، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن العين حقٌّ...»[1] يعني إصابة النفس بواسطتها، أمر كائن

(١) أخرجه البخاري ١٠/ ٢٠٣ بلفظ «العينُ حقٌّ، ونهى عن الوشم»، ومسلم رقم ٢١٨٧.

لا شبهة في تحققه، وهو كسائر الآثار المشاهدة، نحو النار، والماء، والأدوية، لأن مدار كل شيء المشيئة الإلٓهية، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وحكمةُ خلق الله التأثير في العين مجهولٌ لنا، فقد صرحوا بأن الأدعية والرُّقى من جملة الأسباب، لدفع أذى العين، وقد كان ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين بقوله: «أعيذكما بكلماتِ الله التامَّة، من كل شيطان وهَامَّة، ومن كلِّ عينٍ لامَّة»[1] ومن الدعاء: «ما شاء الله، لا قوة إلاَّ بالله، حصَّنتُ نفسي بالحيِّ القيوم، الذي لا يموتُ أبداً، ودفعتُ عنها السُّوءَ بألف ألفِ لا حول ولا قوة إلا بالله» وليس من شرط التأثير أن يكون بالكيفيات المحسوسة، بل قد يكون التأثير نفسانياً، والذي يدل عليه، أن اللوح الذي يكون قليل العرض، إذا كان موضوعاً على الأرض، قَدَر الإنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً بين جدارين عاليين، لعجز عن المشي عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط، يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة، ولا يمتنع كون هذا التأثير مؤثراً في سائر الأبدان، وأيضاً إن الإنسان إذا تصور أن فلاناً مؤذٍ له، حصل في قلبه غضب فمبدأ ذلك ليس إلا التصور النفساني ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم﴾ أي لا أنفعكم، ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي شيئاً مما قضى عليكم، فإن الحذَر لا يمنع القدر، ولم يرد به إلغاء الحذر، كيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ بل أراد أنَّ ما وصَّاهم به تدبير في الجملة، وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو امتثال بأمره، واستعانة به، وهربٌ منه إليه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي ما الحكم مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في كل ما آتي وأذر، وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٤٠٨.

مخلّ بالتوكل ﴿ وَعَلَيْهِ ﴾ دون غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد، ودخلوا متفرقين ﴿ مَّا كَانَ ﴾ ذلك الدخول ﴿ يُغْنِى عَنْهُم ﴾ أي ينفعهم أو يدفع عنهم ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ من جهته تعالى ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً قضاه تعالى عليهم، أي ولمَّا فعلوا ما وصَّاهم به، لم ينفعهم ذلك شيئاً، ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ كائنةً ﴿ فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ أي أظهرها ووصاهم بها، فالمعنى: ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً، ولكن قضاء حاجة حاصلةٍ في نفس يعقوب، وهي خوف إصابة العين ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿ لَذُو عِلْمٍ ﴾ جليل ﴿ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ بالوحي والنبوّة حيث لم يعتقد أن الحَذَر يمنع القدر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذر.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ بنيامين أي ضمَّه إليه في الطعام والسكن روي أنهم لمَّا دخلوا عليه قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم، فأكرمهم ثم أضافهم، وأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيداً، ثم أنزل كل اثنين بيتاً، فقال: هذا لا ثاني له، فيكون معي، فلما خلا به قال له يوسف: فهل لك من أخ لأمك؟ قال: كان لي

أخ فهلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاً بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكنْ لم يلدك يعقوبُ ولا راحيل؟ فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير، ولا تُعلمهم بما أعلمتك.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ووفى لهم الكيل، وهيأ لهم أسباب السفر ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ المشربة التي كان الملك يشرب فيها، قيل من ذهب وقيل من فضة مرصعة بالجواهر وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال به الحبوب والأولى أن يقال كان شيئاً له قيمة ﴿فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، والظاهر أنه لم يباشر بنفسه، بل أمر أحداً فجعلها ﴿في رحل أخيه﴾ بنيامين من حيث يشعر أو لا يشعر، وأمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ العِيرُ بالكسر: الإبلُ تحمل الميرة، ثم غلب على كل قافلة لأنها تذهب وتجيء، والمراد أصحابها ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف عليه السلام فلعله أريد بالسرقة أخذهم له عن أبيه على وجه الخيانة، وإلا فهو من قبل المؤذن بناءً على زعمه، والذي يظهر أن هذا التحايل ورمي البراء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام بوحي من الله تعالى، لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾.

﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي الإخوة ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾ أي على طالبي السقاية المفهوم من الكلام، أي قالوا مقبلين عليهم ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ أيْ أيّ شيءٍ ضاع

عنكم؟ والعدول عن قولهم ماذا سرق منكم؟ فيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب، فلذا غيّروا كلامهم، حيث تلطفوا بعد ذلك.

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي في جوابهم ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ الصُّواعُ: المكيالُ وهو السقاية، ولم يقولوا: سرقتموه، أو سُرِق امتثالاً للأدب، أي قالوا: ضاع منا مكيال الملك المرصَّع بالجواهر ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه إلى من ردَّه، وفيه دليل على جواز الجُعالة وضمان الجُعْلِ.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ قسم وفيه تعجيب، كأنهم تعجبوا من رميهم بما ذكر، مع ما شاهدوه من حالهم واشتهارهم بالعفة والصلاح، ولذا قالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ علماً جازماً مطابقاً للواقع ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لنسرق فإن السرقة من أعظم أنواع الإفساد ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي وما كنا نوصف قط بالسرقة.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي أصحاب يوسف ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي فما جزاء سرقته في شريعتكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي في ادعاء البراءة.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي الإخوة ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ أي أخذ من وُجد الصواع ﴿فِى رَحْلِهِۦ﴾ بأن يسترقَّ ويصبح مملوكاً ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقرير لذلك الحكم، أي فأخذه جزاؤه، كقولك حق الضيف أن يكرم، فهو حقه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة، تأكيد للحكم المذكور وبيان لقبح السرقة، ولقد قالوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها، وهم عما فُعل بهم غافلون.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف، قيل إن أخوة يوسف لما أقروا أنَّ جزاء السارق أن يستعبد سنة، قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم، فردوهم إلى يوسف، فأمر بتفتيشها بين يديه، فبدأ ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ بتفتيش أوعية الإخوة العشرة ﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لنفي التهمة، روي أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء أخيه قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لم يقل منه، قصداً إلى زيادة الكشف والبيان، والوِعاءُ: الظرفُ الذي يُحفظ فيه الشيء، وكأن المراد به هنا ما يشمل الرَّحْل وغيره، لأنه الأنسب بمقام التفتيش ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب، ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي صنعنا له لأجل غرضه، فالكيد مستعار للحيلة، وهو من الخلق الحيلةُ ومن الله تعالى التدبيرُ بالحق ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي في حكمه، لأن جزاء السارق في قضائه، إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ، دون الاسترقاق سنة، فلم يكن يتمكن من أخذ أخيه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا حال مشيئته تعالى وإرادته لذلك الكيد، لأنه كان إلهاماً من الله ليوسف،

حتى جرى الأمر على وفق المراد ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ رفعه أي رتباً كثيرة عالية، من العلم والحكمة، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: فوق كل عالم عالمٌ، إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يريدون به يوسف، قالوه كذباً وبهتاناً على يوسف، كما اتهموا أخاه بنيامين، وغرضهم أن عادة هؤلاء السرقة، فعيروه بها عند الغضب ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي أضمر الحزازة التي حصلت له مما قالوا ﴿فِى نَفْسِهِۦ﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ لا قولاً ولا فعلاً، صفحاً عنهم وحلماً ﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلة حيث سرقتم أخاكم، وألقيتموه في الجب، وكذبتم على أبيكم بأنه أكله الذئب ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب، بأن الأمر ليس كما تصفون، من صدور السرقة منا، إنما هو افتراء علينا، لم يواجههم بهذا الكلام إنما قاله في نفسه.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي إن أباه كبير في السن، لا يكاد يستطيع فراقه، يتعلل به عن شقيقه الهالك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ فلسنا عنده بمنزلته، من المحبة والشفقة ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا

فأتمم إحسانك، فقد عوّدتنا الجميل والإحسان، يقولون له ذلك استعطافاً واسترحاماً.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي أن نأخذ أحداً بجرم غيره، وأخذنا له إنما هو بقضية فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجبها وقوله: ﴿مَنْ وَجَدْنا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ دون من سرق، لتحقيق الحق، والاحتراز عن الكذب في الكلام، والمتاعُ: اسم لما ينتفع به، وأُريد به الصُّواعُ، وما ألطف استعماله مع الأخذ المراد به الاسترقاق!! ﴿إِنَّآ إِذًا﴾أي إذا أخذنا غيره ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ يئسوا من يوسف وإجابته إيّاهم، وزيادة السين والتاء للمبالغة، أي يئسوا يأساً كاملاً، واستيقنوا أن الأخ لا يُردُّ إليهم، لما شاهدوه من عوذه بالله، ومن تسميته ظلماً ﴿خَلَصُوا۟﴾ انفردوا عن غيرهم ﴿نَجِيًّا﴾ أي متناجين متشاورين في ما يقولون لأبيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو «روبيل» ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ كأنهم أجمعوا على التناجي فقال منكراً عليهم ألم تعلموا ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عهداً وثيقاً، وهو حلفهم بالله تعالى ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي ما قدمتموه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم، وقد قلتم: إنا له

لحافظون ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ بالانصراف إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بنيامين ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ إذ لا يحكم إلاَّ بالحق، والمراد من هذا الكلام، الالتجاء إلى الله تعالى.

﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ على ما شاهدنا من ظاهر الأمر ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ ﴾ عليه ﴿ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ من سرقته وتيقناه، حيث استخرج صواع الملك من رحله ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق.

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلِ ﴾ أهل ﴿ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ يعنون مصر، والمعنى: وأرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وأصحاب العير التي كنا معهم، فإن القصة معروفة فيما بينهم، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ يعقوب عليه السلام عندما رجعوا إليه، فقالوا له ما قالوا ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي سهّلت وزينت، وهو إضراب عما يتضمنه كلامهم من ادعاء البراءة عن التسبب، كأنه قيل: لم يكن الأمر كذلك، بل

زينت لكم أنفسكم أمراً من الأمور، ومكيدة نفذتموها على أخيكم ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ فأمري صبر جميل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ بيوسف وأخيه الذي توقف بمصر، وإنما قال هذا، لأنه لمَّا طال حزنه، واشتد بلاؤه، علم أن الله سيجعل له فرجاً عن قريب، لأنه إذا اشتد البلاء وعظم، كان أسرع إلى الفرج ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي العالم بحالي، الحكيم في تدبيره وتصريفه.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض ﴿عَنۡهُمۡ﴾ كراهة لما جاؤوا به ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الأسف: أشدُّ الحزن، أضافه إلى نفسه، والمعنى: يا أسفي تعالَ فهذا أوانك، وإنما تأسف على يوسف، مع أن الحادث مصيبة أخيه، لأن مصيبته قاعدة المصيبات وكان آخذاً بمجامع قلبه، ولأن الحزن الجديد، يقوي الحزن القديم، وفي «أسفاً» و«يوسف» تجنيس نفيس من غير تكلف، وهو مما يزيد الكلام الجليل بهجة وحسناً ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ أي بسببه، والبكاء سبب لابيضاض عينيه، فإن العَبْرة إذا كثرت محقت سواد العين، وقلبته إلى بياض وكدر، قيل إنه قد عمي بصره، وقيل: بل عَشِيَ فهو يدرك إدراكاً ضعيفاً، واستدل بالآية على جواز التأسف، والبكاء عند النوائب، ولعل الكف عن أمثال ذلك، لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد، وقد روى الشيخان «أنه ﷺ بكى على ولده إبراهيم»[1]، وأما المنهي عنه فهو ما يفعله الجهلة من النياحة، ولطم

(١) أشار إلى ما رواه البخاري ٣/١٩٣ ومسلم رقم ٢٣١٥ عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ ابنه إبراهيم، فقبَّله وشمَّه، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وقال: «إن العينَ تدمع، والقلبَ يخشع، ولا نقول إلاَّ ما يُرضي ربَّنا، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

الخدود، والصدور، وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه، لا يظهره، فعيل بمعنى مفعول.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي الجماعة من أهله ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجعاً عليه، فحذف حرف النفي، لأن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفي، وعلامة الإثبات هي اللامُ، ونونُ التأكيد، ولو كان المقصود ههنا الإثبات لقيل لتفتأن ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي مريضاً مشفياً على الهلاك، حَرِض من باب تعب أشرف على الهلاك، فهو حَرِضٌ ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ من الميتين، أرادوا بذلك منعه عن كثرة الأسف والحزن.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ﴾البثُّ أصعبُ الهمِّ الذي لا يصبر صاحبُه عليه، فيبثه إلى الناس، أي ينشره، والحزن إذا ستره الإنسان كان همّاً، وإذا ذكره لغيره كان بثّاً، فكأنهم قالوا ذلك بطريق التسلية فقال لهم: إني لا أشكو ما بي إليكم حتى تتصدَّوا لتسليتي وإنما أشكو همي وحزني ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ملتجئاً إلى الله، متضرعاً لدى بابه في دفعه ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من لطفه ورحمته، فأرجو أن يرحمني ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من رؤيا يوسف أنه لا يموت، حتى يخرَّ له أخوته سجداً، تحقيقاً للرؤيا.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ أي تعرَّفوا وهو من الحسِّ، أي تعرَّفوا من خبرهما بحواسكم، وقيل التحسُّسُ طلب الخير، وبالجيم يكون في الشر، ومنه الجاسوس، أي تطلبوا ﴿ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي من خبرهما و أمرهما ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تقنطوا من فَرَجه وتنفيسه، والرَّوْحُ بالفتح: ما يجده الإنسان من نسيم الهوى، يقال: أراح الإنسان إذا تنفس، ثم استعير للفَرَج، وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أُبهم في قوله ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ بالله وصفاته، فإن المؤمن العارف لا يقنط من رحمته تعالى أبداً، واستدل البعض بالآية، على أن اليأس من رحمة الله كفر، وجمهور الفقهاء على أن اليأس كبيرة، ومفاد الآية أنه من صفات الكفار، لا أن من ارتكبه كان كافراً.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ أي على يوسف بعدما رجعوا إلى مصر، بموجب أمر أبيهم، وأنكر اليهود رجوعهم، وهو الذي تضمنته توراتهم اليوم، ولا يوثق بها لأنها محرَّفة على وجه اليقين ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ﴾ خاطبوه بذلك تعظيماً له ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ أي الهزال من شدة الجوع، قالوا ذلك: استرحاماً واستعطافاً ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها، وكني بها عن الرديء فقد كانت بضاعتهم من متاع الأعراب، صوفاً وشَعَراً ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ فأتمم لنا الكيل ولا تنقصه لقلة بضاعتنا أو رداءتها ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ بالإيفاء وقبول البضاعة الرديئة، وإنما قالوا تصدَّقْ تواضعاً، وكأنهم أرادوا تفضل علينا بذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي يُثيب المحسنين المتصدقين أحسن الجزاء والثواب. روي أنهم لما قالوا ﴿مَسَّنا وأَهْلنا الضُرُّ﴾ وتضرعوا إليه وطلبوا التصدق، أعطوه كتاب يعقوب

عليه السلام، وقد كتب فيه «من يعقوب بن إسحق بن إبراهيم إلى عزيز مصر، أما بعد: فإنَّا أهل بيت، موكَّل بنا البلاء أمَّا جدي إبراهيم فإنه ابتلي بالنار فصبر، وجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي إسحق فابتلي بالذبح فصبر، ففداه الله بذبح عظيم، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبَّ الأولاد إليَّ فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، وكنت أتسلى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك، وزعمت أنه سارق، وإنَّا أهل بيتٍ لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليَّ، وإلا دعوت عليك والسلام». فلما قرأه فاضت عيناه، فقال لهم:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه، منها إفراده عن يوسف وإذلاله، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة وغير ذلك وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لإشراكهما في وقوع الفعل عليهما أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ فهل تبتم عن ذلك؟ ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتموه زمان جهلكم؟ وإنما قال ذلك، نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم، لما رأى من عجزهم وتمسكنهم ما رأى، وهو من أرق القلب، فكشف أمره.

﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ ﴾؟ استفهام تقرير، ولذلك حُقِّق بإنَّ ودخول اللام عليه، قالوه استغراباً وتعجباً ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ جواباً عن مسألتهم وزاد عليه ﴿ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ ﴾ من أبي وأمي ذكره تعريفاً لنفسه به،

وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالسلامة والكرامة، وبالألفة بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أيّ يفعل التقوى في جميع أحواله، ويقِ نفسه عما يوجب سخط الله وعذابه ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البلايا والمحن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي أجرهم، وإنما وضع المظهر تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضلك علينا بحسن الصورة، وكمال السيرة، وبالعلم والحلم، والصبر والتقوى، وسائر الفضائل ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ المتعمِّدين للذنب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك إن الله تعالى أعزك وأذلنا بالتمسكن بين يديك، والخاطىء من خطىء إذا تعمَّد فعل الذنب، وفي قولهم هذا الاعتراف بما صدر منهم في حقه مع الإشعار بالتوبة، ولذلك أظهر جوابه بالصفح المغفرة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي لا تأنيب ولا لوم ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا تثريب عليكم اليوم ولا عتاب، بل أصفح عنكم وأعفو ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دعا لهم بالمغفرة ممَّا فرط منهم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب بالقبول.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا﴾ القميص الذي كان عليه ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يأتي إليَّ وهو بصيرٌ ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي بأبي وأقربائه من النساء والذراري، وفيه دلالة على أنه عليه السلام قد ذهب بصره، وعلم يوسف ذلك بإعلامهم، أو بالوحي، قال الكلبي: كان أولئك الأهل نحواً من سبعين إنساناً، وقد نموا في مصر، فخرج منها مع موسى عليه السلام ستمائة ألف وخمسمائة وسبعون على ما قيل.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ من مصر، وخرجت من عمرانها منطلقة إلى بلد يعقوب، يقال: فصل من البلد إذا انفصل منه، وكان بينهما مسيرة ثمانية أيام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي لأشمُّ رائحة يوسف[1] ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تنسبوني إلى الفَنَد، وهو الخَرَفُ ونقصانُ العقل من الهرم، وجواب «لو» محذوفٌ تقديرُه: لصدَّقتموني.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥)﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي قال من كان بحضرته من ذوي قرابته ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي لفي ذهابك عن الصواب، في إفراط محبتك ليوسف، ورجائك للقائه، قال قتادة: لقد قالوا كلمةً غليظة، لا ينبغي أن يقولها مثلهم لمثله عليه السلام، وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

---

(١) قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمانية أيام. اهـ. تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٩.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ قال مجاهد هو «يهوذا» قال لإخوته: قد علمتم أني ذهبت إلى أبي بقميص الدم، فأنا أفرحه كما أحزنته فتركوه، وجاء البشير من بين يدي العير ﴿ أَلْقَىٰهُ ﴾ أي ألقى البشير القميص ﴿ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ أي وجه يعقوب فأخذه فشمه، ثم وضعه على بصره ﴿ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ عاد بصيراً بعد أن عمي، ورجعت إليه قوته وسروره بعد الحزن والضعف ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمن كان عنده، ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين، أي ألم أقل لكم لا تيأسوا من رحمة الله، وهو الأنسب بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؟ من حياة يوسف وإنزال الفرج.

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ طلبوا منه الاستغفار، ونادوه بعنوان الأبوّة، تحريكاً للعطف والشفقة، وعلّلوا ذلك بقولهم ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ أي اسأل لنا المغفرة على ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك، إنَّا تبنا واعترفنا بذنوبنا، ومن حقِّ من اعترف بذنبه أن يصفح عنه!!.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ روي عن ابن عباس أنه أخر الاستغفار لهم إلى السحر، لأن الدعاء فيه مستجاب، وروي عنه أيضاً إلى سحر ليلة الجمعة. رواه الترمذي وحسّنه[1].

---

(١) وروى الحافظ ابن كثير ٢/٥٠٨ أن عمر بن الخطاب كان يأتي المسجد، فيسمع إنساناً يقول: «اللهمَّ دعوتني فأجبتُ، وأمرتني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفر لي» فاستمع الصَّوْتَ =

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ روي أن يوسف عليه السلام جهّز إلى أبيه جهازاً، ومائتي راحلة، ليتجهز إليه بمن معه، فرحل يعقوب عليه السلام بأهله، وساروا حتى أتوا معالم مصر، وخرج يوسف بأربعة آلاف من الجند، ومن العظماء لاستقباله، فتلقوه، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال يا يهوذا: أهذا فرعون مصر؟ قال: لا يا أبتِ، ولكنْ هذا ابنك يوسف، خرج بأشراف مصر يتلقاك، فلما لقيه نزلا وتعانقا، وبكيا سروراً ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي ضمهما إليه حين استقبلوهم، وكان قد أنزلهم في مضرب خيمة، فدخلوا عليه وضمهما إليه، والمراد بهما أبوه وخالته «ليّا» والخالة تنزل منزلة الأم لشفقتها، كما ينزل العم منزلة الأب ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ ﴾ وكأنه عليه السلام ضرب في الملتقى خارج البلد مضرباً، فنزلوا فيه فدخلوا عليه، فآواهما إليه، ثم طلب منهم الدخول في البلدة، فهنا دخولان: أحدهما خارج البلدة، والثانية في البلدة ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ من القحط، والشدائد، والمكاره قاطبة.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ على السرير تكرمة

= فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبدَ اللهِ عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخّر بنيه إلى السَّحر في قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾.

لهما، فوق ما فعله لإخوته، وهو السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، والرفع النقل إلى العلو ﴿وَخَرُّوا لَهُ﴾ أي أبواه وأخوته ﴿سُجَّدًا﴾ أي على الجباه كما هو الظاهر، لأن السجود يكون بعد الخرور، وكان جائزاً عندهم، وهو جارٍ مجرى التحية عندنا، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد من عادات الناس ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿مِن قَبْلُ﴾ في زمن الصبا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ صدقلً واقعاً بعينه، كما رأيتها في النوم ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ أي أنعم عليَّ، والأصل أن يتعدى الإحسان بإلى أو اللام، وقيل الباء بمعنى إلى، وقيل هذا بتضمين لَطَفَ وهو تضمينٌ للإحسان الخفي ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ بعدما ابتليت به، ولم يصرح بقصة الجب حذراً من خجل إخوته ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ لأنهم كانوا أصحاب الماشية، وأهل البدو، أي البادية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أفسد بيننا بالإغواء، وقد بالغ عليه السلام في الإحسان، حيث أسند ذلك إلى الشيطان ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي لطيف التدبير حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وما من صعبٍ إلاّ وهو بالنسبة إلى تدبيره سهل، اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور، المدبر لها فإذا أراد شيئاً سهَّل أسبابه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته على وجه يقتضي الحكمة. روي أن يعقوب قال ليوسف: يا بنيَّ ما أعقكَ؟ عندك هذه القراطيسُ وما كتبت حالك إليَّ؟ قال: أمرني بذلك جبريل قال: أو تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني، فسأله فقال جبريل: الله تعالى أمرني بذلك، لقولك: ﴿وأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فهلاّ خفتني!! وهذا عذر واضح ليوسف في عدم إعلامه به، لكنْ يبقى سؤالٌ بأن يعقوب عليه السلام، كان من أكابر الأنبياء نفساً، وأباً، وجداً، وكان مشهوراً في البلدان، ثم وقعت له واقعة هائلة في أعزِّ أولاده، ويوسف ليس بمكان بعيد، فكيف غُمَّ أمره، ولم يصل إلى أبيه خبرُه؟ وأجيب عن ذلك بأنه ليس إلاّ من باب خرق العادة، واختلف في مقدار المدة بين الرؤيا، وظهور تأويلها، فقيل سبعون سنة، وعن سلمان الفارسي

أنها أربعون سنة، وهو قول الأكثرين، والله أعلم بحقائق الأمور، وروي أن يعقوب أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، في أهنأ عيشٍ، وأحسن حالٍ، فلما حضرته الوفاة أوصى يوسف بدفنه بالشام، إلى جنب أبيه إسحق، فمضى يوسف عليه السلام بنفسه ودفنه ثمَّة ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، ولما تم أمره، وعلم أنه لا يدوم إلا الحيُّ القيوم، تاقت نفسه إلى المُلْكِ الدائم، فتمنى الموت، فقال ما حكاه عنه القرآن:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي بعضاً منه وهو ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾ أي بعضاً من ذلك، لأنه لم يؤت كل التأويل ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ابتداءً على غير مثال سابق ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي ﴾ أي اقبضني ﴿ مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين من عبادك المؤمنين وتمني الموت حباً للقاء الله تعالى، مما لا بأس به، فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحبَّ لقاءَ الله تعالى أحبَّ اللهُ لقاءَه..»[1] الحديث. نعم تمني الموت عند نزول البلاء منهيٌّ عنه، ففي الحديث الشريف: «لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نَزَل به»[2] وقيل: إن يوسف لم يأت عليه أسبوع، حتى توفاه الله تعالى.

---

(١) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري ٣٠٨/١١ ومسلم رقم ٢٦٨٣ وتتمة الحديث «ومن كره لقاءَ الله، كره اللهُ لقاءه»، فقالت عائشة يا رسول الله: كلُّنا يكره الموت! فقال ﷺ: ليس كذلكِ ـ أي ليس الأمرُ كما فهمتِ ـ ولكنَّ المؤمن إذا حضره الموتُ، بُشّر برضوان الله وكرامته، فأحبَّ لقاء الله فأحبَّ الله لقاءه..» الخ.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ١٠٧/١٠ ومسلم رقم ٢٦٨٠ وتتمته «فإن كان لا بدَّ فاعلاً فليقل: اللهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف والخطاب فيه للرسول ﷺ ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ من أخبار الغيب الذي لا يحوم حوله شك ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي أوحيناه إليك يا محمد ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي لدى بني يعقوب ﴿ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ ﴾ وهو إلقاؤه في غيابة الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ويبغون له الغوائل، والمعنى: إن هذا النبأ غيب، لم تعرفه إلاَّ بالوحي، لأنك لم تحضر إخوة يوسف، حين عزموا على ما همُّوا به، من أن يجعلوه في غيابة الجب، ومن المعلوم أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه، وإنما حذف لعلمه من آية أخرى كقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ ومكرهم وما دبّروه لا يمكن معرفته إلا بطريق الوحي، وأياً ما كان ففي الآية إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق، وهذه القصة وردت على أحسن ترتيب، وأبين بيان، وأفصح عبارة، فعُلِم بذلك أنه وحيٌ، إلَهيٌ فهو معجزة له ﷺ قائمة إلى آخر الدهر.

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ﴾ يراد به أهل مكة ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة، الدالة على صدقك ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لإصرارهم على العناد، روي أن اليهود وقريشاً سألوا عن قصة يوسف، ووعدوه أن يُسلموا، فلما أخبرهم بها ولم يسلموا، حزن النبي ﷺ لذلك، فنزلت السورةُ تسلية له ﷺ.

﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغ الوحي والقرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ كما

يفعله حملة الأخبار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ كافة، والجملة كالتعليل لما قبلها، فالمعنى: إنَّ هذا القرآن يشتملُ على المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم في مقابلته مالاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا وانتفعوا من فوائده، لكنهم لا يعقلون.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ كأين اسم ككم الخبرية، والمعنى: وكم من الدلائل الدالة على وجود الصانع، وعلمه وحكمته، وكمال قدرته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كائنة فيهما من الأجرام الفلكية، وما فيها من النجوم، وتغيير أحوالها، ومن الجبال والبحار، وسائر ما في الأرض من العجائب الفائقة الحصر ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي على الآيات ويشاهدونها، ولا يعبأون بها، والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من الآيات والعبر ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، ولا يلتفتون إليها، كأنهم كالأنعام لا يفقهون ولا يسمعون.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وألوهيّته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره تعالى، وعن ابن عباس أن أهل مكة قالوا: الله ربنا والملائكة بناته، وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده، والأصنام شفعاؤنا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده، وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده والمسيح ابن الله، ومنهم عُبَّاد القبور، والناذرون لها والمنتظرون النفع والضر منها، وهم اليوم أكثر من الدود.

﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملهم فلا يفلت منهم أحد ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها، وهو كالتأكيد لاستحقاقهم العذاب.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد وسمى الدين سبيلاً لأنه هو طريق الثواب، وفسرها بقوله: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ ببيان وحجة واضحة غير عمياء ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ أي أنا وأتباعي ندعو إلى الله على بصيرة ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي أنزهه تنزيهاً عن الشركاء فهو سبحانه واحد أحد، فرد صمد ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي وما أنا منهم في وقت من الأوقات، ولا أشرك به أحداً، إنما أنا مسلمٌ موحِّد.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة، وقيل: المراد نفي استنباء النساء ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ كما أوحينا إليك ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي أهل المدن، لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والقسوة، ونقل عن الحسن أنه قال: لم يُبعث رسولٌ من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجنّ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؟ أي المكذبين للرسل والآيات، فيتعظوا بما حاق بهم من أنواع العذاب ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الحياة الآخرة ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ

﴿ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيريَّة الحياة الآخرة، فتتوسلوا إليها بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف دلَّ عليه السياقُ، أي لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء، فإن من قَبْلهم قد أُمهلوا حتى يئس الرسل من النصر عليهم في الدنيا، ويئسوا من إيمانهم، لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف والبناء للمفعول، والظن بمعنى التوهم، والمعنى: أن مدة التكذيب، والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله تعالى، قد تطاولت بالرسل وتمادت، حتى استشعروا القنوط من إيمان أقوامهم، ويئسوا من صلاحهم، وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فجأة، أي لما بلغ الحال إلى الحدِّ المذكور، جاءهم نصرنا بغتة ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ إنجاءه، وهم الرسل والمؤمنون بهم ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي ولا يردُّ بطشنا وعذابنا عن القوم المجرمين إذا نزل بهم، ولا يخفى ما في الجملة من التهديد والوعيد، لمعاصري الرسول ﷺ من الكفرة المجرمين.

﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ أي في قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وفي قصة يوسف مع إخوته ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ أي لذوي العقول، المبرأة عن شوائب القذر والكدر، والركون إلى الحسِّ.

والعبرةُ: الحالةُ التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، ومعنى الألباب: العقول ﴿مَا كَانَ﴾ أي القرآن الكريم الموحَى إليك ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي يُختلق كما زعم الكفار ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاج إليه في الدين، أي ما من أمرٍ دينيٍّ، إلاَّ وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بالواسطة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يُصدِّقون تصديقاً معتداً به، وخُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك، وأما ما عداهم فلا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون بجدواه، والله الهادي إلى سواء السبيل، لا رب غيره، ولا يُرجى إلاَّ خيره، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يوسف»

* * *

فهرس المجلد الثاني

بعون الله تعالى تمّ انتهاء المجلّد الثاني ويليه المجلّد الثالث
ويبدأ بتفسير سورة الرّعد